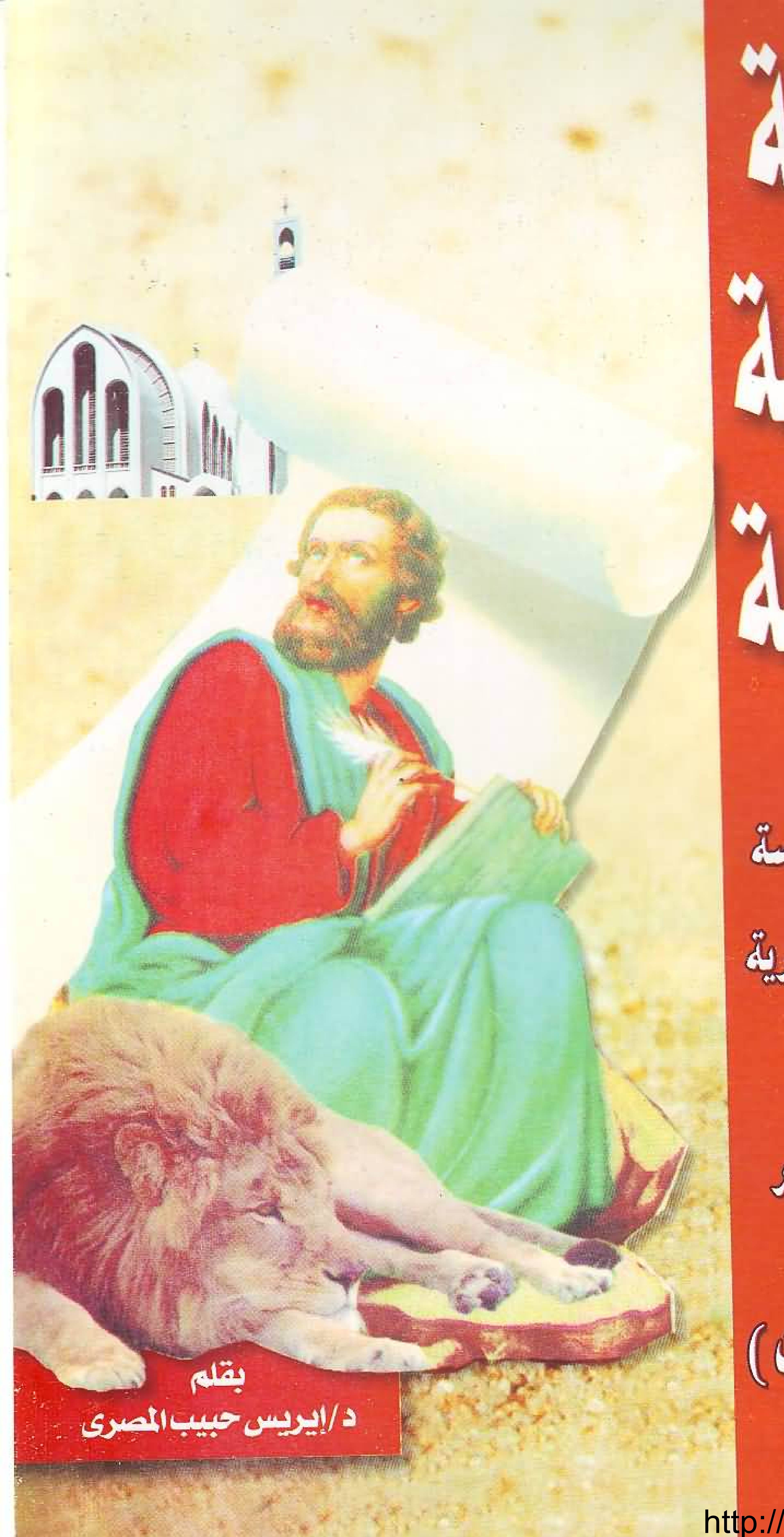
قصة الكنيسة القبطية

وهى تاريخ الكنيسة
الأرثوزكسية المصرية
التى أسسها
مارمرقس البشير

(الكتاب الثالث)



بقلم
د/إيريس حبيب المصرى

قصة الكنيسة القبطية

من سنة ٩٤٨ - ١٥١٨ م

الكتاب الثالث

بقلم المتنيحة
ايريس حبيب المصرى

الإهـــداء

إلى أخى أمين

الذى كان يضيق صدره بالتقصير ولا ينبذ ولا يقاطع المقصر .

الذى كد ليحقق آمال غيره وأفنى نفسه ليخفف عنهم آلامهم فضحى بآماله وتكتم آلامه ....

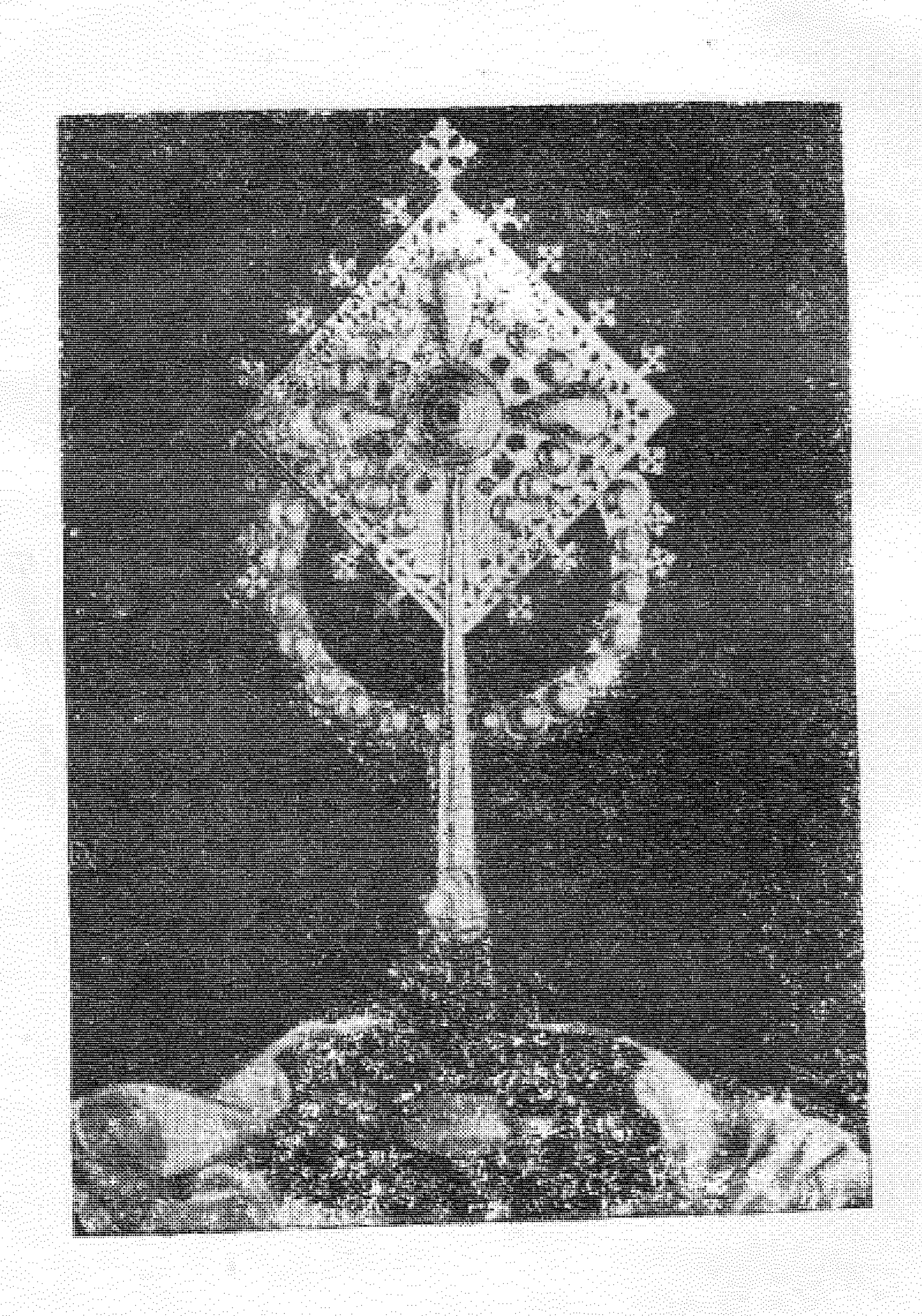
الذى أحب بدون استرسال فى الألفاظ وأبى أن يقبل فى يوم العرفان والشكر .



المؤلفة إلى جانب أخيها الكبير الدكتور أمين حبيب المصرى

عند خرائب كنيسة مارمينا العجايبى بمريوط يوم ١٥ بؤونة سنة ١٦٧٥ ش (٥٩/٦/٢٢) - وكان يوماً مشهوداً لأن الأنبا كيرلس السادس أقام فيه صلوات القداس احتفاء بذكرى الشهيد العظيم وسط جمع حاشـد . كما أنه كان اليوم المعتبر بدء عمل الترمـيم والتجديد الذى حققه

خليفة مارمرقس منذ السنة الأولى لارتقائه السدة البابوية .



صليب قبطى يتصدر قاعة الطعام للمدفعية الملكية الانجليزية
بمدينة نوريتش بشمال انجلترا .

الاعتراف بالفضل لذويه

كلما أنعم الله علىّ بالفرصة لاصدار جزء من قصة الكنيسة القبطية - الكنيسة التى سهرت عليها عنايته الأبوية العليا - أجدنى مغتبطة بشكره تعالى أولا وآخراً ؛ ثم بتقديم شكرى وعرفانى لجميع الذين مكنونى بمعاونتهم من السير فى سبيل استكمال قصة هذه الكنيسة الخالدة .

لهذا أتقدم بعظيم شكرى إلى حضرة أبينا المكرم القمص متى المسكين الذى يراجع كل ما أكتبه باهتمام بالغ ويوجهنى توجيهاته الأبوية الكريمة ويشجعنى على المضى فى الجهاد .

وأقدم كل الشكر إلى حضرة أبينا المكرم القمص بطرس سيفين لتفضله بأعارتى مجلدات « صوت الشهداء » لاستكمال بحثى .

كما أبعث بشكرى إلى الدكتور فرج روفائيل لتفضله باعطائى عدد كبير من الصور .

ولا يفوتنــى أن أبعث بالتحية اللائقة إلى روح أستاذى يسى عبد المسيح فى عليائها لأن ما تركه لى من كتابات عاوننى فى الكثير من الموضوعات .

كذلك أرفع تشكراتى إلى جميع الذين شجعونى وآزرونى وعلى رأسهم حضرة أبينا المكرم القمص بيشوى كامل .

ثم أكرر شكرى لله على عنايته وفى أشخاص من عاونونى .

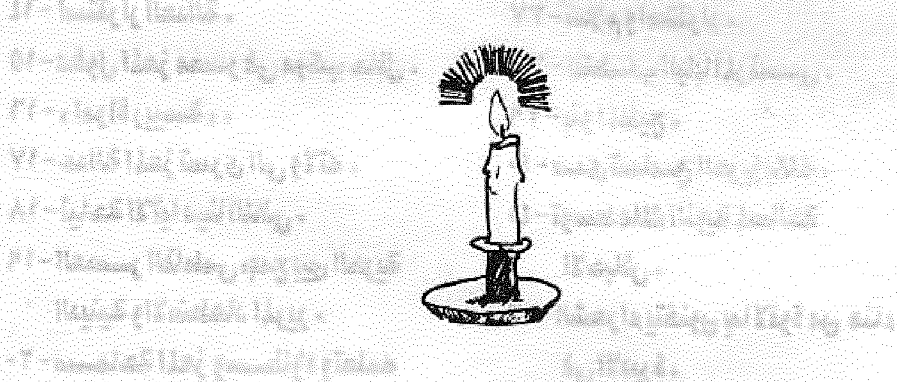
إيريس حبيب المصرى

القاهرة
Le CAIRE
Al KAHIRA
Pont kasr el Nil
كبرى قصر النيل
Rive Ancienne du Nil
القطائع
AL KATAI
العسكر
AL Askar
الفسطاط
AL Foustat
بابلون
BABYLONE
Le Nil
النيل
Pont Universite
Pont Abbas
Carte Schématique
1- Mosquee d'Amr
2- Residence des Gouvernours
3- Bassin
4- Mosquee Ibn Touloun
5- Mosquee El Azhar

خريطة تبين نمو مدينة القاهرة : فأقدم جزء فيها هو بابلون يليه الفسطاط ،فالعسكر ، فالقطائع ، فالقاهرة التى ما زالت تمتد وتتسع

تمهيـــــــد

أن قصة الكنيسة القبطية أشبه بانسياب النيل : فكما ينساب النهر الخالد وسط وادينا الرحيب هكذا تنساب قصة الكنيسة عبر الأجيال ؛ فيمكننا أن نصفها بتلك الكلمات التى وردت فى القداس الإلهى : « من جيل إلى جيل وإلى دهر الداهرين آمين » . ولكونها شبيهة بالنهر فهى تؤلف وحدة واحدة رغم ظهورها فى أجزاء - هى وحدة الروح القدس الحال فيها المؤازر لها الذى يلهم مختلف أعضائها بالجهاد فى سبيلها . ونستطيع هنا أن نستعير كلمات بولس الرسول حين قال بأننا أعضاء فى جسد ربنا يسوع المسيح فنقول بأن كل جزء من أجزاء قصة الكنيسة القبطية هو عضو فى جسدها الممتد منذ نشأتها إلى مالا نهاية له .



طور جديد : ا - الأنبا مينا الثانى

١ - كان الاخشيديون لا يزالون يحكمون مصر . وكان السلام مرفرفاً على البلاد من أقصاها إلى أقصاها . فازدهرت الأديرة بالرهبان الزاهدين المثقفين . وكان بين هؤلاء الرهبان ناسك اسمه مينا من بلدة صندلا ، جعل الله منه شخصية ممتازة : فقد جمع فى شخصه بين شجاعة الإيمان واستقامة الخلق وصدق العزيمة . ولما كان وحيد أبويه فقد اشتاق إلى تزويجه ليسعدا بتربية أولاده . وحين أطلعاه على رغبتهما لزم الصمت التام عملاً بوصية اكرام الوالدين . وقد فسر والداه هذا الصمت تفسيراً خاطئاً لأنهما توهما أن السكوت علامة الرضى . ومن ثم اتفقا مع أبوى كريمة من بنات أقاربهما وحددا يوم الإكليل . وظل مينا ملازماً الصمت خلال كل هذه الترتيبات ، بل استمر على صمته إلى أن تمت المراسيم الدينية . فلما انصرفت جموع المدعوين إلى حفلة العرس ، وانفرد مينا بعروسه ، أخذ يزين لها الحياة النسكية ويصف لها الرهبنة وصفاً بارعاً حتى استمالها إلى هذه الحياة القدسية العجيبة . وإذ أدرك أنها اقتنعت بأحاديثه أطلعها على ما كان ينتويه من الالتحاق بأحد الأديرة . فوافقته لساعتها على رغبته وأعلمته بأنها ستقتدى به فى التبتل والتعبد . فاتفق مينا إذ ذاك مع عروسه على أن يغادر بلدته فى الليلة عينها الى الصحراء ليلتحق بدير الأنبا مكارى الكبير وأن تبقى هى فى البيت الذى اختاره لها دون أن تبوح لأحد بما تم بينهما .

٢ - وفى صباح اليوم التالى ذهب الأهل والأصدقاء إلى بيت مينا وعروسه ليقدموا لهما التهانى والهدايا وليتمنوا لهما التوفيق من الله كما هى العادة المتبعة . وحين وصلوا إلى البيت ذهلوا إذ لم يجدوا مينا وسألوا عروسه عنه فأجابتهم بكلمة مبهمة قائلة « لقد خرج منذ بضع ساعات » فبقى البعض منهم مع العروس يواسونها على غياب عريسها الفجائى بينما خرج البعض الآخر يبحث عنه . ولما انقضت عدة أيام دون أن يعثروا له على أثر توهم أبواه وأقاربه بأنه قد انتقل من هذا العالم . فامتلأوا حزناً وأقاموا عليه مناحة عظيمة .

ولما انتهت مدة الحزن جاء أبوا العروس ليأخذاها الى بيتها ويزوجاها من رجل ثان ، ولكنها رفضت أن تذهب معهما وأصرت على عدم الزواج من أى رجل آخر قائلة « اننى راضية بنصيبى ،

وسأعيش في البيت الذى هيأه لى مينا الى أن نلتقى معاً أمام عرش النعمة » .

٣ - وانقضت ثلاث سنين سمع بعدها أبوا مينا أن ابنهما حى يرزق وأنه مقيم فى صومعة معروفة باسم دير نابا تابعة لدير الأنبا مكارى الكبير . وما كاد هذا النبأ يبلغهما حتى خفا إلى الصحراء وقصدا الى دير الأنبا مكارى لساعتهما فاذا بهما وجهاً لوجه مع ابنهما الذى ظناه ميتاً . فتهلل قلباهما ومجدا الله الرحيم الذى أسبغ نعمة رؤيته بعد هذه السنين الثلاث . كذلك تهللا لما سمعاه عن نسكه وفضائله ولما رأياه من عطف أبيه الروحى عليه . وكانت فرحة أبوى مينا بلقائه عميقة الى حد أنهما لم يعنفاه ولم يطلبا إليه العودة الى عروسه بل سلماه فى رضى وحبور الى الآب السماوى الذى اجتذبه اليه لخدمته . فعاش مينا فى غبطة وسكينة مع أبيه الروحى عدة سنوات . ثم أختار بعد ذلك أن يعيش سائحاً [١] .

٤ - وحدث عند انتقال الأنبا ثيئوفانيوس الى دار الخلود أن اجتمع الأساقفة والأراخنة للتشاور في انتخاب خليفة له . وكانوا هذه المرة على حذر للغاية . فبعثوا برسلهم الى الأديرة للتحدث الى الشيوخ المقيمين فيها والاسترشاد بهم فى هذا الموضوع الحيوى . وبين الشيوخ الذين قابلوهم معلم السائح مينا . فحدثوه فى تواضع وحرارة راجين منه أن يتقبل رعايتهم ويرضى بانتخابهم اياه . فأجابهم هذا الشيخ الروحانى قائلاً : « أن رياسة الكهنوت مسئولية خطيرة وكرامة عظمى لا يجوز أن ينالها الا من اكتملت رجولته وتميز بالعلم والفضل . فأصغوا لنصحى واعلموا أن من يليق لأن يعتلى هذه السدة الجليلة هو الراهب مينا » . وقبل رسل الأساقفة والأراخنة هذه النصيحة وتركوا الناسك الشيخ واتجهوا نحو الصومعة التى يقيم فيها مينا إذ ذاك ، وأخذوه قسراً الى الاسكندرية حيث أقيمت حفلة الرسامة فى الكنيسة المرقسية على الفور فأصبح الراهب مينا البابا الاسكندرى الحادى والستين باسم مينا الثانى سنة ٩٤٨ م .

٥ - وما أن تمت رسامة هذا البابا الزاهد حتى قام بزيارة راعوية فى أنحاء القطر المصرى . فلما وصل الى صندلا - مسقط رأسه - فرح به

---

(١) السواح فى الكنيسة هم المتوحدون الذين لايقيمون فى مكان واحد بل يتجولون فى الصحارى .

أهلها فرحاً عظيماً والتمسوا فيه أن يقضى بعض الوقت بينهم فلبى دعوتهم . وكان فى تلبيته حقيقة أعلنها الشاعر بقوله :

واذا أراد الله نشر فضيلة طُويت أتاح لها لسان حسود

وذلك أنه بينما كان منهمكاً في الحديث مع أهل بلدته المتزاحمين عليه والكل فرح مغتبط همس أحد الأشرار فى أذن أسقف من المصاحبين للبابا الاسكندرى : « ألا تقولون أنه لا يجوز للمتزوج أن يجلس على الكرسى المرقسى ؟ » وهز الأسقف رأسه بالايجاب . فعاد الدساس يقول : « كيف اذن وضعتم اليد على هذا وهو قد تزوج وزجته باقية عندنا الى الآن ؟ ! » وسرى هذا الحديث من أسقف الى أسقف . فلحظ الأنبا مينا الثانى هذا التهامس وما بدا على الوجوه من وجوم . وأدرك أن هناك أمراً أقلق بالهم وأدى الى هذا الارتباك الظاهر . فالتفت الى أحد اخوته فى الخدمة الرسولية مستفسراً عن الباعث اليه فأجابه أكبرهم سناً : « لقد عرفنا من بعضهم أن غبطتكم قد ارتبطتم برباط الزواج ، وهذا يخالف القانون الكنسى القائل عن البابا الاسكندرى أنه يجب أن يكون بتولاً ، فهل هذا الذى سمعناه صحيح ؟ » فابتسم الأنبا مينا في هدوء وأرسل لفوره فى طلب السيدة التى زفت اليه ، ولما جاءت التفت إليها وعرفها بنفسه ثم قال لها : « أرجوك أن تعلنى للآباء الأساقفة ولجميع الحاضرين معنا هنا ما جرى بيننا ليلة الزفاف » . فأطاعته وباحت للجميع بالسر الذى اتفقا عليه وكيف أنها – مع بقائها فى العالم – قد احتفظت ببتوليتها تنفيذاً لعهدها معه . وقد شهد جميع أهالى صندلا بصدق حديثها وباستقامتها التامة . فتعجب الجميع ومجدوا الآب السماوى الذى يهب أبنائه وبناته نعمة تؤهلهم لأن يرتفعوا فوق الطبيعة البشرية ويقتربوا من الطبيعة المثلى : طبيعة الحياة الروحية .

٦ – ولم يكد أنبا مينا الثانى يستقر فى الأسكندرية بعد اتمام زيارته الراعوية حتى غادر الاخشيد مصر قاصداً إلى دمشق ليقود الجيش فى حربه ضد خصوم العباسيين . على أن المنية وافته قبل الاشتباك فى المعركة . وكان له فى مصر ولدان : أكبرهما أبو القاسم وعمره إذ ذاك أربعة عشرة سنة ، وأبو الحسن وعمره ثمانى سنوات . وكان هذان الولدان تحت اشراف

خصي نوبى [1] اسمه كافور صاحب دهاء فكرى ومطامع واسعة . فأعلن نفسه وصياً على الولدين واتخذ لنفسه لقب الاخشيدى .ولكى يحفظ لنفسه خط الرجعة اتفق على أن يعطى كلا منهما أربعمائة ألف دينار ، ونصحهما بأن يستمتعا بشبابهما ويصرفا هذه الآلاف من الدنانير على لهوهما وملاذهما، ويتركا سياسة الدولة له . ففرحا بهذا الاتفاق إذ لم يكن أحدهما ليدرك معنى الحكم وتبعاته . فقضى حياتهما مغمورين غارقين فى اللهو والعبث وانتهيا من هذه الدنيا وكأنهما لم يكونا . بينما قبض كافور الاخشيدى على زمام الحكم بحزم ويقظة .

٧ - ولم تكن الإرادة الماضية بالميزة الوحيدة لهذا النوبى القوى الشكيمة بل أنه كان قائداً مقداماً ، فخاض المعركة التى كان الاخشيد ينوى خوضها وانتصر على خصومه . فوسع بذلك حدود مصر حتى شملت حلب وطرسوس . كذلك كان كافور ميالاً إلى البذخ والترف ولوعاً بالشعر والموسيقى . وقد اجتذب كرمه أعظم شعراء عصره صيتاً فتزاحموا على قصره وبالغوا فى مديحه بشعرهم .

٨ - ومن سوء الطالع أن الفيضان جاء ناقصاً ثلاث سنوات متوالية . فكانت النتيجة الحتمية لهذا النقص قلة المحصول وغلاء الأسعار فعمت المجاعة وكأن المجاعة لم تكن كافية فتضاعفت بكارثة الحرب التى شنها أهالى النوبة على كافور الاخشيدى رغم أنه من مواطنيهم ، وقد نجح النوبيون فى الفتك بأهالى الصعيد وباشاعة الذعر بينهم .

٩ - على أنه بالرغم من حروب النوبيين ، فقد ظل المصريون على ولائهم لكافور لما امتاز به من عدل وانصاف جعله يسوى بين رعاياه جميعاً على اختلاف أديانهم ومذاهبهم [2] . بل أن الوزير المقرب إليه كان قبطياً اسمه أبو اليمن قزمان بن مينا الذى ظل فى الوزارة طيلة حكم كافور . وقد دام هذا الحكم اثنتين وعشرين سنة : حكم كافور فعلاً خلال تسع عشرة منها بينما كان حاكماً بالاسم فى السنوات الثلاث الأخيرة من أيامه .

(١) يقول البعض أنه كان حبشياً - أنظر « تاريخ مصر فى العصرر الوسطى » (بالانجليزية) لستانلى لاين بول ص ٨٧ .

(٢) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بول ص ٨٧-٨٨ .

ومن أعظم الأدلة على انصافه وتقديره للكفايات بغض النظر عن دين أصحابها أن عمال الترسانات والمراكب كانت غالبيتهم من القبط . وكان القداس الإلهى يقام رسمياً على المراكب إذا لم يكن بحارتها من القبط فحسب بل كان إلى جانبهم الصناع الحاذقون لمختلف المهارات كالحدادين والنجارين وصانعى الأثاث وغيرهم .

كذلك كانت الأحتفالات بالأعياد المسيحية تقام بصورة رائعة على شاطئ النيل كما كانت المواكب الخاصة بها تسير فى الميادين العامة والشوارع الرئيسية [١] .

١٠ - وكان الهدوء النفسى المنبعث من استقرار العدالة خير معوان للأنبا مينا الثانى فى جهاده . فانصرف الى بناء الكنائس والمدارس الجديدة وترميم القديم منها وإلى حث الأولاد الصغار على الاقبال على ارتشاف العلم . فسارع الآباء والأمهات الى العمل بنصيحته وتعليم أبنائهم التعاليم الأرثوذكسية الصميمة .

١١ - وخلال هذه الفترة ظل الفاطميون يرقبون مصر بعينى الصقر . ولم يكن فشلهم فى الاستيلاء عليها مرتين كافياً لردعهم عن محاولة غزوها ثالثة : فقد كانت لقمة سائغة تشبع كل من يأتيها : لا تفرق بين لاجئ وباطش . فلما انتقل كافور الاخشيدى الى رحمة مولاه ترك لهم المجال واسعاً ، لأن الحاكم الذى خلفه فى الولاية على مصر كان صبياً فى الحادية عشر من عمره - هو أبو الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد الذى تولى ابن عمه الحسين بن عبيد الله الوصاية عليه . وكان ابن الفرات ملتزم الخراج شحيح اليد طماعاً مغتصباً . بينما أقيم صموئيل الذى كان مديراً لبريد الحمام الزاجل مسئولاً عن العمليات الحربية . الا أن بطش الأول وتراخى الثانى أديا الى تمرد رجال الجيش (وهم من الأتراك). فقد أمعنوا فى تمردهم الى حد أنهم دخلوا بيت ابن الفرات ونهبوه علانية. فانتشرت الفوضى. ومن العجيب ان الطبيعة ضاعفت من آلام الشعب المصرى إذ جاء الفيضان ناقصاً

(١) تاريخ الأمة المصرية - المجلد الرابع : مصر الأسلامية من الفتح العربى إلى الفتح التركى (بالفرنسية) لجاستون فييت ص ١٧٥ - ١٧٧ .

عن منسوبه فحلت المجاعة بالبلاد .وأدت المجاعة إلى انتشار الأوبئة كالمعتاد . لأن الناس ضعفت أجسامهم فلم تعد قادرة على مقاومة الجراثيم . وقد أفنت المجاعة والأوبئة ستمائة ألف شخص

١٢ - ولم تفت هذه الحالة الموجعة على المعز لدين الله الفاطمى فأدرك أن فرصته قد حانت وعهد الى جوهر الصقلى - قائد جيشه بغزو مصر . فزحف هذا القائد المحنك على وادينا الحبيب ، وانتصر انتصاراً حاسماً استغله بأن خل البلاد فى موكب فخم رائع فى الخامس من أوغسطس سنة ٩٦٤ م ش (١) . وفى الليلة عينها التى اقتحم فيها جوهر مدينة الفسطاط وضع الأساس لمدينة جديدة تكون عاصمة الفاطميين - أى للدولة الجديدة - وهى مدينة القاهرة - وحين بدأت معالم المدينة الجديدة تتضح أمامه رأى أن يزيدها رونقاً ببناء مسجد كبير قضى فى بنائه سنتين . وقد اشتغل فى تشييده وزخرفته مهرة الصناع والفنانين . وهكذا ضرب جوهر القائد عصفورين بحجر واحد لأنه أقام جامعاً منيفاً هو الجامع الأزهر ، وفى الوقت عينه فتح باب الرزق أمام العمال وأصحاب المواهب .

وقيام الدولة الفاطمية فى مصر له أهمية فريدة فى تاريخها الطويل . ذلك أنه لم يحدث قط أن تغير شكل الحكم بهذه السرعة وبهذه المسالمة . كما أن ظفر الفاطميين بمصر قد حولها تدريجياً من دولة تابعة الى دولة مستقلة وبالتالى أوصلها الى مكانة ساطعة بين مختلف الدول (٢) .

١٣ - ولما كان الخليفة المعز لدين الله الفاطمى رجلاً بعيد النظر ثاقب الرأى فقد أدرك أن خير وسيلة لتمهيد الطريق أمامه هى أشباع البطون الجائعة وتغطية الظهور العارية ، وبخاصة لأن المجاعة والأوبئة كانت قد فتكت بالشعب المصرى فتكاً ذريعاً . فجاء القائد جوهر ومعه مراكب مشحونة بالغلال لتوزيعها على الناس مجاناً . وقد نجحت خطة المعز اذ قد هدأت النفوس المتبرمة ولم يقم من بين المصريين من ثار على الفاتح غير البشموريين . وقد وجد هؤلاء الثوار فرصة لاعلان تمردهم بأن انضموا الى أحد الاخشيديين الذى تزعمهم . على أن جوهر الصقلى قمع الثورة بسرعة

---

(١) أو سنة ٩٧٢ م غ .

(٢) تاريخ الأمة المصرية ... المجلد الرابع : مصر العربية من الفتح العربى الى الفتح العثمانى (بالفرنسية) لجاستون فييت ص ١٩ .

عجيبة وبطش بالأخشيدين بطشاً عنيفاً كان فيه الكفاية لردع أى شخص آخر تسول له نفسه القيام بثورة . فاستتب السلام مرة أخرى فى وادينا الرحيب. ثم بعث جوهر الصقلى برسول الى جرجس ملك النوبة يذكره بالجزية التى كانت مفروضة على سلفائه ويعرض عليه أن شاء الاعفاء من الجزية أن يعتنق الاسلام . فرد عليه الملك النوبى بأن ارسل المبلغ المطلوب (١) .

١٤ – وكان المعز مثالاً يحتذى سار على منواله القائد جوهر اذ قد أتبع السياسة الحكيمة التى اختطها المعز فأحسن معاملة المصريين واتبع سبيل العدل والانصاف مع الجميع فلم يفرق بين قبطى ومسلم . وآنس الى أبى اليمن الذى كان وزيراً لكافور الأخشيدى . ولما وجده أميناً مخلصاً فى عمله ، خوله سلطة أوسع مما كان يتمتع بها فى عهد كافور . وكاد الفرح أن يكون شاملاً لولا أن النيل جاء ناقصاً فى فيضانه . وفى الوقت عينه تواطأ حكام سوريا مع أمير العراق ضد الحكم الفاطمى . فجمعوا جنودهم وغزوا مصر . وقد أفلحوا فى الوصول الى مشارف مدينة القاهرة التى حاصروها شهرين كاملين . الا أن القائد جوهر استطاع – بعد هذه الفترة – أن يضرب هؤلاء الزاحفين ضربة قاصمة اضطرتهم الى الرجوع على أعقابهم بسرعة حتى أن فلولهم تخاصمت ودب بينها دبيب الشقاق .

١٥ – وفى السنة التالية للغزو الفاطمى أحس جوهر الصقلى بأن السوريين يستجمعون قواهم ليعاودوا غزو مصر ، فبعث الى المعز يطلب اليه أن يحضر بنفسه الى القاهرة التى كان قد أتم بناءها ، وأن يتخذها له عاصمة بدلاً من تونس لكى يكون على مقربة من الأقطار السورية التى لا يطمع حكامها فى الانفصال عن مصر فحسب بل يراودهم الأمل فى أن يستولوا عليها أيضاً .فتكون اقامته فى العاصمة المصرية سبباً فى ارهاب السوريين وتوقيفهم عند حدهم . وقد رأى المعز الحكمة من هذا الطلب فعمل به وحضر الى مصر فى موكب حافل جمع بين وزرائه وقواد جيشه وجنوده . وقد سار بعض الجند خلفه وهم يحملون توابيت أسلافه الذين رأى أن تضمهم ارض مصر لاثبات سلالته الملكية وأصوله الوراثية (٢) .

---

(١) تاريخ مصر فى القرون ... لستانلى لاين بوول ص ١٠١ – ١٠٥ ، كنيسة الاسكندرية فى افريقيا لزاهر رياض ص ١٦٨ – ١٦٩ .

(٢) تاريخ مصر ... لستانلى لاين بوول ص ١٠٨ – ومن الطريف ما قيل عن المعز أنه أخرج سيفه أمام رجال الدولة وقال لهم « هذا نسبى » ،ثم أخرج صرة من الذهب نثره وقال :« وهذا دليلى »

وحالما وصل المعز الى الاسكندرية ارسل فى طلب القاضى وغيره من كبار رجال الدولة ، وألقى فيهم كلمة حركت مشاعرهم الى حد جعل البعض منهم يذرف الدموع تأثراً . وبعد وصوله بشهر واحد جلس يتسامر مع بعض الرهبان فى دير لهم بالجيزة ، وكانت هذه الزيارة الأولى مقدمة لزيارات متوالية .

١٦ - وكان الأنبا مينا الثانى - خلال فترة المجاعة - ينتقل من بلد الى بلد ليتفقد شعبه . فلما وصل الى محلة دانيال خرجت اليه امرأة « ربيسة » [١] من بلقونة لترحب به . وكانت غنية خائفة الرب . فألحت على البابا أن يمكث فى ضيافتها هو وحاشيته طيلة المجاعة . وكان الحاحها قوياً الى حد أنها اقنعته بالبقاء فعلاً . فقضى فى تلك البلدة سنة كاملة استطاع خلالها ان يبنى كنيسة « لطيفة » [٢] على اسم القديس مرقس كاروز ديارنا المصرية . وأقام فيها الشعائر الخاصة بتكريس الميرون بدلاً من اقامة هذه الشعائر فى دير الأنبا مكارى الكبير حسب العادة .

١٧ - أخيراً استقر السلام ، وحل الرخاء محل القحط والجوع : فكثرت المحاصيل ورخصت أسعارها . فهدأت النفوس . ولم يكن الرخاء المادى وحده هو السبب فى تهدئة النفوس ولكن العدالة دعمت هذا الرخاء لأن المعز كان منصفاً حسن المعاملة ، فاقتدى به جميع ولاته فى أنحاء القطر المصرى . وكان اهتمام هذا الخليفة بترسيخ قواعد العدل بالغاً الى حد أنه كثيراً ما ينظر في القضايا المعروضة بنفسه . كذلك أبدى اهتماماً بمنسوب النيل ومدى ارتفاعه وانخفاضه . فكان يذهب ليرقب مقياسه ويعلن بفمه مقدار ارتفاعه على الشعب . فآنس اليه المصريون والتفوا حوله [٣] .

---

(١) هذا هو التعبير الحرفى الذى أورده الأنبا ساويرس فى كتابه تاريخ البطاركة ، أفلا يدل هذا التعبير على أن المرأة القبطية استمتعت بمكانة ممتازة حتى فى العصور الموصوفة بعصور الظلام ؟ ثم ألا يكون الأسقف الأشمونى متأثراً بالتعبير القبطى « أرخن » فترجمه إلى « ربيسة » ؟ أن مثل هذه الاصطلاحات جديرة بالتأمل ولا يكفى أن نلقى عليها نظرة عابرة لأن فيها عبرة لكل مفكر .

(٢) هذه هى الكلمة الواردة فى كتاب الأنبا ساويرس لوصف الكنيسة وهى تعنى كنيسة صغيرة أو ضيقة .

(٣) تاريخ مصر . لستانلى لاين پوول ص ١٠٤ ، مختصر تاريخ .. لجاستون فييت جـ ٢ المبحث الثانى ص ١٨٠

ومن أقوى الأدلة على الاستقرار فى ذلك العهد ماتبقى عنه من آثار فنية . فلقد كان الفنانون والصناع القبط ذوى صيت حسن لمهارتهم ودقتهم وتفانيهم حتى أن الخليفة العباسى كان قد استعان بهم فى بناء مدينته التى اختطها فى شمال العراق والتى دعاها « سمارا » (اوسر من راى) . ومازالت هناك قطع فنية تحمل فى ناحيتها الصليب أو عبارة « باسم الآب والإبن والروح القدس » . بل ان الكتبة القبط كانوا يرسمون علامة الصليب خلف الأوراق الحكومية ذاتها [1] . كذلك استمرت المهارة الفنية تبدو فى النسيج خلال عصور متوالية . وكانت الدول الشرقية تستورد النسيج المصرى الذى كانت تطلق عليه كلمة « قباطى » (أو قبطى) - وفى هذه التسمية دليل على أن النساج كانوا من القبط .

كذلك كانت هناك صلات تجارية - ولو أنها على نطاق محدود - بين مصر وفرنسا وايطاليا . فقد كان هذان البلدان يستوردان المنسوجات وأوراق البردى من بلادنا [2] .

١٨ - وتأمل الأنبا مينا الثانى تطور الأحداث فمجد الآب السماوى الذى أبدل الضيق بالفرج وحول العسر يسراً ، وأحس بأن ثقلاً من الهموم والمخاوف قد زال عن قلبه حينما رأى اهتمام الخليفة بأمور الشعب ووجد هذا الاهتمام شاملاً الجميع بلا تفرقة . وفى غمرة هذا الفرح النفسى وهذا التمجيد الروحى انتقل الى مساكن النور فى هدوء ورضى بعد أن تولى رعاية شعبه سبعة عشر عاماً وأحد عشر شهراً [3] .

❖ ❖ ❖

(١) تاريخ الأمة ...المجلد الرابع :« مصر العربية ...» لجاستون فييت ص١٧٣ - ١٧٤
(٢) شرحه ص ١٧٤ .
(٣) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونيين نشره مع ترجمته إلى الانجليزية يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأوسولد بورمستر - طبعته جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٤٨ ، المجلد الثانى الجزء الثانى ص ١٢٤ - ١٣٥ .

ب - الأنبا ابرآم بن زرعة

١٩ - ان العصر الفاطمي الذى بدأ بخلافة المعز كان اعجب العصور التى اجتازتها مصر ذات التاريخ المليء بالأعاجيب . فقد عرف فيه المصريون معنى الحرية الدينية فى أوسع حدودها ، كما ذاقوا مر الإضطهاد فى سبيل العقيدة .

٢٠ - وكان المعز نفسه من اكثر الحكام تسامحاً وأوسعهم صدراً . وكان الى جانب سماحته سياسياً محنكاً ، ذا مقدرة على الأخذ بأسباب النجاح ، ودراية بحسن استغلال الفرص . كذلك كان واسع العلم ، له قوة عجيبة على استيعاب اللغات : فهو لم يبرع فى حفظ الشعر العربى فحسب وانما كان يجيد اليونانية والسودانية ولغة شمال افريقيا كما كان يلم بالسلاقونية ليتحدث بها مع العبيد الذين اقتناهم من شرق اوروبا . وكان خطيباً بارعاً الى حد أنه كان يستذرف الدموع من عيون سامعيه .. وفوق هذه المزايا فقد كان جواداً سخياً كما كان يحب العدالة والانصاف [١] .

ولأن المعز جمع فى شخصه كل هذه المزايا ، فقد تسابق الشعراء الى بابه لينعموا بجوده . وحدث ذات يوم ان شاعراً فقيراً حمل جرته ، وقصد الى النيل ليستقى منه الماء ، فرأى نفراً من الشعراء المعروفين متجهين نحو دار الخلافة وانضم اليهم لساعته . ولخوفه من ان يسبقوه فتفلت منه الفرصة ، دخل وهو حامل جرته . فانكر عليه الخليفة وجوده بينهم وسأله عن السبب الذى أتى لأجله فأجابه :

لما رأيت القوم شدوا رحالهم　　　الى بحرك الطامى اتيت بجرتى

فسر المعز بهذا الرد وامر رجاله بأن يملأوا له جرته ذهباً . فعارضه البعض منهم قائلين انه رجل ساذج لا يعرف قدر المال ، وأنه لابد موزعه على غيره . فقال الخليفة : « المال ماله يعمل به ما يشاء ، ومثلنا يعطى ولا يرجع فى العطاء » فملئت الجرة ذهباً ، وخرج الشاعر الفقير جذلاً ، وبالفعل وزع ما فيها على اهله واصحابه . فوشى به الى الخليفة الذى استدعاه وسأله عما فعل بالمال ، فأجابه لساعته : « يجود علينا الخيرون

---

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پول ص ٩٩

بمالهم ونحن بمال الخيرون نجود » . وقد اعجب المعز بهذا الجواب لأنه يتضمن معنى العرفان بالجميل مقترناً بالصدق والعطف على الآخرين . فأمر رجاله بأن يملأوا له الجرة عشر مرات . فأخذ الشاعر الفقير المال وخرج وهو يقول : « الحسنة بعشرة امثالها » .

٢١ - وكان من نتائج هذا الكرم وهذا التسامح ان انتشرت الطمأنينة فى البلاد . ومن الغريب ان هذه الطمأنينة أدت الى تقاعس القبط عن انتخاب البابا الاسكندرى الثانى والستين ، فظل الكرسى شاغراً سنتين كاملتين ... وبعد هذا التراخى الطويل ، افاق بعض الأساقفة من غفوتهم فبعثوا الى الأراخنة للاجتماع بهم فى كنيسة أبى سرجه .

٢٢ - وكان يعيش فى مصر فى ذلك الوقت تاجر سريانى اسمه ابرآم بن زرعة ، اشتهر بالزهد والعفاف ، وكان يكثر من التصدق على الفقراء والمعوزين ومن اخنى عليهم الدهر .

وحدث انه بينما كان الأساقفة والأراخنة مجتمعين فى تلك الكنيسة ، ان دخلها ابرآم هذا للصلاة . وكان شيخاً وقوراً تسطع على وجهه النعمة الإلهية فما أن وقع عليه نظر احد الأراخنة حتى مال على من كان بجانبه من الأساقفة وقال له : « انظر يا أبى الى هذا الشيخ الوقور . الا يذكرك منظره بقول داود فى المزمور : مثل الطيب الكائن على الرأس الذى ينزل على اللحية - لحية هارون النازلة على جيب قميصه ؟ » [1] الا يكون هذا الشبه بينه وبين الصورة التى رسمها لنا المرنم عن هارون تعبيراً عن جدراته بالخلافة المرقسية ؟ « وتفرس الأسقف فى ابرآم ووافق الأرخن على رأيه ثم أعلنه جهاراً ، فصادف رضى من جميع الحاضرين ، وأمسكوا به ، وهتفوا بصوت واحد : « اكسيوس » (أى مستحق) . وسارعوا به الى الاسكندرية حيث اقيمت حفلة الرسامة فى الكنيسة المرقسية ، وبها اصبح ابرآم بن زرعة الخليفة المرقسى الثانى والستين سنة ٦٨٤ ش (سنة ٩٦٨ م) .

٢٣ - وأول خدمة أداها الأنبا ابرآم بعد رسامته هى توزيع نصف ما يملك من مال وعقار على الفقراء والمعوزين ، والنصف الآخر على الكنائس

---

(١) مزمور ١٣٢ فى الأجبية (١٣٣ فى الكتاب المقدس)

والأديرة ، عملاً بأمر الفادى الحبيب « بع كل مالك واتبعنى » [١] .

٢٤ - وقد شاءت العناية الإلهية ان ينعم القبط وباباهم بالهدوء والطمأنينة ، لأن المعز - الى جانب عدالته وسماحته - كان ولوعاً بالعلوم الروحية ولشدة ولعه بهذه العلوم كان يدعو رجال الدين - من مسلمين وقبط ويهود - ليتناقشوا امامه بكل صراحة ، معلناً ان حرية الرأى لها حرمتها ، وان على المتناقشين ان يبادلوا الحجة بالحجة من غير غضب ولا خصام . بل ان ولعه بهذه العلوم جعله لا يكتفى بهذه المجادلات التى سمح بأن تجرى امامه وإنما دفعه ايضاً إلى أن يجعل للأزهر هدفاً مزدوجاً : الأول كونه جامعاً يؤدى فيه المسلمون الصلاة والثانى جعله معهداً تدرس فيه العلوم الدينية . كذلك كان أول من جعل لطلاب العلم فيه اعانات مالية وعينية تشجيعاً لهم على الدرس والاجتهاد [٢] .

وكان في ديوان المعز رجل يهودي اسمه ابن كلس [٣] استضاف واحداً من بنى قومه اسمه موسى واستصحبه عدة مرات الى دار الخلافة . فطلب ذات يوم من المعز أن يسمح له بمجادلة الأنبا ابرآم . وامتلأت نفس الخليفة رغبة فى ان يسمع ما قد يدور من الحوار بين البابا المرقسى وبين هذا اليهودي ولكنه فى الوقت عينه لم يرد ان يحرج الأنبا ابرآم الذى كان يحبه ويجله فقال له : « ان شئت يوماً ان تحاجج اليهود بنفسك أو بواسطة من تختار من الأساقفة فتعال الى دارى وناقشهم امامى . « وأدرك البابا الاسكندرى الرغبة الخفية التى حاول الخليفة سترها خلف هذه الكلمات المليئة ذوقاً وأدباً فاتفق معه على الموعد المناسب ثم اصطحب معه الأنبا ساويرس اسقف الأشمونين (كاتب سير البطاركة) وقصد إلى دار الخلافة فى الساعة المتفق عليها . ولما دخل إلى حضرة المعز وجد الوزير ابن كلس ومعه موسى . وبعد تبادل التحية جلس الحبران القبطيان فى صمت. ومرت لحظات قال المعز بعدها : « تكلم ايها البابا الوقور أو امنح رفيقك الأذن فى الكلام » . فالتفت الأنبا ابرآم الأسقف الأشمونى وقال له : « تكلم يا بنى ، ولتمنحك النعمة الإلهية حكمة من لدنها » . فقال الأنبا ساويرس :

(١) مرقس ١٠ : ٢١

(٢) القاهرة : تاريخها وآثارها لعبد الرحمن زكى ص ١٧ .

(٣) اعتنق الاسلام فيما بعد .

« ليس من اللائق ان اتحدث إلى يهودى فى حضرة الخليفة » . فاحتد موسى قائلاً : « انك تهيننى على مسمع من أمير المؤمنين إذ تستنتج أننى جاهل » . اجابه الأنبا ساويرس : « ان قدمت لك الدليل على جهلك فلا تغضب » . وهنا قال المعز :« لا داعى للغضب فى المناقشة لأن الحرية مكفولة لكل منكم ليعبر عن عقيدته بصراحة ولا حرج عليه » فقال الأسقف الأشمونى : « لست انا الذى يستنتج جهلكم بل أن نبياً عظيماً نال كرامة خاصة من الله هو الشاهد عليكم » فسأل موسى : « ومن يكون هذا النبى ؟ » اجابه : « انه اشعياء الذى قال عنكم : عرف الثور قانيه ، والحمار معلف صاحبه ، اما اسرائيل فلم يعرفنى » [1] فسأل المعز : « أهذه كلمات اشعياء النبى فعلاً ؟ » اجابه موسى : « نعم يا مولاى »، فاستطرد الأنبا ساويرس يقول : « ترى ان نبياً عظيماً من انبيائكم قد اعلن بأن الحيوانات اكثر فهماً منكم » . وسر المعز بهذه الدعابة ، ورأى ان يكتفى بها دون الخوض فى جدال أو مناقشة .

٢٥ - وقد استثار هذا الحادث حقد كل من ابن كلس وصديقه موسى على الأنبا ابرآم وشريكه فى الخدمة الرسولية الأنبا ساويرس فقررا الانتقام . وحدث ذات يوم ان عثر موسى على الآية المقدسة التى يقول فيها المسيح له المجد : « من كان له إيمان كحبة الخردل فانه يقول لهذا الجبل انتقل فيكون » [2] . وفرح موسى لعثوره على هذه الآية إذ توهم انه يستطيع بواسطتها ان يقضى على القبط . ومن ثم بادر بالذهاب الى قصر المعز وقال له : « مكتوب فى انجيل النصارى أن من له إيماناً كحبة الخردل فقط فهو يستطيع ان ينقل الجبل . فحق لنا ان نطالبهم باثبات حقيقة إيمانهم . فان لم يستطيعوا وجب عقابهم بوصفهم شهود زور على الله تعالى . «ورأى المعز ان كلام موسى منطقى صحيح » فبعث فى طلب الأنبا ابرآم ، وحالما رآه ابتدره بالسؤال : « احقاً ان لديكم آيه فى الإنجيل تنص على ان من له إيماناً لا يزيد على حبة الخردل يستطع بهذا الايمان ان يزحزح الجبال ؟ » فأجابه البابا الجليل : « نعم - لدينا هذه الآية » . قال المعز : « انه يوجد داخل حدود دولتى آلاف المسيحين ومئات الآلاف .

---

(١) أشعياء ١ : ٣ .

(٢) مرقس ١١ : ٢٣

افلا يوجد بينهم واحد يستطيع ان يزحزح جبل المقطم ؟ ثم انك انت رئيســهم ، فيجب ان تكون قادراً على عمل مثل هذه المعجزة . فان لم تستطع انت ولا غيرك ان تبينوا لنا حقيقة هذه الآية فعلاً فسأبيدكم بحد السيف » . وكان هذا الطلب عجيباً الى حد اذهل الأنبا ابرآم فلم يحر جواباً بل غاص فى تأملاته بضع ثوان ، انتبه بعدها والتفت الى المعز طالباً اليه ان يمهله ثلاثة ايام . فوافق المعز على امهاله المدة المطلوبة .

٢٦ – وما ان خرج البابا الاسكندرى من حضرة الخليفة حتى ذهب على الفور الى كنيسة السيدة العذراء (الشهيرة بالمعلقة) وارسل فى طلب الأساقفة الموجودين ببابلون اذ ذاك والأراخنة وعدد من الرهبان كانوا قد جاءوها من شيهيت لقضاء بعض لوازم الأديرة . وحالما اكتمل عقدهم اعلمهم بما طلبه اليه المعز ، وقال لهم : « علينا بالصوم والصلاة هذه الأيام الثلاثة التى استمهلته اياها ليتراءف الله علينا بنعمته ويهيىء لنا طريق النجاة » . ثم طلب الى الرهبان ان يبقوا فى الكنيسة ، اما الآخرون فمن شاء منهم البقاء بقى ، ومن شاء الذهاب الى بيته ذهب ماداموا جميعاً سيصلون ويصــومون بنفس واحدة . وقد صــام الجميع وصلوا بالفعل حتى اليوم الثالث . وفى فجر ذلك اليوم ، غفا الأنبا آبرام غفوة قصيرة ، رأى خلالها السيدة العذراء وسمعها تقول له : « ماذا بك ؟ » اجابها : « انت تعلمــين يا سيــدة السمائيــين والأرضيين » . قالت له : « لاتخف ايها الراعى الأمين : فلن انسى الدموع التى سكبتها هنا فى كنيستى ، ولا الأصوام والصلوات التى قدمتها انت وشعبك . فأخرج الآن من الباب الحديدى المؤدى الى السوق ، وعند خروجك منه ستجد امامك رجلاً بعين واحدة حاملاً جرة ماء ، فأمسك به لأنه الرجل الذى ســتتم المعجزة على يديه » . وما ان فاهت السيدة العذراء بهذه الكلمات حتى توارت عن عينى الأنبا ابرآم الذى صحا من نومه وقام فى الحال فخرج من الباب الحديدى المؤدى الى السوق ، ورأى الرجل الذى اشارت اليه والدة الإله ماشياً امامه . وللوقت امسك به ، وادخله الباب الحديدى ، ثم اغلق الباب واطلعه على كل مـا جـرى بينه وبين المعز ثم ما اصدرته اليه السيدة العذراء من أمر» وعندها قال الرجل : « اغفر لى يا ابتى فانى رجل خاطئ ، ولكن ما دامت ام النور هى التى حكمت علىّ بأن اؤدى هذا الواجب العظيم فأنا اضع نفسى فى خدمتك » .

وهنا سأله الانبا ابرآم عن اسمه وعن السبب فى انه سائر فى السوق فى مثل هذه الساعة المبكرة بينما الناس لا يزالون نياماً . فاجابه الرجل : « ان اسمى سمعان الخراز . وانا اشتغل بدباغة الجلود ولكنى اقوم فى مثل هذه الساعة من كل صباح لاملأ قربتى ماء ، واوزع الماء على الكهول والمرضى الذين اقعدتهم الشيخوخة او المرض عن المقدرة على استجلاب الماء لانفسهم . ولما انتهى من خدمتى هذه ، أعيد قربتى الى البيت وأذهب الى عملى عند صاحب مصنع الدباغة حيث أعمل حتى المساء . وعند غروب الشمس أخرج مع بقية الاجراء آكل القليل لأسد به رمقى ثم انصرف الى الصلاة . وقد رجل سمعان الخراز بعد ذلك من الأنبا ابرآم بأن يكتم حقيقة أمره طالما هو حى على هذه الارض .

٢٧ - ولما انتهى من حديثه قال للبابا الاسكندرى : « أصعد يا أبى المكرم الى الجبل الذى يشير عليك الخليفة به ، وخذ معك رجال الدين والشمامسة والأراخنة ، واجعلهم يحملون عالياً الإنجيل والصلبان والشموع الطويلة الموقدة والمجامر مملوءة بخوراً . واطلب الى الملك وحاشيته أن يصعدوا معكم . فتقفون أنتم على ناحية من الجبل ، بينما يقفون هم على الناحية المقابلة لكم . وسأقف أنا خلف غبطتكم مباشرة وحين يستقر بكم المقام ، أقرأ ما تشاء من الانجيل ثم ردد « كيرياليسون »[1] « انت وكهنتك احدى وأربعين مرة . وأصمت بعد ذلك مدى لحظات ، ثم اسجد أنت وكهنتك معاً أمام العلى ، وكرر هذا العمل ثلاث مرات ... وفى كل مرة تقف فيها بعد السجود أرسم الجبل بعلامة الصليب فسترى مجد الله » .

وأحس البابا الاسكندرى بأن ثقلاً قد انزاح من على صدره فعاد إلى الخليفة يبلغه استعداده للصعود إلى الجبل لنقله . وصعد المعز مع جنوده وعدد من رجاله المختارين الى الجبل ، ووقف مقابل الانبا ابرآم ورجاله الذين بدأوا صلواتهم حالما استقر بهم المقام . وعمل البابا الاسكندرى بنصيحة سمعان الخراز تماما . فحدث أنهم - حين سجدوا بعد الصلاة والاسترحام - انخفض الجبل ، فلما وقفوا أرتفع الجبل . وكرروا الصلوات والسجود ثلاثاً فكان الجبل ينخفض ويرتفع كلما سجدوا ووقفوا بعد سجودهم . وحين رأى

(١) كلمة يونانية قبطية معناها « يا رب ارحم » .

المعز الجبل يهتز ، ولم يكن يتوقع ذلك ، هتف قائلاً « عظيم هو الله تعالى . وتبارك اسمه » ثم إلتفت الى الانبا ابرآم وقال له : « لقد أثبتم أن إيمانكم إيمان حى حقاً » .

٢٨ - وكان من الطبيعى أن تحدث هذه الآية شيئاً من الاضطراب فى صفوف من شاهدوها جميعاً . فلما هدأت نفوسهم ، واستعادوا طمأنينتهم ، وبدأوا ينزلون من الجبل ليعودوا الى منازلهم ، تلفت غبطة البابا الاسكندرى يمنة ويسرة باحثاً عن سمعان الخراز ولكنه لم يجده . ولم يعثر أحد عليه بعد ذلك . ويروى التقليد أن ملاك الرب اختطفه الى السماء .

٢٩ - وفيما هم نازلون من الجبل ، التفت المعز الى الانبا ابرآم وقال له : « والآن اطلب منى ما تشاء فأقضيه لك » . أجابه هذا البابا الحكيم : « لا طلب لى الا الدعاء الى الله أن يطيل حياتك ويمنحك النصر على جميع أعدائك » . لكن هذا الجواب لم يقنع المعز إذ ألح فى أن يعرف رغبات الانبا ابرآم الذى قال : « ما دمت تلح علىّ فى أن أعلن لك رغبتى ، فأسمح لى بأن أقول اننى أتوق الى اعادة بناء كنيسة القديس مرقوريوس (أبى السيفين) ببابلون إذ قد هدمها بعض السوقة واستعملوا ما بقى منها كمخزن للقصب . كذلك أود ترميم جدران الكنيسة المعلقة إذ قد أصابها بعض التصدع » . فما كاد البابا الاسكندرى يعرب عن رغبته هذه حتى أمر المعز أحد كتبة الديوان بأن يكتب مرسوماً بختم الدولة يخول للأنبا ابرآم الحق فى عمل كل ما طلبه . ثم أمر بأن تصرف النفقات اللازمة من خزانة الدولة . ولقد أخذ البابا المرقسى الخطاب الذى يخوله حق البناء ، ولكنه اعتذر عن أخذ المال . فازدادت منزلته قدراً عند الخليفة .

٣٠ - وحين قرئ المرسوم الذى أصدره المعز أمام باب كنيسة أبى سيفين ، تجمع الرعاع محتجين صاخبين معلنين أنهم لن يسمحوا لأحد بأن يعيد بناء الكنيسة . وسمع الخليفة بما حدث فغضب غضبة مضرية دفعته الى أن يمتطى صهوة جواده ، ويذهب على رأس جيشه الى بابلون ، إلى البقعة التى يبغى الانبا ابرآم العمل فيها . وما أن وصل اليها حتى أمر البنائين بالعمل أمامه وتحت اشرافه وحين رأى الرعاع هذا الحزم من الخليفة المعز وقفوا صامتين ينظرون اليه وكأن على رؤوسهم الطير . الا أن شيخاً أعماه التعصب وحفزه على استفزاز الشعب ضد القبط ، رمى بنفسه فى الحفرة

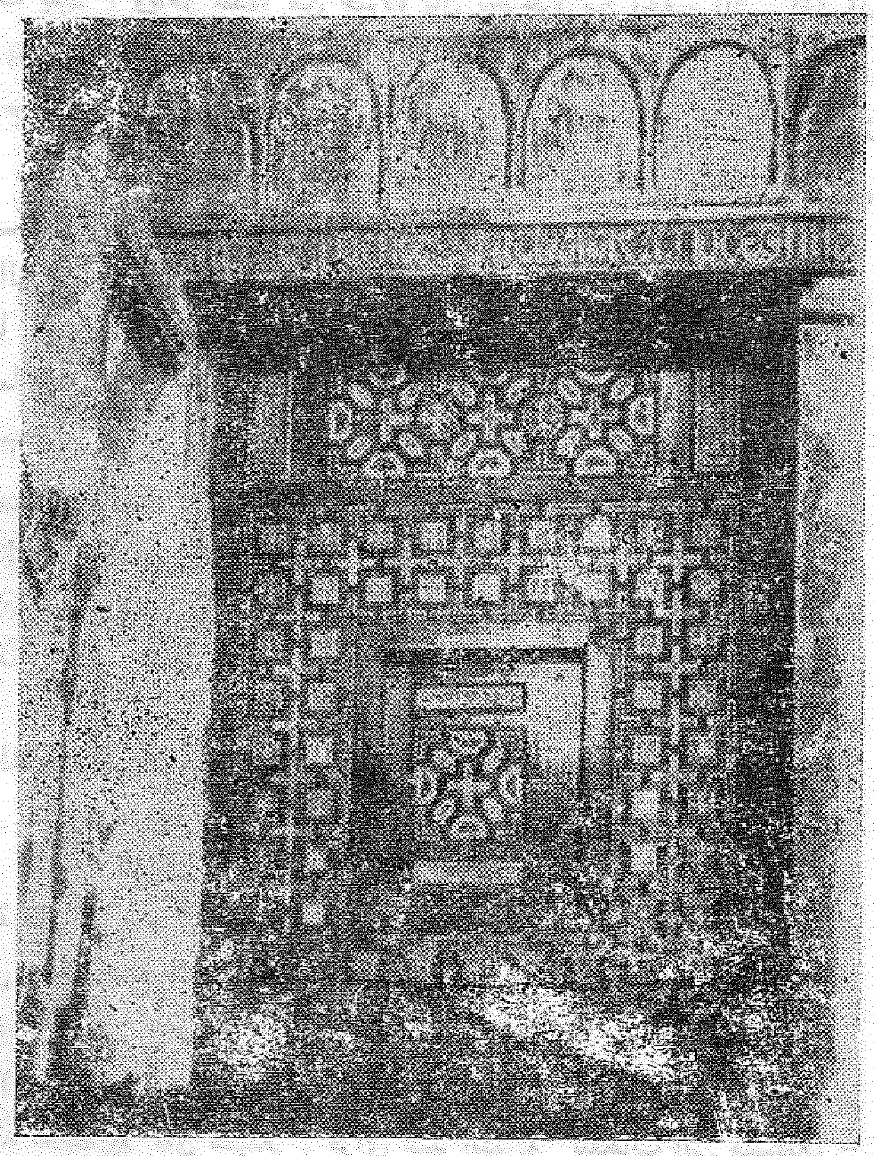
المهيأة لوضع الأساس وهتف بأعلى صوته : « أنه لأهون عليّ أن أموت اليوم من أن أرى الكنيسة وقد أعيد بناءها » . وهنا قال المعز : « دعوه اذن فى الحفرة ، وأرموا فوقه الأساس لكى يموت ويريحنا » . ولكن الانبا ابرآم تشفع فيه ، ورجا من المعز أن يعفو عنه بحرارة واستعطاف مما جعل الخليفة يلين ، ويأمر عدداً من جنوده بأن يخرجوه من الحفرة التى كان قد رمى بنفسه فيها .

٣١ - وكان تجديد بناء كنيسة مرقوريوس (أبى سيفين) فاتحة عهد من البناء والتجديد ، فتجدد عدد من الكنائس وبخاصة فى الاسكندرية [١] . وقد استنفذت كل هذه الأعمال ما لدى الانبا ابرآم من مال الى درجة أنه لم يتمكن من دفع الألف دينار التى كان من المتفق دفعها الى الاسكندريين . فتفاوض معهم ، واسترضاهم بأن دفع لهم خمسمائة دينار .

٣٢ - ولم يتجل تقدير المعز للقبط فى السماح لهم بترميم الكنائس وتجديدها فحسب ، وإنما بدأ أيضاً فى أنه عين قبطياً متولياً للخراج أولاً فى مصر ثم فى فلسطين . وكان هذا القبطى هو أبو اليمن الذى كان قد حظى بالتقدير العظيم من كافور الاخشيدى . وكان أبو اليمن جديراً بهذه الثقة لأنه كان عفيفاً محباً للفقراء والغرباء تقياً مستقيماً . على أن ابن كلس الوزير اليهودى الذى كان قد تواطأ مع صديقه موسى على الايقاع بالقبط حين طلب إليهم نقل جبل المقطم كان لا يزال متربصاً لهم . ولم يرتدع هذا الوزير اليهودى حين رأى المعجزة تتم بالفعل ، بل راح يبحث عن وسيلة أخرى لمطاردة القبط . ولما لاحظ الثقة التى يتمتع بها أبو اليمن عند الخليفة قال له : « أن أبا اليمن مستقيماً الى درجة تستطيع معها انتدابه ليتولى عنك جمع الضريبة المقررة على الفلسطينين » . وقد صادف هذا الكلام صدى فى نفس المعز فأمر بانتدابه فعلاً .

٣٣ - وكان أبو اليمن غنياً جداً يملك تسعين ألفاً من الدنانير . ولم تكن له عائلة إذ كان متبتلاً . فرأى عند انتدابه للذهاب الى فلسطين - أن يعهد بماله الى الانبا ابرآم نفسه ، فسلمه إليه قائلاً : « احتفظ بمالى هذا عندك . وان شاء الله أن أموت بعيداً عن وطنى الحبيب ، فأرجو منك

(١) السنكسار الأثيوبى - ترجمة الى الانجليزية واليس بودج - طبع فى كامبردج سنة ١٩٢٨ جـ ٢ ص ٣٢٦ .



حجاب الهيكل بكنيسة القديس مرقوريوس (أبى سيفين)
ببابلون (مصر عتيقة)

أن تتفضل بتوزيعه على الفقراء واليتامى والغرباء والمسجونين تكفيراً عن ذنوبى » . ثم سافر مستريح البال .

٣٤ - وقد نشط أبو اليمن فى جباية الضرائب فنجح فى أن يجمع من الفلسطينين مائتى ألف دينار . فعول على العودة الى مصر ليسلمها الى الخليفة المعز الذى ائتمنه على جمعها . غير أنه - قبل أن يغادر فلسطين - اندلعت نار الثورة فيها على المعز ، فقد هاجمه القرمطيون (١) فى سوريا وفلسطين . وخشى أبو اليمن أن ينتصر الثوار على جنود الخليفة ، فقصد إلى جبل طابور - خارج حيفا - وكان هناك دير يقع فى أعلى هذا الجبل . فدخل الدير وتفاهم مع رئيسه ثم أودعه المال الذى جمعه ، ورجا منه أن يحتفظ به حتى يصفو الجو فيتسنى له أن يسلم الأمانة الى المعز . وبعدها خرج أبو اليمن وأخذ يتنقل بين مختلف البلاد الفلسطينية ، ويعمل على تهدئة الخواطر ، فنجح بنعمة الله فى تهدئة النفوس الثائرة .

٣٥ - وفي تلك الآوانة رأى ابن كلس الوزير اليهودى أن يعاود الدس للقبط ، فأتهم أبا اليمن لدى المعز بالانضمام الى القرمطيين . ومن عجب أن المعز صدق رواية هذا اليهودى ، فأمر باعتقال أقارب أبى اليمن جميعاً . غير أنه لما كان حبل الكذب قصيراً وحامله لابد مشنوقاً به ، فإن ثورة الفلسطينين لم تخمد نيرانها حتى عاد أبو اليمن إلى القاهرة حاملاً المائتى ألف دينار التى كان قد أودعها رئيس دير جبل طابور . فاحتدم غيظ المعز على خيانة ابن كلس المتكررة وأمر بالقائه فى غياهب السجون ، وأفرج عن أقارب أبى اليمن معتذراً لهم عن الظلم الذى وقع عليهم .

وقد اشتهر عدد من رجال عائلة أبى اليمن فى خلافة الفاطميين وأدوا خدمات جليلة لوطنهم ولكنيستهم ، ومن هؤلاء : الشيخ أبو المكارم بن حنا الذى اشتهر بتجديد قباب بيعة أبى نفر بالحمراء ؛ (٢) والشيخ صنيعة الملك

(١) القرمطيون يرجعون بأصلهم إلى عبد الله بن ميمون القداح (من القدس) ويرجع بنسبه إلى على بن أبى طالب ، قام زعيمهم بثورة في كل البلاد الخاضعة للعباسيين فى عهد المعتضد ثم عرج على فلسطين وسوريا - أطلق عليه لقب « قرمط » استخفافاً بقصر قامته .

(٢) كان بحى الحمراء (في ظاهرة القاهرة) عدد من الكنائس هدمت كلها فى عهد السلطان برقوق المملوكى

أبو الفرج ؛ والشيخ علم السعداء أبو اليمن ؛ والشيخ أبو الفرج بن أبى اليمن [١] .

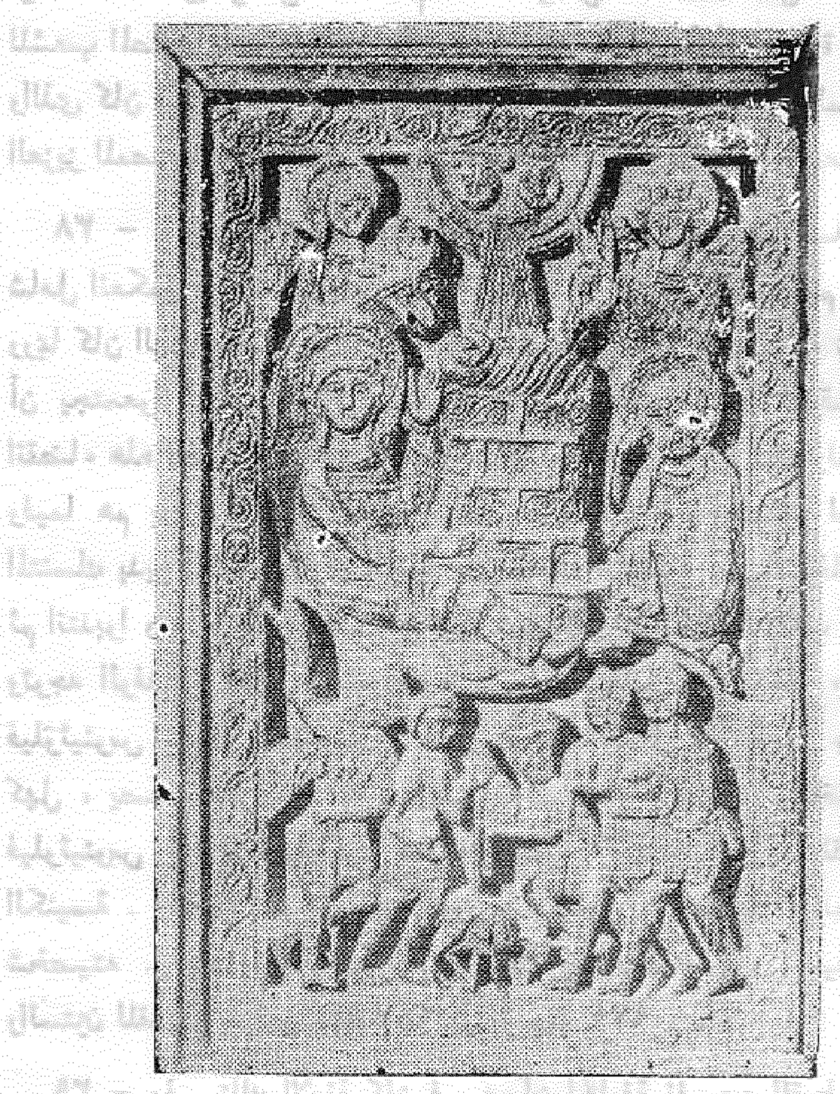
٣٦ - وفى خلال التوتر والمعارك التى دارت على الحدود المصرية - الفلسطينية انقطعت أخبار أبى اليمن ومواطنيه من بنى مصر عن أهلهم . وكانت القوات المصرية قد أحرزت نصراً ساحقاً على الثوار حتى أن زعيمهم سقط صريعاً فى ساحة القتال . وانتشرت الشائعات - كما يحدث عادة فى أيام الحروب - ومن بينها أن أبا اليمن راح ضحية الثوار. وانتظر الأنبا ابرآم لعل رسولاً يأتيه من البلاد المشتعلة بالحرب ليبلغه أخبار أبى اليمن - انتظر من دون جدوى . فتوّهم أن الشائعات حقيقة ، وأن أبا اليمن قد لاقى ربه . وعلى ذلك نفذ وصيته بتوزيع ماله على الفقراء وذوى الحاجة وعلى الكنائس والأديرة . فلما عاد أبو اليمن إلى مصر قصد لفوره إلى المعز وقدّم له المال الذى جباه باسمه . ثم توجه بعد ذلك إلى الدار البابوية لينال بركة الأنبا ابرآم ويسأله عن المال الذى استودعه إياه . ودهش البابا الاسكندرى حين رأى أبا اليمن داخلاً عليه ، إذ خيل اليه أنه رأى رجلاً أتياً من عالم الأوراح ... واستفهم منه عن كل ما جرى له . ثم أعلمه بما سمعه من أن الثوار قتلوه ، وأنه - استناداً إلى هذه الأخبار - قد وزّع ماله حسب الرغبة الى كان قد أبداها له قبل رحيله إلى فلسطين . فقال أبو اليمن : « أنى شكور لك يا أبى الجليل لاهتمامك بخلاص نفسى لأن مالى الذى تكرمت بتوزيعه ترحماً علـىّ سيكون تقدمة مقبولة أمام عرش النعمة » .

ثم حل السلام محل الثورة والحرب ، فامتلأ قلب الأنبا ابرآم طمأنينة على شعبه الأمين . وكانت أيامه على هذه الأرض قد بلغت منتهاها رغم أنه لم يكن قد قضى على السدة المرقسية غير ثلاث سنين ونصف . ولكن هذه المدة - على قصرها - كانت مليئة بالأحداث حتى لكأنها دهر [٢] .

---

(١) راجع دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس جـ أ ص ٧٣ .

(٢) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين نشره مع ترجمته إلى الانجليزية يسـى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأوسولد برمستر - المجلد الثانى - الجزء الثانى ص ١٣٥ - ١٥٠ ، كتاب تاريخ الأمة القبطية ص ١٠٩ - ١١٠ ليعقوب نخلة روفيلة .



نحت على الخشب صوّر به الفنان ميلاد المسيح له المجد يزين حجاب كنيسة أبى سرجة ببابلون (مصر عتيقة) ويرجح أنه يرجع إلى القرن التاسع .

٣٧ - وكان لتعاقب الليل والنهار أثره إذ قد خلا الكرسى المرقسى . وقد خلا هذا الكرسى المجيد فى وقت خلا فيه عرش البلاد أيضاً . على أن العزيز بالله اعتلى عرش أبيه المعز بهدوء وانسجام . وكان حاكماً ممتازاً : فارساً ، باسلاً ، وسيماً ، كما كان صياداً ماهراً وقائداً جسوراً . وفوق هذا كله فقد كان مرهف المشاعر ، ميالاً إلى السلام ، ذا طبيعة سلسة ، يمقت اراقة الدماء وينفر من التخاصم [١] . ومثل هذا الملك كان منحة إلهية للشعب المصرى المسكين الذى كان قد ذاق الأمرين تحت نير الولاة الظالمين ، والذى كان متلهفاً الى تلك الحرية اللازمة لكل انتاج فنى أو علمى . فهيأ العزيز للمصريين هذه الفرصة السعيدة وأتاح لهم أن يتنفسوا الصعداء .

٣٨ - وابتهج القبط بهذه الفرصة ، وسعدت نفوسهم بسلام داخلى شامل انعكس فى ما أنتجوه من روائع فنية لا تزال تشهد بذوقهم الرفيع . وربما كان الهدوء الذى سرى إلى قلوبهم سبباً فى أنهم ظلوا ستة شهور دون أن يجتمعوا للتشاور فى اختيار من يجلس على السدة المرقسية وبعد انقضاء هذه الفترة ، اجتمع الأساقفة والأراخنة فى القاهرة ليتداولوا معاً . وفيما هم يوازنون مزايا بعض الرهبان الصالحين ذكر بعضهم اسم يؤنس المتنسك بدير الأنبا مكارى الكبير ، ووافقت الأغلبية على انتخابه . ومن ثم انتدبوا وفداً منهم ليذهب إلى برية شيهيت ويأتى بهذا الراهب الفاضل . وتوجه الوفدإلى الدير حيث نجحوا فى استصحاب يؤنس هذا مع تلميذه فيلوثيئوس . ولما وصلوا به ، أمعن الأساقفة النظر فى يؤنس وايقنوا انه كهل ، يصعب على من فى سنه تولى القيادة ، فآثروا أن ينتخبوا تلميذه فيلوثيئوس إذ توسموا فى هدوءه ووقاره الكفاءة اللازمة لقيادة دفة الكنيسة . واتفقوا على رسامته دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة البحث عن شخصيته . فبادروا بالسفر إلى الاسكندرية حيث رسموه الخليفة الثالث والستين للقديس مرقس سنة ٦٨٧ ش (سنة ٩٧١ م) .

٣٩ - وفى تلك الآونة كان فى ديوان الخليفة نفر من القبط يتمتعون بنفوذ واسع . وكانوا جميعاً من عائلة واحدة هى عائلة بنى المطيع . على أن هؤلاء الرجال كانوا مستبدين . إستغلوا مركزهم لفرض سلطانهم حتى

---

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بول ص ١١٩ .

على البابا الاسكندرى . فاشترطوا عليه أن لا يرسم أسقفاً على أية ايبارشية من غير موافقتهم . ومع ما فى هذا الشرط من غرابة ومن خروج على القوانين الكنيسة ، فقد نزل الأنبا فيلوثيئوس على رغبتهم . فكان لرضاه هذا أوخم العواقب . ذلك لأن بنى المطيع لم يكن لهم من هدف غير تكديس المال . فكانوا لا يقيسون المرشح للأسقفية إلا بمقدار ما يستطيع تقديمه لهم من مال وهكذا أهانوا كرامة الكهنوت إذ جعلوا السيمونية (١) قاعدة التعامل . ومن المحزن أن خليفة مارمرقس ترك الحبل على الغارب لبنى مطيع فلم يحاول أن يردعهم ، ولم يتراجع عن تسليمه لشرطهم ، بل لم يذكرهم بأن تدخلهم فى الرسامة غير مشروع من أساسه .

٤٠ - وقد ضاعف المأساة فى هذا الموقف المحزن أن القبط فى تلك الآوانة كانوا يستمتعون بالحرية التامة (٢). ومقابل تراخى البابا الاسكندرى أبدى الخليفة العزيز همة عالية فى نشر روح التسامح والتفاهم فكان كثيراً ما يدعو الأنبا ساويرس (كاتب سير البطاركة) ليتناقش مع القاضى ابن النعمان . فكان كل منهما يستعرض أهم تعاليم دينه فى حضرة الخليفة ورجاله . فيستمتع الجميع لهذه المناقشات فى هدوء ورضى . ولم يقف تسامح الخليفة عند هذا الحد ، بل أنه كان يرفض أن يلحق الأذى بالمسلم الذى يعلن انضمامه لدين المسيح (٣) . كما أن أحد هؤلاء المتنصرين - واسمه الواضح بن الرجاء - أتيحت له الفرص لأن يتناقش ويلقى الخطب اللاهوتية علناً أمام المسلمين والقبط على السواء (٤) . وكان الواضح صديقاً حميماً للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين وكاتب سير البطاركة . فليس بمستغرب أن القبط انتجوا فى العصر الفاطمى - وبخاصه فى أيام خلافة العزيز - من روائع الفن ما يشهد لهم بأنهم كانوا جديرين بأجدادهم

---

(١) السيمونية نسبة إلى سيمون الساحر الذى أراد أن يبتاع المواهب الإلهية بالفضة - راجع أعمال الرسل ٨ : ١٨ - ٢٠ .

(٢) بل أن نفوذ الخليفة الفاطمى كان قد أمتد إلى اليمن فخطب له على منابر اليمن فى صلوات الجمعة - راجع « مصر ورسالتها » لحسين مؤنس ص ١١٥ .

(٣) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پول ص ١٠٩ .

(٤) تاريخ المسيحة الشرقية (بالانجليزية) لعزيز سوريال عطية ص ٨٩ .



نحت على الخشب صوّر به الفنان معجزة أشباع الآلاف بالخمسة خبزات والسمكتين - وهو أيضاً يزين حجاب كنيسة أبى سرجة ببابلون (مصر عتيقة)

ويجدر الانتباه إلى أن الفنان رتب الجالسين حول مائدة - مما يدل على النظام الذى كان سائداً فى العصر الذى تمت فيه هذه الصورة .

الفراعنة . وقد ترعرعت فنون عديدة اذ ذاك كالنسيج ، والحفر على الخشب والعاج والمعادن المختلفة ، ونحت المرمر . كذلك شيدت الكنائس والأديرة فى مختلف البلاد المصرية (١). فكان لهذا التسامح الملكى الكريم أثره فى حفظ توازن الأمور القبطية - إذ أن الأنبا فيلوثيئوس الذى بدأ بالرضى على أعمال بنى مطيع انتهى إلى مشاركتهم طمعهم ومكاسبهم وقمع باقتناء الكماليات المريحة لجسمه دون أن يعبأ بما يعانيه بعض أبنائه من فقر وحاجة، أو ما قد يواجهونه من مشاكل . ومثل هذا الانزلاق أمر طبيعى : لأن من اعتاد أن يهادن الرذيلة انتهى به الأمر إلى استحسانها ، ومن دأب على السعى وراء الفضيلة إزداد تعلقاً بها وسعياً وراءها - ولا عجب فقد قال المسيح له المجد : « من له يعطى ويزاد » (٢) .

٤١ - على أن الآب السماوى الذى وعد أن يكون مع كنيسته إلى الانقضاء قد تداركها بواسع رحمته فهيأ السبيل لإعادة الصلات بين الكنيستين القبطية والحبشية . وقد تم التصالح بين الكنيستين نتيجة لشفاعة ملك النوبة فقد بعث ملك الحبشة بخطاب إلى جرجس ملك النوبة يصف له فيه بالتفصيل الثورة التى قادتها ملكة الحاموية ضده ، وانتصارها عليه ، والخراب الذى أحدثته فى بلاده . وبعد هذه التفصيلات رجا ملك الحبشة من أخيه ملك النوبة أن يشفع فيه وفى قومه عند البابا الاسكندرى ، معترفاً له بأنه هو وشعبه مقتنعون بأن كل هذه الويلات قد أصابتهم عقاباً لهم على مسلك آبائهم مع أسقفهم الذى كان قد رسمه لهم الأنبا قزما الثالث - خليفة مارمرقس الثامن والخمسون (٣). واختتم ملك الحبشة خطابه هذا بقوله :« لهذا كله أتوسل اليك أن تشاركنا آلامنا حباً فى الله ، واكراماً للإيمان الواحد الذى ندين به - اكتب إلى الأب البطريرك، وأرجو منه يحلنا ويحل شعبنا من رباطات خطايانا ، وأن يصلى لأجلنا ليبدد الله تعالى كل هذه البلايا التى حافت بنا . كذلك استعطف لنا الآب

---

(١) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسيه) الجزء الثانى المبحث لجاستون فييت ص ١٨١ ومما تجدر الأشارة اليه هنا أنه تخلفت عن هذا العصر خريطة مصنوعة من الحرير ومرسومة بالذهب والألوان- راجع أيضاً تاريخ مصر فى العصور ... ص ١١

(٢) مت ٢٥ : ٢٩ .

(٣) راجع سيرته فى الجزء الثانى لهذا الكتاب .

البطريرك ليرسم لنا أسقفاً رأفة بنا حتى لا تتلاشى المسيحية من بلادنا ، إذ لنا الآن ما يربو على ستين سنة هائمين بلا راع . فقد رفض خمسة من الباباوات الاسكندريين المتعاقبين على السدة المرقسية أن يرسموا لنا أسقفاً . وأدى حرماننا هذا إلى نقص متزايد فى عدد الكهنة لأنه لم يوجد بيننا من يملك سلطان رسامة كهنة جدد عند نياحة أي كاهن . فكانت النتيجة وبالاً علينا وتدهورت حياتنا الروحية [1] .

وما أن اطلع جرجس ملك النوبة على خطاب العاهل الحبشى حتى بادر بارسال خطاب على جناح السرعة إلى الانبا فيلوثيئوس ، وصف له فيه ما يعانيه الأحباش عن آلام مريرة ، وأضاف اليه توسلاته لإنقاذهم برسامة أسقف لهم وقد كملت مراحم الله لأن هذا البابا الاسكندرى صحا إلى مسئوليته هذه المرة ورأى أن ينتقى راهباً صالحاً ليرعى الشعب الحبشى المتوجع ، وانتهج المنهج الصحيح المنصوص عليه فى القوانين الكنسية بدلاً من اتباع القاعدة التى كان سائراً عليها منذ اتفاقه مع بنى المطيع . فانتخب راهباً ورعاً اسمه دانيال مترهباً بدير الأنبا مكارى الكبير ، ورسمه وأرسله لفوره إلى بلاد الحبشة . وحالما وصل الأسقف الجليل إلى مقر كرسيه سعى جهده إلى تهدئة الخواطر وكانت للصلوات الحارة التى رفعها إلى عرش النعمة استشفاعاً فى شعبه أثرها الكبير ، فاستطاع الملك أن يقهر الثوار ويعيد السلام إلى بلاده . وهكذا تجمع شمل الإخوة المتفرقين ، وعادت السكينة إلى الكرازة المرقسية بتآزر أبنائها وتآلفهم فى القطرين المصرى والأثيوبى .

٤٢ - وكان للحياة الوادعة التى ثبت العزيز أركانها أثرها فى النفوس ، فزادتها نشاطاً وبهجة . و انصرف المصريون الى تجاراتهم وزراعتهم وصناعاتهم فى أمان ، وبالتالى ازداد دخلهم فعم الرخاء ودفع الجميع الضريبة بسهولة ورضى . وبنى الأغنياء قصوراً فخمة ، وشجعوا الفنون الجميلة ، واستمتعوا بما فى الحياة من جمال . ولما كان القبط ذوى نزعة روحانية فقد هيأت لهم هذه الفرصة أن يرضوا نزعتهم هذه ببناء الكنائس العديدة وتجميلها ، وبتجديد الأديرة وزخرفتها ، ثم بوقف العقارات عليها

(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ ١ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

عن سعة . وأحاطوا هذه الكنائس وهذه الأديرة بالحدائق فكان الخلفاء يستمتعون بجمال هذه الحدائق إذ كانوا يقضون فيها أيام الراحة والاستجمام . وقد تغنى الشعراء والمسلمون بالأيام الهنيئة بين الطبيعة الرائعة فى تلك الحدائق . وأبرز هؤلاء الشعراء الشابشتى أمين المكتبة الملكية التى انشأها الخليفة العزيز ، أبو بكر محمد الخالدى ، أبو عثمان سعد الخالدى ، أبو الفرج الاصفهانى ، ابراهيم بن القاسم الكاتب الملقب بالرشيق الذى قال يتشوّق إلى مصر :

هل الريح أن سارت مشـرقة تسرى ... تؤدى تحياتى إلى ساكنى مصر
فما خطرت إلا بكيت صـبابة ... وحملتها ما ضاق عن حمله صدرى
لأنى إذا هبت قبولاً بنشرهـم ... شممت نسيم المسك من ذلك النشر
فكم لى بالأهرام أو دير نهية ... مصايد غزلان المطايد والقفر
وفى بئر دوس مستراد وملعب ... إلى دير مارحنا إلى ساحل البحر [1]

وأعظم الأيام التى قضاها هؤلاء الشعراء فى الأديرة كانت تلك التى يحتفل فيها الناس بأعياد ذكرى الشهداء والقديسين [2] . يتقاطر فيها الجماهير إلى الكنائس أو الأديرة فيمضون نهارهم بين الصلاة ثم الاستراحة تحت ظلال الأشجار الوارفة ، ويصغون فى المساء الى سيرة الشهيد أو القديس يرتلها الكهنة والرهبان . وكانت هذه السيرة تنتهى عادة بمواكب غاية فى الروعة [3] .

ولقد كان الانسجام بـين العزيز بالله وأمرائه وبين القبـط بالغاً الى حد أن الوزير اليهودى بن كلس عبر عن حقده فى أبيات شـعرية ساخرة قال فيها بأن من يبتغى الربح عليه أن يعتنق المسيحيـة فهى دين الحق ودين

---

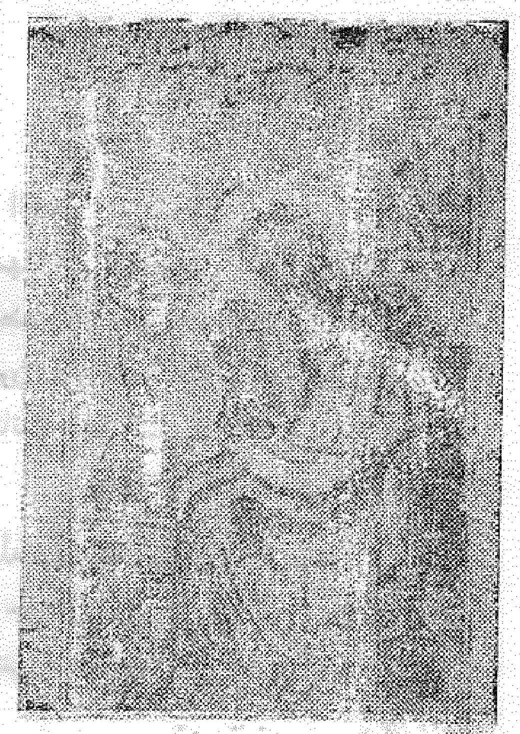
(١) الخطط للمقريزى جـ ١ ص ٣٧٠ .

(٢) راجع مقال الدكتور عزيز سوريال عطية نشره بالانجليزية فى مجلة جمعية الآثار القبطية عام ٩٣٩ ص ١ - ٢٨ وعنوانه : « بعض الأديرة المصرية نقلاً عن مخطوط الشابشتى لم ينشر بعد وهو (كتاب الديارات) » .

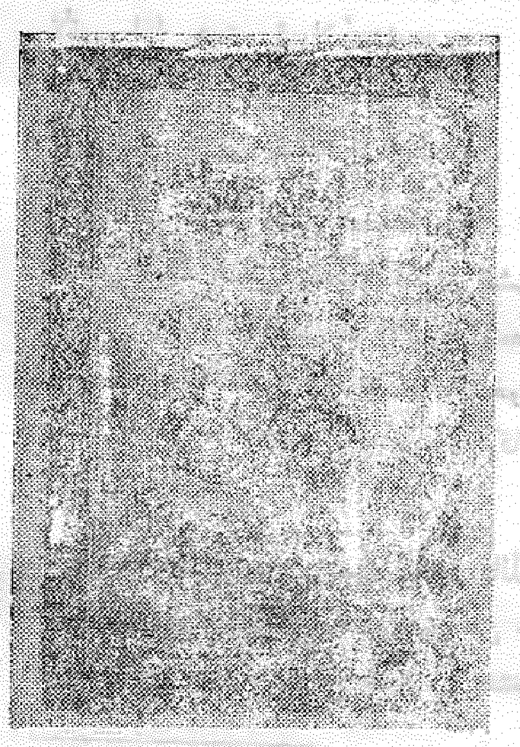
(٣) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٠٨ - ١٠٩ ، ولا تزال هذه العادة سائدة للآن إذ تتقاطر الجموع على الكنائس والأديرة فى أيام الذكرى الخاصة بالقديسين والقديسات ولا يعرف روعة هذه الزيارات المباركة إلا من أسعدته العناية الإلهية بتأديتها بنفسه .

المغانم معاً ! على أن مثل هذه السخرية لم تؤثر اطلاقاً فى نفس العزيز بالله بل أن كلس هذا جاء ذات يوم يشتكى بأن شخصاً ما كتب بعض الأبيات فيها تعريض بهما . أجابه العزيز : « ان نصف الإهانة خاص بنا فاشترك معنا فى نصف المسامحة [(١)] .

ومن بين الذين نالوا منزلة سامية فى عينى هذا الخليفة طبيب قبطى اسمه ابو الفتح بن مقشر . فقد بلغ التعاطف بينهما حداً بعيداً حتى أن الطبيب حين تماثل للشفاء من مرض كاد يفتك به بعث اليه الخليفة برسالة غاية فى الرقة . وقد أمتد العمر بابن مقشر فاستمر يمارس مهنته بوصفه طبيباً للخليفة فى أيام الحاكم بأمر الله أيضاً [(٢)] .



صـــور فريدة على رقـع بالألوان الزاهية محفوظة على احدى صفحات مخطـوطات المتحف القبطى وترجع إلى القرن العاشر الميــلادى غالباً وتمثل القديس يوحـــنا الرسول يحمل إنجيله



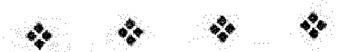
منظر يمثل صفحة من مخطوط قبطى قديم وقد زيـن بزخارف نباتية وهندسية بالألوان والتذهيب بدقـة رائعـة ، وقـد استعملت تلك الزخارف فى تزيـين كثير من صفحات المصاحف الأسلامية القيمة الهامة .

---

(١) تاريخ الأمة المصرية ... ص ١٨٨ ، ١٩٤ .
(٢) تراث القاهرة العلمى والفنى فى العصر الأسلامى لعبد الرحمن زكى ص ٢٢.

وفى العصر القبطى انتقلت شعلة الفكر والتأليف واقتناء المؤلفات الى الديورة والكنائس القبطية القديمة وتبوأت مكانة الهياكل المصرية فى العناية بجمع نفائس المخطوطات والمصنفات الدينية وقلما يخلو دير أو كنيسة من مكتبة زاخرة بكثير من الكتب الخطية على اختلاف انواعها - وكان يوجد فى كل دير عادة فئة خاصة من الرهبان كانت مهمتها القيام بالنسخ وتجليد المخطوطات . وقد فطن علماء الغرب منذ أزمان بعيدة الى أهمية تلك المخطوطات القبطية فتهافتوا الى اقتناء أكبر مجموعة منها ونشطوا فى حركة جمعها بكافة الطرق والوسائل وبذلك تسرب الكثير من كنوز تلك المخطوطات إلى أمهات مكتبات العواصم الأوربية والأمريكية وكلها تعتبر تحفاً فنية نادرة وخصوصاً فيما تحويه من سمو الموضوعات وعلى الأخص الدينية واللاهوتية منها كما أن الكثير من صفحاتها تزدان برسوم رائعة بالألوان الجميلة الزاهية المزينة بالليقة بدقة وإتقان يأخذ بالألباب .

ومن مميزات العصر القبطى التى تسجل بالفخر والتقدير الكبير أنه العهد الذى بدأت تظهر فيه صناعة الكتب لأول مرة فى تاريخ العلم . إذ فيه بدأت فكرة تكوين المخطوط من صفحات بأرقام مسلسلة وقبلا كانت تستعمل اللفائف البردية أو المدارج والأسفار أو الشقاقة أو العظام أو قطع الأحجار أو اللوحات الخشبية . وكان من نتيجة انتشار الكتب والمخطوطات أنها مهدت لنشر العلوم على اختلافها وبدأت فكرة الثقافة والمعرفة تسرى فى جميع أنحاء العالم وانتشرت المكتبات كثيراً على أثرها (١) .



٤٣ - وكان العزيز - إلى جانب تسامحه وكرمه - ولوعاً بالعلم يرغب رغبة أكيدة فى أن يرفع الشعب بتعليمه وتثقيفه . وقد وجد أن خير وسيلة للوصول الى هدفه فى إنشاء جامعة داخل الأزهر الذى كان قد تم بناؤه قبيل دخول المعز مدينة القاهرة . وهكذا أسس أقدم جامعة لا تزال

---

(١) عن مقال للدكتور رؤوف حبيب مدير المتحف القبطى السابق نشره فى جريدة وطنى يوم الأحد ٢٦ أكتوبر ١٩٦٩ بعنوان « المصريون أول من أبتدع المكتبات ومثلها الأعلى مكتبة الاسكندرية » .

تحمل مشعل العلم حتى الآن . ثم أنه كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم ممن وفدوا من جميع نواحى العالم الاسلامى [١] .

كذلك أقر العزيز الرخاء بتشجيعه الصناعات . ومن أبرز الأدلة على عنايته بهذا النوع من الإنتاج النسيج المعروف بالديبقى (نسبة الى ديبق من قرى دمياط) . والديبقى نسيج من الحرير الملون فيه رقمات منسوجة من الذهب الخالص حتى لقد كان الذهب فى القطعة الواحدة يبلغ ثمنه خمسمائة دينار عدا الحرير والغزل [٢] .

ولقد حكم العزيز واحداً وعشرين عاماً ، ولو أنه حكم ضعف هذه السنين لتضاعف فرح المصريين قاطبة لأنه دفع بهم إلى طريق الرخاء دفعة صادقة نادرة المثال . ولقد روى لنا المؤرخون كلمة جاءت على لسان هذا الخليفة الكريم تبين لنا مدى اهتمامه بالشعب وهى : « اننى أرغب فى أن أرى الرخاء فى كل بيت ، وانه ليسعدنى أن أرى اليوم الذى أستطيع فيه أن أعطى كل شعبى نصيبه من الفضة والذهب والحجارة الكريمة والبيوت والحقول [٣] .

واستنشق القبط نسيم الحرية فى غبطة وطمأنينة رغم ما كان يملأ افئدتهم من الألم لضعف باباهم . فاستلهموا من ماضيهم الأمل لمستقبلهم ، وذكروا أنفسهم بالأمثلة التى لا تحصى فى تاريخهم عن العناية الإلهية الشاملة . فظلت ثقتهم فى مصير كنيستهم راسخة تدعمها ثقتهم فى الله تعالى .

على أن الأنبا فيلوثيئوس رغم تراخيه قد بنى فى الجهة الشمالية من سطح كنيسة القديس شنودة ببابلون كنيسة باسم القديس فلتاؤوس تشغل ثلث مساحة الكنيسة الأصلية . كذلك شيدً مقصورة على اسم السيدة العذراء ملاصقة للخورس القبلى بتلك الكنيسة [٤] .

٤٤ – وحدث فى يوم من أيام الآحاد أن كان الأنبا فيلوثيئوس يؤدى

---

(١) القاهرة : تاريخها وآثارها لعبد الرحمن زكى ص ١٧ .

(٢) الخطط للمقريزى جـ١ ص ٢٢٦ .

(٣) مختصر للمقريزى جـ ١ ص ٢٢٦ .

(٤) الكنائس القبطية القديمة فى مصر (بالانجليزية) لألفرد بطلر جـ ١ ص ١٤٨ .

شعائر القداس الإلهى فى كنيسة مارمرقس بالاسكندرية . وبينما هو يرفع القربان المقدس إذ به يصمت فجأة . وكان أسـقفان يحضران الصلاة معه ، فظنا أن موجة من النسيان طغت عليه فأسكتته ، ورددا على مسمع منه الكلمات التى كان قد وصل إليها فى الصلاة ، لكنه ظل صامتاً رغم هذا . فكررا الكلمات ثانية ووجداه على صمته . وعندها تقدم الأنبا مرقس أسقف البهنسا - وأكمل القداس عوضاً عنه . وفى الوقت عينه حمل الشمامسة البابا الاسكندرى إلى غرفته إذ وضح للجميع أنه مريض .

ولما انتهت الشعائر الدينية صعد الأساقفة والكهنة وأراخنة الشعب الى الدار البابوية للأستفسار عن صحة الأنبا فيلوثيئوس . فوصف لهم بالتفصيل الرؤيا التى رأها والتى أسكتته مما زاد فى مرضه ، إذ لم يتفوه بكلمة واحدة بعد ذلك . وبعد أيام قليلة انتقل إلى دار الخلود بعد أن قاد دفة الكنيسة مدى أربع وعشرين سنة وثمانى شهور (١) .

أما الأنبا مرقس أسقف البهنسا الذى أكمل القداس الإلهى حيث تركه البابا فيلقب بالكاتب . ويقول عنه القمص ميصائيل بحر أنه كان حاضراً مع بابانا عند كتابة الرسالة المبعوثة رداً على استفسار البطريرك أثناسيوس الانطاكى . ويمكننا الاستنتاج من تلقيب الأنبا مرقس بالكاتب ومن وجوده ساعة كتابة الرسالة أنه هو الذى كتبها ولو أن أحداً لم يذكر هذا . وسواء أكان الأنبا فيلوثيئوس البابا هو الذى كتبها أو كتبها الأنبا مرقس الكاتب فهى تدل صراحة على أن الآباء كانوا محافظين على العقيدة الأرثوذكسية التى تسلموها عاملين على توضيحها لمن يسألهم عن الإيمان الذى فيهم . فقد جاء فى هذه الرسالة : « ... أعلم أن اللّه الابن الكلمة بتجسّده خلق له جسداً فى بطن العذراء واتحد به وكان ذا نفس ناطقة عاقلة وهو البشر التام الذى اتخذه من غير نقص واتحد به الكلمة بوحدانية اقنومية لا تنحل ... والقول بأن اللّه تألم ومات وإنما بجسده وإرادته من أجلنا قول صحيح ومستقيم ... لذا فان الآلام والموت الحاصلة للجسد قد حسبت لهذا الواحد ، لهذا الإله المتأنس ... وانما موت المسـيح تعالى كان بمفارقة نفسـه لجسـده

(١) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بديره جـ ١ ص ٣١٢ - ٣٢٤ .

فقط بحيث أن لاهوته لم يفارق أحدهما طرفة عين ولمح البصر فكان اللاهوت ملازماً الجسد على الصليب وفى القبر كما أنه كان ملازما النفس حال نزولها إلى عالم الأرواح البررة . قال أثناسيوس الرسولى : « أن الرب نزل إلى الجحيم لا بجسده بل بروحه وضبط كل الأرض لئلا تهلك قبل وقتها وأراق دمه عليها ليحفظها ويحفظ ما فيها وترك جسده معلقاً فى الهواء من أجل حفظ العناصر ونزلت روحه القدوسة إلى الجحيم وبشرت من كان فيه بالنجاة ، نهب الجحيم وضبط الكل بجسده ، حملت روحه الأنفس التى كانت فى الجحيم حين كان جسده معلقاً على الصليب . وفى ذلك الوقت انفتحت القبور . ولما أبصره بوأبو الجحيم جزعوا وهربوا . ومن ثم سحق أبواب النحاس وكسر متاريس الحديد . ولما حملت روحه الأنفس سكان الجحيم صعد بهم إلى أبيه ... »[1] .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) عن مقال للقمص ميصائيل بحر خاص باقليم المنيا فى العصر القبطى فى مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة العددين الثالث والرابع (مارس وأبريل سنة ١٩٦٢) ص ٣٣ -٣٤ .

جـ - جرجس المزاحم

٤٥ - بينما كان المصريون جميعاً يتنسمون عبير الحرية والاستقرار فى عهد العزيز بالله سرت بين بعض الرعاع من المسلمين موجة من الحنق حين رأوا القبط يصلون إلى منصب الوزير ويحوزون رضى الخليفة وثقته . فكانت الأزجال والأقاويل الساخرة تتردد من فم لفم إلى حد أن بعض الشعراء كانوا يزجون بكتاباتهم فى يده وهو سائر فى الطريق . ومع أن العزيز ظل على تسامحه رغم كل هذه الأقاويل إلا أنه حاول تهدئة الخواطر بالمسالمة أولاً ولكنه اضطر فى نهاية الأمر إلى استعمال الحزم لإقرار السكينة (١) .

وفى فترة الحنق والتوتر حدث بعض الشغب فى عدد من الأقاليم . ومن أقوى هذه الحوادث ما جرى فى منطقة طلخا . وكان السبب فى ذلك رجل اسمه جرجس المزاحم . ذلك أن جرجس هذا كان ابن امرأة مسيحية من أب مسلم . وكان اسمه « مزاحم » فى صباه . وقد قضى الإثنى عشرة سنة الأولى من عمره على دين أبيه . على أنه فى هذه السن لاحظ أن أمه تذهب الى الكنيسة فى يوم الأحد فأحس برغبة ملحّة فى أن يتبعها ويرى ماذا تفعل داخل الكنيسة . ثم رجا منها عند عودتها أن تعطيه جزء من القربانة التى معها فلما ذاقها استلذ طعمها . وبعد ذلك استمر فى تتبع أمه . واستقر رأيه فيما بينه وبين نفسه أن يصير مسيحياً . ومن ثم اعتاد أن يتردد على الكنيسة . وفى عيد السيدة العذراء قصد الأنبا زخاريوس أسقف دمياط ونال المعمودية على يدى أحد كهنته واتخذ اسم جرجس ، ولهذا أصبح معروفاً باسم جرجس المزاحم . وبعد ذلك تزوج من سيولا ابنة القمص أبانوب راعى كنيسة بساط النصارى .

ولما علم أهله بحقيقة أمره أرادوا أن يقبضوا عليه بقصد ارجاعه الى دين أبيه . فخافت عليه زوجته وهرّبته . وعندها ضربوها ضرباً مبرحاً . ثم اشتغل فى معصرة للزيت فترة من الزمن . ولكن المتربصين به عرفوا مكانه فبدأ بينهم وبينه صراع بلا هوادة : فتارة يلقونه فى السجن وأخرى

---

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پول ص ١٢ ، « تاريخ الكنائس الشرقية » (بالانجليزية) لعزيز سوريال عطية ص ٨٨ .

يضربونه ، ومرة يعذبونه وأخرى يحاولون اغراءه بالمقتنيات العالمية . على أن والى المنطقة حاول اقصاءهم عنه وعرفهم بأنه كتب للسلطان يستفهم منه عما يجب عمله بمثل هذا الرجل . وبالفعل تركوه أسبوعاً فى السجن من غير أن يتعرضوا له اطلاقاً . وكان هو خلال هذه الأيام يصلى بلا انقطاع ويستشفع برئيس الملائكة ميخائيل . فرآه فى نصف الليل داخلاً زانزانته وهو يحمل رداء أبيض كالثلج وقال له : « افرح يا جرجس يا عبد يسوع المسيح . ان لى اليوم أسبوعاً أسأل الرب عنك ، فأرسلنى الليلة اليك بهذا الرداء لتكون لك به قوة . فتقدم الىّ لأغطيك به » . وأطاع جرجس الأمر . وحين نشر الملاك الرداء عليه صار واحداً مع جسده . ورسم عليه علامة الصليب ، توارى عن عينيه .

وفى اليوم التالى بدأ جهاده . فكان الحانقون عليه يعذبونه الى أن يداخلهم الشك فى أنه مات فيتركونه ملقى فى السجن ويذهبون لحال سبيلهم ويعودون اليه فى اليوم التالى فيجدونه ما زال على قيد الحياة فيعاودون تعذيبه . واستمروا على هذا الحال من الحادى عشر الى الثامن عشر من بؤونة ٦٩٥ ش (سنة ٩٧٩ م) . ثم جاءهم رسول السلطان الى الوالى يحمل خطاباً فيه الأمر بترك جرجس وشأنه . وقد قال الرسول السلطانى شفاهياً بأن اثنين من سكان القاهرة قد اعتنقا المسيحية وأن السلطان تركهما وشأنهما (عدا الواضح بن الرجاء) . ولكن حدة الغضب التى كانت قد استولت على القلوب جعلتهم يتجاهلون أمر السلطان . ففى صبيحة يوم الخميس ١٩ بؤونة ذهبوا الى السجن وقالوا لجرجس بأن عليه أن يختار بين الموت وبين انكار المسيح . ولكن تهديدهم ضاع هباء منثوراً إذ أعلن لهم استعداده لتقبل العذاب لا الموت فقط . وعندها اخرجوه خارج البلدة وساروا به الى شاطئ البحر وهناك ضربوه على رأسه الى ان تحطمت ثم قطعوا جسده ورموا بالأجزاء فى البحر .

وحدث فى اليوم عينه ان شماساً كان ماشياً عند الشاطئ فسمع صوتاً يقول له : « يا أيها المؤمن المار على هذا الشاطئ - باسم المسيح انتظر الى أن تقذف الأمواج اليك بجزء من جسد الشهيد جرجس المزاحم . فخذه وأعطه لزوجته المباركة سيولا » . وانتظر الشماس حسب الأمر . وأخذ الجزء الذى قذفت به الأمواج الى بيته . وأعطاه لأمه وأبلغها الرسالة التى

سمعها . فأخذت أمه الرفات ولفته بقماش أبيض وأوصلته الى السيدة البارة سيولا ، التى وضعته بدورها فى بيت أبيها فترة من الزمن ثم فى الكنيسة بعد ذلك . وقد جرت منه آيات وعجائب عديدة [١] .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) عن المخطوط المحفوظ بكنيسة القديس الشهيد جرجس المزاحم - كتبه الراهب مينا الذى ضمن هذا القديس أمام الوالى حينما كان الوالى متردداً فى أمره . وقد عثر على هذا المخطوط إلى جانب الأنبوبة التى تحتوى على رفات القديس الشهيد فى هيكل الكنيسة المسماة باسمه . وهذه الكنيسة تقع الآن تحت كنيسة السيدة العذراء القائمة فى بساط النصارى ، السنكسار الأثيوبى....ترجمة واليس بودج جـ٤ ص١٠١٣-١٠١٥ .

السحب تتكاثف

٤٦ - وصاية برجوان على ولى عهد العزيز بالله .
٤٧ - سكرتير قبطى لبرجوان .
٤٨ - تلاعب التاجر ابراهيم بن بشر .
٤٩ - ارادة الله تعالى تتجلى بصورة عجيبة .
٥٠ - الانبا زكريا يطيب خاطر ابراهيم بن بشر .
٥١ - شبع سنين رخاء .
٥٢ - النعيم ينقلب بؤساً .
٥٣ - الاحكام الشاذة تقع على قوم دون غيرهم .
٥٤ - رمى الانبا زكريا للاسود .
٥٥ - حرق كنيسة القيامة بالقدس الشريف .
٥٦ - صوت من الجراة والبسالة .
٥٧ - جهود بقيرة فى خدمة المجتمع ورعاية ابن القسطال للشعب .
٥٨ - الابن الضال يرجع الى نفسه[1]
٥٩ - الراهب بيمن .
٦٠ - الخصب بعد الجدب .
٦١ - ولع الحاكم باحاطة نفسه بالخفاء .
٦٢ - الغموض المحيط باختفاء الحاكم .
٦٣ - نياحة الانبا زكريا .
٦٤ - مدى حنان هذا البابا الاسكندرى .
٦٥ - بولس بن الرجاء .

٤٦ - وأنتهت الواحد والعشرون سنة المرسومة لحكم العزيز بالله ، ففاجأته المنية وهو فى حمامه فى بلبيس سنة ٩٩٦ م وكان له ابن دعاه الحاكم بأمر الله . وكأنه استشعر فى أعماق نفسه أنه قد يموت قبل أن يبلغ وحيده سن الرشد ، فرتّب عناية منه بالشعب - أنه فى حالة انتقاله الى الدار الباقية وابنه قاصر يقوم بالوصاية عليه وزيره برجوان . وحدث أن توفى العزيز وابنه فى الحادية عشرة من عمره ، فتولى برجوان الوصاية عليه تنفيذاً لوصية العزيز وكان برجوان عبداً سلاقونياً [2] تربى فى قصر الخلافة وأبدى من المهارة ما أكسبه ثقة الخليفة فرقّاه درجة درجة حتى أقامه وزيراً ، ثم أوصى باقامته وصياً على ابنه القاصر . فلما وجد برجوان نفسه صاحب نفوذ واسع وثروة طائلة امتلأ غروراً زهواً ، فلم يكن بعيد النظر ولم يتبصر فى عواقب الأمور، بل زعم أنه فى امكانه بسط نفوذه أكثر فأكثر .

---

(١) لوقا ١٥ : ١١-٣١ .

(٢) السلاقونيون هم القبائل التى انحدر منها الروس والبلغار وسكان رومانيا وبولانده وايلليريا وسيليزيا . وبوهيميا وبوميرانيا .

وقد نجح بالفعل فى استمالة الجيش الى مناصرته . وعندها تجاوز حدود سلطته فتغافل عن رغبات الحاكم - وهو ولى العهد . ثم تمادى فى غروره فتسلىّ باطلاق اسم « وزغة »[1] على الحاكم بأمر الله . وربما كان مثل هذا الغرور وهذا التعدى لحدود سلطته ميزة لبرجوان لو أنه كان يعامل شخصاً مستكيناً ، ولم يفطن الى أن تبجحه هذا يستثير غضب الأمير الموكول اليه أمره الى أبعد الحدود . على أن الحاكم - رغم ثورته النفسية ضد الوصى عليه - استطاع أن يتمالك نفسه أربع سنين كاملة . ولما بلغ الخامسة عشرة لم يستطع أن يكبح جماح غضبه ، فأرسل فى طلب برجوان (الذى كان أستاذه أيضاً) قائلاً : « ان الوزغة الصغيرة قد أصبحت تنيناً كبيراً وهى تأمرك بالحضور » . وارتاع الوصى لهذه اللهجة ولكنه لم يستطع الا أن يلبى الأمر . وأدرك أن الزمام قد أفلت من يده ولكن بعد فوات الأوان . وما أن أدخل الى حضرة الحاكم بأمر الله حتى أصدر الأمر بقطع رقبته على الفور .

٤٧ - وكان لبرجوان سكرتير قبطى اسمه فهد بن ابراهيم معروفاً للحاكم لأنه كان يحمل رسائل رئيسه يومياً الى قصر الخلافة ويتلقى من المسئولين فيه أوامرهم بخصوصها . بل لقد كانت له خطوة كبيرة اذ قد قال عنه المقريزى فى كتابه « الخطط » « انه فى غطاس سنة ٢٨٨ هـ ضربت المضارب والأسرة فى عدة مواضع على شاطئ النيل . ونصبت أسرة للرئيس فهد بن ابراهيم النصرانى كاتب الأستاذ برجوان . وأوقدت له الشموع والمشاعل وحضر المغنون والملهون . وجلس مع أهله الى أن كان وقت الغطاس فغطس وأنصرف » .

وحينما رأى فهد رأس برجوان تسقط على الأرض امتلأت نفسه فزعاً وأصفر وجهه اضطراباً . على أن الحاكم هدأ من روعه وأمنه على حياته ، بل لقد أطلق عليه لقب « الرئيس أبى العلاء » . فسعى فهد جهده لاكتساب رضا الحاكم وصار يترقى فى المناصب المختلفة إلى أن أصبح وزيراً . واستمر فى هذه الرتبة خمس سنين وتسعة أشهر انتهى معها رضى الحاكم بأمر الله فقتله[2] .

(١) الوزغة هى السحلية الصغيرة .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى لستانلى لاين پول (بالانجليزية) ص ١٢٨ ، « تاريخ الأمة القبطية » ليعقوب نخلة روفيلة ص ١١٤ ، ١١٦ .

٤٨ - وكانت سنة ٩٩٦ م من السنوات الحاسمة فى تاريخ مصر الطويل إذ لم تنتقل الخلافة فيها من يدى العزيز بالله إلى يدى ولى عهده فحسب بل لقد أعتلى خلالها بابا جديد للسدة المرقسية التى لم تبق شاغرة غير ستة شهور بعد نياحة الأنبا فيلوثيئوس .

وكان فى الاسكندرية تاجر غنى اسمه ابراهيم بن بشر طمع فى اعتلاء الكرسى المرقسى وبخاصة لأنه كان صديقاً لجميع الولاة فى القطر المصرى . وكان يستعين بثروته لقضاء حاجاته عندهم . فزعم - استناداً الى هذه الثروة عينها - أنه يستطيع الوصول الى الخلافة المرقسية . وبالفعل وجد استجابة من الولاة جميعاً .

٤٩ - وما أن سمع الأساقفة بما فعله ابراهيم بن بشر حتى عارضوه كل المعارضة فاجتمعوا فى كنيسة القديس مرقس الشهيرة باسم (القمحة) للتداول معاً . وكان فى الاسكندرية إذ ذاك كان متبتل اسمه زكريا ، وقد جمع الى رعاية كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل - الاشراف على كافة الكنائس فى تلك المدينة ، وكان الأساقفة ضيوفه فى كنيسته مدة اقامتهم بالاسكندرية . فكرس نفسه لخدمتهم بأمانة تامة . ولتواضعه المتناهى كان يقضى حوائجهم وحوائج الكهنة والشعب بنفسه . فلم يخطر ببال أحدهم ترشيحه . إلا أن الله تعالى ، العجيب بالمجد ، الذى اختار داود مع كونه أصغر اخوته ، اختار هذا الكاهن المتواضع ليكون راعياً لشعبه . وقد تجلى الاختيار الإلهى بصورة عجيبة تتلخص فى أن زكريا صعد إلى السطح ليستحضر من المخزن جرة خل للطباخ . وفيما هو نازل انزلقت قدماه فسقط وتدحرج على عدد من الدرجات . وعلى الرغم من ذلك فقد قام وكأن شيئاً لم يحدث ، فلم يصبه أى أذى ولا انكسرت الجرة . وحين علم الأساقفة بذلك قالوا : « حقاً أن هذا الرجل بار ، إذ لولا بره ما حفظه الله من هذه السقطة » . وعندئذ بدأوا يستفهمون عنه من الكهنة والشعب . فأجمع الكل على أنه خادم أمين ، وراع ساهر ، ممتلئ نعمة ومحبة ، مستعد لخدمة الصغير قبل الكبير . فاستقر الرأى بالاجماع على رسامته فى اليوم التالى إذ تصادف أنه يوم الأحد . وبالفعل ألفوا موكباً فخماً وساروا به الى الكنيسة المرقسية حيث احتفلوا باقامته الخليفة الرابع والستين للقديس مرقس البشير .

٥٠ - وفى تلك الآوانة كان ابراهيم بن بشر فى القاهرة منشغلاً بمقابلة الوالى ليتفق معه على أن يعاونه لكى يصل الى بغيته . وفعلاً حصل على مرسوم سلطانى يخوله الحق فى اعتلاء الكرسى المرقسى . فزعم أنه فاز حقاً بأمله ، وأخذ المرسوم السلطانى وسافر لفوره الى الاسكندرية لعله يصلها والأساقفة لا يزالون فيها لكى يضعوا اليد عليه . على أنه وصلها بعد فوات الأوان . لأن الأساقفة كانوا قد وضعوا اليد على المختار من الله للبابوية قبل وصوله بساعات معدودات .

وما أن بلغ ابراهيم بن بشر مشارف الاسكندرية حتى سارع اليه أحد أصدقائه وأبلغه أن زكريا راعى كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل قد نال الكرامة العظمى على أيدى الأساقفة . فلما سمع هذا الخبر أصيب برعدة هزته من قمة رأسه الى أخمص قدمه ، فهرع الى بيته وقد امتلأت نفسه خيبة . وعندها رأى الأنبا زكريا وأساقفته أن يطيبوا خاطره فاتفقوا على رسامته أسقفاً على أول ايبارشـــية تخلو . ومن ثم زاره بعضهم وقالوا له : « أن البابوية دعوة من الله تعالى . فطب نفساً ولا تضطرب . وعند خلو أول ايبارشية سنرسمك أسقفاً . ولكى يثبتوا له عزمهم على تحقيق وعدهم استصحبوه الى الكنيسة حيث رسموه قساً وألبسوه الملابس السوداء [1] . فهدأت نفس ابراهيم بن بشر ، وزالت عنه الرعدة التى كانت قد اعترته . ولما خلت ايبارشية منوف ، حقق له الأساقفة وعدهم له اذ قد رسمه الأنبا زكريا أسقفاً عليها .

٥١ - وكانت السنوات السبع الأولى لخلافة الحاكم بأمر الله سنوات سلام واستقرار ، فكانت أشبه بالسبع سنوات التى سادها الشبع والتى سبقت السبع سنين العجاف [2] . وخلال هذه السنوات أبدى الحاكم عناية فائقة بالشعب المصرى الى حد أنه أمر بتعليق الفوانيس المضاءة فوق أبواب المنازل وواجهات المحال التجارية بعد الغروب ليتمكن الناس من البيع والشراء ومن السير فى الطرقات فى أمن وسلام حتى فى الليل . فاتسعت التجارة وازدادت ثروة البلاد . ولم يكتف الحاكم بذلك ، بل كان يخرج بنفســه ليلاً

(١) يلاحظ أن هذه أول مرة توصف فيها الملابس الكهنوتية بالسواد .

(٢) تكوين ٤١ : ١٧ - ٣١

ويتمشى فى الشوارع ويختلط بالشعب ، فيسمح للعابرين أن يقتربوا منه ويتفرسوا فيه ويكلموه . ولشدة فرح الناس بهذه المعاملة كانوا يرفعون أكفهم بالضراعة الى الله تعالى ليبارك خليفتهم الشاب .

ولم تقتصر عناية الحاكم بأمر الله على التجارة والصناعة ، بل شملت الثقافة أيضاً. فانشأ مكتبة ضخمة أسماها « دار العلوم ودار الحكمة » ، وكانت جدران هذه المكتبة مزخرفة زخرفة فنية آية فى الإبداع . وتجمعت الكتب فى هذه المكتبة من أركان العالم الأربعة . ولقد أباح الحاكم لسائر الناس دخولها : فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر (١) . وكان الطلاب يتعلمون الى جانب الفقه علوم اللغة والفلك والطب والرياضة والفلسفة والمنطق والتنجيم . كذلك كان يسر الحاكم أن يدعو الأطباء والفقهاء وغيرهم ليتناظروا كل فى موضوع تخصصه ثم يمنح المتناظرين جوائز قيمة (٢) . كذلك كانت هناك سلسلة من الدراسات والمحاضرات فى الفلك والنحو والصرف والبيان والقانون (٣) .

٥٢ - على أن هذه الهناءة لم تدم غير سنين سبع تبدل النعيم بعدها بؤساً وظلاماً . ذلك أن الحاكم كان ذا نزعة عنيفة للخفاء . وكان التعلق بالخفاء من شيم الفاطميين جميعاً منذ عهد المعز لأنهم ادعوا معرفة الغيب (٤) . وأحاطوا أنفسهم بالكثير من الغموض ليكتسبوا نوعاً من القدسية والمهابة ، حتى لقد بلغ الأمر أنه اذا رأى أحد المغاربة سحابة عابرة ترجل وانحنى لها بحجة أن الخليفة الفاطمى مستتر خلفها (٥) . ولقد ظهرت هذه النزعة على أشدها فى الحاكم بأمر الله . وفى هذا الصدد يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان فى وصف الحاكم : « كانت شخصية الحاكم لغزاً مدهشاً ، وكانت خلاله مزيجاً من الأهواء والنزعات المدهشة المتناقضة فى

---

(١) مصر فى عصر الدولة الفاطمية لمحمد جمال الدين سرور ص ٢٢٠.

(٢) تاريخ الأمة القبطية - ليعقوب نخلة روفيلة ص ١١٤ - ١١٥ .

(٣) مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پول ص ١٣٠ .

(٤) الخطط للمقريزى جـ ١ ص ٤٥٨ .

(٥) نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين للدكتور عطية مصطفى مشرفة - الطبعة الثانية ص ٣٦ .

معظم الأحوال ... وقد رأينا أن هذا الذهن الهائم ، كما أنه يهبط فى تصرفاته أحياناً الى ضروب مثيرة من التطرف والتناقض والهوس ، فإنه يرتفع كذلك الى ضروب من الحكمة والسمو تحمل على التقدير والتأمل . ولعل التاريخ الأسلامى لم يعرف شخصية يحيط بها الخفاء كتلك الشخصية العجيبة التى تثير من حولها الدهشة والروع فى كل تصرفاتها الخاصة والعامة ، والتى يلازمها الخفاء لا فى هذه الحياة الدنيا وحدها ، ولكن فى الحياة الأخرى أيضاً ، حيث تغادر هذا العالم فى ظروف كالأساطير . وتبقى هذه الظروف لغزاً على التاريخ حتى يومنا هذا [١] . وتحقيقاً لهذه لهذه النزعة كان كثيراً ما يدعو وزراءه للاجتماع به فى الليل . وكثيراً ما كان يركب حماراً رمادى اللون ويتسلق به جبل المقطم فى جنح الظلام بدعوى أنه سيرقب النجوم ويسير غور أسرارها . وهذا الغموض والتخفى الذى التحف بهما غيرا من معاملته لشعبه . فبدلا من رعايتهم والسهر على راحتهم ، تحول الى التضييق عليهم والبطش بهم دون سبب ظاهر . وكانت أوامره أشبه بهذيان المحموم . فمثلاً أصدر أمراً بمنع بيع البيرة والخمر ، فأمر بترك الكروم حتى تجف ، كما أمر بصب العسل فى النيل ! ثم أمر بقتل جميع الكلاب ، وبعدم ذبح الماشية الا فى عيد الأضحى . وحدث أنه رأى أن يمنع السيدات من الخروج بتاتاً ، ولكى يضمن تنفيذ مثل هذا المنع الغريب أمر بمصادرة أحذيتهن ، وبعدم صنع أحذية جديدة لهن . ولم يكتف بذلك ، بل حرم على النسوة التطلع من النوافذ أو الجلوس على أسطح المنازل . وكانت هذه الأوامر مشددة الى حد أن من تجاسر على عصيانها كان جزاؤه الجلد وأحياناً الاعدام [٢] .

٥٣ - ولم يكن شذوذ الحاكم منصباً على فئة معينة بل ذاق الشعب كله الهول منه ، فعاش ثلاث سنين فى ذعر مما قد يصيبه ، اذا لم يعرف أحدهم من منهم سـيكون الفريسة التالية ولا ما الأمر الشاذ الذى سيصدره الحاكم

---

(١) راجع مقاله « عصر الخلفاء فى مصر الأسلامية » الذى نشر فى مجلة الهلال عدد ديسمبر سنة ١٩٣٦ ص ١٥٣ - ١٥٦ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پوول ص ١٢٥ - ١٢٦ ، مصر : من مينا الى فؤاد الأول بالفرنسية لبول دى هنو ص ٢٣٤ ، تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١١٥- ١١٦ .

اليهم . وبعد أن انقضت هذه السنوات الثلاث رأى الحاكم ان يختص قوماً دون قوم بأحكامه المقلقة ، فصوب سهامه الى نحور القبط وذلك بأن حكم عليهم بأن يعلق كل منهم صليباً من الخشب حول عنقه ، وأن يلبسوا جميعاً الملابس السوداء ، ولا يتنعموا بلبس الألوان الزاهيـة والأقمشة الناعمة . وحرم على القبطى تشغيل خادم مسلم فى بيته ، واستخدام مراكبى مسلم أن شاء أن يعبر النيل ، ولكى يقطع على القبط سبيل الشفاعة قطع رأس فهد بن ابراهيم القبطى الذى كان وزيره مدى خمس سنين وتسعة أشهر . ثم استتبع هذه الأحكام بأمر يقضى بهدم الكنائس ومصادرة الأملاك الموقوفة عليها . وزاد على ذلك بأن استولى على الأملاك الخاصة . وبعد أن نشر الحاكم الفزع بهذه الأحكام الجائرة ، أصدر منشوراً أعلن فيه بأن من أعتنق الاسلام أصبح فى مأمن منها كلها . فكان لمثل هذا المنشور أثره فى ضعاف الايمان .

غير أن هذا كله لم يشبع شهوة الفتك التى استولت على الحاكم آنذاك ، فاستدعى كبيراً من كبراء القبط اسمه غبريال بن نجاح ، وعرض عليه أن يقيمه وزيراً إن هو اعتنق الاسلام . فرجا منه غبريال هذا أن يمهله أربعاً وعشرين ساعة . فلما قبل الحاكم امهاله ، عاد الى بيته ، وجمع عائلته وأهله وأصدقائه ، وأبلغهم العرض الذى عرضه عليه الخليفة ، وأعلن لهم استعداده لأن يموت على دين المسيح ، ثم أعطاهم وصيته الأخيرة . وبالطبع كان من بين قومه من حاول أن يثنيه عن عزمه ولكن محاولاتهم باءت بالفشل . وذهب غبريال بن نجاح فى اليوم التالى الى الحاكم ورجا منه أن يقيمه وزيـراً دون أن يشترط عليه الاسلام لأنـه لا يبغى عن دينه بديلاً . فثارت ثائرة الخليفة وأمر جنده بأن يجلدوه ألف جلدة . ولكنهم ما كادوا يصلون الى نصف العدد المقرر حتى كان ابن نجاح قد استودع روحه يدى الآب السماوى .

واستمرأ الحاكم خطته التى اتبعها مع غبريال بن نجاح ورأى أن يجربها مع غيره ، فاستدعى عشرة من كبار القبط وأبدى لهم رغبته فى أن ينضموا إلى الاسلام ، فرفضوا بالاجماع . وعندها نادى على جنده وأمرهم بجلد هؤلاء العصاة ، فانهالوا عليهم بالجلد فوراً . ولم يلبث ستة منهم أن أسلموا الروح ، بينما أعلن الأربعة الآخرون رضوخهم لحكمه ، فكف الجند

عن جلدهم . وفى الليلة عينها مات واحد من هؤلاء الأربعة متأثراً بجراحه وبوخز ضميره . أما الثلاثة الباقون فانزووا بعيداً عن الأنظار الى أن مات الحاكم ، فظهروا مرة أخرى وأعلنوا توبتهم جهاراً فقبلتهم الكنيسة بفرح .

٥٤ - ويبدو أن الحاكم بأمر الله كان فى تلك الآونة شبيهاً بالوحش الذى تتضاعف فيه شهوة الفتك اذا ما اشتم رائحة الدم ، فلم يكفه ما فعله بالأراخنة والشعب بل زاد عليه القاء الأنبا زكريا فى السجن مدى ثلاثة شهور . ثم أخرجه بعد ذلك من السجن ورماه للأسود . على أن الله تعالى الذى سد أفواه الأسود أمام دانيال النبى [1] قد سد أفواه الأسود عن صفيه البابا السكندرى ، فلم تقترب منه ولم تمسه بسوء . وحينما رأى الحاكم هذا ظن أن الحراس أطعموا الأسود ، فأمر بوضعها تحت حراسة خاصة ومنع الأكل عنها ثلاثة أيام . ثم أمر بذبح شاة وتلطيخ ملابس الأنبا زكريا بدمائها قبل طرحه للأسود مرة ثانية . ورغم كل هذه الاحتياطات وقفت الأسود تنظر الى البابا الاسكندرى دون أن تقترب منه . فكان لموقفها بأزاء رجل الله أثر بعيد اذ قد أمر الحاكم بأمر الله باطلاق سراحه [2] .

٥٥ - ومن العجيب أن يكون الوحش أكثر انسانية من الإنسان فى بعض المواقف ، وأن يحس بالرهبة أمام أصفياء الله فى الوقت الذى يتعدى عليهم اخوتهم من الناس . هكذا كان موقف الحاكم ، ولكنه اتعظ بالأسود وأخلى سبيل الأنبا زكريا ، ثم لم يلبث أن نسى الدرس الذى لقنته إياه هذه الضوارى ، وعاودته شهوة الفتك . على أنه رأى أن ينفس عنها بصورة جديدة ، فلم يقتل ولم يستعن بالكواسر ، بل أرسل أمراً عاجلاً إلى والى القدس يأمره فيه بحرق كنيسة القيامة . وخاف الوالى أن هو لم ينفذ أمر مولاه أن يلحقه الأذى . فاشعل النار فى الكنيسة فوراً [3] .

على أنه أمعن فى تعسفه بأن أمر كاتبه النصرانى - ابن عبدون - أن

---

(١) دانيال ٦ : ٢٢ .

(٢) القول الابريزى للعلامة المقريزى . طبع فى القاهرة سنة ١٨٩٠ على نفقة مرقس جرجس ص ٥٨ ، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين نشره مع ترجمته الى الانجليزية يسى عبد المسيح ، عزيز سوريال عطية ، أوسولد برمستر - المجلد الثانى - جـ ٣ ص ١٩٣ .

(٣) تاريخ الأمة المصرية ... ص ٢٠٥ - ٢٠٩ .

يوقع بالنيابة عنه أمر احراق كنيسة القيامة . وجبن هذا القبطى أمام بطش مولاه فرضى أن ينفذ أمره على الرغم من أنه وصف بأنه « ثقة ثقات السيف والقلم »[1] ولكن الجبن لم يحم ابن عبدون لأن الحاكم لم يلبث أن استغنى عن خدماته وأخرجه من ديوانه . وبعد أيام رأى الحاكم أن يستغنى عنه نهائياً فأمر بقتله وبمصادرة أمواله .

ولما كانت أهواء الحاكم فى تقلب مستمر فقد عين كاتباً نصرانياً بدل ابن عبدون ولو أنه كان هذه المرة من الخلقيدونيين وهو زرعة بن عيسى بن نسطور . واستمر هذا الخلقيدونى يتمتع بثقة الحاكم ما يقرب من عامين ثم أكفهر الجو حوله فجأة فصدر الأمر بقتله من دون مقدمات . وامتد بطش الحاكم بعد ذلك الى جميع المسيحيين من خلقيدونيين وقبط فأمرهم بلبس السواد وتعليق صلبان من الخشب حول أعناقهم على أن يكون طول الصليب ذراعاً ووزنه خمسة أرطال ويوضع على الصدر فوق الثياب ليكون مرئياً من جميع المارة ، كذلك تكون سروج الحمير والبغال التى يركبونها من الخشب والسيور السوداء الخالية من كل زينة ولا يركبون الخيل اطلاقاً . وتشدد فى تضييق الخناق عليهم بانزال أشد العقاب بمن لا ينفذ هذه الأوامر . فكان هذا التعسف سبباً فى دفع البعض الى انكار مسيحيته واعتناق الاسلام .

ولم يكتف الحاكم بهذا كله بل أمر بابطال الاحتفالات التى كانت تقام حتى بعد ذلك العصر بأحد الشعانين وبعيدى الصليب والغطاس إذ كانت العادة أن يخرج القبط فى مواكب احتفالية رائعة : بالصلبان والشموع والمباخر ويطوفون بالشوارع وعلى ضفاف النيل حتى ساعات متأخرة من الليل . كذلك كتب الى ولاته فى مختلف بلاد مصر أن يستبيحوا أوانى الكنائس وأوقافها مما أدى الى نهبها ثم هدمها . وفى هذه الضيقة هدم العامة دير القصير وهو أحد الأديرة التى طالما تغنى بها شعراء المسلمين . ثم قام بدور خاص بأن هدم كنائس خط راشدة والمقس واستولى على الأراضى التى كانت مقامة عليها كما استولى على كل ما وجده فيها من أوانى وملابس[2] .

---

(١) الخطط للمقريزى جـ ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) شرحه جـ ٢ ص ٢٨٧ و ٢٩٥ – وخط راشدة والمقس كانا من الأحياء الواقعة خارج مدينة القاهرة . كما أن المقريزى يعلق على مدى السلب الذى حدث إذ ذاك بقوله : « فانتبهوا منها ما يجل عن الوصف » .

٥٦ - على أن الآب السماوى أبدى رأفته كالمعتاد فهيأ للفنانين والصناع القبط طريقاً تظهر فيه مواهبهم . فقد كان ملك الحبشة يومذاك لاليبالا الذى رغب فى أن يشيد عدداً من الكنائس فبعث الى مصر برجاء الى البابا المرقسى يطلب منه ايفاد الاخصائيين فى البناء والزخرفة . فسارع اليه عدد غير قليل ونحتوا له مجموعة من الكنائس فى الصخور الطبيعية لا تزال للآن آية من آيات الفن المسيحى [١] .

كذلك بدت المراحم الإلهية فى مصر نفسها إذ قد رن صوت من الجرأة والبسالة وسط الذعر والإضطراب . فقد كان فى ديوان الخلافة كاتب قبطى اسمه بقيرة ، شق عليه أن تنزل كل هذه البلايا بقومه . فاعتزل منصبه ، وحمل صليبه ودخل قصر الخليفة . ولما وصل الى بوابته ، وقف وصرخ بأعلى صوته : « أن المسيح هو ابن الله » فما أن وصلت كلماته مسامع الحاكم حاتى استحضره وأمره بانكار دينه . فكرر بقيرة فى حضرته ما فاه به عند البوابة . والغريب أن الحاكم لم يأمر بقطع عنقه وانما أكتفى بالقائه فى السجن وتطويق عنقه بسلسلة حديدية . وذهب صديق له أسمه مينا ليعوده فى السجن ، فوجده واقفاً يصلى فى نشوة روحية عجيبة . فلما رآه على هذا الحال تهلل بالروح . وحينما هم مينا بالخروج سأل بقيرة ان كانت هناك أية رسالة يريد تبليغها لأهله . فقال له بقيرة : « قل لهم طيبوا نفوساً لأننى سأكون معكم الليلة » . وقد تحققت كلمات هذا الشاهد الأمين للمسيح ، اذ قد جاء مرسوم من الحاكم بالافراج عنه ويمنحه الحرية فى أن يتجول حيث شاء ، ويشتغل بما يروق له من المهن . وبهذا المرسوم خرج بقيرة ، وأخذ ينتقل بين عائلات القبط ، يشجعهم ويعزى قلوبهم ، وينبئهم بأن هذه الشدة ستزول بعد ثلاثة أيام . ثم قرن كلماته المعزية بهدايا من الطعام والشراب - وظل بقيرة فى تجواله ، وفى توزيع عطاياه خلال الأيام الثلاثة التى تنبأ عنها .

وفى اليوم الرابع صدر مرسوم بتوقيع الحاكم يأذن فيه للقبط بأن يباتشروا صناعاتهم وزراعاتهم وتجارتهم ، وأن ينتقلوا حيث شاءوا بكل حرية . ومن أراد منهم أن يسافر إلى الحبشة أو غير من البلاد يستطيع ذلك دون مانع ولا عائق .

---

(١) كنيسة الأسكندرية فى أفريقيا لزاهر رياض ص ٩٨ - ٩٩ .

٥٧ - وظل بقيرة بعد هذا الفرج يوالى زياراته ، فافتقد المحبوسين منهم والمعوزين والغرباء . وعثر ذات يوم على قبطى مسجون لأنه عجز عن أداء الضريبة المفروضة على من يعبر النيل ، فدفعها عنه وبذلك هيأ له سبيل الحرية . ثم رأى بقيرة أن يقوم عند أنبثاق الفجر ، ويبحث عن الأشخاص أو العائلات المعدمة تماماً ، ويقدم لهم الطعام والشراب عن سعة . وذات يوم أشترى عدداً كبيراً من الأرغفة وزعها كلها ولم يستبق منها رغيف واحد لنفسه . ولما كان معتاداً أن لا يأكل الا عند غروب الشمس ، فقد جلس يومئذ ليأكل الرغيف فى تلك الساعة . ولم يكد يأخذ منه لقمة حتى دق الباب ، ففتحه ، واذا بشيخ عجوز جاء يطلب طعاماً ، فأعطاه الرغيف على الفور لأن الدكاكين كانت قد أغلقت اذ كان الوقت ليلاً .

وكان بين الرهبان آنذاك كاهن اسمه أبو ياسر بن القسطال ، عالماً فاضلاً كثير التأمل فى الأسفار الإلهية وفى ما آل اليه القبط . وقد وجد نتيجة لهذا التأمل أن هناك أخطاء اجتماعية يمكن ملافاتها بشئ من التبصر . فقد رأى الكثير من الأزواج فى شجار مع زوجاتهم لذلك كتب كتاباً قال فيه بأنه يجب على الخطيب والخطيبة أن يتقابلا متى انعقدت نيتهما على الزواج . لأنهما فى تقابلهما سيعرف كل منهما أن كان قد راق فى عينى الآخر . ومتى قبل كل منهما الآخر عن رضى ومن غير اكراه شرعت العائلتان فى اتخاذ اجراءات الزواج - وذلك منعاً لما قد يحدث من تخاصم نتيجة لجهلهما بعضهما البعض أو للاكراه من جانب الآباء والأمهات . كذلك كتب ضد الختان اذ كان قد وجد أن بعض الآباء والأمهات يزعم أنه ضرورة الى حد أنه لا يعمد طفله قبل اختتانه . فبين أنه عادة اجتماعية فقط كانت مفروضة عند اليهود ولكنها لم تعد فرضاً فى المسيحية فمن شاء ممارستها نفذها ومن لم يشأ تركها . أما المعمودية فهى الباب الوحيد الذى يستطيع المؤمـن أن يدخل منه الى الإيمان المسيحى فهو ضرورة موضوعة على الجميع . على أن مثل هذه النصائح لم ترق لغالبية الإكليروس والشعب مما أدى الى طرده من الدير الذى كان مترهباً فيه . وكان هذا الدير بنواحى طرة ويجانبه بستان فسيح زرعه واعتنى به هذا الكاهن فلم يسمحوا له حتى بالاقامة فى البستان . ثم حدث فى أوائل العصر الأيوبى أن صدر الأمر بالاستيلاء على أوقاف الأديرة والكنائس فكان هذا البستان ضمن ما تم عليه الاستيلاء .

وكان لأبى ياسر صديق يهودى شديد الولع بالبحث فى الأمور الروحية فكان كلاهما يتناقشان معاً فى هذه الموضوعات . ولقد نجح أبو ياسر فى أن يجتذب صديقه اليهودى الى الإيمان المسيحى . فدأب هذا الصديق على الدراسة وعلى تعلم اللغة القبطية الى حد أنه رسم شماساً على كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة حيث عاش الى النفس الأخير مكرساً كل جهوده لخدمة هذه الكنيسة وشعبها [1] .

٥٨ – وفى تلك الأثناء عاود الحاكم بأمر الله خطة الارهاب فأمر باغلاق عدد كبير من الكنائس . ولما كان لا يتورع عن الاستخفاف بأى شخص علت مكانته أو كبر سنه ، فقد رأى أغلب الأساقفه أن يلجأوا الى الصحراء ليجدوا الفرصة للتعبد والتضرع الى الله تعالى أن يتراءف على شعبه . وأعتاد بعض المؤمنين أن يقصدوا الى الصحراء مرتين سنوياً : فى عيد الغطاس وفى عيد القيامة ليتمكنوا من الصلاة فى مأمن من غدر الحاكم . على أن الغالبية لم تستطع الذهاب الى الصحراء لبعد المسافة من جهة ولأن السفر اذ ذاك كان شاقاً بالإضافة الى ما يتطلبه من المصروفات . ولكى تستطيع هذه الغالبية أن تستمتع بالمشاعر الدينية ، لجأت الى رشوة الحراس ليتغاضوا عنهم بعد الغروب ، ومن ثم اعتادوا أن يقيموا صلواتهم ليلاً بدلاً من النهار . واستمرت هذه الحالة غير الطبيعية تسع سنين متتالية . وحدث ذات يوم أن تجمع عدد من القبط الذين أنكروا الإيمان هرباً من الضيق ، ووقفوا بجموعهم فى طريق الحاكم . وما أن رأوه حتى هتفوا بصوت واحد : « أسمح لنا أن نعود الى ديننا » فسألهم : « أين صلبانكم وأحزمتكم وغيرها من العلامات التى أمرت المسيحيين بحملها ؟ » فأخرج كل منهم لفوره الأشياء المطلوبة التى كانوا يخفونها بين طيات ثيابهم . وعندها أمرهـم بأن يلبسوها أمامه . ففعلوا . فسمح لهم بالعودة الى دينهم ، وأعطى كلا منهم كتاباً يضمن لهم الأمان على حياته ومباشرة أعماله والتنقل حيث شاء .

٥٩ – وحدث أن كان بين القبط الذين أسلموا وعادوا الى مسيحيتهم بهذه الوقفة الغريبة راهب اسمه بيمن . وتقدم هذا الراهب الى الحاكـم يرجو

---

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٥٠ – ١٥٣ ، دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس جـ١ ص ١٧ .

منه أن يسمح له بتجديد دير على مقربة من القاهرة يعرف بدير شهران ، فمنحه الأذن على الفور . ولما انتهى بيمن من تجديد هذا الدير اجتمع معه عدد من النساك ، وعاشوا معه عيشة مشتركة ونال بيمن حظوة عظيمة فى عينى الحاكم إلى حد أنه كان لا يرفض له طلباً . فاعتاد كل قبطى أن يلجأ اليه ان كانت له حاجة عند الحاكم . كذلك أعتاد الخليفة أن يذهب إلى هذا الدير ليقضى فيه أياماً للتسامر مع الرهبان (١) .

٦٠- وكان الأنبا زكريا قد قصد إلى دير الأنبا مكارى الكبير ببرية شيهيت على أثر الأفراج عنه من سجنه ليجد فى رحاب الصحراء وسكونها الهدوء والاستقرار اللازمين للصلاة والضراعة . وهناك قضى أيامه ولياليه يصلى بدموع غزيرة لكى يتراءف الله على شعبه . فلما حَل السلام بعد سنى الأهوال التسعة ، تقدم بيمين الى الحاكم يرجو منه أن يأذن له بالذهاب الى برية شيهيت ليطلب الى البابا الاسكندرى أن يعود إلى مقر رياسته . وكما يتساقط المطر فيحمل الخصب فى نقاطه ، هكذا تبدد سخط الحاكم وغضبه الى رضى مثمر . فلم يأذن للأنبا زكريا بالعودة فحسب ، بل أبدى رغبته فى أن يقابله . وعندها سارع المندوبون الى برية شيهيت يحملون إلى البابا الاسكندرى أخبار السلام الذى أستتب . فعاد معهم ، يصحبه عدد من الأساقفة ، وقصدوا جميعاً الى دير شهران وبعد أيام من وصولهم ، جاء الحاكم إلى الدير ، وسأل بيمين عنهم . ولم تمض دقائق حتى دخل الجميع قاعة الاستقبال . وتفرس الحاكم فيهم واحداً واحداً وقد بدت أمارات الدهشة على وجهه ، لأن الأنبا زكريا كان قصير القامة ، بسيط الملبس ، خالياً من كل مسحة الوجاهة أو الوسامة . ورغم ذلك فقد حفه الوقار وشَع منه الجلال . وكانت غالبية الأساقفة طويلة القامة ، لا يخلو أحدهم من وجاهة . وقد أحاطوا جميعاً ببباباهم فى احترام وألفة . وسألهم الحاكم : « أهذا كبيركم » أجابوه : « نعم . هو بعينه » . فعاد يسألهم : « وإلى أين يمتد سلطانه ؟ » قالوا : « ان سلطانه يمتد من مصر إلى النوبة فالسودان فالحبشة جنوباً ، وإلى الخمس مدن غرباً وإلى فلسطين شرقاً » . واستمر الحاكم فى تساؤله : « وبأية قوة يستطيع أن يجعل هؤلاء أقوام يطيعونه ؟ » أجابوه فى ثقة : « لا قوة له اطلاقاً . ولكن هؤلاء الأقوام

(١) تاريخ الأمة القبطية (الحلقة الثانية) لكامل صالح نخلة وفريد كامل ص ١١٩ .

يطيعونه بقوة الصليب » ولأن الحاكم كان وقتئذ فى ساعات رضاه فقد أعجب بصراحتهم وقال لهم : « أنتظروا قليلاً » ثم غادر قاعة الاستقبال وجلس فى المكتب حيث كتب مرسوماً جاء كالغيث بعد الجفاف . فقد نص على فتح الكنائس المغلقة ، وتجديد المتداعية ، ورد جميع الأملاك المصادرة الى أصحابها - سواء فى ذلك الأملاك الموقوفة على الكنائس أو الأملاك الخاصة . كذلك نص هذا المرسوم على أنه لا داعى لتعليق الصلبان الخشبية وغيرها من العلامات على الصدور ، وعلى السماح بدق أجراس الكنائس فى مواعيدها . فكان يوماً سعيداً حقاً : يوماً استعاد فيه القبط كامل حريتهم للعبادة وللعمل،وأحسوا بالاستقرار النفسى،وسعدوا بالسلام.فخرجت جموعهم كهنة وشعباً الى الكنائس ، ورفعوا شكرهم للآب السماوى الذى تداركهم بمراحمه . ولم يعودوا فى حاجة الى الذهاب للصلاة فى الصحراء لأن مرسوم الحاكم هيأ لهم الفرصة لتعييد الغطاس على ضفاف النيل كما كانوا يفعلون فى أيام العزيز والمعز كذلك استعادوا الحرية فى أن يطوفوا الشوارع بمواكبهم آحاد السعف،فرنت أصوات ألحانهم فى الطرقات والميادين مرة أخرى [1] .

---

(١) من الأدلة على تسامح المعز والعزيز ثم الحاكم حين ثاب إلى رشده أنه يوجد فى الفترينة السدسة بالجهة الشرقية فى الخزانة حرف D بالمتحف القبطى ملف على ورق كتان ملصق على قماش يتضمن انعامات لرهبان الأديرة هذا نصه : « عماراتكم ولا تطالبوا بحشد فى حرب ، ولا بخروج وإعزاز كل راهب يخرج منكم إلى الضياع للتعيش فيها وقضاء حاجات من وراه منكم وألا تلتزموا بعمل يحمل النصر من الميرة وما يجرى مجراها مكساً ولا غرما قل أوجل وأن تحفظوا ما لكم من زرع وغلة وعوامل من مبانى النواحى وألا يعترض ما يخلفه بموت من رهبانكم خارجاً عن دياراتكم فى حال تردده إلى الريف وغيره للتصرف فى مآربكم من كل شئ يملكه ليكون جمعية عائداً على إخوته فى رهبانيته دون كل قريب له ونسيب غيرهم فان الإمام المعز لدين الله والإمام العزيز بالله والإمام الحاكم بأمر الله قدس الله أرواحهم تقدموا بكتب سجلات بإمضاء ذلك كله لكم وسألتم كتب سجل بتجديدها كانت أمضته لكم الأئمة وتوكيد ما دعته أكافئكم من الحرمة وحفظ ما لكم من هذه الموات والأزمة فأمر أمير المؤمنين بكتب هذا السجل المنشور يحملكم على مقتضى النص المذكور وموجب الشرع المنظور واقراره فى أيديكم حجة بذلك باقية على مر الأيام والدهور حتى لا يعترضكم معترض بما يزيل هذا الانعام عن حده أو يتأول متأول بما يصرفه عن جهته وقصده والذنب عنكم لمن قراه أو قرئ عليه من الأولياء والولاة والمتصرفين فى الأموال والجباة وسائر عبيد الدولة وخدمها على أختلاف طبقاتهم وتراجع درجاتهم فليعلمه من أمير المؤمنين ورسمه ليعمل عليه ويحسبه إن شاء ..) مرشد المتحف القبطى لوديع شنودة ص ٨٢ - ٨٣ .



قطعة من النسيج عليها كتابة كوفيه وزخارف مسيحية - صناعة الفيوم فى القرن العاشر الميلادى - محفوظة بدار الآثار العربية رقم السجل ٩٠٥٢ .

نشرت مع مقال للدكتور زكى محمد حسن عنوانه « بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الأسلامية » فى مجلة الآثار القبطية - المجلد الثالث - القاهرة سنة ١٩٣٧ .

على أن التأثيرات القبطية أمتدت خلال الفنون الأسلامية إلى أوربا فيقول المستشرق الفرنسي جاستون فييت ما نصه :

(L' Europe se mit à lécole de la civilization Orientale : la production en Occident se transforma . C'est d'Orient que nos ancêtres apprirent á fabriquer les étoffes de luxe .. le satin, le velour, les étoffes brochés d'or et d'argent, ou les tissus legers comme la mousseline, la gage, le taffeta .. avec l'usage de l'alun pour fixer les couleurs ..C'est encore á l' Orient que l'Occideut emprunta l'art de faire le papier, la confiserie, les sirops . De la même source, enfin, nous vinrent certaines espéces, dont la culture devait susciter des industries nouvelles Comme la canvre et le lin ...) .

وترجمته ما يلى : « لقد أنتسبت أوربا إلى مدرسة الحضارة الشرقية وبذلك تطور الإنتاج فى الغرب . فمن الشرق تعلم أجدادنا نسج أقمشة كالساتان والقطيفة والأقمشة المزركشة بالذهب والفضة والأقمشة الخفيفة كالموسلين والشيفون والتافتاه ... مع استعمال حجر الشب (الشَّبة) لتثبيت الألوان ... ومن الشرق أيضا تعلّم الغرب صناعة الورق والحلوى والشربات . ومن المنبع ذاته وردت الينا أنواع معينة من النبات التى أدت زراعتها إلى قيام صناعات جديدة : كالكتان والتيل »[١] .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) « تاريخ الأمة المصرية » جـ ٤ مصر العربية من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى سنة ٦٤٢ - سنة ١٥١٧ م لجاستون فييت ص ٣٨٦ .

٦١ - على أن الحاكم - رغم عودته إلى جادة الحق فى معاملة القبط - ظل يحيط نفسه بالخفاء والغموض الذى كان شيمة آله جميعاً . فاستمر يخرج ليلاً بمفرده على ظهر حماره ويصعد فوق جبل المقطم والظلام مخيم . وفى هذا التجول الليلى ، كان يلبس ثوباً أبيض وعمامة بيضاء ، ويكتفى بهذه البساطة المتناهية فى الملبس ، فلا يتحلى بجوهرة واحدة - سواء فى ثوبه أو فى عمامته . وكان قد بنى مرصداً للنجوم فى فى أعلى هذا الجبل ليقضى فيه الساعات الطويلة . وكانت إحدى وسائله لإرهاب شعبه ادعاؤه معرفة الغيب والرؤيا فى الظلام . حتى لقد أعتقد بعض الناس أنه يستطيع أن يستشف الخفايا . وكان خروجه ليلاً بمفرده لا يحيط به حرس ولا يمشى خلفه تابع ، لأن الخفاء الذى أشاعه عن نفسه وقوته الجسمية الخارقة وعدم تورعه عن الفتك بأى شخص - كل هذه الصفات أحاطته بسياج من الرهبة وكانت بمثابة حرس ساهر عليه .

٦٢ - ثم تجاوز الحدود وادعى الألوهة . وتثبيتاً لهذا الأدعاء فى القلوب أعلن حرمان ابنه الظاهر من العرش وأوصى بتوليه أحد المشايعين له من بعده كذلك ظل يبطش بالمسلمين رغم مهادنته القبط ، وزاد على هذا كله تعريضه بشرف أخته التى قضت حياتها بغير زواج والتى كانت على جانب كبير من الذكاء والدهاء . فنقمت عليه ، وتآمرت ضده مع بعض المتبرمين به من حرس القصر . فحدث بعد أن عرض الحاكم بشرف أخته بأيام قليلة - أن خرج ليلاً كالمعتاد ولم يعد . ولم يعثر أحد على جثته ولا حتى على بقية منها ، مع أن حماره وجد مثخناً بالجراح . وظل اختفاءه سراً مكتوماً . فادعى مشايعوه أنه أختفى مؤقتاً وأنه سيعود إلى الظهور يوماً ما ، بينما أشاع غيرهم أنه قصد إلى جبل الدروز حيث نادى بدين جديد [1] . وهناك تقليد قبطى يقول أنه ذهب إلى دير شهران حيث تنصر وقضى بقية حياته فى هدوء وانزواء . وقد تولت أخته الملك سنتين ثم سلمت مقاليده للأمير الظاهر الذى كان قد حرمه أبوه .

٦٣ - أما الأنبا زكريا فقد عاش ثلاث سنين بعد الحاكم ، تمتع خلالها

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پوول ص ١٣٣ - ١٣٤ مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى المبحث الثانى لجاستون فييت ص ١٨٢ - ١٨٣ .

هو وشعبه بالأمن والاستقرار . لان أخت الحاكم أولاً ثم الظاهر ثانياً اتبعا خطة المعز والعزيز فى حسن المعاملة وفى اقرار حق الجميع : مسلمين وقبط سواء بسواء . وتنسم القبط عبير هذه الحرية فرحين مسبحين الله الذى فرج كربهم وأراح قلوبهم بعد التعب والعناء [1] .

٦٤ – ولقد تجلت نعمة الله تعالى فى شخص الأنبا زكريا إذ كان عطوفاً على اخوته الأساقفة وعلى أبنائه الكهنة والشعب . وقد بدا هذا العطف واضحاً بأزاء الأنبا مرقوريوس أسقف تلبانة . فقد أصيب هذا الأسقف فجأة بالبرص ، فامتلأت نفسه حزناً وقصد إلى دمرو حيث كان البابا الاسكندرى مقيماً . وما أن وقعت عينا رجل الله على أخيه المريض حتى أنهمرت الدموع عليه وقال له فى دعة وتوجع : « اننى حزين القلب من أجلك يا أخى ، لكن اسمح لى أن أقول لك أن كهنوتك فى خطر ان لم يرفع الله عنك هذا المرض لأنه من الأمراض التى قيل عنها فى الكتاب المقدس بأنها نجسة » . وبكى الأسقف المريض بكاء مراً ثم قال : « أسألك يا أبى أن تصلى لأجلى » . وتركه على هذه الكلمات وذهب الى كنيسة فى ايبارشيته على اسم السيدة العذراء والدة الإله . وكانت الكنيسة فى بلدة اتمى ولها كاهن شيخ اسمه فرج . وكان وصول الأنبا مرقوريوس إلى هذه الكنيسة يوم الأثنين . فنادى تلميذه وقال له : « أتركنى وحدى ثلاث أيام . ثم تعال لترى ماذا أصابنى يوم الأربعاء » فتركه التلميذ ومضى . ووقف الأسقف المريض أمام أيقونة السيدة العذراء طوال الاثنين والثلاثاء ، وفى يوم الأربعاء غلبه تعبه وصومه ودموعه فمال رأسه إلى الأمام وأستند إلى أيقونة أم الرحمة فى شبه إغماءة . وعندها أحس بيد السيدة العذراء تمتد إليه وتمسح جسمه كله . فأفاق فى يقظة تامة وتفرس فى نفسه فإذا بجلده أبيض لا بقعة فيه اطلاقاً . وتهلل قلبه فنادى على الكاهن فرج . وكان فى رنين صوته ما يبين انفعاله فسارع إلى القمص . فرجا منه الأسقف مرقوريوس أن يفحص جسمه بالتدقيق فأطاعه ووجده معافى . فرفع الكاهنان صلاة الشكر للآب السماوى ، وسبحا تسبحة التمجيد للسيدة العذراء فى نشوة وانتصار .

---

(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص ٢٣٩ - ٢٤٣ ، مصر فى عصر الدولة الفاطمية لمحمد جمال الدين سرور ص ٥٨ .

الكشف عن قصر أخت الحاكم بأمر الله

★ تحت جامع قلاوون بحي الجمالية تم هذا الاسبوع اكتشاف جزء من القصر الغربي الصغير الذي كانت تقيم فيه « ست الملك » شقيقة الحاكم بأمر الله .

القصر بناه والدهما الخليفة العزيز بالله سنة ٩٦٠ ميلادية ٣٨٠ هجرية في العصر الفاطمي . وكان يتوسط مدينة القاهرة اذ ذاك قصران : الشرقي الكبير الذي بناه المعز لدين الله الفاطمي والغربي الصغير الذي بناه الخليفة العزيز بالله وبينهما شارع فسيح عرف باسم « بين القصرين » وهو المعروف الآن باسم شارع المعز . وبعد العصر الفاطمي آلت ملكية القصر للاميرة مؤنسة القطبية في العصر الايوبي وكانت من اشهر اميرات هذا العصر . وبنهاية العصر الايوبي اشترى السلطان منصور قلاوون هذا المكان في العصر المملوكي ، واقام عليه مجموعة قلاوون الاثرية : « قبة » و « مارستان » [مستشفى] ، والمسجد الذي اكتشف تحته جزء من القصر الغربي الفاطمي ..

بعض مخلفات قاعة ست الملك تم انتشالها . وهي مجموعة من : القطع الخزفية والصيني وبقايا اوان زجاجية وشبابيك القلل المزخرفة وقنينة يدوية من الفخار كانت تملأ بالزيت والمواد كيماوية ومكحلة مازالت بقايا الكحل عالقة بها . وبعض الزخرفة من الطوب الاحمر الصغير الحجم والمطلي بالجص ، وكانت تزين واجهات بعض القاعات .

وفي هذا العصر كانت القصور تشيد دواوين الحكم الى جانب مساكن الحاكم وعائلته ، وكانت القصور تنشأ اولا ثم تقام حولها المدن .

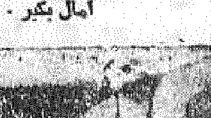
الحفائر يشرف عليها : د . جمال محرز مدير مصلحة الاثار ، وصلاح عاشور كبير مفتشي الاثار الاسلامية بمنطقة شمال القاهرة .

وست الملك التي عاشت في مصر منذ اكثر من ٩٠٠ سنة لم يكن لاسمها تداول حقيقي ، فلم تكن تشارك في الحكم ، ولكن يقال انها ربما كان لها تأثير على اخيها الحاكم بأمر الله .

آمال بكير .



جدران القصر الغربي كما تبدو تحت صحن جامع السلطان قلاوون الذي بناه الخليفة العزيز بالله والد الخليفة الحاكم بأمر الله وست الملك



مكحلة زجاجية ما زال بعض الكحل عالقا بها .

وفى المساء جاء تلميذ الأنبا مرقوريوس ليرى ماذا به حسب الاتفاق . فقال له الأسقف : « لقد تحنن علىَّ سيدى ومخلصى الحبيب وشفانى بشفاعة السيدة العذراء أمه الحنون ، لذلك سأبقى هنا ثلاثة أيام أخرى لأرفع آى شكرى وتمجيدى لله العلى . فاتركنى هذه الأيام الثلاثة ، وعد إلىَّ يوم السبت ، وأحضر معك دابة » فأطاعه تلميذه وخرج . وأحضر القمص فرج طعاماً لأسقفه الذى لم يأكل غير قطعة من الخبز وشرب قليلاً من الماء . ثم عاود صلواته ولكن فى بهجة ومديح . وفى يوم السبت عاد التلميذ إلى أسقفه الذى غادر الكنيسة وركب الدابة التى أحضرها له تلميذه وقصد إلى دمرو ثانية ، فوصلها صباح الأحد ووجد أن الأنبا زكريا لا يزال فيها فقال له : « لقد تقبل الآب السماوى صلواتك عنى يا أبى » . أجابه الشيخ القديس : « أن إيمانك هو الذى شفاك » . ثم تهلل الحبران معاً وسبحا الله الرحيم . وحين دخلا الهيكل قال البابا الاسكندرى للأنبا مرقوريوس : « تقدم اليوم وارفع الذبيحة الإلهية لأن نعمة الله قد تداركتك » . فأدى الأسقف شعائر القداس الإلهى فى بهجة وتهليل ، وسرت فرحته إلى الشعب فشاركه إياها .

على أن عطفه لم ينصب على رجال الكهنوت وحدهم بل شمل الشعب أيضاً إذ كان يكتفى بالقليل من القوت والملبس ويوزع كل ما يأتيه من مال على المستورين والفقراء . ومن طريف ما حدث له أن أتته امرأة ذات يوم وقدمت له مبلغاً من المال . فقال له الأنبا زكريا : « الرب يقبل عطاياك » وصمت . وانتظرت هى أن يقول شيئاً آخر ولما لم يقل خرجت وهى تشعر بالضجر . فجاء تلميذه يخبره بأمرها . فقال البابا : « امض وادعها » فلما دخلت إلى حضرته ثانية أمر تلميذه باحضار ميزان . ثم وضع تقدمتها فى كفة وفى الكفة الاخرى وضع ورقة كتب عليها الرب يقبلها منك » وأمر تلميذه بأن يرفع الميزان . وعندما رفعه رجحت الكفة التى فيها الورقة . وقال لها البابا : « يا ابنتى خذى منهما ماأردت » فخرت على ركبتيها باكية وأخذت الورقة ثم رجت منه أن يصلى لأجلها . واتخذت من الورقة قوة لها على الشدائد ووقاية لها ضد صغر القلب .

وهكذا بالخدمة والدعة ، وبالمشاركة الوجدانية والصلوات غير المنقطعة ،

قضى الأنبا زكريا أيامه ، ولقد انعكست محبته على القلوب ، فبادله أبناؤه هذه المحبة وأخلصوا له الولاء فرعاهم ، وسهر عليهم فى مدى سبع وعشرين سنة وأحد عشر شهراً أنضم بعدها إلى صفوف الكنيسة المنتصرة [١] .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين نشره مع ترجمته إلى الانجليزية يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأوسولد برمستر - المجلد الثانى - الجزء الثانى ص ١١١ - ١٥١، السنكسار الأثيوبى...ترجمة واليس بودج جـ١ ص ٢٣٩ - ١٤٣

بولس (الواضح) بن الرجاء

٦٥ - وثمة صورة ساطعة تلمع أمامنا من وراء القرون عن هذه الفترة التى سادها السلام والطمأنينة : هى صورة الواضح بن الرجاء . فلقد شابه هذا الرجل شاول الطرسوسى حين وقف شاهداً على رجم استفانوس أول شهيد إذ وقف الواضح شاهداً ومشاركاً فى قتل أحد المؤمنين من المسيحيين ، ثم شابهه حينما أصبح بولس إذ آمن بالمسيح ولذلك اختار أن يتخذ لنفسه اسم بولس أيضاً . وتتلخص سيرته فى انه بعدما اشترك فى قتل المسيحى ذهب ليحج . وكان السفر للحج قديماً شاقاً محفوفاً بالمخاطر إذ كان يضطر الحجاج الى قطع الصحراء الشاسعة على ظهور الجمال . وحدث عند العودة من الحج أن نزل القوم فى ذات مساء ليشربوا ويسقوا جمالهم . فضل عنهم الواضح وخاصة لأن الظلام كان قد أسدل أستاره . وفيما هو قلق ومتحير ماذا يعمل لينجو بنفسه من هذا القفر المترامى الذى غطاه الظلام إذا بفارس يرتدى الملابس الرسمية ويمتطى صهوة جواده يقف أمامه ويسأله : « ماذا حدث لك ؟ » فلما أخبره بما هو فيه من مأزق قال له الفارس: « مادمت قد فقدت جملك وضللت عن القافلة التى كنت معها فاركب خلفى على جوادى » . وتنفس الواضح الصعداء وركب خلف الفارس . ولم يعرف من هو ولا ماذا فعل به ولكنه وجد نفسه بعد دقائق داخل بناء فسيح . وكان البناء هو كنيسة أبى السيفين ببابلون ولو انه لم يعرفها طبعاً . ولكنه رأى القناديل موقدة ورأى على ضوئها أيقونات القديسين فأدرك أنه داخل كنيسة ما . ونام مطمئناً إلى الصباح . وعندما دخل بواب الكنيسة كعادته لينظفها ورآه ظن أنه لص وكاد يستغيث ولكن الواضح أشار إليه بالسكوت وروى له كل ما أصابه . ولم يصدقه البواب فعاد الواضح يسأل عن القديس شفيع الكنيسة التى هو بها فاعلمه أنه أبو السيفين . فرجا منه أن يريه صورته إذا كان ذلك ممكناً . وحينما وقف أمام الأيقونة هتف : « حقاً ان هذا هو الفارس الذى أنقذنى من الموت فى الصحراء . فهذا لباسه وهذه منطقته وهذا حصانه وهذان سيفاه ! » وذهل البواب وزعم أن الرجل قد جن . ولكن الواضح طلب إليه أن يأخذه الى قمص شيخ يفهم الحقائق الروحية فأجابه الى طلبه . وحينما سمع الرجل الروحانى بما جرى صدقه ولبى طلب الواضح فى أن يقرأ الكتاب المقدس وكتب الآباء . وأكب الواضح على القراءة وتفتح

قلبه فرحاً من القمص أن يعمده . وتردد القمص فى بادئ الامر واقترح عليه أن يذهب الى برية شيهيت كى يكون بعيداً عن أهله ومعارفه . ولكن الواضح ألح عليه قائلاً : « أن الطريق بعيد وقد يفترسنى وحش أو أموت بسبب من الأسباب قبل أن أصل إلى الوادى المقدس وأنال نعمة المعمودية » . وعندها صبغه القمص بالصبغة المقدسة (المعمودية) باسم بولس ثم عاد يطلب اليه أن يذهب الى البرية فلبى طلبه وترك كنيسة ابى السيفين التى ظل مقيماً بها منذ أن أحضره شفيعها اليها .

ووصلت القافلة التى كان الواضح أحد أعضائها . وذهب صديق أبى الرجاء ليعلمه أن ابنه ضل عنهم ولم يقفوا له على أثر فظنت العائلة أنه توفى وعملت عليه مناحة .

على أن الرهبان قالوا للواضح بأن معموديته لا تدعمها غير شهادته أمام عارفيه فترك البرية وعاد الى كنيسة أبى السيفين . ورآه أحد عارفيه فذهب الى أسرته يقول : « لقد رأيت اليوم شاباً نصرانياً شديد الشبه بابنكم » . فذهب اخوته الى منطقة الكنيسة يراقبونه عن بعد فلما رأوه تيقنوا أنه هو فأمسكوا به وأخذوه الى البيت واشتد معه أبوه وأساء معاملته فقبلها فى رضى . واشتكى أمره للخليفة العزيز فلما استوضح الخليفة الحقيقة امر بتركه حراً وهيأ له فرصة للمناظرة الدينية فى قصره أمام المسلمين والقبط . فاستمتع بولس إذ ذاك بالحرية .

على انه لما آل الحكم الى الحاكم بأمر الله عاد أبو « الواضح » الى التضييق عليه فحبسه واستبد به ومنع عنه الطعام والشراب عدة أيام . ثم أخرجه فوجده فى صحة ونضرة ولم يكن يدرى أن الأنبا مكارى الكبير ظهر له فى الحبس وقواه وأطعمه . وعند ذاك ضاعف استبداده وأخيراً ذهب يشتكى منه الى الحاكم بأمر الله . ولكن شاءت المراحم الإلهية أن تكون هذه الشكوى فى فترة من فترات الصفاء . فأمر الحاكم بأن يأتى المشتكون والمشتكى عليه أمامه . فلما مثلوا بين يديه أمرهم أن يتحاجوا أمامه . وبعد أن استمع إلى الطرفين أعجبه كلام الواضح فأمر بتركه وشأنه . فلما أخلى سبيله للمرة الثانية ذهب الى البرية حيث ترهب بدير الأنبا مكارى الكبير . وفى تلك الأثناء تعرف بالأنبا ساويرس أسقف الأشمونين ووضع نفسه تحت خدمته بأن جمع له كل السِّير التى وجدها فى الدير . كذلك

وضع كتابين سمى أحدهما « الواضح » لأنه ضمنه توضيحاً صريحاً للعقيدة التى اعتنقها، أما الكتاب الثانى فدعاه « نوادر المفسرين » [١] فلما رأى الرهبان ما تحلى به من الفضل والعلم أمسكوا به قسراً وقدموه إلى الأب البطريرك الذى كان يزور البرية آنذاك فرسمه قساً . فتعرض بهذه الرسامة لغضب العربان المقيمين بتلك الجهات وخاف عليه الرهبان من القتل فقالوا به : « لقد شهدت لإيمانك وسط العالم فلا تعرّض نفسك للموت الآن بل أمض إلى الريف [٢] وعش هناك » . فمضى إلى بلدة صندفا حيث صار قيما لكنيسة الشهيد ثيئودورس يخدمها ليلاً ونهاراً مدة سنتين . واتفق أن جاء شماس من أهل منوف اسمه تيدرا بن مينا الى هذه الكنيسة فوجد هذا القديس محموماً . ولقد قال له بولس حين رآه : « مطانوة أن لا تفارقنى لأنى لم يبق لى غير يومين على هذه الأرض . فمتى أسترد الآب السماوى وديعته فادفنى قبل أن يعلم أحد » . ولما تنيح هذا الرجل البار تحير الشماس فى أمره قليلاً اذ كان بعض الغوغاء قد سمعوا بالخبر رغم الحرص الذى أبداه الشماس . فبدأوا يتجمعون حول الكنيسة . وفيما هو يروح ويغدو فى داخلها مصلياً مفكراً انزلقت رجله تحت العتبة واذا به يجد مطمورة حسنة نظيفة فأنزل بها جسد جسد القديس وردم فوقها وأصلح موضع العتبة . ثم فتح باب الكنيسة . فلما دخلها الغوغاء لم يجدوا شيئاً فتركوا الكنيسة لأصحابها فى سلام [٣] .

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

(١) جاء فى دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس جـ١ ص ٣٥ بأنه كتب أربع رسائل لا إثنتين ، عنوان الرسالة الثالثة هو « هتك المحجوب » ، والرابعة سيرته الخاصة ، كذلك بنى كنيسة باسم رئيس الملائكة ميخائيل فى رأس الخليج .

(٢) الريف فى نظر الرهبان هو البلاد المصرية كلها ما عدا الصحراء .

(٣) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين نشره مع ترجمته إلى الانجليزية يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وبورمستر - المجلد الثانى الجزء الثانى ص ١٠١ - ١١٢ .

التراخى الموجع

٦٦ - التنافس فى الانتاج الفكرى والفنى .
٦٧ - التداول فى امر انتخاب البابا الاسكندرى .
٦٨ - العودة الى السمونية ونفور الشعب من باباه .
٦٩ - فترة من الجوع والفوضى .
٧٠ - معاهدة مع امبراطور القسطنطينية
٧١ - ولاء القبط لكنيستهم رغم الجفوة بينهم وبين باباهم .
٧٢ - الراحة الكبرى للأنبا شنودة الثانى .

٦٦ - وعاد السلام إلى البلاد المصرية . وسار الخليفة الظاهر بن الحاكم بأمر الله على خطة التسامح والألفة [١] التى سار عليها جده العزيز بالله . وقد نتج عن هذه الحرية وهذا التسامح أن كثر الإنتاج الفكرى والفنى : فتبارى العلماء والأدباء فى تأليف الكتب الدينية والأدبية والعلمية وتنافس الشعراء فى نظم القصائد [٢] . وراجت سوق العلم والأدب واستمتع الشعب بالموسيقى والغناء [٣] .

بل أن الظاهر ذهب فى تسامحه إلى أبعد من هذا لأنه منح الذين غيروا دينهم فى عهد أبيه الحق فى أن يرجعوا إلى حظيرة دينهم القديم كما سمح باعادة بناء الكنائس المتهدمة [٤] .

كذلك اندفع ذوو المواهب فى الإنتاج الفنى فاستمروا يزينون الخشب وينقشونه ، فبعد أن كانوا يرسمون صور الرسل والقديسين خلال هذه الزينة أصبحوا يستخدمون الأشكال الهندسية والنباتية التى تتخللها الطيور

---

(١) يقول لنا محمد جمال الدين سرور بأن الخليفة الظاهر كان على النقيض من أبيه الحاكم نحو أهل الذمة ، فلم يكد يتولى الخلافة حتى عمل على إكتساب عطفهم بأن أصدر بياناً أعلن فيه أنهم أحرار فى شعائرهم وعقائدهم وأنه لا إكراه فى الدين - راجع كتابه عن « مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ٥٨ » .

(٢) « نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين » لعطيه مصطفى مشرفة ص ٩٢ - ٩٤ . ويجدر القول هنا بأن أحد أولاد المعز كان شاعراً .

(٣) بل لقد إستمتعوا بالخيال (أو خيال الظل كما نسميه الآن) فيخرج الناس فى بعض الأعياد ويطوفون شوارع القاهرة بالخيال والتماثيل والسماجات كما احترف بعضهم التقليد والمحاكاة عن كتاب « مصر فى عصر الدولة الفاطمية » لمحمد جمال الدين سرور ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٤) تاريخ القدس لعارف باشا العارف ص ٦٢ .

والحيوانات فى تزيين منتجاتهم . ومن الطريف أنهم هيأوا الفرصة أمام الآتين بعدهم ليعرفوا شيئاً عن معيشتهم إذ قد صوروا الكثير من المناظر التى تبين طريقة حياتهم من صيد وقنص ومن لهو وتسلية . ومما يزيد هذه الصور طرافة أنها وجدت داخل الكنائس [1] . ومن الأمثلة على مثل هذا التفنن باب له أربع مصاريع يحتوى كل منها على ست حشوات مستطيلة منقوشة نقشاً بارزاً من الأشكال النباتية ويتوسط الحشوة حيوانات مختلفة كالأرانب والغزال والأسد ، الا أن بعض الحشوات يتوسطها شخص جالس القرفصاء يشرب من كأس بيده أو يعزف على آلة موسيقية . وكان هذا الباب أحد أبواب الكنيسة المعلقة [2] .

على أن التفنن فى صناعة الخشب لم يقتصر على مثل هذه الزخارف اذ أن هناك صندوقاً مقسماً من الداخل إلى ستة أجزاء لحفظ أوانى الزيت المقدس وتزين مسطحاته الخارجية نقوش لصلبان وأشخاص . أما غطاؤه فينزلق عليه فى مجرى صغير .

٦٧ - وفى وسط هذه الحياة الناعمة انتقل الأنبا زكريا إلى عالم الأرواح ، وإذ بعدد من الأراخنة يتنافسون فى سبيل اعتلاء السدة المرقسية الجليلة . فلما علم بقيرة بذلك ، جمع بعض المسئولين فى الكنيسة وقصدوا جميعاً إلى دار الخلافة حيث قابلوا الوزير على بن أحمد وبينوا له حق الشعب فى انتخاب راعيه الأعلى . وكان هذا الوزير رجلاً عاقلاً متزناً فقال لبقيرة : « أنت تعلم أن من الأعباء الملقاة على البابا الاسكندرى دفع ثلاثة آلاف دينار لخزانة الدولة . ولكننا سنتنازل عن حقنا هذا اكراماً لكم . فاتخذوا الخطوات اللازمة لتحقيق أمنيتكم فى انتخاب من ترونه صالحاً لكم . وسيروا بخوف الله » . فكانت كلماته هذه بلسماً لقلوب بقيرة وصحبه . وبعد أن شكروه استأذنوا فى الانصراف . ثم أبلغوا الشعب بكل ما جرى . ومن ثم اجتمع الأساقفة مع رؤساء الأديرة والأراخنة ، واستعرضوا أبرز الرهبان الذين يصلحون لمثل هذه الكرامة العليا . وفيما هم يتبادلون الرأى ذكر أحد الحاضرين اسم شنودة الذى بدأ حياة الرهبنة فى

---

(١) مرشد المتحف القبطى لوديع شنوده ص ١٦١ .
(٢) شرحه ص ١٧١ .

الرابعة عشرة من عمره . وبعد أن قضى السنين الطوال فى الدرس والعبادة والتأمل رسم قساً على دير الأنبا مكارى الكبير . فأيده بعض الأساقفة بينما اعترض عليه البعض الآخر لتقدمه فى السن . وتداول الطرفان ثم انصرفا دون أن يستقر قرارهما نهائياً . وفى رؤى الليل تراءى شيخ فى ثياب بيضاء لواحد من الأساقفة وقال له : « ان الراهب الذى سيكون أول من يدخل الكنيسة فى الصباح غداً ويقبل رفات التسعة والأربعين شيخاً هو المختار للخلافة المرقسية » . فلما أستيقظ هذا الأسقف أبلغ أخوته الأساقفة بما رأى . فدخل جميعهم الكنيسة . وما كادوا يجلسون فى أماكنهم حتى دخل شنودة وقبل رفات القديسين . فلم يتريث الأساقفة ليتأكدوا من صحة الحلم الذى لم يره غير واحد منهم فقط بل عملوا بموجبه مباشرة فأمسكوا بشنودة وساروا به لساعتهم إلى الكنيسة المرقسية بالاسكندرية حيث رسموه الخليفة الخامس والستين لكاروز ديارنا المصرية سنة ٧٤٠ ش (١٠٢٤ م) باسم الأنبا شنودة الثانى [١] .

٦٨ – وبعد رسامته بأيام جاءه أراخنة الاسكندرية يذكرونه بأن أسلافه مدينون للاسكندريين بمبلغ ألف دينار سنوياً مقابل الأوقاف الكنسية التى كان الأنبا ميخائيل الثالث (البابا الاسكندرى الـ ٥٦) قد اضطر إلى بيعها . فاعتذر لهم الأنبا شنودة الثانى بفداحة المبلغ لا سيما وأنه لا يملك منه شيئاً وأن مطالب الكنيسة العديدة تتطلب منه شتى المصروفات . فتفاوضوا معه ، ورضوا بأن يدفع لهم خمسمائة دينار سنوياً . وما كادوا ينتهون إلى هذا الاتفاق حتى دخل بقيرة وبعض أصحابه ورجوا من باباهم أن ينبذ السيمونية نبذ النواة ، ولا يراعى فى اختيار اللائق للرتب الكهنوتية غير خيرة الرهبان . فلم يوافقهم الأنبا شنودة الثانى على هذا الطلب شفوياً فحسب بل أعطاهم تعهداً كتابياً بذلك . فخرج الجميع من عنده فرحين مستبشرين .

غير أنه لم تمض شهور على هذا الاتفاق الكتابى حتى نقضه البابا الاسكندرى ، ليتسنى له دفع الضريبة المفروضة عليه من الدولة إلى جانب

---

(١) لم تكن مثل هذه الرؤيا كافية لأنها لم تظهر الا لشخص واحد وربما يكون قد أدعاها – هذا من جهة ومن الأخرى تصرف الناخبون بمقتضاها من غير بحث ولا تمحيص مع أن الآباء جروا على نصيحة يوحنا الحبيب القائل : « أمتحنوا الأرواح ... » ١ يو ٤ : ١ .

الخمسمائة دينار التى تعهد بدفعها إلى الاسكندريين . وكان السبب المباشر لنقضه عهده هو أن بعضاً من المقربين إليه قالوا له : « هل أنت خير من أسلافك الذين فرضوا الأموال ثمناً لمنح الرتب الكهنوتية ؟ أم ترى أنت أغنى منهم وأقدر على دفع الضرائب المفروضة عليك ؟ » وبهذه الكلمات ومثيلاتها غروه على اتخاذ السيمونية خطة له . وقد أستثارت السيمونية شهوة الغنى فى نفس الأنبا شنودة الثانى فبدأ بفرض مبالغ بسيطة ثم أخذ يضاعفها على مر السنين . وكلما جمع المال إزداد جشعه . وأخذ يوزعه على أقاربه ومحظوظيه متناسياً مطالب الشعب وأعباء الرعاية . ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لهان الخطب . الا أن هذا التصرف غير المنتظر قد أحزن القلوب ، فبدلاً من أن يلتف القبط حول باباهم ويعطوه ولاءهم الخالص كما كان يفعل أجداداهم مع الرعاة الساهرين ، نفروا منه وأعرضوا عنه . وقد تزايد هذا النفور نتيجة لما حدث عند زيارته القاهرة لأول مرة بعد رسامته . وذلك أنه قصد إلى كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل . فاجتمع عنده جمهور من الكهنة والشعب لتحيته وأخذ بركته ، ومن بينهم الأرخن بقيرة حامل الصليب فالتفت اليه الأنبا شنودة الثانى وقال له : الرب ملك فلتسخط الشعوب »[1]. فسأله بقيرة « ماذا تعنى بهذه الآية يا أبى ؟ » أجابه لساعته : « لقد كان مطمعى منذ سنوات أن أكون البابا الاسكندرى ولكنكم انتخبتم الأنبا فيلوثيئوس فالأنبا زكريا . وها قد أصبحت أنا الخليفة المرقسى الآن دون أن يكون لأحدكم صوت فى الأمر » . وتبادل الأراخنة نظرات الألم الممزوج بالغضب ، وأستأذنوا فى الخروج وعندها قال بقيرة : « لقد ترنم صاحب المزمور بهذه الآية للتعبير عن أن السيد المسيح ملك رغم إرادة اليهود . ومثل هذا التشبيه غير لائق » . وبهذه الكلمات خرج جميع الأراخنة بلا استثناء فكان خروجهم تعبيراً صحيحاً عما فى نفوسهم من خيبة . ولو أن الأنبا شنودة الثانى كان ضمن الرعاة المدركين لعظم مسئوليتهم لسعى إلى تدارك الأمر ، ولحاول أن يستعيد ثقة الشعب ولكنه لم يأبه لهم . ثم تمادى فى طغيانه ورسم أسقفاً لأسيوط دون أن يستشير أحداً من أراخنتها لأنه كان قد قبض منه مبلغاً من المال . فواجه الأسيوطيون هذا التصرف بأن وقفوا فى وجه الأسقف ومنعوه من دخول

---

(١) مز ٩٩ .

مدينتهم . ثم بعثوا برسالة إلى الأنبا شنودة الثاني قالوا له فيها : « لقد قال مخلصنا الصالح مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا » [1] فإن كان - له المجد - قد منحك الكهنوت مجاناً فكيف تستسيغ أن تعطيه لغيرك بالمال ؟ ولقد أعلن الرسل ، وخلفاؤهم من بعدهم ، الحرم على من يبيع الكهنوت أو يشتريه . غير أن هذه الرسالة لم تجد صدى فى نفس البابا الاسكندرى فلم يحاول تصحيح الموقف . وأصر الأسيوطيون على موقفهم . ولما لم يتمكن الأسقف المفروض من أن يصل إلى عاصمة كرسيه ، عاد إلى الأنبا شنودة الثانى ورجا منه أن يعيد له المال الذى أخذه منه ويرده الى ديره ، أو يحاول التفاهم مع الأسيوطيون ليسمحوا له بالدخول الى عاصمتهم . على أن البابا الاسكندرى أصم أذنيه عن الطلبين ، فلم يجد الأسقف أمامه سبيلاً غير العودة الى ديره . فتزايد نفور الشعب من باباه لهذا التصرف .

٦٩ - وكأن هذا الركود الروحى ، وهذا الأسى الذى عم القبط لم يكن كافياً فجاء الفيضان ناقصاً سنتين متواليتين . وكانت النتيجة الطبيعية أن شحت الزراعة وانتشر الجوع . وزاد الطين بلة أن الأشقياء أخذوا يسطون على الشعب المسكين كما تسطو الذئاب الجائعة على القرى الآمنة . وتمادى هؤلاء الأشقياء فى سطوهم فلم يتورعوا عن الأعتداء على قوافل الحجاج . وانتهز السوريون فرصة اختلال الأمن فثاروا واعتدوا على الحدود المصرية .

٧٠ - وفى سنة ١٠٢٧ م جاء الفيضان وافياً فأعاد الرخاء كما أعاد الأستقرار الى البلاد . وفى تلك السنة عينها وقع الظاهر معاهدة مع قسطنطين الثامن مؤداها أن يرمم امبراطور الروم المسجد القائم فى القسطنطينية ويطالب المسلمين بالدعوة للظاهر فى صلواتهم ، وتعهد الخليفة مقابل هذا أن يمنح الامبراطور الحق فى ترميم كنيسة القيامة التى كان أبوه الحاكم قد أحرقها [2] . وهكذا أعيد بناء الكنيسة التى تضم القبر الممجد بين جوانبها بعد ثمانى عشرة سنة من إحراقها . وتهلل القبط مع بقية المسيحيين لهذه الفرصة السعيدة وتعاونوا على اعادة بناء الكنيسة التى كانوا يتباركون جميعاً بزيارتها فى مختلف المناسبات المجيدة .

---

(١) متى ١ : ٨ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالأنجليزية) لستانلى لاين بوول ص ١٣٥ - ١٣٦ الخطط للمقريزى جـ ١ ص ٣٥٥ .

٧١ - ولم يتسرب اليأس إلى قلوب بقيرة وصحبه بل عاودوا الكرة لعلهم يفلحون فى اقناع باباهم بالعدول عن خطته ، وتقابلوا معه عدة مرات ليذكروه بأن السـيد له المجد قد قال أن الذى يعبد المال لا يقدر أن يعبد الله [١] . غير أنه مما يؤسف له أن جهودهم جميعاً ذهبت أدراج الرياح . لأن الأنبا شنودة الثانى كان يعدهم بالعدول عن خطة السيمونية ثم لا يلبث أن ينسى وعده عند خلو أول كرسى .

وفى تلك الفترة رزح المصريون تحت نير عاملين كليهما مر : فقد امتلأت نفوس القبط خيبة إذ رأوا باباهم يتمادى فى التغاضى عن رغباتهم ، وفى السعى نحو هدف واحد هو اكتناز المال . وفى الوقت عينه أخذ الظاهر يلهو عن مهام الملك بالانغماس فى السهر والعبث ، فأحاط نفسه بالراقصات والمغنيات وتناسـى كل شئ آخر . على أن حكمة الوزراء تلافت عبث الظاهر ، أما انزلاق الأنبا شنودة الثانى فلم يكن له من يوقفه . لأن هذا البابا رفض أن يصغى إلى نصح الناصحين كما رفض أن يسلم ادارة الكنيسة لأى شخص . ورغم ما أحس به القبط من ألم وخيبة فقد ظلوا على ولائهم لكنيستهم : يتمسكون بإيمانها ويحضرون الصلوات بانتظام . وقد نبع ولاؤهـم هذا من اعتزازهم بماضيهم ومن اعتبارهم بدم الشهداء وجهاد المعترفين ، ومن ثقتهم التامة فى مواعيد الله . كذلك أدركوا أن ولاءهم يحتم عليهم أن يحافظوا على التراث الذى تسلموه عن الآباء ليسلموه الى الأبناء فكانوا يشددون عزائم بعضهم بعضاً ويتخذون من مواسمهم وأعيادهم فرصاً للتساند والأستبشار .

٧٢ - وحدث أن أصيب الأنبا شنودة الثانى بخفقان شديد فى قلبه وبألم فى أذنيه وبكحة عنيفة تهزه هزاً . وبذل الأطباء قصارى جهدهم من غير جدوى . فظل المرض على شدته ثلاث سنين كاملة والبابا يئن ويتوجع ، ويتناول الأدوية لعله يجد فيها الراحة التى فقدها . وبعد هذه المدة من الألم وملازمته الفراش وجد الراحة الكبرى اذ قد انتقل الى دار الخلود سنة ١٠٣٩ م . وقد دامت باباويته أربع عشرة سنة وسبعة شهور [٢] .

---

(١) متى ٦ : ٢٤ .

(٢) تاريخ بطاركة الاسكندرية - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس جـ ١ ص ٣٤٧ - ٣٥٤ .

خادم آمـــين

٧٣ - « غيرة بيتك أكلتنى » - هكذا ردد يوحنا الرسول كلمات فاديه الحبيب ، وبقوة هذا الترديد وهذه الذكرى للتعاليم الإلهية التى تلقوها أندفع الرسل يعلمون ويبشرون . وكانت حياتهم قدوة مثلى للآلاف ممن جاءوا بعدهم والتهبوا بنورهم . ومن بين هؤلاء الآلاف الذين كرسوا حياتهم للتبشير والتعليم شماس اسكندرى اسمه موهوب بن منصور بن مفرج . فقد كتب يقول فى مقدمة كتاب سير البطاركة الذى وضعه : « منذ أن عنى آباؤنا الأبرار بتدوين سير الباباوات ، والقديسين مبتدئين باللحظة التى وطئت فيها قدما مرقس البشير أرضنا الحبيبة حتى الأنبا شنودة الثانى خليفته السادس والخمسين لبنيان المؤمنين ، رأيت أن أنهج على منوالهم وأكمل سـير الآباء الذين تعاقبوا على الكرسى المرقسى من بعد الأنبا شنودة . وكان هدفى بنيان المؤمنين وبنيان نفسى . فبدأت عملى بأن قصدت الى دير الأنبا مـكارى الكبير حيث تقابلت مـع الشماس أبى حبيب

---

(١) يوحنا ٢ : ١٧ .

(٢) متى : ١٩ : ٢٦ .

ميخائيل بن بدير الدمنهوري الذي تبادلت الرأي وإياه عن غايتي من جمع سير الآباء . وقد زرنا معاً كل الأديرة القائمة في تلك المنطقة المقدسة ، وفرحنا اذ وجدنا سبعمائة راهب فيها : أربعمائة منهم في دير الأنبا مكاري الكبير ، ومائة وخمسة وستين في دير الأنبا يؤنس القصير ، وخمسة وعشرين في دير الأنبا يؤنس كامي ، وعشرين في البرموس ، وأربعين في دير الأنبا بيشوي وستين في السريان ... بينما وجدنا ناسكين عائشين في صومعة الأنبا موسى الأسود أحدهما قبطي والآخر حبشي [1] . وقد قابلنا هؤلاء الرهبان السبعمائة ولكننا لم نسعد برؤية المتوحدين والسياح المنتشرين في أنحاء المنطقة . فأطلعناهم على رغبتنا وفرحنا اذ وجدنا خمسة وستين سيرة مكتوبة . فعزمت بنعمة الله أن أتتبع سيرة الأنبا خريستودولس البابا الاسكندري السادس والستين وسير من تعاقبوا بعده على السدة الجليلة . وألقيت رجائي على الآب السماوي ليعينني على الوصول الى بغيتي » . فكأن هذا الشماس الغيور قد أدرك بقلبه تلك الحقيقة العظمى التي عبر عنها أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال :

ما الناس الا أول	يمضي فيتبعه الأخير
الفكر بينهما على	بعد المزار هو السفير

٧٤ – وبهذه المقدمة التي أستهل بها موهوب بن منصور بن مفرج الاسكندراني كتابه ، أخذ يسرد سيرة الأنبا خريستودولس فقال : لما خلت السدة المرقسية بانتقال الأنبا شنودة الثاني على دار النعيم أجتمع كهنة الاسكندرية وأراخنتها للتشاور ، وبدأوا يستعرضون أسماء الرهبان الممتازين حسب العادة . فذكر أحد الحاضرين راهباً فاضلاً اسمه خريستودولس كان قد قضى بضع سنين في دير البرموس نال خلالها رتبة الكهنوت . ثم ترك الدير وانفرد في صومعة على شاطئ البحر ليكرس نفسه للتأمل في الإلهيات ورغم وحدته وبعده عن العالم فإن عبير قداسته ملأ الأرجاء . فلما جاء اسمه على لسان من ذكره وافق الكل بالاجماع على أنه راهب متفوق جدير بالكرامة العليا . ومن حسن الحظ أن أشين هذا الراهب كان بين

---

(١) تقع كل هذه الأديرة في برية شيهيت ، ومما يؤسف له أن ديري الأنبا يؤنس القصير والأنبا موسى الاسود قد خربا ولم يتبق سوى أطلالهما .

الحاضرين فانتدبوه ضمن الوفد الذى قرروا ايفاده إلى صومعة خريستودولس . فلما وصلوا إلى المنطقة وجدوا باب الصومعة مسدوداً . فتقدم أشبينه ونادى عليه وأخذ يتحدث اليه فى ثقة وهدوء إلى أن أقنعه بفتح باب صومعته . وما كاد يفتحه حتى اندفع الوفد إلى الداخل وحملوا خريستودولس رغماً عنه إلى الاسكندرية . ولما سمع الاسكندريون باقتراب الوفد من مدينتهم سارعوا إلى استقباله عند مداخلها . ثم ألفوا له موكباً رائعاً ، وساروا به وهم يترنمون بالمزامير والألحان الكنسية حتى وصلوا إلى الكاتدرائية حيث رسمه الأساقفة الخليفة السادس والستين للقديس مرقس سنة ٧٥٧ ش (١٠٣٩م) .

٧٥ - وقد استهل الأنبا خريستودولس باباويته بتشييد عدد من الكنائس الجديدة فى الاسكندرية ، وبالتالى برسامة الكهنة والشمامسة اللازمين للخدمة فيها . وقد تهللت القلوب جميعاً حين وجدت البابا الجديد يتخير الخدام الأمناء الممتلئين غيرة ومحبة للكنيسة ويزودهم بنصحه وبركته ، وإزدادت القلوب فرحاً إذ أعلن هذا البابا الغيور ان الآباء الرجال المرسومين للخدمة لا حق لهم فى مال الكنيسة اطلاقاً . ثم كتب الرسائل إلى أبنائه يحثهم فيها على التمسك بالصوم والصلاة ومراعاة المراسم الكنسية المختلفة ، والمواظبة على حضور القداسات وغيرها من الصلوات المقدسة التى رسمها الآباء وختم رسائله بتحذير الكهنة والشعب من الاستعانة بالحكام المدنيين فى علاقتهم ببعضهم البعض .

ولقد وجد هذا البابا الأمين - فى تجواله بين أبنائه - أنهم فى حاجة إلى معرفة القوانين الكنسية لأن قوانين المجامع المسكونية والآباء الرسوليين كانت قد وضعت فى القرون الأربعة الأولى أو ما يتجاوزها بقليل . وبذاك لم يعد نسخها . ثم قامت أحداث مختلفة وظروف جديدة لم يتناولها المشرعون بالبحث إذ لم تكن قد حدثت أيام أن وضعوا تشريعاتهم . فرأى الأنبا خريستودولس أنه - بوصفه الحارس الأمين على الوديعة التى تسلمها - مسئول عن توضيح القوانين التى سبق الآباء أن وضعوها ، وعن وضع القوانين اللازمة لمقابلة الظروف الجديدة . وقد نشر أول مجموعة لهذه القوانين فى الثامن من شهر مسرى المبارك سنة ٧٦٤ ش (أول أغسطس سنة ١٠٤٨ م) . ولا تزال هذه القوانين محفوظة بحمد الله ، وتتعلق

بالمواسم الكنسية ووجوب مراعاتها ، وما يجب على الرعية نحو رعاتها ، وبمسك الكهنة نحو رؤسائهم الدينيين [1] .

٧٦ – وفى أول زيارة جاءها الأنبا خريستودولس الى القاهرة رأى ضرورة اتخاذ هذه المدينة مقراً لرياسته بدلاً من الاسكندرية . لأن وجود الحكام المدنيين فيها – واضطراره الى التشاور معهم فى شتى المناسبات بوصفه المسئول الأول عن الكرازة المرقسية جعل وجوده فى الاسكندرية أمراً عسيراً . ولما أستقر رأيه على وجوب الإقامة فى القاهرة رأى أن يجعل من كنيسة السيدة العذراء الشهيرة بالمعلقة مقره المختار . على أنه رأى وجوب المحافظة على خطة أسلافه بإقامة القداس الأول فى كنيسة القديسين سرجيوس وواخس (الشهيرة بأبى سرجة) . غير أن الشعب ألح عليه فى أن يصلى بالمعلقة فنزل على رغبته ، ولكنه رأى أن يسترضى كاهن أبى سرجة باقامة القداس الثانى فى كنيسته فتهلل الشعب عندما وجد أن الأنبا خريستودولس يسعى الى ارضاء الجميع بالطرق المشروعة وفى حدود القوانين الكنسية .

٧٧ – ولقد ساد الشعب شعور بالطمأنينة والأستقرار لأن الأب الروحى والحاكم الزمنى – كلاهما – كانا يعملان على راحة الجميع . فلقد كان المستنصر بالله قاصراً عند وفاة أبيه الظاهر ، فتولت أمه الوصاية عليه . وكانت أصلاً جارية سودانية ، فلما أنجبت ولى العهد أصبحت الملكة . على أنها لم تلبث أن سلمت مقاليد الملك لإبنها عندما بلغ سن الرشد . ومن حسن الحظ أنه كان مسالماً ، عادلاً ، واسع الصدر .

٧٨ – وكان وزير المستنصر رجلاً على جانب عظيم من الدهاء اسمه يازورى وحدث فى ذلك الحين أن شق التونسيون عصا الطاعة على الخليفة الفاطمى . فرأى يازورى فى دهائه أن لا يبدد قوى الجيش المصرى فى

---

(١) هناك أربع نسخ لهذه القوانين : احداها فى المتحف القبطى ببابلون (مصر القديمة) وثانيتها فى المكتبة الأهلية بباريس ، والثالثة بمكتبة الفاتيكان ، والرابعة فى مكتبة المتحف البريطانى بلندن – راجع مقال أوسولد بورمستر (بالانجليزية) عن « قوانين خريستودولس بطريرك الاسكندرية السادس والستين » نشر فى مجلة موزيون المجلد ٤٥ ص ٧١ – ٨٧ .

محاربة التونسيون الثائرين . وكانت فى مصر يومئذ قبائل تعرف باسم بنى هلال . كانت هذه القبائل موصومة « بالتمرد والعناد » . فرأى يازورى أن ينقذ مصر من براثن هذه القبائل المخربة بتسليطها على التونسيين وبالفعل أرسلها لإخضاعهم . فضرب عصفورين بحجر واحد لأنه أراح المصريين من شر هذه القبائل وأخمد الثورة التونسية فى آن واحد [١] .

وفى عهد المستنصر أستمر ازدهار الفنون الجميلة التى شجعها الفاطميون ووزراؤهم . ومن طريف ما يروى عن الوزير يازورى أن اثنين من الفنانين كانا يتفاخران أمامه بابداعهما فى الرسم ابداعا يوهم الناظر أن ما يراه حقيقة واقعة . فطلب اليهما أن يثبتا له ما يدعيان . وكان لهذا الوزير قصر شيد مدخله على هيئة قوس . فأخذ أحد الفنانين ناحية من هذا المدخل ، ونحت فوق قاع أسود راقصة فى ثوب أبيض فبدت للناظرين كما لو كانت خارجة من الحائط وأخذ الفنان الثانى الناحية المقابلة ، ونحت على قاع أصفر راقصة فى ثوب أحمر ، فبدت للناظرين كما لو كانت داخلة فى الحائط . فأعجب الوزير ببراعة الفنانين الأثنين وأجزل لهم العطاء [٢] .

٧٩ - وفى هذه الآوانة بعث خليفة مارمرقس برسالة الشركة الى أخيه يوحنا بطريرك أنطاكية . وقد حمل رسالته الأنبا ميخائيل أسقف تينيس والأنبا غبريال أسقف صا لأنهم كانا يجيدان اللغة اليونانية فقضيا فى أنطاكية بضعة أيام لقيا فيها كل مودة وترحاب . وعاد الى مصر يحملان معهما أجمل الذكريات .

كذلك حرص الأنبا خريستودولس على الصلة الطيبة التى ترتبط بين الكنيسة المصرية وأهل النوبة . فما أن وصلته رسالة جرجس ملك النوبة يرجو منه فيها رسامة أسقف له لنياحة أسقفهم حتى بادر بأختيار راهب ممتاز ورسمه وأرسله لهم فى أسرع فرصة . ففرح النوبيون لهذه التلبية السريعة ، وبخاصة لأن الأسقف المتنيح بنى كنيسة فعاجلته المنية قبل تكريسها .

---

(١) « مختصر تاريخ مصر » (بالفرنسية) الجزء الثانى المبحث الثانى لجاستون فييت ص ١٨٤ .

(٢) مصر : من مينا الى فؤاد الأول (بالفرنسية) للأب دى هينو ص ٢٣٨ .

وكان هذا الملك قد قطع الجزية المفروضة على بلاده لمصر ، فأوصاه البابا الاسكندرى بدفعها حرصاً على صلات المودة بين البلدين على أن البابا - حين بعث للملك النوبى بهذه الوصية - أكد له أن هدفه هو حفظ السلام فحسب وهو لا يريد التدخُّل فى شئون الدولة اطلاقاً لأنه يتمثل بخطة آباء الاسكندرية وهى جعل رسالته قاصرة على الدين وترك الأمور السياسية لأصحابها [١] .

٨ - ولأن ذلك العصر ساده السلام فقد وفد على مصر عدد كبير من السياح والجوابين وبين هؤلاء السياح البارزين الكاتب الفارسى ناصر الخوسرو . فما أن وطئت قدماه أرض مصر ، ووقف على ما فيها من آثار وفنون حتى وصفها وصفاً غاية فى الروعة والدقة ، وأن وصفه ليعتبر وثيقة تاريخية مشيقة لأنه يصور القاهرة يوم ذاك تصويراً مسهباً يمكن القارئ من أن يعرف ما كانت عليه هذه المدينة الكبيرة من رونق ونظام . فقد قدر ناصر الخوسرو عدد منازلها بعشرين ألفاً ، كما ذكر أن البعض من هذه المنازل كان يتألف من خمسة طوابق أو ستة . وتتخلل المدينة الحدائق والقنوات ليتنزه فيها القاهريون .

وبعد أن وصف المبانى والحدائق انتقل الى التحدث عن الفنادق التى كانت من مفاخر القاهرة إذ ذاك ، فقال ان عددها يبلغ المائتين . على أن أدق وصف وأبلغه هو ما أختص به بركة الحبش فقال عنها : « أيا بركة الأحباش ، أن اليوم الذى قضيتـه فوق سطح مياهك كان أشبه بالحلم الجميل ، ومرت الساعات فى بهجة وسرور . فما أجمل زهور الكتان السابحة فوق سطحك : بعضها متجمع متماسك كالفتيات الرقيقات الحالمات ، وبعضها منفرد فى أنفة واعتزاز » [٢] . وعلى مقربة من هذه البركة قام دير القديس يوحنا به حدائقه الغناء التي وضع تصميمها الخليفه المعز بنفسه . فكانت الركن المفضل عنده وعند خلفائه كلما شاءوا الاستجمام من عناء الحكم .

ولم تكن الحدائق والقنوات مفردة بالجمال فى حكم ناصر الخوسرو ، لأنه

---

(١) كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا لزاهر رياض ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پوول ص ١٤٠ .

انتقل بعد ذلك الى الاسهاب فى وصف الاسواق وما تحويه من بدائع الفن لم يرى لها مثيلاً . فى أية مدينة أخرى فالأوانى الفخارية دقيقة الصنع رائعة الرسوم الى حد أنه لم يسعه إلا أن يتفرس فيها مأخوذاً بها . كذلك أذهلته رقة النقوش التى يتفنن فيها صانعوا المصابيح النحاسية وزاد هذه النقوش جمالاً أن الزجاج الذى كان يوضع داخلها للانارة كان ملوناً شتى الألوان . وحين كانت توقد هذه المصابيح كانت الأنوار المنعكسة منها خلال الزخرفة الشبيهة بالدانتلا والألوان العديدة تجعل المرء يشعر بأنه فى فردوس من الجمال .

كذلك رأى ناصر الخوسرو سبع سفن راسية على شاطئ النيل ، كانت من السفن التى استعملها جيش المعز قبل أن يراها الكاتب الفارسى بما يقرب من ثلاثة أرباع القرن ، فقال عنها إن طول الواحدة منها كان مئة وخمسين ذراعاً وعرضها - عند الوسط - ستين ذراعاً [١] . وقد تبدو هذه المقاييس صغيرة الآن ، ولكنها كانت كبيرة جداً منذ عشرة قرون .

واسترسل الخوسرو بعد ذلك فى وصف النسيج الذى كان المصريون ينتجونه فقال ألوان الكتان من أرق ما رأى ، بل ان النسيج الذى كانوا ينتجونه فى تنيس كان ذا ألوان تتغير بتغير ساعات النهار . فكان الناس فى الشرق والغرب يستوردونه لجماله المنقطع النظير . وكانت هناك ألف سفينة مجهزة تروح وتغدو فى هذا الميناء الذى كانت الحركه فيه يومية . وكانت بعض هذه السفن ملكاً للخليفة والبعض الآخر ملكاً للتجار . وكان الخليفة يدفع للعمال الذين ينتجون له النسيج المطلوب منه عن سعة فكانوا يعملون برضى وسرور . ولم يكن النسيج الرائع بالانتاج الوحيد الذى يصنعه التينيسيون بل كانوا ينتجون السكاكين والمقصات الدقيقة [٢] . وكان على مقربة من تنيس بلدة واقعة على بحيرة المنزلة ينتجون فيها أنواعاً من الأقمشة الحريرية المزركشة تعرف بالديقى نسبة اليها لأن اسمها ديبق [٣] .

(١) شرحه ص ١٢١ .

(٢) تاريخ الأمة المصرية ... ص ٣٠٣ - ٣٠٤ ، ويعقب جاستون فييت على معاملة الخليفة السمحة بمقارنتها بما كان الأمراء الاقطاعيون يفرضونه من السخرة فى أوربا فى تلك القرون .

(٣) « القاهرة : تاريخها وآثارها ... » لعبد الرحمن زكى ص ٣٨ والهامش به .

وان دل وصف ناصر الخوسرو للصناعات التى تغنى بها على شئ فإنما يدل على تقدم الصناعة فى بلادنا العزيزة فى القرون المفروض بأنها قرون مظلمة . لأن هذه المنتجات صنعها عمال مصريون اذ لم يكن الاستعمار الغربى قد أشاع بيننا ادعاءه بأن بلادنا زراعية فحسب ولا بأنه علمنا الصناعة التى كنا نجهلها .

ولم يكن جمال الابتكار المصرى بالشئ الوحيد الذى أذهل ناصر الخوسرو ، بل أذهله أيضاً خصب التربة المصرية . فأبدى اعجابه بالفاكهة المتعددة الأنواع والخضروات الطازجة . وكانت أسعار هذه الحاجيات محددة ، فإن تجاسر بائع أن يزيد عليها كان عقابه أن يركب جملاً ويسير جمهور وراءه ، فينتقلون من شارع الى آخر ، بينما هو يرن جرساً ويعلن بنفسه خطأه الذى أرتكبه . وكان الضمير الجماعى فى تلك الأيام خير رقيب على التجار . كذلك كان الأمن مستتباً الى حد أن أصحاب المحال التجارية كانوا لا يحتاجون الى اغلاقها بالمفاتيح ، بل كانوا يكتفون بربط درفتى الباب بقطعة من الحبل للدلالة على أن المحل مغلق .

٨١ - وانتهى الرحالة الفارسى الى القول بأن بلاط الخليفة كان مقصد الشعراء والأدباء من كل بلد ، لأنه كان يجزل لهم العطاء . كذلك كان البلاط يموج بالأمراء والأشراف من المغرب واليمن والنوبة والحبشة ، ومن القوقاز وما يجاوره وأحياناً كان يأتيه ضيوف من التركستان والهند . وكان يحلو لهؤلاء الزوار أن يشاركوا المصريين أعيادهم الخاصة بالنيل ، والتى كان يحتفل بها القبط والمسلمون على السواء . فكان الجميع يخرجون ليلاً فى مراكب تسطع منها المشاعل العديدة . وكان الخليفة المستنصر بالله يرأس هذه الأحتفالات بنفسه أسوة بأسلافه [١] .

---

(١) « تاريخ مصر .... لستانلى لاين پوول ص ١٣٩ - ١٤١ ، راجع أيضاً مقال دكتور حسن الباشا المنشور بصحيفة الأهرام الصادرة فى ٦٩/١/٢٤ عن كتاب ناصر الخوسرو سفر نامة » الذى نقله الى العربية عن الفرنسية دكتور يحيى الخشاب وصدر بالقاهرة سنة ١٩٤٥ ، بينما يخبرنا دكتور حسن حبشى نقلاً عن ناصر الخوسرو بأنه كان فى زمن هذا الرحالة الفارسى « رجل نصرانى ، وأن الجميع كانوا يتوقعون حدوث مجاعة تعم القطر بأجمعه ، فما كان من هذا القبطى إلا أن تقدم إلى الوزير مخبراً إياه بأن فى شونه قدراً من القمح يكفى لتموين القاهرة ست سنوات » - راجع كتابه « أهل الذمة » ص ٢٢٢ .

٨٢ - ثم تعكر صفو السلام فجأة ومن غير مقدمات إذ قد حلا لبعض الدساسين أن يوقع بين البابا الاسكندرى وبين الخليفة ، فأدعى أمام يازورى بأن الأنبا خريستودولس قد بنى عشرين كنيسة جديدة فى منطقة دمرو (المحلة الكبرى) . ولم يتريث يازورى ليعرف صدق الرواية من بهتانها ، بل أمر الدساس لفوره بأن يهدم الكنائس الجديدة ويغلق القديمة مع وضع أختام الدولة على أبوابها ، وتحديد جزية لفتح كل واحدة منها . وحمل مثيرو الفتنة أمراً كتابياً من الوزير ، وذهبوا الى دمرو حيث اقتحموا البيت الذى كان البابا الاسكندرى يقيم فيه . وفيما هم داخلون وجدوا على البوابة كلمات « باسم الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد آمين » فأخرج أحدهم سيفه وكشطها . فقال له الأنبا خريستودولس فى هدوء تام : « لئن كشطت هذه الكلمات من على الأبواب فلن تستطيع كشطها من قلوبنا » . فدهش المعتدى من هذا الرد الرصين ومضى لحال سبيله .

على أن يازورى لم يكتف بما حدث فى دمرو بل أمر باغلاق جميع الكنائس فى القطر المصرى ، ولم يفقه الى أن مثل هذا العمل سيغضب المسلمين أنفسهم . فقد ثارت نفوس العقلاء منهم لهذا التعنت الذى لا مبرر له . وخلال هذه الفترة قامت فتنة فى الصعيد الأوسط أدت الى الفتك بجميع رهبان دير أبانوب قرب الأشمونين . ولقد أندفع المسلمون العقلاء بدافع نفوسهم الثائرة فقصدوا الى الخليفة المستنصر واحتجوا أمامه بشدة على يازورى . فصدر أمر الخليفة بإقالة وزيره ثم بنفيه الى مدينة تنيس . وأعقب ذلك أن أعيدت كنيسة مارجرجس بخط الحمراء (خارج القاهرة) الى القبط فرمموها على الفور . الا أن العامة تذمروا لهذا الترميم فعاودوا تخريبها ولكن القبط لم يلبثوا أن استرجعوها مرة أخرى وجددوا بناءها فدشنت من جديد . ويبدو خلال هذا المد والجزر أن تزايد استياء المسلمين من يازورى لأن الخليفة لم يلبث أن أمر بأعدامه [١] وتولية ناصر الدولة مكانه .

٨٣ - ووضح للجميع أن المستنصر يستهدف العدالة لرعاياه كلهم مما جعل المصريين اذ ذاك يعيشون فى ألفة وتفاهم . كذلك نال بعض القبط

(١) أهل الذمة فى الأسلام ترجمة حسن حبشى ص ٥٧ .

حظوة خاصة فى عينيه فعينهم فى ديوانه منهم أبو سرور ويؤنس بن يوسف الأبح الذى كان كاتم سر الخليفة والذى أتاح له منصبه أن يرمم كنيسة أبى سرجة حينما وجدها متهدمة [1] .

وفى عهد الفاطميين استمتع القبط بالأحتفاء بأعيادهم الدينية بصورة رائعة ما عدا فى الفترات القاتمة أيام الحاكم بأمر الله ... ومن أبهى الأحتفالات الاحتفاء بعيد الميلاد فكانوا يوقدون المشاعل والشموع العديدة ويزينون الكنائس . وكانت الشموع بألوان مختلفة وفى أشكال متباينة فمنها ما هو على شكل تمثال ومنها ما هو على شكل عامود أو قبة ومنها ما هو مزخرف أو محفور ولم يضيئوا الكنائس والمنازل بها فقط بل كانوا يعلقونها فى الأسواق وأمام الحوانيت . ومن الطريف أن الفاطميين كانوا يوزعون بهذه المناسـبة المجيدة الحلاوة القاهرية والسميذ والزلابية والسمك المعروف بالبورى . والعيد الثانى كان يشترك الخلفاء الفاطميون مع القبط فى الاحتفاء به كان عيد الغطاس . فكان القبط يخروجون من الكنيسة فى مواكب رائعة ويذهبون الى النيل حيث يسهر المسلمون معهم على ضفاف نهرهم الخالد . وفى كل من ليلتى الميلاد والغطاس كانوا يسهرون حتى الفجر . وكان شاطئا النيل يسطعان بآلاف الشموع الجميلة والمشاعل المزخـرفة . وفى هذه الليلة كان الخلفاء يوزعون النارنج والليمون والقصب وسمك البورى . أما فى أحد الشعانين (السعف) فكان القبط يخروجون من الكنائس حاملين الشموع والمجامر والصلبان خلف كهنتهم ويسير معهم المسلمون أيضاً فيطوفون الشوارع وهم يرتلون . كذلك كان خميس العهد فرصة للتعبير عن البهجة والتآخى فكان الفاطميون يضربون خمسمائة دينار على شكل خراريب ويوزعونها على الناس. وكان « يباع فى أسواق القاهرة من البيض المصبوغ ألوان ما يتجاوز حد الكثرة فيقامر به العبيد والصبيان والغوغاء » . وكان القبط يتبادلون الهدايا من البيض الملون والعدس المصفى وأنواع السمك المختلفة كما يقدمون منها لاخونهم المسلمين [2] .

وثمة عيد آخر ليس دينياً بالمعنى الدقيق ولكنه ارتبط بالأعياد الدينية

---

(١) « الدير المحرق » للأنبا غريغوريوس أسقف الدراسات العليا والبحث العلمى – هامش ص ٦٥ .

(٢) الخطط للمقريزى جـ ١ ص ٢٦٥ – ٢٦٦ ، ٤٥٠ ، ٤٩٤ .

وهو عيد النيروز الذى أطلق عليه الآباء اسم « عيد الشهداء » حينما ربطوا بين السنة المصرية القديمة وبين ما جرى فى عصر دقلديانوس من اضطهاد . وقد رأى الفاطميون أن يشتركوا فى أحياء هذا العيد أيضاً فكان يوم عطلة عامة تغلق فيه الاسواق ويوزع فيه الخليفة الكسوة على رجال الدولة ونسائهم وأولادهم ويصرف حوائج العيد من بيت المال [1] .

ولقد سار والى الاسكندرية - حصن الدولة - على خطة الخليفة المستنصر فقامت بينه وبين القبط مودة وصداقة ولم يأذن لهم بالسير فى مواكبهم أيام هذه الأعياد فحسب بل أنه زاد على ذلك أيضاً بأن أمر رجاله وحفظة الأمن فى المدينة أن يشتركوا مع القبط فى هذه المواكب كى يحافظوا عليهم من الرعاع .

وفى هذه الفترة السعيدة ظل الأنبا خريستودولس مقيماً فى دمرو . وكان يرسل للاسكندريين سنوياً ثلاثمائة وخمسين ديناراً من غير أن ينتظر مطالبتهم إياه . فقنعوا بهذا المبلغ لكونه يصلهم بسهولة وانتظام .

٨٤ - ومما يؤسف له أن المستنصر بدأ بعد ذلك ينصرف إلى ملاذه ولهوه تاركاً دفة البلاد فى يدى وزيره ناصر الدولة . واتبع الوزير خطة مناهضة الجند السودانيين الذين تناصرهم أم الخليفة ، وتشيع للجنود الأتراك . فقامت منافسة عنيفة بين هذين الفريقين وصلت إلى الحرب . وانتصر الأتراك ، واضطروا السودانيين الى أن يلتجئوا إلى الصعيد . ولم يرض السودانيون بالفشل ، فأخذوا يناوشون الأتراك براً وبحراً (على النيل) . وأخذت أم الخليفة تدبر المؤامرات لعلها تعيد إلى مواطنيها نفوذهم ولكن الترك ظلوا قابضين على زمام الأمور . فأسكرهم فوزهم ، وتشددوا فى المطالبة بزيادة مرتباتهم . وكلما نالوا زيادة طالبوا بغيرها حتى أفلست الخزينة . وعندها صحا المستنصر إلى واجبه وعزل ناصر الدولة الذى هرب الى الاسكندرية حيث كان الجيش موالياً له . وزحف بهذا الجيش على الدلتا، بينما كان الصعيد لا يزال تحت سيطرة الجنود السودانيين .

٨٥ - ومما زاد الطين بلة أن الفيضان جاء ناقصاً فأنتشر الجوع والقحط . وانتهز أشقياء الناس الفرصة فعاثوا فى البلاد فساداً ونشروا الذعر بين

---

(١) شرحه جـ ١ ص ٤٩٣ .

أهلها .واشتدت وطأة الجوع على القاهرة خاصة لأن الاتصال بينها وبين الريف كان معتذراً . واستمر الجوع سبع سنين متتالية حتى لقد روى بعض المؤرخين أن هناك من الناس من تحولوا الى وحوش ضارية تفترس غيرها من الناس .

وكانت المعارك التى دارت أولاً بين الأتراك والسودانين ، وثانياً بين أتباع ناصر الدولة وأتباع الخليفة قد أضعفت هيبة الحكومة الى حد بعيد ، كما أضعفها افلاس الخزانة ، فزال الأمن وعم الإضطراب . وضاعف الفوضى انتشار الوباء الذى كان دائماً نتيجة حتمية للقحط . ولما كان الناس يعانون الجوع والخوف فقد ضعفت مقاومتهم إلى حد بعيد ، فمات الآلاف منهم . وكان الوباء يقضى على عائلات بأسرها ، فلم ينج بيت من براثنه .

٨٦ - وفى هذه الفترة تداعت كل الأنظمة والمثل العليا . فضعفت الحكومة المركزية التى تضمن الأمن ، وتلاشى الفن والعلم والأدب ، وتدهورت الأخلاق وزال كل ما كان يستهدفه الإنسان من سمو وعذوبة . ومن أروع الأدلة على الإنحلال الذى ساد إذ ذاك أن المكتبة التى وصفها المقريزى كأنها أسطورة من نسج الخيال ، والتى كانت تحوى مئة ألف مجلد إلى جانب آيات الفن فى القصور والمتاحف أصبحت نهباً لكل ناهب ، وتبددت بأتفه الأثمان ، لعل الدراهم القليلة المدفوعة فيها تسد غائلة الجوع ولو لبضع ساعات .

٨٧ - على أنه من دواعى فخرنا واعتزازنا أنه حالما أستتب الأمن مرة أخرى عاود المفكرون جهودهم ونجحوا إلى حد أنه حين تولى صلاح الدين الملك بعد ذلك بما يقرب من قرن وجد فى القاهرة مكتبة تحوى مئة وعشرين ألف مجلداً [١] أما فى هذه الساعات الحالكة ، فلم يوجد للجشع الإنسانى حد . فإن الأشقياء لم يكتفوا بنهب سكان المدن و القرى ، وبالقتل والسلب ، بل زحفوا على الصحارى وأعتدوا على رهبانها ، فقتلوا كل راهب عثروا عليه ولم ينج من بطشهم غير الرهبان الذين لجأوا إلى الصعيد فبدا للمصريين المعذبين الفزعين أن الله تعالى نفسه قد حجب وجهه عنهم .

(١) أورد ستانلى لاين بوول فى كتابه « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » (بالانجليزية) تفصيلات ما حدث من فظائع خلال هذه الفترة ص ١٤٥ - ١٥٠ .

ولكن غير المستطاع عند الناس مســـتطاع عند الله ، فجاء الفرج من لدنه بصورة غير متوقعة ، هى أن المستنصر حين وجد أن البلاء قد أستحكم ، ثاب الى رشده وبعث بخطاب سرى الى بدر الجمالى والى عكا ، وطلب اليه الاسراع إلى نجدته وتولى أمر مصر . وكان بدر هذا أرمنى الأصل بلغ درجة الولاية لأنه انتصر فى معركتين قاد فيهما السوريين ضد الأتراك . فقبل طلب المستنصر بشرط واحد هو أن يستصحب معه جنوده السوريين . فرحب الخليفة بهذا الشرط . وعندها ركب بدر الجمالى البحر بجنوده رغم أن السفر فى شــهر ديسمبر محفوف بالأخــطار . ووصل القاهرة فى أوائل فبراير . ولم يكن الأتراك يعرفون ما فعله المستنصر فتلقوا بدر الجمالى بالترحاب . وكان بدر ذا دهاء ، فعين لكل ضابط سورى ضابطاً تركياً يقتله . وفى الصباح التالى دخل السوريون يحمل كل منهم رأس التركى الذى كان منوطاً به . وهكذا قضى بدر على بطش الأتراك فى ليلة واحدة . ولشدة الفرح الذى ملأ قلب المستنصر عين بدر الجمالى أميراً للجيوش ووزيراً فى آن واحد ولم يتوان بدر فى أن يعيد الأمن والنظام الى البلاد ، والهدوء والأستقرار إلى النفوس . فلم يعد الفزع والجوع والهول غير ذكرى كابوس - مر وكأنه لم يكن .

٨٨ - وباستتباب الأمن استطاع الأنبا خريستودولس أن يعاود مهامه الراعوية فى سكينة وثقة . ثم بلغه أن بطريركاً جديداً قد أعتلى السدة الأنطاكية فبعث إليه برسالة الشركة صوناً للعلاقات المتينة القائمة بين الكنيستين الرسوليتين . على أن رسالته اختلفت عما سبقها من رسائل : كان الجزء الاول منها يتضمن العقيدة التى تجمع بين أنطاكية والاسكندرية كما جرى التقليد ، أما الجزء الثانى منها فقد خالف التقليد تماماً إذ قد تضمن شكوى مريرة مما جرى له ولشعبه ، تتلخص فى وصف الأهوال والأوجاع التى جازوها معاً ، ثم قال أنهم اضطروا إلى دفع الجزية تلو الجزية حتى بلغت قيمة ما إضطروا إلى دفعه مئة ألف دينار . فرد يوحنا رداً يفيض نعمة ومحبة ثم اختتمه بقوله : « ما حاجتنا الى المال - نحن الذين حسبنا أهلاً لأن ننال كرامة الكهنوت العظمى بنعمة الله ؟ لقد أكل فادينا الحبيب ورسله الطعام الذى كان يمنحه إياهم أهل الخير مع أنه هــو رب الحياة . وعاش رسله فقراء لا يملكون شروى نقير . ولقد روى المؤرخون عن

يوحنا الحبيب أنه كان يكسب عيشه بتنظيف أبراج الحمام فى أفسس وبهذه السحابة العظمى من الشهود ، كيف نستطيع أن نقتنى المال ؟ وكيف نستطيع أن نشتكى لأن المال الذى كان لنا قد اغتصب ؟ إن كنوزنا يجب أن تكون فى السماء ، وعلينا أن نخدم فى دعة وقناعة مستودعين أمورنا جميعها يدى ذاك الذى دعانا لخدمته والذى وعد أن يعتنى بنا » .

٨٩ - وكانت كلمات البطريرك الأنطاكى بلسماً لقلب البابا الاسكندرى ، فكرس حياته لتقوية عزائم أبنائه وتعزية قلوبهم . على أنه كان قد قارب النهاية إذ قد أنهكته السنون ، وأضنته الشدائد ، فانتقل إلى بيعة الأبكار فى كيهك سنة ٧٨٦ ش (ديسمبر ١٠٧٠ م) ، بعد أن رعى الشعب القبطى تسعاً وعشرين سنة وثمانية شهور . وأقام عليه الأساقفة الشعائر الجنائزية الخاصة بالباباوات الاسكندريين . ثم دفنوه فى كنيسة السيدة العذراء الشهيرة بالمعلقة . وبعد فترة وجيزة نقلوا جثمانه إلى دير الأنبا مكارى الكبير ببرية شيهيت [١] .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) كتاب تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس جـ ، ص ٣٦١ - ٣٨٤ .



أيقونة للميلاد المجيد - وهى واحدة من مئة عثرت عليها بعثة الآثار البولندية برياسة البروفسور كازيمير ميخالوفسكى [1] بينما كانوا ينقبون فى منطقة النوبة ليحاولوا استخلاص الآثار من الفيضان الذى سيغمرها بعد الانتهاء من السد العالى .وفى بلدة فراس [2] وقف المنقبون مذهولين إذ وجدوا أنفسهم داخل كنيسة قد زينت جدرانها بالأيقونات الملونة التى حفظت الرمال بهاءها حتى لكأن العمال قد انتهوا من صنعها أمس فقط . وقد بدأت البعثة البولندية تنقيبها على أثر النداء الذى وجهته هيئة اليونسكو إلى العالم لإنقاذ آثار النوبة سنة .١٩٦ وعثرت على هذه الكنيسة وغيرها فى فبراير سنة ١٩٦٣ . ومنها كنائس كانت أصلاً معابد فرعونية إذ كانت الأيقونات محاطة بزخارف هيروغليفية أو بصور للآلهة القديمة ! وقد ذكر خبرها جميع الصحف العالمية من بينها مجلة صنداى تايمز [3] فى عددها الصادر فى ١٤ يونيو سنة ١٩٦٣ . وجاء فى هذه المجلة أن الأيقونات بيزنطيـــة وعللوها بأن النوبة ظلت على صـــلتها ببيزنطية رغـم انقطاع هذه

---

(1) Prof . Kozimierz michalowski .

(2) Faras .

(3) TheSunday Times Magazine July 14 , 1963 pp. 1- 11 .

الصلة بمصر ! وأن بيزنطة هى التى أوصلت المسيحية إلى النوبة ولو أنهم يناقضون أنفسهم فى المقال عينه إذ يقولون أن كنيسة مصر هى أيضاً أرسلت بعثة تبشيرية للنوبة . وبدلاً من النقاش في هذا الموضوع أوردنا الصورتين التاليتين : أيقونة للسيد المسيح من النوبة وأخرى تزين القبة الرئيسية لكنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة لأن الاثنتين متشابهتان إلى حد بعيد . ومعنى هذا أن الفنانين المصريين هم الذين رسموا هاتين الأيقونتين كما رسموا غيرهما ، وأنهم كانوا فى ذلك الوقت ما زالوا متأثرين بالفن البيزنطى فجاء إنتاجهم بيزنطياً فى تعبيره .

ويلاحظ فى أيقونة الميلاد أن الفنان قد رسم فى أسفل الركن الشمالى صورة رجل على رأسه تاج ، ويستنتج المؤرخون أنه الأمير الذى تم بناء الكنيسة فى عهده .



أيقونة السيد المسيح – وهى واحدة من مئة عثرت عليها البعثة البولاندية فى بلاد النوبة



كنيسة حارة زويلة - قبة الهيكل الأساسى

لمحة عن الراهب بيسوس

٩٠ - ولما كان الله تعالى يظهر عجائبه فى قديسيه - حال وجودهم بالجسد وحال وجودهم خارج الجسد - فقد تجلت مراحمه بصور شتى فى شخص الأنبا خريستودولس نفسه ، وفى الأحداث التى جرت فى أيامه ، وفى النعمة التى فاضت على معاصريه . فقد أوضح الله تعالى مجده حين حفظ هذا البابا الاسكندرى من بطش الأسود ، وإلى جانب ذلك فقد حدث أن الأنبا إيليا أسقف طموه كان يؤدى شعائر القداس الإلهى يوم عيد الشهيد العظيم مار بقطر بكنيسته فى الجيزة . ولم يكد يصل إلى منتصف الصلوات حتى سطع على أيقونة السيدة العذراء نور يخطف الأبصار . وقد رآه جميع الحاضرين فى الكنيسة فتهللت قلوبهم وهتفوا : « حقاً أن سيدتنا البتول هى أم النور » [١] .

أما معاصرو هذا البابا الأمين فكان منهم الراهب بيسوس الذى تنسك بدير الأنبا يؤنس كامى . وكانت صلة هذا الراهب بالله تعالى متينة عميقة جعلته يتمتع لدى خالقه بدالة عظمى . وحدث أن انتشر وباء الجدرى فراح ضحيته واحد وعشرون ألف طفل حتى فزعت قلوب الآباء والأمهات من فتك هذا المرض . فبعثوا برسلهم إلى الراهب بيسوس يطلبون إليه أن يشفع فيهم وفى الشعب المصرى المعذب لدى الآب السماوى . فوقف هذا الراهب القديس يصلى طول الليل ، وظل فى ضراعته إلى أن انبثق الفجر . وعندها قال للرسل الموفدين إليه : « عودوا فى طمأنينة وقولوا للذين أرسلوكم

---

(١) لقد سعد الناس فى عصرنا هذا بتجلى السيدة العذراء فوق قباب الكنيسة التى تحمل اسمها بضاحية الزيتون . وكان أول ظهورها مساء ٢ أبريل سنة ١٩٦٨ فى شكل إنسانى . ومذاك وهى تتجلى تارة فى شكل إنسانى وأخرى فى شكل نورانى ، وأحياناً يسطع نور كالبرق أو كطوق مضئ وأخرى يطير حمام أبيض ساطع كسرب أو كواحدة فقط ، وقد شاهد هذا التجلى مئات الألوف من الناس : مصريون وأجانب ، قبط ومسلمون . لأنها ما زالت تتجلى بعد انقضاء سنتين من ظهورها الأول ومن يدرى إلى متى يستمر هذا التجلى العجيب وهذه نعمة عظمى أسبغها الله على المصريين فى القرن العشرين إذ قد أعطاهم أولاً الدليل على عنايته ومحبته وثانياً على أن الظواهر الروحية التى ذكرها الناس فى عصور مختلفة ما زالت حقيقة واقعة تخطف الأبصار وتملأ القلوب ...

أن سيدنا المسيح تحنن علينا، وسيرفع عنا هذا الوباء بنعمته ». فعاد الرسل لساعتهم . وحين وصلوا إلى مرسليهم وجدوا أن الوباء قد تلاشى [1] .

❖ ❖ ❖ ❖

الأنبا ميخائيل أسقف تنيس

٩١ – ومن بين الرهبان الذين أستضاءت مصر بنورهم فى هذا العصر الراهب أبو حبيب ميخائيل بن بدير الدمنهورى الذى اندفع بحماسة شبابه وتوقد روحه إلى الترهب بدير الأنبا مكارى الكبير ببرية شيهيت . وقد كان أبوه بناءً ونجاراً وقد اعتنى هو وزوجته بتربية ولدهما تربية روحية فعالة . وكان خاله مينا مهندساً ورئيساً للنشارين العاملين فى خدمة الدولة . وبما أن مينا هذا كان من خدام الدولة فقد تصادق مع بقيرة الرشيدى وكان السبب فى أن يتعرف ميخائيل ابن اخته على هذا الأرخن الحامل الصليب . فقامت بينهما صداقة متينة . ثم نال ميخائيل رتبة الشماسية فأثبت بجهاده المتواصل جدارته بهذه الرتبة الكهنوتية . وحينما انشغل فكره بتدوين سير باباوات الأسكندرية ترك دير الأنبا مكارى الكبير واتزوى عند الراهب بيسوس بدير الأنبا يؤنس كامى خمسة عشر يوماً بصحبة بعض الأراخنة من بينهم بقيرة . وانشغل الجميع فى الكتابة والمراجعة طول النهار وحتى منتصف الليل فكانوا يتدارسون من الصباح ويستمرون معاً : بعضهم يكتب والبعض الآخر يراجع ثم يقرأون معاً ما روجع مما يضطرهم إلى الأستمرار فى العمل إلى وقت صلاة نصف الليل . وبهذا الدأب كل يوم وكل ليلة كتبوا لنا سيرة عشر باباوات : من البابا السادس والخمسين إلى البابا الخامس والستين . كذلك تعاون الشماس ميخائيل بن بدير مع الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين حينما كان هذا الأسقف الساهر منشغلاً بكتابة تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية بأن ترجم له السير الباباوية من اللغة القبطية إلى اللغة العربية .

ثم انتخبه الأنبا أبرآم بن زرعة ليكون كاتبه ووضع عليه كتابة « السنوديقا » – أى كتابة الرسالة العقيدية التى كان البابا الاسكندرى يبعث بها إلى أخيه فى الخدمة الرسولية البطريرك الأنطاكى . واستمر

---

(١) « تاريخ البطاركة » نقله القمص شنوده ... جـ ٢ ص ٣٧٥ .

يكتب هذه الرسالة العقيدية تحت رياسة خمسة من الباباوات المرقسيين . فلما اعتلى الأنبا خريستودولس الكرسى المرقسى رأى ألا يكتفى بهذه الخدمة من جانب الشماس أبى حبيب ميخائيل بن بدير الدمنهورى فرفعه إلى درجة الأسقفية إذ رسمه أسقفاً على تنيس مع استمراره فى عمله ككاتب للسنوديقا . وبعد أن كتب الرسالة (السنوديقا) على لسان الأنبا خريسودولس انتخبه هذا البابا ليحملها بنفسه إلى أنطاكية بصحبة الأنبا غبريال القديس أسقف صان الحجر . فلما عاد إلى مصر كتب أخبار الكرسى الأنطاكى ولو أنه وضعها ضمن سيرة الأنبا زكريا البابا الرابع والستين .

وحدث حينما توسط بقيرة وبعض زملائه من الأراخنة بين الأنبا شنودة الثانى وبين أهالى الاسكندرية لتسوية الخلاف الذى كان قائماً إذ ذاك حول الخمسمائة دينار الذى كان على البابا دفعها لأهالى تلك المدينة أن كان أبو حبيب ميخائيل بن بدير الدمنهورى حاضراً معهم . وحينما كتب سيرة هذا البابا قال ضمن ما قاله عنه : « وكتب أنا البائس ميخائيل غير المستحق أن أدعى أسقف تنيس وأنا يومئذ شماس ففرحت بهذا الأمر وساعدته عليه وكان قد جعلنى كاتبه لأن قوماً من أصحابى وصفونى له فأخذنى أكتب له » . ثم أختتم سيرة هذا البابا بقوله : « وتنيح الأب البطريرك وأنا جالس عنده وأغمضت عينيه بيدى واجتمعنا للصلاة ودفناه فى الكنيسة الكبرى بدمرو » .

ولا يعرف بالضبط يوم نياحة هذا الأسقف اليقظ إلا أنه يتضح من المخطوطات الباقية بين أيدينا أنه تنيح فى أواخر أيام الأنبا خريستودولس إذ قد ورد فى سيرة هذا البابا الجليل أنه رسم القس سيمون من بيعة القديس مرقس البشير أسقفاً على تنيس باسم الأنبا صموئيل . كما أنه فى الحديث عن الإحتفاء برسامة الأنبا كيرلس الثانى جاء بأن الأنبا صموئيل أسقف تنيس كان ضمن الأساقفة الذين حضروا هذا الاحتفال المهيب . وهكذا عاصر الأنبا ميخائيل ستة من الباباوات . خدم الخمسة الأولين منهم بوصفه شماساً وكاتباً للسنوديقا وخدم الأخير بوصفه أخاً فى الخدمة الرسولية [١] .

---

(١) مقال لكامل صالح نخلة عن «الشماس ميخائيل بن بدير الدمنهورى» نقله عن كتاب تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس الأشمونى ونشره فى مجلة « رسالة نهضة الكنائس» العدد الرابع من السنة الثالثة الصادر فى القاهرة فى أبريل سنة ١٩٤٢ ص١٣٣-١٣٦ .

٩٢ - واسم الأنبا ميخائيل يقترن باسم شماس آخر ظل شماساً طيلة حياته لأنه كان ممن عاشوا فى العالم فلم يذهب إلى الدير - وهذا الشماس هو موهوب ابن منصور بن مفرج الاسكندرانى الذى اشتهى أن يجمع سير الآباء البطاركة [١] إذ قال : « اشتهيت أنا الخاطئ البائس أن أجمع سيرهم وأكتبها ليكون ذلك ربحاً لى ولمن يقرأها بعدى ، فاستعنت بالله تعالى ذكره وصرت إلى ديرو القديس أبو مقار بوادى هبيب المقدس فوجدت هناك الشماس أبا حبيب ميخائيل ابن بدير الدمنهورى » [٢] .

وبعدما تحدث موهوب إلى هذا الشماس اليقظ اتفقا معاً على جمع سير البابوية وتنفيذاً لرغبتهما تنقلا فى مختلف الأديرة فوجدا فى دير السيدة العذراء بنهيا سيرة اثنين وأربعين من الباباوات ابتداء من مارمرقس كاروز ديارنا إلى الأنبا سيمون وفى دير الشهيد الجليل تادرس بابلاج سيرة أربعة منهم : هم الأربعة الذين تعاقبوا بالتتالى من بعد الأنبا سيمون وبذلك أكتملت لدى الباحثين سير سته وأربعين بابا . أما التسعة الذين جاءوا من بعد ذلك (أى من البابا السابع والأربعين إلى البابا الخامس والخمسين) فقد وجدا سيرهم فى دير السيدة العذراء بنهيا أيضاً ، ثم وجدا سير الباباوات العشر (من السادس والخمسين إلى الخامس والستين) فى دير الأنبا مكارى الكبير . فجمعا هذه السير واجتمعا معا ونقلاها . ويقول لنا موهوب بأن الأنبا ميخائيل أسقف تنيس كتبها إذ طلب إلى راهب من أولاده اسمه لقوط بأن ينقلها له .

ولم يكتف الشماس موهوب بنقل السير التى وجدها بل أدرك أن واجبه يحتم عليه الاستمرار فكتب سيرة الأنبا خريستودولس الذى عاصره . فحقاً أن الله لا يدع نفسه بلا شاهد على مدى العصور [٣] .

---

(١) راجع ما جاء عنه فى ف ٧٣ .

(٢) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين-المجلد الثانى الجزء الثانى - نشره مع ترجمته الأنجليزية يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأوسولد برمستر ص١٥٩ .

(٣) شرحه ص ١٥٩ - ١٦١ - هذا ولم يبق أى أثر للديرين اللذين ذكرهما هذا الشماس - وهما دير السيدة العذراء بنهيا ودير الشهيد تادرس بابلاج . وقد ذكر ايفلين وايت فى كتابه « أديرة وادى النطرون» (بالانجليزية) جـ٢ ص ٣٦٠ نقلاً عن موهوب بن منصور بأن عدد الرهبان فى القرن الحادى عشر كان أربعمائة فى دير الأنبا مكارى الكبير،ومئة وخمسة وستين فى دير الأنبا يؤنس القصير ، وخمسة وعشرين فى دير الأنبا يؤنس كامى،و عشرين فى دير البرموس،وأربعين فى دير الأنبا بيشوى، وستين فى دير السريان،واثنين فى مغارة الأنبا موسى الأسود أحدهما قبطى والثانى سريانى .

مشرع حكيم

٩٣ - وخلت السدة المرقسية بانتقال الأنبا خريستودولس إلى مساكن النور ، فوجد الأساقفة والأراخنة أن الضرورة موضوعة عليهم للمبادرة إلى دير الأنبا مكارى الكبير ببرية شيهيت ليتفاهموا مع رؤساء الأديرة فى أمر من يصلح لأن يخلف القديس مرقس الرسولى. وبعد أن قضوا به شهرين دون أن يصلوا إلى نتيجة انتقلوا إلى دير الأنبا يؤنس كامى إذ كانوا قد سمعوا عن الشيخ الناسك الجليل بيسوس العائش فى هذا الدير . فما أن وصلوه حتى اتجهوا صوب صومعة بيسوس ، وأمسكوا به ، وأرادوا أن يقتادوه إلى الأسكندرية قسراً . فأخذ يردد بصوت جهورى : « أنا ابن عبد حقير فكيف تقيمونى على السدة المرقسية التى لا يستحقها غير حر ؟ » فصرا وفد الأساقفة والأراخنة شئ من الذهول وصمتوا حيناً ، فانتهز الراهب بيسوس الفرصة ليقول لهم فى توكيد : « لماذا تجهدون أنفسكم فى البحث عمن يخلف المتنيح الأنبا خريستودولس ؟ ان الراهب الذى تنشدونه موجود فى دير الأنبا مكارى الكبير ، واسمه جورجيوس . وهذا الراهب مزكى من البابا الراحل نفسه ». وتأثر الجميع بهذا التصريح الجرئ،فعادوا إلى دير الأنبا مكارى الكبير واقتادوا هذا الراهب إلى الاسكندرية حيث أقيمت المراسيم

(١) متى ١٩ : ٢٩ .

الدينية ، وبها أعتلى الراهب جورجيوس السدة المرقسية باسم كيرلس الثانى، فأصبح البابا الاسكندرى السابع والستين سنة ٧٨٦ ش (١٠٧٠م) .

٩٤ - وكانت مصر تنعم إذ ذاك بسلام كله إنتاج . لأن بدر الجمالى لم يلبث أن أقر العدالة والأمن . وكان بعيد النظر ، ثاقب الرأى . وضع نصب عينيه هدفاً واحداً : هو أن يجعل من مصر دولة قوية تنعم بالرخاء . وقد استطاع أن يصل إلى هذا الهدف بسرعة عجيبة . وكانت الخطوة الأولى التى اتخذها هى العمل على تنمية التجارة ، فأقرض المشتغلين بها مبالغ كبيرة تسدد على أقساط طويلة . كذلك مكنهم من الأتجار مع البلاد الأخرى خارج مصر : ثم رأى أن يولى الزراع عنايته أيضاً فتنازل لهم عن ضرائب ثلاث سنين متأخرة عليهم . وفرحوا بهذا الكرم غير المنتظر فضاعوا جهودهم ، ومن ثم تضاعفت محاصليهم وعاد نشيد العمل فى الحقول والمتاجر والمصانع . وترددت أصداؤه فى الوادى العتيق . وكانت النتيجة الطبيعية للرخاء المادى أن نشط الفكر ، وعاد الناس يكتبون ويبتكرون . فازدهرت العلوم والفنون . على أن أعظم ما أنتجته هذه الفترة هو الفن المعمارى . ذلك لأن بدر الجمالى أراد أن يحصن القاهرة ببناء سور منيع حولها ، فنفذ المهندسون رغبته . وقد جعلوا لهذا السور ثلاث أبواب هى باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة . وقد وضع تصميم هذه الأبواب هذه الأبواب راهب قبطى اسمه يؤنس [١] .

٩٥ - وبينما كان الزارع يعمل فى حقله ، والتاجر يشتغل بتجارته ، والصانع يتفنن فى إنتاجه ، كان الناس منصرفين كل إلى أموره فى هدوء . وهكذا وجد الأنبا كيرلس الثانى الفرصة أمامه للقيام بأعبائه الراعوية بلا مانع ولا عائق . فما أن تمت رسامته حتى غادر الاسكندرية وقصد إلى القاهرة . وحالما بلغ ضواحيها ذهب إلى كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل التى كانت مقامة على جزيزة فى النيل . فسارع الأنبا ياكوبوس أسقف بابلون لاستقباله . وكان قد أبلغ الشيخ أبا الفضل ناظر الأبواب [٢] بمقدم البابا الاسكندرى . فسارع هذا الشيخ بدوره إلى إرسال حصان أبيض بصحبه عدد

---

(١) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پوول ص ١٥٢ - ونقلاً عن أبى صالح الأرمنى (أو بالأحرى أبى المكارم القبطى) .

(٢) أى رئيس الشرطة .

من حفظة الأمن ورجال القصر إلى كنيسة الملاك ميخائيل . فركب الأنبا كيرلس الثانى الحصان الأبيض وأحاط به الأساقفة والأراخنة والرجال الموفدون من قبل الشيخ أبى الفضل . وساروا تتبعهم الجموع إلى قصر الخليفة . وقد تقدم هذا الموكب الشمامسة حاملين الشموع الموقدة والمباخر التى يتصاعد منها البخور الزكى . وما أن وصلوا إلى باب القصر حتى خف مأمون الدولة (أستاذ الخليفة) [1] لاستقبالهم . ودخل الجميع قاعة الضيافة . ثم دخل البابا المرقسى مع مأمون الدولة إلى قاعة بجانبها حيث كان الخليفة المستنصر وأمه وأخته فى الانتظار . وقد حملت السيدتان زجاجات العطور ، وأخذتا ترشان الضيف الكبير ، وتعطران أرجاء القاعة . ثم قالتا : « تفضل فباركنا وبارك قصرنا » . فاستجاب رجاءهما على الفور مما أفرحهما للغاية . ثم مشى الأنبا كيرلس الثانى إلى الباب الفاصل بين القاعتين ، وطلب إلى الأنبا بطرس أسقف دميرة أن يرفع صلاة شكر لله تعالى ثم يقرأ رسالته الراعوية . وأصغى المستنصر وأمه وأخته فى اهتمام بالغ لهذه الصلاة وهذه الرسالة . ولما انتهى الأسقف ، تبادل الجميع التحية . ثم خرج البابا على رأس موكبه فى تجلة واكبار . وقصد إلى دار بدر الجمالى الذى ما كاد يلمح الموكب البابوى آتياً نحوه حتى خف لاستقباله بكل مظاهر الأبهة والاجلال . وتقدم إلى البابا مع كل أفراد أسرته راجياً منه أن يمنحهم بركاته . ثم تلا الأنبا بطرس الرسالة الراعوية مرة أخرى . وكان والى القاهرة ووجوه الشعب حاضرين هذه الزيارة فلما انتهت طلب بدر الى الوالى أن يخرج فى معية الأنبا كيرلس الثانى ليوصله إلى الدار البابوية ، وأن يلازمه وينفذ كل طلباته . فشكر البابا الاسكندرى للوزير حسن وفادته ، وانصرف إلى الكنيسة المعلقة التى كان سلفه قد اتخذها مقراً له بعد أن نقل مركز الرياسة من الاسكندرية الى القاهرة .

٩٦ – وبعد أسابيع قصيرة بدأ الصوم الكبير ، فنهج الأنبا كيرلس الثانى منهج أسلافه بأن قصد دير القديس مكارى الكبير لقضاء أيام الصوم فيه لكى يجد فى سكون الصحراء وتراميها إلى الأفق الفرصة اللازمة للتأمل فى مراحم القدير . وفى هذه الفترة قام البابا الاسكندرى بتأدية الشعائر

(١) كان الأساتذة فى عهد الفاطميين خواص الخليفة وأقرب الناس إليه . راجع « نظام الحكم بمصر فى عصر الفاطميين » لعطية مصطفى مشرفة – الطبعة الثانية . ص ٨٩ .

الخاصة بتكريس الميرون . وقد بلغت حرارة صلواته درجة جعلت الميرون يفيض ويسيل من الوعاء الذى هو فيه على المذبح . واهتزت القلوب نشوة حين أبصروا هذه الظاهرة ، ومجدوا الله الذى أعطاهم راعياً بهذا الصلاح .

٩٧ - وظل الأنبا كيرلس الثانى فى الدير إلى أن احتفى بصلوات عيد القيامة المجيدة . ثم عاد إلى القاهرة حيث وجد رسالة الشركة من مار ديونيسيوس بطريرك أنطاكية . ففرح بها وأمر بقراءتها فى جميع كنائس مصر . ثم بعث بالرد مباشرة ، جدد فيه العهد مع شريكه فى الخدمة الرسولية ، وأعلن له تمسكه بالايمان الأرثوذكسى الذى يربط بين كنيستيهما .

٩٨ - ومما يؤثر عن الأنبا كيرلس الثانى أنه كان قليل العلم عند انتخابه ، فلما وجد نفسه بين عشية وضحاها جالساً على السدة المرقسية كرس نفسه للدرس والاطلاع كما فعل الأنبا ديمتريوس الكرام الذى سبقه بسبعة قرون [١] . ولشدة رغبته فى تعويض ما فاته استوعب الكثير من العلوم حتى لقد ترك تراثاً مجيداً يشهد له بالتفوق [٢] .

٩٩ - وفى تلك الفترة - كثرت المراسلات بين مصر والنوبة والحبشة . كذلك كانت المقابلة الأولى التى تمت بين الأنبا كيرلس الثانى وبين الخليفة المستنصر سبباً فى توثيق العلاقات بينهما . فكان الخليفة يستشيره فى مختلف الأمور ويدعوه إلى قصره للاتتناس به والاسترشاد بآرائه .

١٠٠ - وكانت المناوشات بين ولاة منطقة أسوان وملوك النوبة لا تهدأ إلا لتعود . على أن بدر الجمالى رأى بثاقب فكره أن مسالمة الجيران خير من استعدائهم . وهكذا استقر السلام بين أهالى المنطقة كلها .

وفى تلك الفترة - حينما اطمأنت نفس سلمون ملك النوبة إلى حالة بلاده - رأى أن يتنازل عن العرش لجورجا ابن أخته لأنه أحس برغبة قوية فى الدخول إلى الدير . واختار دير القديس الأنبا نوفر السائح فى الوادى الذى يحمل اسمه والذى يقع على الحدود المصرية النوبية . وكان والى

---

(١) راجع سيرته فى الجزء الأول لهذا الكتاب .

(٢) «قوانين كيرلس الثانى البابا السابع والستين للاسكندرية» (بالانجليزية) مقال لاوزولد بورمستر نشره فى مجلة «موزيون» العدد ٤٩ سنة ١٩٣٦ ص ٢٤٧-٢٤٨ .

أسوان إذ ذاك أسمه أسعد الدولة . فجاءه بعض رجاله ذات مرة يسألونه : « أتريد أن نأتى إليك بسلمون ملك النوبة ؟ » ورغم السلام السائد الذى أقر دعائمه بدر الجمالى أجاب أسعد الدولة : « إن ذلك ليسعدنى » . فذهبوا خلسة إلى حيث يقيم الملك وأخذوه على غرة وأحضروه إلى واليهم . فجاء معهم من غير مقاومة إذ كان قد اختار طواعية ترك أمجاد العالم . وهيأ له أسعد الدولة حرس شرف ليرافقه الى القاهرة إذ قد رأى ايفاده إلى الخليفة . وما أن أشرف على المدينة وسمع رجال الحكم بمقدمه حتى سارع بدر الجمالى إلى استقباله بالطبول والدفوف ثم أعد له منزلاً مستكمل الأثاث والأوانى وأنزله فيه . وتقبل الملك سلمون كل مظاهر الحفاوة بدعة وسكون . وقد لاحظ بدر الجمالى أثناء زيارة هذا الملك المسيحى الوديع قوة الصلة التى تربط بينه وبين القبط من ناحية وبينه وبين الأحباش من الناحية الاخرى . ولما كان يسعى إلى تعزيز الروابط بين مصر وجيرانها فقد كاشف البابا كيرلس الثانى وأساقفته وأراخنة شعبه برغبته فى عقد معاهدات مع هذين البلدين لتسهيل طرق التجارة وأمتدادها . وقد أقروه على رغبته وسعوا إلى تحقيقها بأن أخذ الأنبا كيرلس على عاتقه مفاوضة المسئولين فيهما . ونجحت مفاوضاته . فازدادت منزلته ارتفاعاً لدى الخليفة ولدى بدر الجمالى . وشمل التقدير القبط وبالتالى تقلد عدد منهم الوظائف العالية فى دواوين الحكومة . وكانوا فى ذلك العهد قد تمكنوا من اللغة العربية إلى حد أنهم ألفوا فيها مؤلفات تشهد لهم بغزارة المادة . ولم يفوزوا بالوظائف فحسب بل فازوا بألقاب التقدير التى كان الخلفاء فى تلك الأيام يطلقونها على من يعرفون فضلهم ومن هذه الألقاب : « الرئيس . هبة الله . الأمجد . الأسعد . الشيخ . نجيب الدولة . تاج الدولة . فخر الدولة »[1] .

وهكذا كانت اقامة الملك سلمون سبباً فى تعزيز صلات المودة والتقدير بين القبط والمسلمين رغم أنها لم تدم غير سنة انتقل بعدها إلى دار النعيم ودفن بدير الخندق[2] .

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٢) المعروف الآن بأنبا رويس ولم يبق من الدير غير كنيسة باسم هذا القديس وكانت ملاصقة لكنيسة باسم السيدة العذراء ولكنها هدمت فى مايو ١٩٦٨ لأنه أقيمت كاتدرائية عظمى باسم مامرقس شغلت الجزء الأكبر من مساحة الأرض وذلك بمناسبة الاحتفال بمرور تسعة عشر قرناً على استشهاد كاروز الديار المصرية وعودة رفاته بعد غيبة زادت عن ألف سنة فى مدينة البندقية .

١٠١- ثم وجد الأنبا كيرلس الثانى عدداً من الايبارشيات شاغراً فرأى أن يسير بموجب التعاليم الرسولية وتقاليد الآباء الرسوليين فجد فى البحث عن الرهبان الصالحين الممتلئين نعمة ورسمهم على هذه الكراسى . كذلك دأب هذا الراعى الصالح على تعليم الشعب مداومة قراءة الكتاب المقدس له وتفسيره منعاً لبلبلة الأفكار . ومن نعمة الآب السماوى أنه تحنن على الجميع بفيضان واف كل سنة من سنى بابويته فعم الخير البلاد .

١٠٢ - وكان هناك رجل اسمه يوحنا بن الظالم ظفر بأسقفية سخا ، أختلف مع البابا وتمكن من أن يضم إليه بعض الأساقفة وجمهوراً من الشعب . وذهب الأساقفة (وكانوا جميعاً من الوجه البحرى) إلى باباهم معربين له عن استيائهم من بعض الرجال المحيطين به ورجائهم فى أن يبعد هؤلاء الرجال . على أنه لم يبعد غير واحد منهم . فعاودوا إليه يعاتبونه . وكان فى ديوان الخليفة إذ ذاك رجل اسمه أبو زكريا يحيى بن مقارة شيخاً وقوراً عاقلاً ذا كلمة مسموعة نجح فى مصالحة الجميع [١] . على أن أسقف سخا وبعض أنصاره لم يكتفوا بهذه المصالحة فاحتكموا إلى بدر الجمالى الذى صارحهم تبجيله للبابا المرقسى . ثم طلب إلى كل من الفريقين أن ينظم القوانين التى يرى ضرورة العمل بموجبها لتكون قاعدة الفصل فى التعامل بين الجميع . وبعد ذلك بأيام دعا بدر الجمالى البابا الاسكندرى وأساقفته إلى قصره ، فلبى دعوته سبعة وأربعون منهم [٢] . وكان الوزير يستهدف السلام من دعوته هذه لأنه كلمهم بكلمات كانت كالوحى من الروح القدس إذ قال لهم : « كونوا جميعاً برأى واحد ، وليكن ولاؤكم لكبيركم خالصاً ، وتمسكوا بقول السيد المسيح حين أوصى تلاميذه بأن لا يكتنزوا لهم كنوزاً على الأرض ، وإنى استمحيكم عذراً فى نصحى هذا لأنى أعرف أنكم حريصون على حفظ الوصايا الإلهية والتقاليد الرسولية . ولكنى رددتها أمامكم للتذكرة فحسب » . ثم تداول الوزير مع الأساقفة فيما يهدفون إليه ووسائل تحقيقه ولما انتهى من مداولاته دعا كتبة ديوانه وأمرهم بكتابة المراسيم التى بها تخول السلطة التنفيذية للأساقفة تنفيذاً لأهدافهم ، فخرجوا

---

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٤٧ .

(٢) « قوانين كيرلس الثانى البابا السابع والستين للاسكندرية » (بالانجليزية) مقال لاوزولد برومستر نشره فى مجلة «موزيون» العدد ٤٩ سنة ١٩٣٦ ص ٢٤٦ حيث يقول أن عدد الأساقفة إذ ذاك كان أربعا وخمسين .

من عنده شاكرين له أفضاله وذهبوا لساعتهم إلى كنيسة أبى السيفين ببابلون حيث رفعوا صلاة الشكر للآب السماوى على ما هيأ لهم من فرصة للجهاد . كذلك اشتركوا فى اقامة القداس الإلهى واحتشدت الكنيسة حتى أبوابها بالمصلين الذين تجمعوا لكى يمجدوا الله فارج الهم والكرب .

١٠٣ - وانشغل البابا الاسكندرى بعد ذلك بنشر القوانين الكنسية على الشعب ليعرفها ويعمل بها . ويبدو أنه استلهم القوة على الجهاد من الاسم العظيم الذى يحمله - اسم كيرلس عامود الدين الذى أوضح حقيقة الإيمان فى المجمع المسكونى الثالث . فقد تمكن - باجتهاده ومثابرته - على تنظيم خلاصة للقوانين الكنسية فى أربع وثلاثين مادة واذاعتها على الشعب . فسطعت الكنيسة خلاله وتهلل جميع سكان مصر بنوره [١] .

وقد أستهل هذا البابا المعظم قوانينه بقوله : « لما كان من قضاء الله وحكمته غير المدركة تقدمتى إلى هذه الخدمة الجليلة التى لا أستحقها ، فقد اتكلت على رحمته تعالى ووثقت بنعمته فى معاونتى على النهوض بأعباء رسالتى مبتهلاً إليه أن يكمل نقصى » .

وانتقل - بعد هذه الديباجة - إلى التأمل فى محاولات موسى وأشعياء وأرميا الاعتذار إلى الله تعالى عن عجزهم على القيام بما يأمرهم به لقصورهم وضعفهم ، وكيف أنه تعالى وضع عليهم الضرورة لحمل رسالته [٢] . وأفاض عليهم نعمته فمكنهم بذلك من تأدية الأمانة التى ائتمنهم عليها . فشجعه هذا على السير فى جهاده ، وأستعان بهذه النعمة الإلهية عينها ، فصاغ القوانين الكنسية ارشاداً لشعبه وتذكيراً لهم بالمبادئ التى دان لها الآباء . وقد وضع أربعا وثلاثين مادة صاغها كما يلى :

١ - انتهى إلى مسكنتى أن قوماً يلتمسون رشوة لمنح الرتب الكهنوتية ، فمن فعل ذلك ، وأخذ رشوة على الموهبة ، أو وعد برشوة لنيلها ، مستعيناً فى ذلك بالمكر والخديعة ، فلا تقبل رياسته الكهنوتية ولا يكون عندكم إلا بمنزلة الوثنى والعشار ، وهو مقطوع محروم منفى من بيعة الله ، هو ومن منحه الرتبة الكهنوتية ، ولقد جاء فى القوانين أنه

---

(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ ٤ ص ٩٩٥ .

(٢) خر ٣ : ١١ - ١٤ ، أش ٦ : ١ - ٨ ، أر ١ : ٤ - ١٠

على الرئيس أن يؤدب شعبه ويقومه بالصليب لا بالحرم ، وأن لا يربط ولا يحل من غير حق . فإن هو حرم أو ربط من غير حق ، طلباً للتشفى أو التماساً لإذلال الناس واخضاعهم ، فليكن هو المربوط المحروم من الله وأحكامه .

٢ - أى أسقف أو قس يرفض قبول الخاطئ التائب ، فليقطع . لأنه خالف قول السيد المسيح الذى أعلن أنه يكون فرح فى السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة [١] .

٣ - يجب على كل أسقف أن يتفقد جميع البيع والأديرة الواقعة تحت سلطانه ، وأن يحافظ على آلاتها ومستغلاتها وريعها ، ويراعى نظافتها وعمارتها .

٤ - يجب على كل أسقف أن يعرف حال كهنته فى مختلف الكنائس والجهات الخاضعة له ، وأن يفحص أمورهم فى عملهم وفى القداسات التى يقيمونها ، وفى قراءة الكتب التى يفرضون على أنفسهم تلاوتها .

٥ - يجب على الأسقف أيضاً أن يتعهد كهنته وشعبه بالتعاليم الإلهية التى تخلصه وتخلصهم من خطاياهم . فكل نفس من أنفس الرعية مطلوبة من راعيها .

ثم بين الأنبا كيرلس الثانى بعد ذلك واجبات الأسقف نحو الفقراء والمعوزين ، ونحو الرهبان الذين يجب أن يقضوا العمر فى الدير ما لم يطلب إليهم رؤساؤهم تأدية عمل معين خارجه وبعد هذا البيان قال :

١٢ - « يجب أن يحذر الكهنة والعلمانيون الالتجاء إلى غير حكم البيعة . فإن جرى خلاف بين البعض منهم فعليهم أن يحتكموا إلى أسقفهم وينزلوا على حكمه » .

واسترسل البابا الاسكندرى فى قوانينه ، فبين أهمية الصوم ووجوب التمسك به ، كما أوصى الكهنة بالعناية التامة فى عقد سر الزيجة ، فلا يعقدونه إلا متى تأكدوا من شرعيته . ثم أوصى الشعب بوجوب احترام الأساقفة ورجال الإكليروس . وأختتم قوانينه بقوله : « يجب على أبناء

(١) لو ١٥ : ٧ .

المعمودية توقير المذابح المقدسة والهياكل الطاهرة وتزينها عن اقتحام كل العلمانيين لها [1] . وأخيراً دعا الله جل اسمه أن يوفق الشعب لعمل ما يرضيه ، ويثبت بينهم المحبة الروحية والأخوة المسيحية ، ويغفر ذنوبهم ، ويصفح عن زلاتهم ، ويرحم موتاهم ، وينجى شيوخهم ، ويمنح العفة لشبابهم بشفاعة ذات الشفاعات ومعدن الطهر والبركات السيدة مريم العذراء وجميع الشهداء والقديسين » [2] .

١٠٤ - ومن دواعى التهليل الروحى أن كنيسة القيامة بالقدس الشريف - التى كان قد أحرقها الحاكم بأمر الله - قد تم بناؤها فى عهد الأنبا كيرلس الثانى . ولما تم تشييدها ،أرسل الأسقف الأنطاكى خطاباً إلى البابا الاسكندرى يتبادل وإياه التهنئة ، لأن الآب السماوى أسعدهما باتمام هذا العمل فى أيامهما . ثم رجا فيه أن ينتدب نفراً من أساقفته ليشتركوا معه فى أقامة الشعائر الكنسية الخاصة بتكريس أماكن العبادة . فأجاب الأنبا كيرلس الثانى هذا الطلب فوراً ، وتمت مراسيم التكريس فى موسم عيد القيامة سنة ٨٠٠ ش - (سنة ١٠٨٤ م) .

ولقد فاضت نعمة الله فى تلك الآونة إذ كان بالقدس قبطى من ذوى المكانة فى الدولة اسمه منصور التلبانى كان قد بنى كنيسة على مقربة من كنيسة القيامة . وكان قد بعث برسالة إلى البابا الاسكندرى يرجو منه فيها أن يحضر إلى القدس لتكريسها . ولما كان قد انتدب الأساقفة الذين كلفهم بالاشتراك مع أسقف أنطاكية فى تكريس كنيسة القيامة نفسها فقد طلب إليهم أيضاً أن يكرسوا الكنيسة التى بناها منصور التلبانى [3] .

١٠٥ - وفى هذه السنة عينها انتقل الأنبا كيرلس الثانى إلى بيعة

---

(١) يلاحظ هنا أن هذا البابا الحريص على القوانين حرم دخول العلمانين الهيكل فلم يقصر الحرمان على السيدات كما هو حادث الآن لأن القانون الأصيل فى هذا الشأن هو أن لا يدخل الهيكل إلا من وضعت عليهم اليد فقط .

(٢) « قوانين كيرلس الثانى البابا الاسكندرى السابع والستين » نشر الأصل العربى مع ترجمته الانجليزية أوسوالد بورمستر فى مجلة « موزيون » عدد ٤٩ سنة ١٩٣٦ ص ٢٤٥ - ٢٨٨ .

(٣) تاريخ الأمة القبطية لكامل صالح نخلة وفريد كامل (الحلقة الثانية) ص ١١٨ ، قصة الأقباط فى الأرض المقدسة لديمترى رزق ص ١٩ ، ٢٤ .

الأبكار وقد حدث أنه - خلافاً للعادة - لم يقض فترة الصوم الكبير فى دير الأنبا مكارى الكبير بشيهيت بل أكتفى بالذهاب إلى دير الشمع غرب طموه ثم إلى كنيسة الملاك ميخائيل فى جزيرة النيل ، ومن هناك عاد الى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) بعد عيد القيامة المجيدة . ولم تكد أيام الخمسين تنتهى حتى بلغ نهاية شوطه فأسلم روحه بين يدى الآب السماوى بعد أن قضى أربع عشرة سنة وستة أشهر على السدة المرقسية [1] .

ومن الآباء المعاصرين لهذا البابا الأنبا بطرس أسقف البهنسا الذى حضر المجمع وقت انعقاده بدار أمير الجيوش بدر الجمالى وكان من مؤيدى باباه . وقد عنى هذا الأسقف عناية خاصة بصلوات الشعائر الكنسية . فقد لاحظ خلال أسبوع البسخة أن لبعض ساعاتها صلوات وقراءات مطولة فى حين أن لبعضها الآخر صلوات وقراءات قليلة . فجمع الكتب المقدسة ودرسها ووضع لكل ساعة من الساعات ما يوافقها من العهدين القديم والجديد ومن صلوات وميامر . وبهذا الوضع رتب ساعات البسخة المقدسة فصارت الساعات متساوية فيما تتضمنه من شعائر . كذلك وضع لكل يوم من أيام أسبوع الآلام عظتين : واحد للصباح وأخرى للمساء كما وضع كتاباً خاصاً بتكريس المعمودية قال فيه : « اذا بنيت بناء جديداً يكون بناؤه فى الشرق عن يمين البيعة وتوضع فيه أيقونة يوحنا المعمدان وهو يعمد سيدنا له المجد » . وبعد ذلك أورد صلاة التكريس وهى التى يصلى بها الآباء الأساقفة عند تكريس جرن المعمودية الى الآن [2] .



(١) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة البرموسى الصوامعى جـ٢ ص٣٨٥-٣٩٥ .

(٢) عن مقال للقمص ميصائيل بحر خاص باقليم المنيا فى العصر القبطى نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة العددين السادس والسابع (يونيو ويوليو سنة ١٩٦٢) ص ٣٨ - ٣٩ . ويعلق فى هامش ص ٣٩ بقوله : « فى الكنائس الأثرية التى بنيت فى أول القرن الخامس الميلادى تقع المعمودية على يسار الداخل إلى البيعة . ففى كنيسة الأنبا يوحنس القصير بدير أبى حنس بنيت المعمودية بين الخورس الثانى والثالث إلى الشمال وتطل نحو الغرب . وفى بيعة الأنبا بيشوى بدير البرشا تقع المعمودية بحرى باب الكنيسة فى الخورس الأول وتطل نحو الغرب أيضاً . وفى هذا الوضع حكمة بالغة . ذلك لأن المعمودية تعيد ولادة المعمد وتجدد خلقته . وبعد مسحه بسر الميرون المقدس بعد المعمودية مباشرة ينتقل إلى اليمين إلى الهيكل حيث المذبح الطاهر ليتناول سر الشكر الذى به يتحد عقلياً مع ينبوع الخلاص نفسه . فبناء المعمودية فى بعض الكنائس الجديدة إلى اليمين فيه خطأ يجب أن يصحح .

الأمين فى القليل أمين فى الكثير

١٠٦ - وحتمت أحداث الحياة ، وتعاقب الموت عليها ، أن يجتمع الأساقفة والأراخنة معاً ليفكروا تفكيراً جماعياً فى الراهب الذى يريدونه ليجلس على الكرسى المرقسى . ولما كان للاسكندريين الأولوية إذ ذاك ، اجتمعوا وتشاوروا دون أن يصلوا إلى نتيجة . فقروا الذهاب إلى القاهرة ليتفاهموا مع أولى الرأى فيها . ولما بلغوها وجدوا بها بعض أساقفة الصعيد ، جاءوا هم أيضاً للتشاور فى أمر الانتخاب . على أن مداولاتهم لم تسفر عن شئ . فرأوا أنه من الأجدى أن يتوجهوا إلى برية شيهيت للتفاوض مع رؤساء الأديرة هناك لعلهم يظفرون بضالتهم المنشودة . وكان دير الأنبا مكارى الكبير مقصدهم . وبينما هم مجتمعون فيه يستعرضون بعض الرهبان ، إذا بزائر يدخل عليهم صدفة [1] . ولما عرف السبب الذى اجتمعوا لأجله أعلمهم بأنه يوجد راهب متوحد حبيس فى صومعة بسنجار [2] اسمه ميخائيل ، وقال عنه : « لقد اشتاقت روحه الطاهرة إلى الجهاد الحسن وفقاً للحياة الرهبانية القدسية ، ورغب فى أن يتجند للسيد المسيح منذ صباه . فعاش فى هذا الدير الذى أنتم فيه الآن سنوات عديدة ونال رتبة الكهنوت . ثم غادره وقصد إلى مدينة سنجار . فانفرد فى صومعة على مقربة منها » [3] وما كاد الوفد الكنسى يسمع هذا الوصف

---

(١) لايقر المؤمنون مبدأ الصدفة لأنهم يرون تدبير العناية الإلهية حتى فيما يبدو للناس صدفة .

(٢) مدينة أبتلعتها بحيرة البرلس المحاذية للبحر الأبيض المتوسط .

(٣) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ ٣ ص ٩٤٤ .

حتى غادر برية شيهيت لفوره وذهب إلى مدينة ستجار حيث سأل أهلها عن الراهب ميخائيل ، فأجابوا أنه راسخ الإيمان متبحر فى العلم ، يملأ عبير قداسته الأرجاء . فإزداد شوق أعضاء الوفد لرؤية الناسك ميخائيل واستقر رأيهم على انتخابه .

١٠٧ - ولكى يتمكن هذا الوفد من الوصول إلى غايته انتدب الأنبا سنهوت أسقف القاهرة ، والشماس أبا غالب بن مرقوريوس ليقابلاه شخصياً . ولما دخل هذان المندوبان صومعة ميخائيل المتوحد أخذا يسألانه عن الإيمان وعن تعاليم الكنيسة . وقد أيدت أجوبته ما قيل عنه ، وعندها أعلنا له السبب الذى جاءا - هما وزملاؤهما - لأجله . فاعتذر لهما بعدم استحقاقه لهذه الكرامة العظمى وبأنه لم يعد يصلح للحياة فى العالم بعد أن قضى السنين الطويلة فى الوحدة . على أن الأسقف وشماسه لم يقراه على هذه الأسباب ثم أكدا له أنه لم يأت معهما طوعاً فسيحملانه قسراً ، واستعطفاه لكى لا يضطرهما إلى حمله عنوة . فتأثر ميخائيل بكلماتهم ، وبما أولياه من ثقة ، ونزل على رغبتهما . وخرج ثلاثتهم ، واجتمعوا ببقية أعضاء الوفد . ثم قصد الجميع إلى القاهرة . فتلقاهم الأساقفة والشعب بالترحيب والتهليل وسار الجميع الى الاسكندرية حيث أقيمت مراسيم الأحتفال باقامته البابا الاسكندرى الثامن والستين يوم ١٢ بابه سنة ٨٠٠ ش (١٠٨٤ م) باسم الأنبا ميخائيل الرابع .

١٠٨ - وما أن تمت رسامته حتى بادر بالذهاب إلى دير القديس مكارى الكبير للتعبد والتأمل فى الإلهيات لكى يستمد من هذه التأملات النعمة الإلهية التى تمكنه من تأدية مهامه الراعوية . وبعد أن قضى فى الدير أيام استعرض فى نفسه خلالها سير الآباء الأماجد الذين قادوا دفة الكنيسة بحكمة وصلاح عاد إلى القاهرة . واتخذ من كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل القائمة على جزيرة فى النيل مقراً له .

١٠٩ - ولقد عكر صفو السنة الأولى لبابوية الأنبا ميخائيل الرابع عصيان بعض أبنائه عليه . على أنه استطاع بحكمته أن يلطف من حدتهم ويجعلهم يستغفرونه ويقدمون له فروض الولاء . ولكنه لم يكد يهنأ بتثبيت السلام بينه وبين أبنائه حتى فوجىء الجميع بانتقال بدر الجمالى إلى دار الخلود . وكان هذا الأرمنى الكبير قد خدم مصر بتفان واخلاص مدى

خمس عشرة سنة . فقد أدرك أنه أن شاء أن يظل قابضاً على أعنة السلطة وجب عليه أن يستميل الشعب إلى جانبه ، وأن خير وسيلة لاستمالتهم هى تأمينهم على صناعاتهم وتجارتهم وزراعتهم وجعلهم يشعرون بالطمأنينة والاستقرار . لذلك لم يثبت دعائم الإقتصاد فحسب ، بل جعل الانصاف قاعدة الحكم أيضاً فعامل المصريين جميعاً على السواء ، ودرج على دراسة جميع الشكاوى التى تصله بنفسه ليعرف مدى صحتها وليعطى الحق لصاحبه .

١١٠ - وقد أحب المصريون هذا الوزير لهذه المزايا رغم أنه لم يكن من مواطنيهم . وقد يكون أقوى الأسباب لتعلق القلوب به هو أنه - مع كونه أرمنياً - خدم مصر خدمة الإبن المحب لأمه الرؤوم . وقد توفى هذا الرجل الأمين عن ثمانين عاماً ، وحظى بعرفان الجميل من جميع المصريين . وخلال الخمس عشرة سنة التى تولى فيها الوزارة استطاع أن يسيطر تماماً على الخليفة المستنصر الذى كان للذاته المكان الأول من تفكيره ، فرحب بسيطرة وزيره الحازم . وكان من حسن حظ مصر إذ ذاك أن الرجلين اللذين كانا على رأسها تفاهما وكمل أحدهما الآخر : فالمستنصر ينعم بمجالس الأنس والسمر ، ويشعر بالراحة لوجود من يدعم الأمن والسلام فى البلاد ، وبدر الجمالى قوى الشكيمة يرغب فى الحكم . على أن الوزير - وإن كان ميالاً للوجاهة والترف - الا أنه لم يكن قانعاً بمظاهر الحكم ، وإنما أراد الحكم الفعلى ، بعكس الذى تنفس الصعداء حين وجد النجدة ، وسلم المقاليد إلى يدى وزيره القوى قانعاً بمظاهر الأبهة والملك . ولأن كلا منهما كمل الثانى ، فقد عاش كلاهما فى أمن وثقة متبادلة . فلم تعكر الدسائس صفو علاقاتهما ، ولم يقف أحدهما بالمرصاد للآخر [1] . وهذا الصفاء الذى صبغ الصلات القائمة بين المستنصر وبدر الجمالى انعكس على الحياة العامة . فعاش المصريون فترة ذاقوا فيها طعم الأمن والاطمئنان وسعدوا بالعمل والإنتاج .

وشمل الهدوء المنتج الأديرة فازدهرت حتى لقد أقيم ديران لطائفتين

---

(١) مصر : من مينا إلى فؤاد الأول (بالفرنسية) - الطبعة الرابعة ص ٢٣٦ - ٢٣٩ ، ويقول ستانلى لاين بوول أن وزارة بدر الجمالى دامت عشرين سنة - راجع كتابه « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » (بالانجليزية) ص ١٥٠ - ١٥٤ .

مختلفتين هم الأحباش والأرمن ، ويغلب الظن على أنهما كانا ضمن القلالى الملحقة بدير القديس يؤنس القصير .

ومن الأدلة على وجود رهبان من جنسيات غير مصرية فى أديرة شيهيت فى الفترة ما بين القرن الثانى عشر والقرن الرابع عشر وجود مخطوطين بلغات متعددة وبعض أجزاء من الإنجيل تنقسم كل صفحة فيه إلى خمسة أعمدة : وكل عمود بلغة مختلفة وهى الأرمنية والعربية والقبطية والسريانية والحبشية .

وفى دير السريان لوحة مذبح مستديرة نقشت عليها كتابة باللغتين اليونانية والنوبية لتخليد ذكرى جرجس ملك النوبة الذى عاش فى القرن الثانى عشر .

وكان هناك دير يحمل اسم النبى ايليا فى شيهيت اذ ذاك به قلاية تحمل اسماً قبطياً . ومن المرجح أن الأحباش والنوبين قد عاشوا فى هذا الدير الذى استضافهم القبط فيه [1] .

١١١ - ولقد آلت الوزارة بعد بدر الجمالى الى إبنه شاهنشاه الذى أتخذ لنفسه لقب « الأفضل » . ولم تمض سبعة أشهر على تسلمه مقاليد الحكم حتى انتقل الخليفة المستنصر بدوره الى رحمة مولاه . وكان هذا الخليفة قد أوصى أخته كما أوصى وزيره الأفضل بالمناداة بابنه الصغير خليفة من بعده . وتنفيذاً لهذه الوصية نادى الأفضل بأبى القاسم أحمد ملكاً على البلاد باسم المستعلى بالله . ثم بعث برسالة الى أبناء المستنصر الثلاثة ينبئهم برغبة أبيهم وبتنفيذه هذه الرغبة . وثارت ثائرتهم ، فسارعوا الى القاهرة ودخلوا قصر الخليفة ، وقد بدا غضبهم على وجوههم وتأملهم الأفضل بضع ثوان ثم قال فى هدوء تام : « قدموا فرض الولاء لسيدنا أمير المؤمنين ، وأقسموا له يمين الولاء والطاعة ، لأن هذه وصية أبيكم الخليفة المستنصر بالله » . ولكن ثلاثتهم رفضوا الاذعان وأدعى كل منهم أن أباه انتخبه شخصياً ليكون خليفة من بعده . ثم خرجوا من القصر غاضبين حانقين . وترك الابن الأكبر القاهرة وقصد الى الأسكندرية . فلما أصبح

---

(١) أديرة وادى النطرون (رسالة مارمينا العدد السادس) للدكتور منير شكرى ص ٢٦٦ - ٢٦٩ .

الصباح ، وعلم الأفضل بسفره ، أرسل وراءه رجاله ولكنهم فشلوا فى معرفة أين أختبأ ففشلوا أيضاً فى القبض عليه .أما الأخوان الآخران فبقيا فى القاهرة ، فوضعهما الأفضل تحت رقابة شديدة . ثم أجلس المستعلى على كرسى الخلافة ، وبعث فى طلب كبير القضاة وأعيان المدينة . ولما مثلوا بين يديه طالبهم بتقديم فروض الطاعة والولاء للخليفة الجديد الذى لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة من عمره . فنزل الكل على رأيه بالاجماع . وعندها بعث برسوله الى الأميرين ، وأبلغهما بما جرى طالباً اليهما أن يحضرا ليضما صوتيهما الى صوت وجوه الشعب . فرضى الأميران ، وجاءا الى القصر حيث أعلنا ولاءهما لأخيهما على رؤوس الأشهاد .

١١٢ - وفى تلك الأثناء جمع نزار - الإبن الأكبر للمستنصر - عدداً من الأنصار والمشايعين وأعلن نفسه خليفة فى مدينة الاسكندرية . فأدى هذا التحدى إلى قيام حرب دامت عشرة شهور وانتهت بهزيمة نزار شر هزيمة . فقبض عليه رجال الأفضل وألقوا به فى السجن حيث مات بعد ذلك بشهور قليلة . واستتب السلام على أثر ذلك لأن المستعلى أصبح الخليفة بلا منازع ، وسلم مقاليد الحكم الى الأفضل الذى شابه أباه فى نزاهته وعدالته كما شابهه فى شهوة الحكم . كذلك ، شابه المستعلى أباه فى حب الترف والاسترخاء والأكتفاء بمظاهر الحكم . وهكذا عادت الحياة إلى مجراها الطبيعى دون أن يطرأ عليها أى تغيير سوى تغيير الأشخاص . واستمر المصريون ينعمون بالهدوء والأستقرار ، ويسعدون بالإنشغال فى أعمالهم وهواياتهم . فكانت فرصة عظيمة هيأتها العناية الإلهية للأنبا ميخائيل الرابع ليباشر مهامه الراعوية فى ثقة وأمان . وبدت نعمة الله أيضاً فى أن حكم القدس إذ ذاك أسند إلى قبطى نال حظوة خاصة وهو منصور التلبانى [1] .

١١٣ - وحدث أن جاء الفيضان ناقصاً منخفضاً إلى حد أزعج المصريين . وكان المستعلى يعرف أن النيل يصل إلى مصر من بلاد الحبشة وأن الأحباش يدينون بالولاء للكرسى المرقسى ، فأرسل مندوباً من عنده إلى البابا المرقسى يرجو منه الذهاب إلى بلاد الحبشة ليقابل ملكها ويتفاوض معه على الوسائل الممكن اتخاذها لكى تعلو مياه النيل . وقد

(١ تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لفيشر ترجمة مصطفى زيادة والباز العرينى .

بعث الخليفة مع مندوبه بهدية ثمينة ليحملها البابا الاسكندرى إلى العاهل الحبشى ، ولقد فرح الأنبا ميخائيل فرحاً عظيماً حين أئتمنه المستعلى على هذه المهمة لأنه أدرك أنها خدمة وطنية مزدوجة : فهى من جهة خدمة لبلاده الأصلـية مصـر ، وهى من الجهة الأخرى خدمة لأولاده بالتبنى وهم الأحباش . فقبل رجاء الخليفة وسافر على الفور . وما أن اقترب من مشارف الحبشة ووصلت أنباء اقترابه حتى خف الامبراطور ورجاله الى استقباله هو ومن معه بكل مظاهر التجلة والاحترام . وحين علم الامبراطور بالسبب الذى حدا بضيفه العظيم أن يحضر إلى بلاده ، أمر رجاله بأن ينظفوا مجرى النيل من كل الأعشاب النامية فيه والتى قد تعيق أنسيابه بقوة . فأدى ذلك إلى أرتفاع منسوب النيل ثلاث أذرع في ليلة واحدة . وقد بقى الأنبا ميخائيل الرابع فى الحبشة عدة أسابيع ، نجح خلالها فى أن يقيم علاقات المودة بين ملك تلك البلاد وبين الخليفة المستعلى . ومن ثم توثقت الصلة بين الدولتين . وكان الأنبا ميخائيل الرابع أول من سافر إلى الأقطار الحبشية من باباوات الاسكندرية [(١)] ، رغم أن الصلة الروحية ربطت بين البلدين منذ عهد الأنبا أثناسيوس الرسولى - أى أنه كان قد أنقضى على تلك الصلة ما يزيد على سبعة قرون ونصف تعاقب خلالها سبعة وستون خليفة لمارمرقس الرسول .

١١٤ - ولم تمض غير مدة وجيزة على عودة الأنبا ميخائيل الرابع إلى مصر حتى وفد رسول من بلاد الحبشة يحمل خطاباً إلى الوزير الأفضل يتضمن رجاء إلى البابا الاسكندرى برسامة مطران جديد لتلك البلاد لانتقال مطرانها إلى الأخدار السماوية . فبعث الأفضل برسالة إلى هذا البابا الجليل يرجو منه فيها أن يسارع إلى رسامة مطران فى أقرب فرصة بحيث يستطع المطران الجديد أن يسافر إلى الحبشة مع الرسول الملكى عند عودته إلى وطنه . فلبى الأنبا ميخائيل الرابع الرجاء ، وبادر برسامة راهب اسمه جرجس من نساك دير الأنبا مكارى الكبير . على أن هذه الرسامة أثبتت صحة المثل القائل : « فى العجلة الندامة » لأن المطـران الجـديد أثبت أنـــه غير

---

(١) تاريخ الكنسية القبطية لمنسى القمص ص ٥٢٠ - ٥٢١ ، و يقول المقريزى فى « الخطط » جـ٢ ص ٤٩٦ بأن الخليفة الذى طلب إلى الأنبا ميخائيل بالذهاب إلى الحبشة هو المستنصر .

جدير بالكرامة العظمى التى نالها . فقبض عليه الملك الحبشى ، وأعاده إلى القاهرة فى حراسة جنده . ولما عرف البابا المرقسى حقيقة ما جرى ، جمع مجمعاً جرد فيه المطران من كرامته وأنزله إلى رتبة راهب بسيط ، كما أعتقله الأفضل عدة سنوات سمح انه بعدها بالعودة إلى ديره حيث قضى بقية أيامه . وبعد أصدار الحكم المجمعى بتجريد جرجس ، سـعى البابا الى تخير راهب فاضل ، وانتقاه هذه المرة بهدوء ومن غير تسرع ، فنجح فى رسامة مطران مدرك لمجد الكرامة التى نالها والمسئوليات الجسام الملقاه على عاتق من بلغ هذه المرتبة الكهنوتية العظمى .

١١٥ - وبينما كان البابا المرقسى والوزير الأفضل يعملان جهدهما لخدمة المصريين : كل فى دائرته ، انتقل الخليفة المستعلى الى الدار الباقية دون أن يشعر انسان بفقده . فبادر الأفضل بالمناداة بإبنه الآمر باحكام الله خليفة - وكان طفلاً فى الخامسة من عمره . ولكى يرضى الأفضل هذا الطفل ، وضع له على سرجه الخاص مقعداً صغيراً ، كان يجلسه عليه حين يجوب المدينة ليتفقد أحوال الرعية . فكانت هذه المظاهر فاتحة لعشرين سنة كان الأفضل الآمر الناهى فيها بلا منازع . فلم ينقصه من مستلزمات الحكم غير اللقب .

١١٦ - ولم تمض غير شهور قليلة على المناداة بالخليفة الآمر حتى تفشى وباء الطاعون فى البلاد . ولما كان الأنبا ميخائيل الرابع راعياً أميناً أخذ ينتقل بين أولاده المنكوبين : يواسى هذا ويشجع ذاك دون أن يأبه لما قد يتعرض له من خطر . ولما كان المرض عدواً لكل جسم انسانى بغض النظر عن صاحبه ، فقد دب الطاعون الى جسم هذا البابا الاسكندرى الرحيم الساهر على أولاده . ففى ذات يوم - أثناء تجواله بين المرضى - لاحظ المحيطون به أنه يتأرجح على دابته فسارعوا الى مساندته لئلا يسقط من فوقها وحملوه الى الدار البابوية . ولم يمهله المرض غير ساعات قصيرة اذ انتقل فى صبيحة اليوم التالى الى فردوس النعيم بعد أن خدم القبط خاصة والمصريين عامة مدى تسع سنين وسبعة أشهر [١] .

---

(١) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموسى جـ ٢ ص ٣٩٦ - ٤٠٥ .

الحروب الصليبية

عيسى سبيلك رحمة ومحبة
في العالمين عصمة وسلام

* * *

يا حامل الآلام عن هذا الورى
كثرت عليه باسمك الآلام
أنت الذى جعل العباد جميعهم
رحما وباسمك تقطع الأرحام

* * *

واليوم يهتف بالصليب عصائب
هم للإله و روحه ظَلام
خلطوا صليبك بالخناجر والمدى
كل أداة للأذى و حمام [1]

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

(١) هذه الأبيات لأحمد شوقى أمير الشعراء مأخوذة عن قصيدته «الأندلس الجديدة» .

(ا) الأنبا مكارى الثانى

١١٧ - الراهب الفنان مكارى ومسعى ابى الفضل كاتب الوزير

١١٨ - تعنت الاسكندريين ثم رضاهم .

١١٩ - رسامة البابا المرقسى التاسع والستين .

١٢٠ - ظلام ورياح وزلزال .

١٢١ - « ايها الدين كم من الآثام تقترف باسمك »[1] .

١٢٢ - حزن على حزن .

١٢٣ - نوبة من الشر تطغى على الامر .

١٢٤ - القلق يتضاعف .

(ب) مجموعة من الكواكب

١٢٥ - ماذا وراء مخطوطاتنا الضئيلة ؟

١٢٦ - سطور خلفها مجلدات .

(جـ) الأنبا غبريال الثانى

١٢٧ - ابو العلا شماس وكاتب فى ديوان الخليفة .

١٢٨ - جرأة الانبا غبريال الثانى

١٢٩ - سلسلة من الاغتيالات .

١٣٠ - صدام مع الحبشة .

١٣١ - مجموعتان من القوانين الكنسية

١٣٢ - مرض الانبا غبريال الثانى فشفاؤه ثم نياحته .

(د) الأنبا ميخائيل الخامس

١٣٣ - ما زاد عن حده انقلب الى ضده

١٣٤ - الاحتكام الى القرعة الهيكلية .

١٣٥ - « تكفيك نعمتى »[2]

١٣٦ - باباوية الانبا ميخائيل الخامس فى عمر الزهور .

١٣٧ - وقفة قصيرة .

١١٧ - كان انتقال الأنبا ميخائيل الرابع فى فصل الصيف حين يكون المصريون عامة منشغلين بحصادهم ومحصولات حقولهم فاكتفى الأساقفة

---

(١) مع الاعتذار لمدام رولان احدى ضحايا الثورة الفرنسية التى قالت يوم ساقوها الى المقصلة « أيتها الحرية - كم من الآثام تقترف باسمك » .

(٢) ٢ كو ١٢ : ٩ .

والأراخنة إذ ذاك بتبادل رسائل التعزية ، ولكنهم لم يجتمعوا للتشاور معاً إلا في شهر بابه (أكتوبر) . وما أن اجتمعوا حتى اتفقت كلمتهم على ايفاد نفر منهم إلى برية شيهيت ، إلى دير القديس مكارى الكبير ليقابلوا رئيس الدير ، ويعرفوا منه رأيه فى خير الرهبان المقيمين بتلك المنطقة المقدسة . وبقى المندوبون فى الدير أكثر من أسبوعين دون أن يصلوا إلى قرار حاسم ، وفى آخر شهر بابة اجتمعوا معاً كما كانوا يفعلون يومياً منذ وصولهم إلى الدير ، الا أنهم حين اجتمعوا يومذاك اتفقوا بانسجام روحى عجيب على راهب معين ، وكأنما كان اتفاقهم بوحى من الروح القدس . وكان اجماعهم على ناسك اسمه مكارى ، تجمل بالوداعة والعلم والإيمان الراسخ ، كما كان فناناً بارعاً [1] .وكان هذا الراهب الوديع يقضى أوقات فراغه فى رسم الأيقونات وفى تزيين المخطوطات . وفرح المندوبون حين تجلت أمامهم حقيقة ذلك الراهب الفنان ، ورأوا أن يتداركوا ما فاتهم من الوقت ، فقبضوا عليه لفورهم وخرجوا لساعتهم قاصدين إلى القاهرة . وما كادوا يصلون إلى كنيسة الأنبا قزما التى عند القنطرة [2] حتى أسرع أبو الفضل الكاتب القبطى للوزير الأفضل فأبلغ وزيره بمقدم الركب الآتى من شيهيت ، كما رجا منه أن يصدر أمره إلى والى الاسكندرية ليعفى الراهب المنتخب من دفع الضريبة التى يفرضها ولاة تلك المدينة على كل من يعتلى السدة المرقسية . فقبل الأفضل هذا الرجاء ، كما رأى أن يدعو الراهب مكارى وناخبيه لمقابلته قبل سفرهم إلى الاسكندرية . فخرج أبو الفضل فرحاً متهللاً ، وأبلغ قومه بما جرى ، فألف القبط موكباً فخماً حول من انتخبوه ، وساروا خلفه حاملين الأناجيل والمجامر والشموع ، وامتزجت ألحانهم بالبخور المتصاعد والنور المتلألئ حتى وصلوا إلى دار الأفضل . وقد سار فى موكبهم متولى القاهرة ورجاله . وحالما دخلوا إلى الداخل رفع الراهب مكارى يده بالبركة ، وتفرس فيه الوزير فوجده « عفيفاً حسن الوجه جيد الكلام » [3] وأحس بانعطاف نحوه ، فأكرمه كل الاكرام ثم أمر

---

(١) دليل المتحف القبطى لمرقس سميكة جـ ٢ ص ١٦٥ .

(٢) القنطرة المشار اليها هنا كانت تقع أمام ضاحية فم الخليج جنوبى القاهرة وتقع بينها وبين حصن بابلون (مصر عتيقة) ولا أثر لهذه الكنيسة الآن .

(٣) تاريخ البطاركة – مخطوط نقله القمص شنودة البرموسى الصوامعى عن النسخة المحفوظة بدير البرموسى جـ ٢ ص ٤٠٧

بكتابة رسالة إلى والى الاسكندرية لابلاغه بأن يقدم كل ما يمكنه من تسهيلات لرسامة البابا الجديد ، وأن يتجاوز عن الضريبة المفروضة فى مثل هذه الظروف . فابتهجت القلوب جميعها لهذا الاكرام وهذه المودة ، وحملوا خطاب الوزير وخرجوا من عنده قاصدين الاسكندرية مباشرة .

١١٨ - على أن التسهيلات التى هيأها لهم الوزير لم تكن كافية لتجعل أراخنة القبط فى الاسكندرية يلينون ! فقد تنازل الوالى عن الضريبة المفروضة تنفيذاً لأمر الأفضل ، بينما تشدد الأراخنة فى مطالبة الراهب مكارى بأن يكتب لهم وثيقة بالمال الذى يجب عليه دفعه لهم أسوة بأسلافه منذ البابا الاسكندرى السادس والخمسين . ولكن مكارى رفض أن يرتبط بتعهدات لا يعرف مقدماً إن كان سيستطيع أداءها أم لا ، وبخاصة لأنه كان فقيراً فقراً مدقعاً . وظل هو والاسكندريون فى أخذ ورد من أول هاتور حتى الحادى عشر من كيهك . فأدرك الاسكندريون بعد هذه المدة صدق هذا الراهب المختار وصفاء سريرته . وأدركوا أنه كان فى امكانه أن يوقع لهم على الصك الذى قدموه إليه ثم يحنث بتعهده كما فعل غيره . وحين أدركوا هاتين الحقيقتين ، سلموا بوجهة نظره .

١١٩ - ولما أطمأن هذا الراهب العفيف إلى رضى الاسكندريين ، قبل أن يضع الأساقفة اليد عليه ، فتمت شعائر الرسامة فى الثانى عشر من كيهك (١٠٩٤ م) باسم مكارى الثانى الخليفة التاسع والستين لكاروز ديارنا الحبيبة . فأقام فى الاسكندرية اثنى عشر يوماً بعد رسامته ثم سافر إلى القاهرة حيث قضى ثلاثة أسابيع أحتفل فى نهايتها بعيد الغطاس المجيد . وفى اليوم التالى لهذا العيد العظيم قصد إلى دير الأنبا مكارى الكبير ، وبقى فيه إلى أن انتهى موسم الصوم الكبير وأسبوع البسخة ، فأدى شعائر عيد القيامة المجيدة بين رهبان هذا الدير وعاد بعد ذلك إلى القاهرة . ولقد أطلق القبط لقب « أبى البابوات » على الأنبا مكارى الكبير منذ هذا العهد لكثرة النساك الذى انتخبوا من بين رهبانه للجلوس على الكرسى المرقسى .

١٢٠ - وحدث بعد عودة الأنبا مكارى الثانى من برية شيهيت بأيام قليلة أن أصيب الناس بذعر شديد لأن ظلام دامساً غطى الأرض فجأة فى رائعة النهار ، وفى حلكة الظلام عصفت رياح هوجاء . وما كادت الرياح

تهدأ وينقشع الظلام حتى اهتزت الأرض بزلزال مفزع ، وفى الليلة التالية للزلزال انهارت كنيسة الملاك ميخائيل (فى جزيرة على النيل) ، وأشيع أن الزلزال صدع بنيانها فتداعت . ولو أن عدداً من القبط لم يصدق هذه الرواية ، واتهموا بعض الرعاع بهدمها . ولكن هذه التهمة لم تحقق ، وظل السبب الحقيقى لانهيار الكنيسة مجهولاً حتى الآن . ولما سمع البابا الاسكندرى الخبر ذهب لفوره إلى مكان الكنيسة ، وبكى بكاء مراً حين رأى الأنقاض ثم طلب إلى كهنتها أن يستخلصوا الكتب والأوانى المقدسة من بين الأطلال ويحملوها إلى الكنيسة المعلقة .

١٢١ - وكأنما كانت غضب الطبيعة ، وتصدع كنيسة رئيس الملائكة نذيراً بالدمار - وقد جاء الدمار فى هذه المرة من الغرب . لأن راهباً ايطالياً - اسمه بطرس الناسك - كان قد نجح فى استثارة ملوك أوربا وأمرائها إلى حد جعلهم يزعمون أن من واجبهم تخليص الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين فجمعوا جحافلهم للحرب ولكنهم لم يكتفوا بمهاجمة فلسطين ، وإنما صوبوا بنادقهم إلى مصر وسوريا وآسيا الصغرى ، بل وهاجموا امبراطور القسطنطينية أيضاً . فلو أن ادعاءهم بأنهم لم يقاتلوا إلا لانتزاع الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين كان صحيحاً ، فلماذا اعتدوا على المصريين والسوريين وأهالى القسطنطينية ؟ ولو احتجوا بأن حكام مصر وسوريا من المسلمين فما هى حجتهم فى مقاتلة امبراطور الروم وهو مسيحى ؟ قد يكون الرد الصحيح على هذه الأسئلة أن الغرب أراد أن يستعمر الشرق بأكمله فتستر بستار الدين ليبرر فعلته . وكان لأسماء المدن - كأورشليم وأنطاكية وغيرهما - رنين خلاب ، ألهب خيال الأشراف الأوربيين وملأ قلوبهم حماسة دفعتهم إلى القتال ، لعل كل واحد منهم يظفر بشرف الاستيلاء على إحدى هذه المدن العتيقة ويقيم من نفسه والياً عليها .

وكان فى الشرق عاهلان يرقبان الزحف الأوربى باهتمام بالغ : هما اليكسيس امبراطور القسطنطينية الذى زعم أنهم قد يدعمون ملكه ، والأفضل (وزير الخليفة الفاطمى) الذى زعم أنهم سيقونه شر الزحف السلجوقى [١] . فأصيب العاهلان بخيبة أمل قاصمة - لأن الفرنجة قاتلوا

---

(١) السلجوقيون قبائل تركمانية تتارية أقامت دولة ما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر فى بلاد فارس وآسيا الصغرى والقوقاز الواقع فى الأراضى الروسية (الآن) .

اشباعاً لأطماعهم ورغبة فى أن يكونوا أصحاب الحكم المطلق . ولم يقف الأفضل مكتوف اليدين بل بعث بجيشه واحتل فلسطين . ولكن نصره كان قصير الأمد . ذلك لأن هؤلاء الغزاة لم يكونوا على استعداد للتراجع بهذه السرعة . فقد قطعوا الجبال والوهاد ، وتحملوا مشاق السفر رغم بعد المسافات ووعورة الطرق إذ ذاك ليظفروا بغنائم متنوعة أهمها الاستيلاء على مدينة القدس . فكانت مطامعهم تتعارض تماماً مع أهداف الأفضل . ومن العجيب أن أحلام الفرنجة بالاستيلاء على القدس تلخصت فى أنهم إنما يهدفون إلى تخليصها من أيدى الحكام المسلمين كأنها مدينة مهجورة لا سكان فيها . فلم يخطر ببال أحد الزاحفين ماذا يكون حال أهل القدس ، بل لم يفكروا لحظة فى هؤلاء الأهالى ، وحينما سقطت المدينة المقدسة فى أيديهم تبخرت من عقولهم كل فكرة سامية وزال من قلوبهم كل شعور نبيل ، بل لقد نسوا تعاليم المخلص الذى وضعوا شارته على دروعهم وصدورهم ! ولم يعمل جود فروا دى بويون (أو غيره من الأشراف)على منع عساكره من النهب والسلب فاندفع الجند إلى الفتك بالشعب الآمن حتى لقد قتلوا فى مدينة ملك السلام سبعين ألفاً من الآهلين العزل [1] . وبأزاء هذا البطش الغاشم أدرك الأفضل مدى الخطأ الذى وقع فيه حين زعم أن هؤلاء الغزاة قد يحمونه من السلجوقيين . ولم يكن مسلكهم مع القدسيين بالخيبة الوحيدة الى أصابته ، إذ قد صادفته خيبة أشد مرارة مؤداها أن جند الصليبيين فاجأوا الجيش المصرى عند أسوار عسقلان ، ثم أطلقوا عليه رصاصهم رغم راية الهدنة البيضاء ، وأمعنوا فى الغدر فأشعلوا النيران فى غابة قريبة من المدينة كان المصريون قد لجأوا إليها . وبأزاء كل هذا الطغيان رأى الأفضل أن يسارع إلى القاهرة حرصاً على البقية الباقية من جند مصر[2] . وما ان استقر به المقام حتى انغمس فى الترف وفى احياء المواسم والأعياد بمواكب فخمة وبذخ شبيه بالخيال . فأغرق خيبته فى لجة هذه المفاتن . وبهذه المظاهر الخلابة أرخى الأفضل ستاراً على ما أصابه من فشل وانكسار . فانسابت الحياة فى مجراها الطبيعى . على أنه رغم ما بدا على صفحتها من هدوء فإن التيارات العنيفة كانت تتزاحم فى أعماقها .

---

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأشمندريت جيتى جـ ٧ ص ٢٦٨ - ٢٩٧ .

(٢) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بول ص ١٦٤ .

واستبد الأسى بالقبط إذ رأوا المعتدين يحملون الصليب على صدورهم . وكان من الطبيعى أن يسئ المسلمون الظن بالقبط فى بادئ الأمر إذ من أين لهم أن يعرفوا عما جرى فى خلقيدون وعما جرّه هذا المجمع المشئوم من البلايا ؟ لذلك شدد الحكام الخناق عليهم وضاعفوا الطلبات . هذا من جانب . أما من الجانب الآخر فإن هؤلاء الذين انتحلوا لأنفسهم لقب الصليبيين « كانوا يعتبرون القبط وغيرهم من مسيحى الشرق مبتدعين منبوذين خارجين عن حظيرة كنيستهم الرومانية ! »[1] وهكذا كانت هذه الحروب الصليبية هماً وغماً على حاملى الصليب فى الشرق . فقد استطاعوا أن يتعايشوا مع مواطنيهم المسلمين فى أيام الضيق وأن ينعموا وإياهم فى أيام الفرح ولكن القادمين من الغرب وسط صليل السيوف إنما جاءوا للقتل والنهب رغم رمز المحبة والسلام الذى يحملونه على ألويتهم . وصمّ هذا الصليل آذانهم إلى حد أن سيدة كسيحة هى ابنة كاهن اسمه جرجس بن الفضائل اضطرت تحت ضغط تهديداتهم « أن تعطيهم كل ما تملك لتنقذ الكنيسة التى كانت أمينة عليها »[2] .

وليس ذلك فحسب بل أنهم حين نجحوا فى إقامة مملكة لاتينية بالقدس وأحسوا بشئ من الاستقرار فيها « ساد الوئام بين مسيحى الغرب ومسيحى الشرق فيما عدا أقباط مصر (اليعاقبة) الذين منعوهم من الحج إلى المدينة المقدسة بدعوى أنهم ملحدون ، ويصف أحد مؤرخى الأقباط حزنهم لذلك بأنه لم يكن بأقل من حزن المسلمين ، ويتساءل قائلاً : « بأى حق يمنع نصارى الأقباط من الحج إلى القدس أو الأقتراب من المدينة . ان الصليبيين يكرهوننا كما لو كنا ضللنا عن الإيمان القويم »[3] .

١٢٢ - على أنه قبل أن تداهم القبط هذه الكارثة المزدوجة نعموا

(١) يقول دكتور عبد العزيز مرزوق فى كتابه « الناصر محمد بن قلاوون » ص ١٣ : « فى هذه الحروب (الصليبية) التى كان ظاهرها الدين وباطنها الرغبة فى السيطرة لم يتحرك من أجلها الأقباط فى مصر » ، راجع أيضاً كتاب « الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية » للدكتور وليم سليمان ص ١٥ .

(٢) تاريخ الكنائس الشرقية (بالانجليزية) للدكتور عزيز سوريال عطية ص ٩٧-٩٨ .

(٣) قصة الأقباط فى الأرض المقدسة لديمترى رزق ص ٢٠ - ٢١ نقلاً عن المؤرخ الفرنسى رينودو .

هم وياباهم الأنبا مكارى بالاستقرار النفسى فى ظل العدالة التى دعمها الأفضل رغم أن قلوبهم كانت مفعمة بالحزن والألم . فلقد كان وجعهم مضاعفاً : إذ تضامن الحزن على بلادهم التى يبغى الدخيل الاستيلاء عليها مع حزنهم الناتج عن رؤية الصليب على صدور المستعمرين الغاشمين ، نعم أنه الحزن على بلادهم المهددة وعلى دينهم المفترى عليه . ثم تضاعف حزنهم إذ رفض هؤلاء المتسترون خلف الصليب أن يسمحوا لهم.بالحج.وزادوا على ذلك بأن هجـم بولدوين على ميناء الفرما وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً وأشعل النار فيها . ثم استمر فى زحفه حتى وصل إلى تينيس . ولكن انتصاره انقلب فجأة إلى هزيمة ساحقة : فقد عاجلته المنية وتبدد جنده . ورأى المصريون فى هذا الحادث انتقاماً إلهياً فاكتفوا به ولم يحاولوا الأخذ بالثأر وفضلوا الوقوف موقف الدفاع وبهذه الخطة الرشيدة نجحا فى حماية بلادهم من الوقوع فى أيدى الغزاة الغادرين (١) .

١٢٣ - وفى وسط هذه الحالة - حالة القلق والتوتر التى كانت تسود البلاد - خطر ببال الخليفة الآمر أن يتخلص من وزيره الأفضل ، فبدلاً من أن يقيله ، أوعز إلى ثلاثة من رجاله بقتله .

وكان الآمر قبل أن تنتابه هذه النوبة العنيفة مـن الشر قانعاً بمظاهر الملك ، ينعم بالترف والأبهة ، وينتقل من سرايه المقامة على جزيرة الروضة إلى حديقته الغناء المشهورة بورودها ذات العبير الزكى . وحين يسأم هذا كله يذهب إلى ديبر نهيا لقضاء بضعة أيام فيه . وكان - كلما ذهب إلى هذا الدير - يمنح رهبانه ألف دينار . أما فى الزيارة الأولى فقد أوقف عليه ثلاثين فداناً (٢) على أن هذا الشاب المترف المدلل تحول فجأة إلى طاغية غشوم إذ تسلطت عليه شهوة الاستئثار بالحكم .

وكان الأفضل هو الذى أخذ على عاتقه تنفيذ رغبـة المسـتعلى فنادى

(١) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پوول ص ١٦٣ - ١٦٥ مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى : المبحث الثانى لجاستون فييت ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٤٣ ، تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٦٨ - ١٦٩ .

بالآمر خليفة وهو بعد فى الخامسة من عمره ، وهو الذى حماه من بطش أخيه الكبير ، وأخلص فى خدمته وخدمة البلاد . إلا أن الترف الذى كان يعيش فيه هذا الوزير ملأ قلب الخليفة حسداً إذ أحس بأن وزيره منافس له فى الحكم وفى مظاهر الأبهة أيضاً . فاندفع بعنف هذا الحسد إلى التخلص منه على هذه الصورة المروعة ، وانقلب عليه رغم كل هذه الخدمات . ثم أراد أن يغطى فعلته الشنعاء فتظاهر بالحزن عليه وسار فى جنازته . غير أن النفس الأمارة بالسوء قد فضحت هذا النفاق ، لأن الآمر ما كاد يرجع من جنازة وزيره الأمين حتى سطا على جميع ما يملك ، فاستولى عليه ، ونقله إلى دار الخلافة . وقد ذكر المؤرخ جمال الدين أن ما تركه الوزير الأفضل كان يتضمن ست ملايين درهماً من الذهب ، ومائتين وخمسين زكيبة مليئة بالدراهم الفضية ، وخمسة وسبعين ألف جبة من الحرير (الساتان) ، وتمثالاً لرجل بالحجم الطبيعى من العنبر لاستعراض القفاطين بواسطته . وبين الأنظمة التى وضعها نظام يقوم على الفروسية ، ويتلخص فى أن من يلتحق به من الشباب يحظى بحصان وسيف ودرع ، ويتدرب على النزال والطاعة . ثم ينال المتفوقون منهم لقب أمير [1] .

١٢٤ - وأنه لمن المؤسف حقاً أن يقتل الخليفة وزيره ، لأن الأفضل كان قد سعى جهده فى تثبيت دعائم العدالة وفى تهيئة الفرص للعمل المنتج . وقد سعد المصريون جميعاً فى عهده ، فأوجسوا خيفة لمقتله . ويبدو أن الأنبا مكارى الثانى قد حزن حزناً بالغاً لهذه الفعلة الشنعاء ، فلم تنقض شهور قليلة حتى لاقى ربه بعد باباوية دامت سبعاً وعشرين سنة وشهراً واحداً . فصلى عليه الأساقفة الصلوات الكنسية الخاصة بالباباوات ، ثم دفن فى الكنيسة المعلقة [2] .

ويبدو أن الآمر وقتذاك كانت تنتابه نوبة من البطش إذ قد استولى عنوة على بستان لإحدى البيع ، وكان الشيخ صنيعة الملك أبو الفرج بن الشيخ قد اشتراه ووقفه على الكنيسة . وقد كان الشيخ صنيعة الملك يعمل فى

---

(١) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بول ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٢) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن نسخة مخطوطة بدير البرموسى جـ ٢ ص ٤٠٦ - ٤١١ .

ديوان الخليفة ثم عزل . ولا يعرف على وجه التحقيق إن كان قد أوقف هذا البستان على البيعة قبل عزله أو بعده . ولم يكتف الآمر بالاستيلاء على هذا البستان بل استولى على بستان آخر ملحق بكنيسة كانت تعرف بكنيسة المرقوتى [1] . ومع ذلك فقد كان هذا الخليفة كلما شاء الاستجمام يقصد الى دير نهيا وقضى به أياماً . وكان كل مرة يزور فيها الدير يمنح رهبانه وخدامه ألف دينار فى حين أنه منحهم ثلاثين فداناً بلا مال فى زيارته الأولى .

❖ ❖ ❖ ❖

(ب) مجموعة من الكواكب

١٢٥ - ومما يؤسف له أن المخطوطات القبطية التى لا تزال باقية بين أيدينا ضئيلة للغاية بالنسبة إلى تاريخنا الضخم . ومما يزيد الأسف أن عددا غير قليل من هذه المخطوطات الضئيلة قد وصلنا فى شذرات . فيجد الباحث كلمة هنا أو جملة هناك . ثم يقف حائراً بين هذه وتلك إذ لا يجد لهما بقية . فيتساءل عما عساه أن يكون وراء هذه الكلمة وتلك الجملة ولا يجد من يجيب . أو قد يعثر الباحث على اسم من تلك الأسماء البراقة التى تلهب الخيال فيسعى ليدعم خياله بالمعرفة وإذا به يجد السبيل مسدوداً فيضطر إلى الاكتفاء بما يصوره له خياله أو يستشفه قلبه .

وليس من شك فى أن عدداً لا يحصى من مخطوطاتنا قد ضاع بين براثن الاستبداد أو اعتداء الجهل . على أن الأمل يحدو البعض منا إلى الظن بأنه قد تكون هناك مخطوطات لا تزال محفوظة فى مغاور لم تعثر عليها يد بعد . وبخاصة بعد العثور على مجموعة من المخطوطات بنجع حمادى فى صعيد مصر وأخرى قرب البحر الميت بفلسطين ولا يسع الباحث فى وقتنا هذا إلا أن يكتفى بالكلمات أو الجمل المتناثرة ، أو بمجرد معرفة أسماء بعض الأعلام الذين كان لهم - من غير شك - أبعد الأثر فى المجتمع الذى عاصروه . كذلك لا يسع الباحث إلا أن يدرك أن الحياة

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٦٨ - ١٦٩ ، أهل الذمة فى الاسلام ترجمة حسن حبشى ص ١٤٩ .

انسابت انسياب النهر الذى يجرى أحياناً فوق هضاب وصخور وعرة ، وأحياناً أخرى فوق أرض رخوة ناعمة . هكذا كانت حياة القبط . فقد عرفوا معنى السلام والاستقرار كما عرفوا معنى القلق والفزع ومواجهة الاستبداد . ولئن كانت سجلات المجتمع القبطى غير وافية إلا أن الحقيقة التى لا مراء فيها هى أن وجود الباباوات يستلزم وجود شعب يرعونه . والشعب بالطبع يتألف من رؤساء ومرؤوسين - أو بالأحرى من قوم مختلف المشارب والأمزجة والمهن والحظوظ . ولئن كانت سير الباباوات محفوظة للآن فما ذلك إلا للاجلال الذى فاض عن قلوب القبط نحوهم بوصفهم خلفاء للقديس مرقس كاروزهم المحبوب . وإلى جانب هؤلاء الباباوات توجد شخصيات سجل لنا التاريخ أسماءهم ، ولكنه لم يحدثنا عنهم إلا فى سطور قلائل . على أنه لما كانت قمة الهرم لا تتسامى إلا متى تراصت أجزاؤه فى تماسك تام ، هكذا لم يكن من الممكن أن تسطع أمامنا شخصيات الآباء ومن وليهم فى المسئولية من غير أن يكون وراءهم شعب متماسك على الرغم من عدم وجود السجلات التى تبين لنا تواريخهم وكيفية معيشتهم ، والقليل الذى وصل إلى أيدينا إن هو إلا صور خاطفة تتلخص فيها مجلدات فهى لذلك جديرة بأن تشحذ هممنا للبحث عنها وتلهب خيالنا لتكملتها .

١٢٦ - ومن السطور التى وصلتنا عن القرن الحادى عشر ما يرسم لنا تراجم عدد من الأراخنة وهم :

سرور جلال : متولى الخراج فى خلافة المستنصر - امتاز بالانصاف وسعة الصدر وبعد النظر ، فاكتسب بهذه الصفات حظوة خاصة لدى الخليفة الذى وثق به إلى حد أنه كان لا يرفض له طلباً كما أذن له بتجديد كنيسة مارجرجس بالقاهرة [١] ومن الواجبات التى كانت ملقاة على عاتق سرور تنظيم المواكب يوم الاحتفال بوفاء النيل ، إذ كان المستنصر يرأس هذا الاحتفال بنفسه . وقد ظل سرور على وداعته وتواضعه رغم ما أولاه إياه الخليفة من ثقة فأحبه الناس حباً جماً ، وقصد إليه كل من له احتياج . فكان يعاونهم جميعاً ، ويقضى لكل حاجاته سواء أكان مسيحياً أم مسلماً أم يهودياً .

---

(١) أهل الذمة فى الاسلام ترجمة دكتور حسن حبشى ص ١٦٩ .

أبو اليمن يوسف : الملقب بأمين الأمناء - كان أميناً لخزانة الخليفة الذى عهد إليه ان يجمع خراج الدلتا نظراً لأمانته المتناهية ، فزادت مكانته فى أعين مواطنيه . وقد رأى أبو اليمن هذا أن يعبر عن شكره لله تعالى على ما أولاه من نعم فبنى ديراً منيفا وسط حديقة واسعة من أشجار النخيل على شاطئ النيل بطموه فكأنه باختياره هذه البقعة الجميلة يترنم مع الشاعر :

و للتخيل منظر مهيب تراع فى جماله القلوب
فوق الضفاف ظلها رهيب صفاً بصف زانها الترتيب
من كل جبار عظيم القدر
تحسبها مردة طوالا تحت مظلات زهت جمالاً
فى النيل جاءت تبتغى اغتسالاً سحرها النيل فلن تزالا
واقفة هنا بفعل السحر (١)

وقد أطلق على هذا الدير اسم « أبى السيفين » (٢) - ولم يلبث هذا الدير أن أصبح المكان المختار لنزهة الوزير الأفضل لما امتازت به حديقته من جمال وهدوء ، ولما كان يوحى به النيل من كرم ووفاء .

ابوسعدمنصور : هو ابن أبى اليمن ، كان كاتباً بارعاً جريئاً لا يخشى فى الحق لومة لائم . فعينه الخليفة المستنصر ضمن وزرائه . ولما تمرد الجنود الأتراك ، جمع أبو سعد هذا من بقى من الجند على ولائه للخليفة ، وخطب فيهم خطبة بليغة ثم قادهم فى المعركة ضد المتمردين وانتصر نصراً مبيناً . وكان لجرأته وولائه أبعد الأثر فى نفس الخليفة الذى ازداد حباً له واعترف بفضله مدى حياته .

أبو المليح الملقب بماماتى : كان واسع الثراء ، وممن ينطبق عليهم قول

(١) عن قصيدة « ليالى الصيف فى مصر » للشاعر الياس قياض - أنظر كتاب « مختارات الزهور » طبع فى القاهرة سنة ١٩١٤ ص ١٣٠ - ١٣٤ .

(٢) واسمه مرقوريوس فيلوباتير (أى محب أبويه) ، وهو أحد الآلاف الذين نالوا اكليل الشهادة ويلقب بأبى السيفين لأنه كان ضابطاً ثم رأى المسيح له المجد يقول له فى حلم « أترك السيف الذى تقتل به الناس وتقلد سيفى - سيف الحق المحيى » .

المزمور « بدد وأعطى المساكين » [1] . ولأن السخاء كان شيمته فقد أطلق عليه مواطنوه لقب « ماماتى » [2] . وحدث فى أيامه أن اجتاحت البلاد مجاعة مفزعة كان الأطفال – إذا ما رأوا أبا المليح خارجاً من بيته – يصرخون فى استعطاف قائلين « ماماتى » . وكان هذا النداء يهز قلبه حتى الأعماق ، ويدفعه إلى أن يعيطهم بسخاء عجيب .

بقيرة الرشيدى : كان هو أيضاً من الأراخنة الذين شهدوا المجاعة . فكان – خلال السنين العجاف – يقصد إلى الأحياء الفقيرة ليتفقد صغار الصناع والعمال . وكان يدخل بيوتهم ليرى بنفسه إلى أى حد من البؤس وصلوا ، ثم يوزع عليهم الملابس والطعام حسب احتياجاتهم وكان ينصرف إلى عمل المحبة هذا خلال النهار ، فإذا ما غربت الشمس انصرف إلى عمل آخر من أعمال المحبة هو البحث عن المرضى والغرباء والمسجونين لكى يقدم ما يحتاجون إليه من خدمات متنوعة وهى السعى للحصول على الافراج عن المسجونين ومعاونة الغرباء على العودة إلى بلادهم واستحضار الطبيب ثم الأدوية للمرضى . وهكذا كان ينفذ أوامر الفادى الحبيب بالفعل بدلاً من أن يكتفى بالتشدق بها .

الشيخ السعيد ابو الفخر المعروف بابن صاعد [3] : كان كاتب الرواتب فى خلافة الحافظ وترقى إلى رياسة المجلس . ولما توفى تعين مكانه فى الوظيفة الأولى ابنه الشيخ السعيد سديد الملك . أما ابنه الثانى السعيد أبو البركات فقد انشغل فى خدمة الكنيسة . على أن الوالد وابنيه خدموا الكنائس والأديرة فعمروها وبذلوا فى سبيلها الأموال الكثيرة .

الشيخ الوجيه ابو الحسن الامح : كان كاتب سر الخليفة الحافظ امتاز بالتقوى وتعمير الكنائس .

الاخرم بن زكريا : كان أمير الدواوين فى عصر الحافظ – ذلك لأن هذا

(١) مز ١١٢ : ٩ .

(٢) كلمة قبطية مؤلفة من كلمتين : « ما » وهى صيغة الامر من فعل أعطى و « ماتى » أى « مسرة » – فمعنى الكلمتين معاً « أعطنا مسرة » (أو فرحنا)

(٣) يجب التمييز بين ابن صاعد هذا الذى عمل بمسيحيته وبين الوزير هبة الله ابن صاعد الذى أسلم وأصبح واسع السلطان فاستبد وتجبر وكرهته البلاد – راجع دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس جـ ١ ص ٣٧ .

الخليفة كغيره من الخلفاء الفاطميين كانوا يرصدون النجوم كما كانوا يقربون إليهم المنجمين ويستشيرونهم فى شتى الأمور . وكان منجم الحافظ قد عيّن له صفات إن اكتملت فى رجل كان من المخلصين له . ولما رأى الحافظ الأخرم بن زكريا رأى فيه الصفات التى عينها له منجمه « فاستدناه إليه وقربه وآل أمره إلى أن ولاه أمير الدواوين »[1] .

الشيخ المكين ابو البركات : المعروف بابن كتامة الذى كان كاتب الدولة فى خلافة الفائز ولم تنسه مكانته الاجتماعية واجبة نحو الكنيسة لأنه بنى كنيسة باسم مارجرجس بأعلى كنيسة مار بقطر ، ثم جدد كنيسة باسم الشهيد مارمينا تقع على مقربة منها ، كما جدد كنيسة الأربعة حيوانات غير المتجسدين ودير نهيا بالجيزة .

الاسعد ابو الخير جرجة بن وهب الشهير بابن الميقاط : كان من أكابر القبط فى عهد الخليفة العاضد وقد جدد بناء كنيسة يوحنا المعمدان . ثم حدث أن نال إكليل الشهادة ودفن بتلك الكنيسة[2] . ولقد كان ابن المقياط هذا من عائلة كبيرة ممتازة تفوق فيها أكثر من رجل - وهى عائلة النشو . ومنها **ابو الفتوح بن المقياط** الذى تقلد رياسة ديوان الجيش فى أيام الملك العادل .

الشيخ صفى الدولة ابن ابى ياسر بن علون الكاتب : بنى كنيسة عظيمة « أبا صوفيا » خلافا للمعتاد بين القبط . وقد قيل أنها أقيمت على مقربة من الأهرام ولكنها تلاشت ولم يبق لها أثر اطلاقاً .

الشيخ ابو الفضل المعروف بابن الاسقف : كان كاتب سر الفضل (وزير الخليفة الآمر) .

المعلم زوين : كان ملتزماً[3] بمصر فى خلافة الحافظ

ابو الطيب : كان كاتب سر ناصر الدولة زعيم الجنود الترك فى أيام

---

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٠٦ .

(٢) تاريخ الأمة القبطية (الحلقة الثانية) لكامل صالح نخلة وفريد كامل - ص ١٢١ .

(٣) أى المسئول عن جمع الضرائب .

الخليفة المستنصر . فلما عاث الترك فساداً حين أعلنوا تمردهم على الخليفة دخلوا الأديرة ونهبوها . وعثروا خلال عصيانهم على الأنبا خريستودولس فى أحد الأديرة فقبضوا عليه وجعلوه رهينة مطالبين بفدية منه . فسارع أبو الطيب إلى تخليصه من قبضتهم .

الشيخ الاحزم : كان كاتب ديوان النظر - أى ديوان المراجعة على مختلف الدواوين والأموال . وكان لمن يتولى نظارة هذا الديوان حق العزل والولاية (١) .

الشيخ الرئيس صنيعة الخلافة ابو ذكرى : اشتغل متولياً لديوان التحقيق ثم لديوان النظر على جميع الدواوين فى خلافة الحافظ ، ثم تنقل بين مختلف الأعمال من صرف ومن استخدام ووصل إلى درجة عظمى فى الرياسة .

الشيخ ابو ذكرى ابن ابى نصر : متولى خراج الأشمونين فى خلافة الحافظ أيضاً . وقد جدد دير المحرق وزين قصر الضيافة به . ثم نقل إلى الفيوم فجدد هناك كنيسة الشهيد العظيم أبى السيفين .

الرشيد ابو ذكرى: كان قساً فى هذه الفترة عينها على كنيستى السيدة العذراء ومارجرجس بحارة الروم فنشط فى ترميمها وتزيينها .

ابو الخير الصيرفى : كاتب فى ديوان الخليفة وكان رئيساً نبيلاً صرف الكثير من الجهد والمال على عمارة الكنائس والأديرة فى منطقة الجيزة .

ابن الابح : كاتب سر الخليفة المستنصر بالله وقد جدد كنيستى أبى سرجة وأبا كير ويوحنا ، وكلتاهما بمصر القديمة . وهذا الأرخن الفاضل يحمل نفس الاسم الذى حمله أسقف جرجا بعد ذلك بما يزيد على قرنين .

ابو السعيد الكاتب : كان رئيس ديوان المكاتبات فى العصر الفاطمى وقد جدد كنيسة الخمسة وأمهم بمنيل شيحة (بالجيزة) (٢) .

---

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٢٢ - ٥٢٣ ، تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٦٣ - ١٦٨ .

(٢) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس جـ ١ ص٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٥٢ ، ٦٢ ، ٧٤ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ .

الشيخ الأكرم بن أبي الفضائل : رئيس ديوان العاضد لدين الله الفاطمى ، وقد جدد بناء كنيسة أبى يحنس بمصر القديمة بعد حرقها .

ابوزكريا يحيى بن مقارة : شيخ عاقل مسموع الكلمة فى ديوان الخليفة أيام بدر الجمالى ، وكان وقوراً مهاباً لشيخوخته ولحسن سياسته إذ قد اشتهر بمعالجة الخلاف الذى كان قد دب بين الأنبا خريستودولس وبين أسقف سخا كما نجح فى تهدئة خواطر كل الذين اشتركوا فى هذا الخلاف .

الشيخ الفاضل يوحنا بن ابى الفضل : كان عالماً محبوباً وله دالة خاصة على الأمير شاهنشاه بن بدر الجمالى مما جعله يتخذه كاتم أسراره . وكان مع سمو مكانته يوجه عنايه خاصة إلى تعمير الكنائس وعلى الأخص كنيسة مارجرجس بمصر القديمة .ويصفه ابن مسعود بأنه كان مواظباً على الصلاة فى كنيسة مارجرجس هذه . أما كاهنها فكان بشير بن البشر الذى كان عالماً خبيراً شجى الصوت مليح الوجه تام القامه كهلاً فى الرجال . وحدث فى تلك الفترة أن ماطل البابا فى رسامة أسقف لبابلون (مصر القديمة) فجمع أبو الفضل الأراخنه فى بيته وتشاوروا معاً ثم انتخبوا يؤنس بن سنهوت لهذه الكرامة ، وبعد رسامته فى كنيسه أبى سرجه سار الجميع به إلى كنيسة حارة زويلة ومعهم نائب الوالى وجماعة من رجاله فى موكب حافل ارتفعت فيه الأناجيل والصلبان والشموع الموقدة .

ابواليسرى : مصور أصله من مليج له لوحة كبيرة قد رسم عليها صورة للميلاد الإلهى المجيد وأخرى لعماده فى نهر الأردن . وهذه الأيقونة الكبيرة موضوعة بأعلى حجاب الهيكل فى كنيسة السيدة العذراء بحارة الروم .

ابن بقر : كان من المقربين لدى الخليفة الظاهر وبالتالى كان مسموع الكلمة محفوظ المكانة . ولقد استخدم نفوذه عند الخليفة ليستصدر منه الأمر برفع الجزية التى كان على البابا الاسكندرى أن يدفعها عقب رسامته مباشرة .

يوحنا بن زكريا المعروف بابن سباع : كان لاهوتياً ضليعاً وضع كتاباً بعنوان « الجوهرة النفيسة فى علوم الكنيسة » أوضح فيه طقوس الكنيسة وتعاليمها فى سطوع واخلاص حتى لقد وصفه المستشرق الألمانى جراف بأنه من كبار العلماء وبأن كتابه من المؤلفات المسيحية ذات العبارة الفصيحة ودقة البحث .

وقد طبع هذا الكتاب فى مصر سنة ١٩٠٢ وهو يتضمن التعاليم عن التثليث والتوحيد وخلق الملائكة والعناصر والانسان ، ثم شرح الآيات الجوهريه فى سفر التكوين والوظائف الكنسية وممارسة السيد المسيح لها على الأرض فالأسرار المقدسة والبخور والأيقونات والشوريا والمعانى الرمزية لهذه كلها والأعياد الكنسية [١] .

❖ ❖ ❖ ❖

(جـ) أنبا غبريال الثانى

١٢٧ - لما كانت قصة الإنسان تبدأ بالمهد وتنتهى إلى اللحد ، كان القول بأن التاريخ يعيد نفسه صحيحاً إلى حد بعيد . ذلك لأن المؤرخ كلما تناول سيرة بطل من الأبطال إضطر إلى أن يبدأها وينتهى منها على الوتيرة عينها . وهكذا يتكرر القول بأن السدة المرقسية شغرت بانتقال البابا الجالس عليها إلى الأخدار السماوية واجتماع الأساقفة والأراخنة للتداول فيمن يخلفه . وعلى هذا القياس نرى أن كرسى مارمرقس خلا للمرة التاسعة والستين ، وللمرة التاسعة والستين أيضاً اجتمع الأساقفة والأراخنة للتشاور فى أمر من ينتخبونه .

وكان لكنيسة القديس مرقوريوس (أبى السيفين) إذ ذاك شماس اسمه أبو العلا بن تريك ، حكيماً ، محباً للجميع ، متضلعاً من الأسفار الإلهيه والعلوم المدنية ، ساهراً ، صاحياً . وفوق هذا كله فقد كان راسخ العقيدة الأرثوذكسية ، محباً للشعائر الدينية ، مكرساً للصلاة والتأمل . وكان يقضى نهاره فى نقل الكتب وافتقاد اليتامى والأرامل والسؤال عن المسجونين . وكان أبو العلا - إلى جانب شماسيته - كاتباً فى ديوان الخليفة الآمر . ولكن لما جاءت نياحة الأنبا مكارى الثانى فى أعقاب مقتل الأفضل ، ظل الكرسى المرقسى شاغراً مدة من الزمن [٢] - لأن الأساقفة والأراخنة لم يجتمعوا بسبب اختلال الأمن . فلما هدأت الحالة نوعاً ما واجتمعوا معاً ، رأوا أن ينتدبوا نفراً منهم للذهاب إلى دير الأنبا مكارى

---

(١) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس جـ١ ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٥٢ ، ٦٢ ، ٧٤ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ .

(٢) يقول بعض المؤرخين أن هذه المدة بلغت سنتين .

الكبير فى شيهيت فلما وصل المندوبون إلى دير هذا القديس العظيم صحبهم رهبانه إلى دير الأنبا يؤنس كامى الذى كان يرأسه إذ ذاك ناسك شيخ معروف بقداسته وتقواه اسمه يوسف . وحالما وقعت أعينهم على هذا الراهب أدركوا فى الحال صدق ما سمعوه عنه لأن النعمه الإلهيه كانت تضىء على وجهة وتنعكس منه بنور عجيب . وما أن رآهم حتى منحهم بركته ثم قال لهم : « عودوا يا أولادى إلى القاهرة لأن المختار من الله لهذه الكرامه العظمى هو أبو العلا شماس كنيسة القديس مرقوريوس » . ففرحوا لهذه الكلمات فرحاً عظيماً ، وزاد فرحهم حين علموا أن هذا الشماس كان يلعب فى طفولته أدوار الكهنة والشمامسة ، فذكرهم عمله هذا بالأنبا أثناسيوس الرسولى وتمنوا على الله أن يكون مثله . وعادوا إلى مصر لفورهم وحملوا أبا العلا إلى الاسكندريه حيث رسمه الأنبا غبريال الثانى سنة ٨٣٨ ش . وكان ترتيبه السبعين بين باباوات الاسكندريه .

١٢٨ - وقد استهل الأنبا غبريال الثانى باباويته بالذهاب إلى دير القديس مكارى الكبير ليقوم بصلاة القداس الإلهى فى هذا الدير عملاً بتقاليد ذلك العهد . وقضى بالدير بضعة أسابيع ثم عاد إلى مقر رياسته بالكنيسة المعلقة ببابلون . وانقضت بضعة أيام جاءه بعدها كاهن يرغب فى أن يكون أسقفاً على اخميم مقابل مبلغ من المال . فتألم البابا شديداً لهذا العرض ولم يوافق على الرسامة . ومن المؤلم أن هذا الكاهن زعم أنه يستطيع الحصول على بغيته إن هو اشتكى الأنبا غبريال إلى ابن الخليفة . فقابله ، وقدم إليه هدايا ثمينة ، فأرسل ابن الخليفة رسـولاً من عنده إلى البابا الاسكندرى ، يطلب إليه رسامة الكاهن الذى لم يرع للكهنوت حرمة . فبعث هذا البابا الجرئ الجدير بأن يجلس على السدة المرقسية - بعث برسالة الى الخليفة نفسه لم يقل فيه غير هذه العبارة : « ان دينى يمنعنى من رسامة كاهن يبغى هذه الكرامة بالمال » . وكانت هذه الرسالة القصيرة سبباً فى أن يحترم الخليفة وابنه كاتبها منذ اللحظة التى تسلماها فيها حتى آخر نسمة من حياتهما . وأصدار الأوامر إذ ذاك إلى المصريين جميعاً بوجوب احترام الأوامر الباباوية وتنفيذها بكل دقة وسرعة .

١٢٩ - وحدث أن الخليفة الآمر بدأ يجمع فى شخصه سلطة الخلافة وسلطة الوزارة لأنه - بعد أن قتل الأفضل - عين وزيراً بدلاً منه اسمه

المأمون ، ثم لم يلبث أن قتله . ثم نال راهب قبطى اسمه أبو نجاح حظوة كبيرة فى عينى الخليفة ، فاتخذه مستشاراً له ولو أنه لم يعينه وزيراً . ولكن الآمر رأى بعد شهور قصيرة أن يتخلص من مستشاره بنفس الطريقة التى تخلص بها من وزيريه ، على أن رجال بلاطه سئموا هذا الشطط ، فاغتاله أحدهم فى ثورة غضبه[1] .وتولى الخلافة من بعده ابن عمه الحافظ .

١٣٠ - وفى تلك الأثناء تقدم ملك الحبشة إلى الأنبا ميخائيل مطران تلك البلاد إذ ذاك ، يرجو منه رسامة أسقف أكثر من العدد المتفق عليه بين كنيستى الاسكندرية والحبشة . على أن الأنبا ميخائيل رد على الملك بقوله انه لا يستطيع أن يخرج على التقاليد إلا بأذن من البابا الاسكندرى . فلم يقنع الملك بهذا الجواب بل أرسل خطاباً إلى الأنبا غبريال الثانى يتضمن طلبه هذا ، ثم تجاوز الحدود فبعث إلى الخليفة الحافظ يستشفع به . فما أن تلقى الحافظ هذه الرسالة حتى بعث برسول من قبله إلى البابا الاسكندرى يطلب إليه أن يحقق رغبة الملك الحبشى . فقال البابا المرقسى : « لو اننى حققت أمنيته لعجلت باليوم الذى تنفصل فيه الكنيسة الحبشية عن أمها الكنيسة القبطية التى تعتز بهذه الأمومة . ولا شك عندى فى أنه لو تم هذا الانفصال لأدى إلى اضعاف العلاقات بين البلدين » . وقد اقتنع الحافظ بهذا الرد ووافق البابا الاسكندرى على رأيه فى عدم رسامة أسقف جديد .

١٣١ - ثم رأى الأنبا غبريال الثانى أن مسئوليته لا تنحصر فى رعاية شعبه المعاصر له ، بل أنها تمتد لتشمل الأجيال الآتية من بعده ولكى يؤدى هذه المسئولية أصدر مجموعتين من القوانين : تتضمن المجموعة الأولى منهما اثنتين وثلاثين مادة يتعلق الجزء الأول منها بالأساقفة والكهنة وبالمسلك الذى يجب عليهم انتهاجه كرعاة مؤتمنين على الشعب المسيحى ، ويختص الجزء الثانى منها بالشعائر الدينية والفرائض الكنسية . أما المجموعة الثانية فتشتمل على قوانين الميراث .وقد وجه الأنبا غبريال الثانى هاتين المجموعتين إلى الكهنة والشعب إذ قال : « غبريال - بنعمة الله وحكمته الفائقة ، وسابق عمله - بطريرك مدينة الاسكندرية العظمى وبابا

---

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بول ص ١٦٦ ، مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى . المبحث الثانى.لجاستون فييت ص ١٩٠ .

الكرازة المرقسية ، يكتب إلى جميع الاخوة المظللين بنعمة الله ، المختارين ، ليباركهم الله . وبذراعه القوية ليخلصهم ويحميهم . وليكن السلام والنعمة معكم ، وليسكنا فيكم ، وليفيضا على بيوتكم من الآن وإلى الأبد آمين » . وبعد أن قدم الأنبا غبريال الثانى السبح لله على نعمائه ، قال : « عندما تأملت الكرامة التى منحنى إياها الله الآب ضابط الكل امتلأت رهبة لعظمتها ، وحين أمعنت التأمل خيل إلىّ أننى أسمع صوت موسى العظيم فى الأنبياء قائلاً : « أنا ثقيل الفم واللسان » (١) وإلى أرميا وهو يعتذر بقوله : « أنى لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد » (٢) وتجاوبت مشاعرى مع هذين النبيين وهما يعبران عن عجزهما أمام ما يأمرهما به الله القدير إذ أحسست بضعفى وعجزى أمام مجد الكرامة الكهنوتية ومايستتبعها من مسئوليات . وعندها رن فى أذنى الأمر الألهى كما رنّ فى آذان هذين النبيين وحتم على الطاعة ، فلم يسعنى إلا أن أبذل الجهد لتنفيذ أحكام الله ، طالباً إليه تعالى أن يسندنى بنعمته ويؤازرنى بحكمته ويقوينى لكى أرعى شعبه وأرشده إلى ميناء السلام . ولما عولت على تحقيق وصايا الله تذكرت كلماته سبحانه إلى حزقيال النبى وهى : « إذا لم تنذر الشرير . ولا تكلمت انذاراً له من طريقة الرديئة لاحيائه . فذلك الشرير يموت بأثمه . أما دمه فمن يدك أطلبه (٣) ولهذه الأسباب كلها سارعت إلى تدوين هذه القوانين تذكيراً لكم ، واستنهاضاً لهمتكم ، رغم أنى متأكد من أنكم تعرفون غرضى الذى أستهدفه من هذا العمل . واننى على يقين من أننى - بتنفيذى الوصايا الإلهية - أنال واياكم البركة والسلام فكونوا على ثقة من أنكم حين تسمعون كلامى لا تطيعوننى أنا ، وإنما تطيعون الآب السماوى الذى أقامنى لرعايتكم وتطيعون الإبن الحبيب الذى قدم حياته فدية عنكم ، وتطيعون الروح القدس الذى يرشدكم ويهديكم إلى طريق الحق والإله الواحد - المثلث الأقانيم - يجازيكم خيراً ويعوض أتعابكم بحسب مراحمه الجزيلة . ثم انتقل البابا المرقسى - بعد هذا الخطاب - إلى تدوين القوانين التى عدها فى المرتبة الأولى من الأهمية وهى الخاصة بحماية رجال الدين والشعب معاً.

---

(١) خر ٤ : ١٠ . (٢) أر ١ : ٦ (٣) حز ٣ : ١٨ .

مبتدئاً بنفسه . فهو نص فى المادة الأولى على نهى الباباوات من الالتجاء إلى السيمونية [1].

أما المجموعة الثانية فتهدف إلى تنظيم الارث . وقد استهلها الأنبا غبريال الثانى بقوله « أنه لما كانت المسيحيــة ديناً يهيئ الناس للحياة الأبدية ، فقد أغفل الرسل والآباء الأولون أمر المواريث اغفالاً تاماً . ثم مرت الأجيال ، وأدرك بعض الباباوات أن الشعب فى حاجة إلى من يرشده فى هذه الأمور » . على أنه لما كانت بعض القوانين التى وضعوها لا تصلح إلا للعصور التى وضعت فيها . فقد قرر أن ينقحها ويبوبها مستعيناً بما جاء فى الأسفار المقدسة وفى القوانين التى وضعها الآباء الأولون [2] .

على أن الأنبا غبريال اختط طريقاً أدى فى النهاية إلى القضاء على اللغة القبطية ذلك أنه لما وجد أن الغالبية من الشعب لم تعد تفهم اللغة القبطية أصدر أمره بقراءة الأناجيل والخطب الكنسية وغيرها من القراءات باللغة العربية بعد قراءتها بالقبطية حتى يتسنى لجمهور المصلين فهم ما يسمعونه . وهذا الأمر سليم من حيث التربية لأن المصلين يجب أن يفهموا الشعائر فهماً صحيحاً لكى يستطيعوا تركيز انتباههم على ما يسمعون وإلا تشتت أفكارهم ونقصت قيمة الصلوات التى ترن فى مسامعهم دون إدراكهم إياها . على أن الاستعاضة بالعربية عن القبطية فى الشعائر نفسها ضاعفت من اســتهانة القبط بلغتهم الأصلية إذ لم تعد لها أية ضرورة اطلاقاً . وقد أدرك خلفاؤه خطورة هذا الأمر ولكنهم عملوا به [3] . ولكن هل كان فى استطاعة الأنبا غبريال وخلفائه أن يستحثوا القبط على دراسة لغتهم كى يفهموا الشعائر الدينية على الأقل ؟ لا نستطيع تقديم الرد القاطع على هذا الســؤال . ولكن الذى نستطيعه هو أن الأيام قد أثبتت أن

---

(١) راجع تفاصيل هذه القوانين فى رسالة عن « قوانين الأنبا غبريال بن تريك » – البابا الاسكندرى السبعين (بالانجليزية) لأوسولد برمستر ، نشرها مع النص العربى فى مجلة « أورنتاليا كريستيانا بيريوديكا » المطبوعة فى رومية سنة ١٩٣٥ ص ٥- ٤٥ .

(٢) قوانين المواريث « للأنبا غبريال بن تريك » (بالانجليزية) المرجع السابق – ص ٣١٥ – ٢١٧ .

(٣) تاريخ التربية القبطية لسليمان نسيم – ص ٩٧ ، مرشد المتحف القبطى لوديع شنودة ص ٧٤ – ٧٥ .

الأمر الذى أصدره أدى فى النهاية إلى أن تصبح اللغة القبطية فى حكم اللغات الميتة وبخاصة بعد طغيان الأفكار الدخيلة واللغات الأجنبية على بلادنا . ويا حبذا لو يأتى اليوم الذى فيه يتقن الشعب لغة كنيسته ولا يصلى إلا بها !! .

١٣٢ - وما أن فرغ الأنبا غبريال الثانى من كتابة هذه القوانين حتى مرض وقارب الموت . وذات ليلة رأى فى حلم جموعاً من الكهنة والرهبان يحملون الأناجيل والمجامر والصلبان ، وسمعهم يقولون له : « ستنال الشفاء من هذا المرض الصعب . ولكننا سنعود إليك بعد سنة من الزمان لنأخذك كى تعيش معنا » . وقد تحققت هذه الكلمات ، إذ أن البابا الاسكندرى قد عوفى بعد أيام قلائل من مرضه ، وعاود رعاية شعبه بكل أمانة . ولما استكملت الأرض دورتها حول الشمس تمت الرؤيا وانتقل إلى بيعة الأبكار فى هدوء شامل . وكانت أيام باباويته أربع عشرة سنة وثلاثة شهور[1] .

❖ ❖ ❖ ❖

(د) أنبا ميخائيل الخامس

١٣٣ - مرت بضعة شهور - بعد نياحة الأنبا غبريال الثانى - ظل الكرسى خلالها شاغراً ، إذ لم يسارع الأساقفة والأراخنة إلى التشاور فى أمر الانتخاب . ومع أن هذه الفترة كانت قصيرة إلا أنها كافية لأن ينتهزها راهب اسمه يؤنس ابن كدران ليعكر فيها الصفو والهدوء . فقد نسى هذا الراهب مبدأين أساسين من مبادئ الرهبنة هما الطاعة والاتضاع . فخرج من غير اذن رئيسه وأخذ يعلن على الملأ فضائله التى تؤهله لأن يكون خليفة لكاروز ديارنا الحبيبة . وقد نجح فى أن يقنع عدداً من الرهبان بتأييده ، فناصروه وأخذوا يروجون له ، واستطاعوا بدورهم أن يكسبوا عدداً من الأساقفة . وازداد يؤنس بن كدران غروراً لهذا النجاح ، وحث مناصريه على

---

(١) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس جـ٢ ص ٤١٢ - ٤١٩ ، السنكسار الأثيوبى - ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ ٣ ص ٧٩٨ - ٨٠١ .

الترويج له أكثر فأكثر . على أنهم ماكادوا ينشطون فى دعايتهم حتى قوبلوا بمعارضة عنيفة ، إذ قد رفض الشعب رفضاً باتاً أن يمنح ثقته لراهب يروج لنفسه ، وعبثاً حاول أنصار ابن كدران أن يتغنوا بمزاياه ويتشدقوا بفضائله ، لأن الشعب أجمع على مقاطعته ، معلنا أنه لو كان هذا الراهب يتجمل بما يصفونه به من مزايا ، لظل قابعاً فى صومعته ، منصرفاً إلى الصوم والصلاة .

١٣٤ - وكان متولى أمر مديرية البحيرة إذ ذاك قبطياً اسـمه أبا يوسف ، ساءه تصرف ابن كدران . فتجاهل كل الدعايات التى روجها أنصاره عنه . وبعث برسالة إلى أراخنة القاهرة يدعوهم إلى المبادرة بالذهاب إلى الاسكندرية ليتشاوروا معاً فى أمر انتخاب البابا المرقسى . فلما وصلتهم هذه الرسالة ، تقابلوا مع الأساقفة واتفقوا جميعاً على وجوب الاسراع فى السفر . وبالفعل قصدوا إلى الاسكندرية . ومن العجيب أن ابن كدران ذهب معهم ، وحضـر اجتماعاتهـم زعما منه أن وجوده بينهم قد يحرجهم فينتخبوه . وقد استصحب أنصاره معه . على أن الأساقفة والأراخنة رفضوا قبوله ، وأصروا على وجوب انتخاب الراهب العفيف الذى لا يدعو لنفسه ، بل يصمت لأن أعماله تتحدث عنه . وتمسك كل من الفريقين برأيه حتى بدا أن لا مخرج من الموقف . وهنا تشاور نفر من الأراخنة على حدة ، واتفقوا على الاحتكام إلى القرعه الهيكلية تهدئة للنفوس واسترضاء لمناصرى ابن كدران ومعارضيه . ثم قدموا اقتراحهم للمجتمعين فوافقوهم عليه . ومن ثم تقدم أصحاب الاقتراح بأربعة اسماء من بينها يؤنس بن كدران . وأقيمت الصلوات وانتهت بالقداس الإلهى ، بينما كانت أسماء الرهبان الأربعه موضوعه على المذبح تحت الصينية ومعها ورقة بيضاء [(١)] . وما أن انتهى الأساقفة من هذه الشعائر المقدسة حتى استدعوا ولداً صغيراً سحب ورقة من بينها ، فإذا بها تحمل اسم ميخائيل [(٢)] . أحد رهبان ديـر الأنبا مكـارى الكبير ، وكـان ميخائيل هـذا متصفاً بكـل الفضائـل الرهبانية ، إذ كـان

---

(١) كان المحتكمون إلى القرعة الهيكلية يضعون دائماً ورقة بيضاء مع أسماء المقترح عليهم حتى إذا شاءت الإرادة الإلهية رفضهم جميعاً ظهر هذا الرفض بالورقة البيضاء .

(٢) يلقب هذا الراهب بكلمة « الدنشترى » - ويقول برمستر نقلاً عن كروم إن هذه الكلمة قبطية وأصلها [illegible] ومعناها القلاية الكبرى .

متواضعاً عفيفاً مطيعاً فقيراً ، كرس نفسه من اللحظة الأولى لدخول الدير للصلاة والتأمل وخدمة اخوته الرهبان . فأحبوه ، وأولوه ثقتهم ، واعتادوا أن يتجمعوا حوله ليصغوا إلى نصائحه . فضاعفت محبتهم إياه جهوده فى سبيل خدمتهم وتعليمهم ، وفاضت عليه النعمة الإلهية وانعكست على وجهه فكسته جمالاً . على أنه كان أمياً رغم كل هذه المزايا . وفرح القبط لوقوع القرعة عليه . وقالوا : « ان الروح القدس الذى اصطفاه سيلهمه الحكمة وفيها الكفاية » . وذكروا أنفسهم بأن معظم الرسل الأطهار كانوا عاميين ، ولكنهم هزوا العالم وأثروا على أصحاب التيجان . لأن الحكمة التى منحها إياهم الروح القدس كانت سماويه تفوق كل العلوم الإنسانيه . وبهذه الآمال العالية والثقة الراسخة فى المعونة الإلهية ، حملوا الراهب ميخائيل ، وساروا به إلي الإسكندريه فى موكب فخم أشبه بمواكب القادة المنتصرين وقصدوا إلى الكنيسة المرقسية حيث رسمه الأساقفة البابا الاسكندرى الحادى والسبعين باسم ميخائيل الخامس فى اليوم الخامس من شهر مسرى المبارك سنة ٨٥٢ ش (٢٩ يوليو ١١٣٦م) .

١٣٥ - وتقبل الأنبا ميخائيل الخامس كرامة البابوية بكل شكر ودعة إذ قد عدها هبة عظمى من رب الهبات . واختار لنفسه سكرتيراً بارعاً فى الكتابة لكى يدون له رسائله الفصحية وغيرها من الرسائل التى كان لزاماً على البابا المرقسى أن يكتبها . على أن البابا - رغم أميته - كان يعرف كيف يصل إلى القلوب عن طريق مواعظه وإرشاداته . فداوم على تعليم الشعب مثبتاً المؤمنين ومجتذباً الزائغين إلى طريق البر . فالتف الشعب حوله فى محبة وولاء ، وتقبلوا إرشاداته بفرح معلنين اعجابهم بمقدرته التى أنستهم جهله . ولم يكتف بالتعليم والعطف على أبنائه ، بل رأى أن واجبه يحتم عليه زيارة الفقراء والمعوزين فى بيوتهم ليعرف حاجتهم بنفسه ، ويعمل على سدها . وكان يوزع المال الذى يأتيه على الفقراء أولاً ، حتى إذا ما استوفوا طلباتهم ووجد أنه لا يزال لديه بعض المال صرفه على بناء الكنائس [1] . كذلك ظل الأنبا ميخائيل الخامس محتفظاً بتواضعه وقناعته ، واستمر فى نسكه وتقشفه كما لو كان لا يزال عائشاً فى الدير .

(١) السنكسار الأثيوبى ترجمه الى الانجليزية واليس بودج جـ ٣ ص ٧٨ .

ولما ذهب الأنبا ميخائيل إلى القاهرة لأول مرة سارع أراخنة القبط ووجوه المسلمين إلى استقباله فى فرح وتهليل ، ثم ذهبوا معه إلى الكنيسة المعلقة مقر البابوية إذ ذاك .

وقد أبدى الشعب حبه وولاءه الخالص لباباه بالمواظبة على الأصوام والصلوات ، فكانت الكنائس تضيق بمن فيها لكثرة الزحام . وكان الأنبا ميخائيل الخامس يبدى عطفه عليهم وفرحه بهم .

وفى هذا الجو المليء بالهدوء والثقة المتبادلة إزدهرت الأديرة وتضاعف عدد الرهبان .

١٣٦ - وكانت هناك خمس ايبارشيات شاغرة عندما تسلم الأنبا ميخائيل الخامس مقاليد الرياسة . فرأى أن يختار لها خمسة من الرهبان الصالحين . وكان يصوم ويصلى قبل رسامة أحدهم ، ثم يزوده بالنصائح والبركات بعد رسامته .

على أن هذه الأيام السعيدة كانت قصيرة الأمد ، فكانت أشبه بموسم الزهور الصيفية التى تملأ الجو بعبيرها مدى شهور قليلة ثم لا تلبث أن تذوى . ذلك أن الأنبا ميخائيل الخامس مرض بعد رسامته بأربع شهور . ولما اشتدت عليه وطأة المرض رأى أن يذهب إلى برية شيهيت أملاً فى أن يكون للهواء الصحراوى الجاف والهدوء الشامل والفضاء الفسيح أثر طيب على صحته وبخاصة لأنه اعتاد الحياة فى هذه البرية . فذهب إلى دير الأنبا مكارى الكبير الكبير طلباً للاستشفاء . ولكن المرض ظل ملازماً له إلى أن قضى عليه فاستودع روحه يدى الآب السماوى ولم تمض غير تسعة شهور على اعتلائه السدة المرقسية [١] .



(١) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس جـ ٢ ص ٤١٩ - ٤٢١ .

وقفة قصيرة

١٣٧ - الأنبا ميخائيل أسقف دمياط

١٣٧ - وهنا أيضاً نقف حيارى ، نمعن النظر فيما لدينا من مخطوطات لعلنا نستشف من خلفها الوقائع التى نريد معرفتها والتى لا نجد حرفاً واحداً عنها . ذلك لأن أحد الأحبار المعاصرين لهذا البابا الذى عبر كالخيال هو الأنبا ميخائيل أسقف دمياط الذى ترك للآتين من بعده مجموعة من التعاليم لا تزال أربع نسخ منها باقية للآن : كلها مخطوطة - اثنتان منها محفوظتان فى مكتبة البابوية القبطية بالقاهرة ، وواحدة فى المكتبة الأهلية بباريس ، والرابعة بمكتبة الفاتيكان [١] . فمن هو هذا المطران ؟ لا نعرف عنه إلا أنه عين معاوناً للأنبا ميخائيل الخامس، وأنه عاش إلى عهد البابا الاسكندرى الـ ٧٣ . أما تعاليمه فتتعلق بممارسة بعض الفرائض الكنسية وتتلخص فيما يلى : الاعتراف السرى، حلق الرأس،الختان ، البخور ، عدم ابقاء شىء من الأسرار المقدسة من يوم إلى آخر ، رسم علامة الصليب ، زواج الأقارب ، التحفى[٢] ، تغطية القربان المقدس بالفول والترمس [٣].

ويجدر بنا هنا أن نذكر تعريفه للاعتراف السرى وهو:«وأما الاعتراف فهو طب روحانى نسبته إلى الروح نسبة الطب الجسدانى إلى الجسد.وكما أن الجسدانى لا يتم إلا بطبيب خبير خير وإلا كان ترك التطبيب خيراً منه من جاهل أو شرير.ثم بقبول المريض واستعماله ما يوصف له ، ثم بامكان المداواة من جهة الزمان والمكان وإلا فلا فائدة . فكذلك الروحانى ... وكما أنه ليس كل إنسان بمحتاج إلى الطب الجسدانى فكذلك الروحانى . وكما أنه ليس كل المحتاجين إليه يحتاجون إليه مستمراً وفى كل مرض فكذلك الروحانى ».

وهكذا نجد فى كل عصر جنوداً مجهولين ، يكفيهم فخراً أنهم جندوا أنفسهم لخدمة جيلهم وخدمة الأجيال الآتية من بعدهم .

---

(١) نشر أولوسولد برمستر هذه التعاليم مع ترجمتها إلى الانجليزية (نقلاً عن النسخة المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس) فى مجلة « أوريونتياليا كريستيانا بيريوديكا » الصادرة فى رومية سنة ١٩٣٦ بعنوان « أقوال ميخائيل مطران دمياط » .

(٢) أى حافي القدمين

(٣) كان بعض عبدة النجوم يندسون بين القبط ليتناولوا من الأسرار المقدسة ، وكانوا يعافون الترمس والفول ، فاستعان الكهنة بهذه البقول ليتعرفوا بها على هؤلاء الدخلاء.

مـد وجـزر

ا- الأنبا يؤنس الخامس

١٣٨- وحتمت أحداث الحياة على الأساقفة والأراخنة أن يجتمعوا مرة أخرى وكأنهم لم يستريحوا بعد من التداول فى أمر البابا المرقسى. فلما اجتمعوا اتجهت أنظارهم صوب الرهبان الثلاثة الذين كانوا قد ذكروا أسماءهم ساعة أن وقعت القرعة الهيكلية على الأنبا ميخائيل الخامس . على أن واحداً من هؤلاء الثلاثة كان مركز انتباههم . وهو شماس اسمه يؤنس بن أبى الفتح يعيش فى دير الأنبا يؤنس كامى[1] . ومن نعمة الله أن اتفاقهم هذه المرة كان اجماعياً ، فلم يحتاجوا إلا أن يبعثوا برسلهم إلى البرية لاستحضار هذا الراهب المختار . فذهب المندوبون وعادوا ومعهم يؤنس الذى رسمه الأساقفة قمصاً إذ كان لا يحمل غير رتبة الشماسية.

١٣٩- والعجيب أن يؤنس بن كدران الذى اشتهى الباباوية فى المرة السابقة عاد يروج لنفسه من جديد وحضر الاجتماع الذى انعقد فى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) فلما رأى الاجماع على انتخاب الشماس ابن أبى الفتح استشاط غضباً ونسى ما تحتمه عليه الرهبنة من دعة واحتشام ، فقصد الخليفة الظاهر ورجا منه أن يعضده ليبلغ مرامه . وقد دهش الظاهر لهذا الطلب ورأى فيه خروجاً على المألوف . فأرسل إلى الأساقفة والأراخنة وأطلعهم على أمر هذا الراهب الطامع ، ثم قال لهم إن بيدهم الأمر لأنهم هم المسئولون عن إدارة شئون الكنيسة . وعليه اجتمع الأساقفة وأراخنة الشعب فى حضرة القاضى وتناقشوا فى الأمر حتى لقد احتدم بينهم

---

(١)يذكر القمص ميصائيل بحر فى كتابه «تاريخ القديس الأنبا يحنس القصير» ص ٤٩ أن هذا البابا قضى سنى رهبنته فى دير الأنبا يؤنس القصير.

النقاش . وفى النهاية أعلن الجميع بأن السدة المرقسية ليست نهباً لكل طامع بل هى جليلة القدر لا يجلس عليها إلا المختار من الله . فمن يسعى إليها يحكم على نفسه بهذا السعى أنه غير مستحق لها . كذلك نصت القوانين الرسولية على تحريم الاستعانة بالسلطان للوصول إلى هذه الكرامة . وقد أيد القاضى المسلم هذا المبدأ وأبلغه للخليفة الذى أيده بدوره وأصدر أمره بتسهيل السفر للاسكندرية أمام الأساقفة والأراخنة لكى يقوموا برسامة من يريدونه . فبادروا بالسفر وتقابلوا مع كهنة الاسكندرية وأراخنتها فى حضرة القاضى والوالى وغيرهما من رجال الحكم . وقد أكد لهم الجميع بأن الخليفة أمرهم بتقديم كل التسهيلات وضمان الأمن والحرية لرسامة من يختاره الشعب . ففرح القبط بهذا التصريح وهتفوا :« يؤنس بن أبى الفتح هو البابا الذى نريده » ... وذهبوا لساعتهم إلى الكنيسة المرقسية حيث وضع الأساقفة عليه اليد فأصبح الخليفة الثانى والسبعين لمارمرقس فى الثانى من أيام النسىء سنة ٨٥٤ش (٢٦ أغسطس سنة ١١٣٨م) باسم يؤنس الخامس .

١٤ . - وما أن تمت رسامته حتى ذهب إلى القاهرة ، فتزاحم الشعب حوله وأوصلوه إلى كنيسة القديس مرقوريوس (أبى سيفين) ببابلون حيث اختار أن يقيم .

ولقد كان هذا البابا مرهف الحساسية لم تنسه الكرامة العظمى التى نالها تواضعه الجم كما لم تنسه ما قد ينتاب الناس من آلام وشعور بالخيبة فأخذ يفكر فيما قد يساور يؤنس بن كدران من مرارة لفشله مرتين فى أن ينال البابوية التى سعى إليها بكل قواه . فاستدعاه إلى جانبه ورجا منه أن يقبل أسقفيه سمنود . ويبدو أن ابن كدران كان قد تعلم الدرس وأدرك ما فى القناعة من هدوء وراحة بال ، فاعتذر للبابا عن قبول الأسقفية وشكر له عطفه كما وعده بأنه سيقضى بقية حياته فى الدير كراهب بسيط ، وقد حافظ على هذا الوعد بالفعل .

ولقد دأب الأنبا يؤنس الخامس على تشجيع الناسخين من الرهبان توسيعاً لغرض المطالعة . ومن المخطوطات الباقية للآن مخطوطة رقم ٢٧

محفوظة بدير مارمرقس بالقدس [١] . تم نسخها فى دير القديسة مريم المجدلية . وقد ورد على غلاف هذه المخطوطة أنها نسخت فى عهد الأنبا يؤنس الخامس لاستعمال الرهبان المقيمين بدير هذه القديسة [٢]. ويبدو أن هذا الدير كان يجمع بين الرهبان القبط والرهبان السريان .

١٤١- وكان المصريون إذ ذاك يعيشون فى قلق واضطراب بسبب التنافس بين الخلفاء ووزرائهم على السلطة . وكثيراً ما أدى هذا التنافس إلى القتل . ولما كان الله تعالى قد خلق الناس لكى يعيشوا فى مجتمع فقد جعل التعاطف والتجاوب قاعدة أساسية للحياة فى مجتمع ، لذلك كان الشر الذى يقترفه الواحد يؤدى إلى إيذاء الآخرين كما أن الخير الذى يجاهد فى سبيله الأبرار يعم الباقين . ولقد تجلت هذه الحقيقة فى تلك الفترة من تاريخ مصر إذ أن ما قام بين الخلفاء ووزرائهم من صراع انعكس على حياة الشعب بأكمله . وقد دفع هذا التنافس على السلطة ببعض الوزراء إلى قتل الخلفاء لعلهم بذلك يكونون الآمرين الناهين ، فكان رد الفعل أن حرص بعض الخلفاء على سلطانهم حرصاً أدى بهم إلى أن يبطشوا بوزرائهم متى وجدوهم ذوى نفوذ . ومثل هذا النزاع بين أصحاب العرش وبين الأقوياء من رجال الدولة أدى بدوره إلى قيام أحزاب بين الجند إذ كان البعض منهم يناصر الخليفة بينما يناصر البعض الآخر الوزير ونتج عن انشغال الجند بالقتال فى سبيل هذا الخليفة أو ذلك الوزير اضطراب الأمن وانتشار القلق والفوضى .وكان للقبط نصيب الأسد من هذا التوتر : فأضاع الموظفون منهم مراكزهم وصودرت أملاك البعض منهم بينما لاقى فريق ثالث الموت [٣] .

---

(١) يقال أن هذا الدير مشيد مكان منزل مريم أم مرقس الرسول وكان أصلا من أملاك القبط .

(٢) قصة الاقباط فى الأرض المقدسة لديمترى رزق ص ٢٤ ، ومن مخلفات هذا العهد أيضاً عمودان محفوظان بالقاعة الرابعة بالدور الأول من المتحف القبطى . وهذان العمودان يتوسطان القاعة أحدهما مضلع وحوله كتابة عربية هذا نصها :« عمل باسم المعلم غبريال عبد المسيح فى سنة ١١٣٩ عزه يدوم ونعمه لا تنقضى وبلوغ ما تهوى النفوس وترتضى وسعادة دائمة وفرح مخلد » . أما العامود الثانى فمزخرف بخطوط متعرجة فى أعلاه وبرسوم نباتية فى أسفله - راجع مرشد المتحف القبطى لوديع شنودة ص ٩٠ .

(٣) « مختصر تاريخ مصر » (بالفرنسية) ج ٢ المبحث الثانى : « مصر الاسلامية .. » لجاستون فييت ص ١٩٢

وقد زاد الطين بلة هجوم الصليبيين على بلبيس . لأن عامة الناس لم تدرك الفرق بين الغزاة وبين المسيحيين الوطنيين ، لأن الشارة التي كان يحملها هؤلاء الغزاة زوراً وبهتاناً كانت الصليب - والصليب هو أيضاً شارة المسيحيين من المصريين . فكان على هؤلاء المصريين الحاملين للصليب أن يدفعوا ثمن الغدر الذى أبداه الصليبيون الأجانب . وفى الوقت عينه كان هؤلاء الأجانب المستترون تحت شارة الصليب يفتكون بجميع المصريين من غير تفريق [1]. فكان أن القبط وقعوا بين شقى الرحى .

١٤٢ - وحدث فى تلك الآونة العصيبة أن اغتصب عرش الحبشة دخيل نفى الملك الشرعى . فوبخه المطران على سوء فعلته . واغتاظ الغاصب لهذا التوبيخ فبعث إلي العادل وزير مصر برسالة ادعى فيها أن المطران داخله مس فى عقله ، وطلب إليه أن يشير على البابا بعزله ورسامة مطران بدلاً منه . على أن البابا أحس فى أعماق نفسه ببهتان هذا القول فقال للوزير : « ليس فى شريعتنا أن تولى انساناً رتبة من رتب الكهنوت ثم نعزله لغير سبب خطير » . فغضب العادل لهذه الاجابة وأمر بالقاء الأنبا يؤنس الخامس فى السجن حيث ظل بضعة شهور ولم يحصل على الافراج إلا بعد مقتل العادل [2] .

---

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخله روفيلة ص ١٥٨

(٢) هذا ما ورد فى معظم كتب التاريخ ، على أن هناك من روى هذه الواقعة بطريقة أخرى . فقد جاء فى كتاب لباب الآداب لواضعه أسامه بن منقذ الكنانى ما يأتى : ولقد أذكرنى قول الحكيم « إنما سلطان الملك على الأجساد دون القلوب » ، أمراً شهدته فى مصر سنة ٥٤٧ هـ ، وهو أن رسول ملك الحبشة وكتابه وصل إلى الملك العادل أبى الحسن على بن السلار رضى الله عنه يسأله أن يأمر البطرك بمصر أن يعزل بطرك الحبشة وتلك البلاد كلها مردودة إلى نظر بطرك مصر فأمر العادل باحضار البطرك فحضر وأنا عنده فرأيت شيخاً نحيفاً مصفراً فأدناه حتى وقف عند باب المجلس فسلم ثم انحرف وجلس على دكة فى الدار وأنفذ اليه يقول له ملك الحبشة قد شكا من البطرك الذى يتولى بلاده وسألنى فى التقدم اليك بعزله فقال يا مولاى ما وليته حتى اختبرته ورأيته يصلح للناموس الذى هو فيه وما ظهر لى من أمره ما يوجب عزله ولا يسعنى فى دينى أن أعمل فيه بغير الواجب ولا يجوز لى أن أعزله فاغتاظ الملك رحمه الله من قوله وأمر باعتقاله فاعتقل يومين ثم أنفذ اليه وأنا حاضر أيضاً يقول له لا بد من عزل هذا البطرك لأجل سؤال ملك الحبشة فى ذلك فقال يا مولاى ما عندى جواب غير ما =

١٤٣- وخلال كل هذا الاضطراب والقلق تهدم عدد من الكنائس وسرقت أوانيها . فما انقشعت هذه الغمة كان لا يزال فى ديوان الخليفة قبطى واحد اسمه الأسعد صليب أخذ على عاتقه بناء الكنائس المتهدمة وترميم المتداعى منها وشراء الأوانى اللازمة لها .

على أن فترة الهدوء كانت قصيرة الأمد لأن الوزير العباسى قتل الخليفة الظافر ثم زعم أنه يستطيع أن يستر فعلته هذه باعلان الفائز بن الظافر خليفة . وكان الفائز يبلغ الخامسة من عمره فخيل للعباسى أنه سيحكم مصر إلى أن يبلغ الخليفة سن الرشد على الأقل . ولكن العباس أخطأ التقدير إذ لم يكن فى إمكانه أن يتكهن بمجرى الحوادث قبل وقوعها . فأدى به خطأه إلى أن يلقى مصرعه بدوره . ذلك أنه حين ظن أن السلطة أصبحت فى يديه أخذ يقتل كل من حسبه منافساً له ، وبعد أن يقتله يصادر أملاكه ويستبد بقومه . ثم زاد على ذلك بأن استولى على كل المحصولات الزراعية . وبينما هو يستبد بالمصريين كان يناوش الصليبيين بحرب العصابات . وكأن كأس المصريين لم يطفح به الكيل إذ زاد عليها ما جرته مناوشات البحارة الصقليين على دمياط وتنيس ورشيد والاسكندرية على الرغم من أن حكومتهم كانت عقدت اتفاقية تجارة مع مصر [١] .

١٤٤- ثم حدث أيضاً أن الوزير العباس تمادى فى غيه فجمع حوله ألف جندى فأعملوا جميعهم النهب والسلب والتقتيل فى رجال البلاط ثم ساروا فى شوارع القاهرة فى زهو وخيلاء كأنما الدنيا قد دانت لهم . فثار أهالى القاهرة فى وجههم ثورة عارمة إلى حد أن النساء كن يرمينهم بالحجارة من النوافذ والشرفات . فتبدد فرسانه وهرب العباس من القاهرة قاصداً إلى سوريا ولكنه لقى مصرعه فى الطريق إذ كانت أخوات الخليفة القتيل قد اتهمنه علناً أمام الجميع . ثم استنجدن بعد ذلك بالأمير طلائع بن رزيق

= قلته لك وحكمك وقدرتك إنما على الجسم الضعيف الذى بين يديك أما دينى فمالك عليه سبيل والله ما أعزله ولو نالنى مكروه . فأقر الملك العادل رحمه الله باطلاقه واعتذر إلى ملك الحبشة

(١) « مختصر تاريخ مصر » (بالفرنسية) .. لجاستون فييت ص١٩٤ ، ١٩٥ ، « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » لستانلى لاين پول ص ١٧١-١٧٤.

متولى الأشمونين وأقوى الأمراء بأساً . فجاء إلى القاهرة وتغلب على فلول جند العباس وأعاد الاستقرار والهدوء إلى المدينة الثائرة .

١٤٥- ويبدو أن كل أعمال العنف هذه قد ملأت قلب الأنبا يؤنس الخامس حسرة وأسى لأنه كان مرهف الحساسية إلى حد بعيد . وقد طغت عليه هذه الحسرة فأقضت مضطجعه وأنهكت قواه . فلم يلبث أن استودع روحه يدى الآب السماوى . وكان حزن الشعب عليه عميقاً زادته الأحداث المفزعة المسيطرة على البلاد حدة إذ قد أضافت إلى مخاوفهم وقلقهم الحزن والتوجع . وقد دفنه المؤمنون فى كنيسة أبى سيفين بجوار الأنبا غبريال سلفه المباشر إلى أن نقلهما الأنبا مرقس الثالث إلى برية شيهيت التى امتزج أديمها بأجساد القديسين منذ قرون . وقد قاد دفة الكنيسة وسط الأهوال والمفازع مدة ثمانى عشرة سنة وعشرة شهور .

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ب - عالم نادر

١٤٦-راهب مكرس ١٤٧-خلاصة مؤلفاته.

١٤٦ - صحيح أن المشتغلين بالعلم أو الأدب فى حاجة ماسة إلى الهدوء ، والطمأنينة ، ولكن سجلات الكنيسة لهذه الفترة قد حفظت لنا اسم رجل من كبار البحاثة كما حفظت لنا مؤلفاته لحسن الحظ، ولا ندرى - فقد يكون له أكفاء من معاصريه تركوا ثمار أبحاثهم أملاً فى أن تجتنيها الأجيال الآتية من بعدهم . ولكن السجلات لم تحفظ مؤلفاتهم ، أو قد يكون السبب فى عدم وصولها إلينا هو شهوة التخريب التى تستحوذ أحياناً على الناس فتدفعهم إلى أن يبطشوا ببعضهم البعض أو يمحوا آثار بعضهم البعض . أما صديقنا الذى لم تمتد يد الحدثان إلى أعماله فهو راهب اسمه سمعان ابن كليل بن أبى الفرج - قضى حياته فى دير الأنبا يؤنس القصير . وانصرف إلى البحث والتأمل وإلى دراسة الأسفار الإلهية .

١٤٧- ولإحساسه بالمسئولية أراد أن يقدم لاخوته خلاصة لكل أبحاثه ، وتأملاته ، ودراساته ، فوضع تفسيراً لبشارة متى الرسول [١]. ثم وضع كتاباً أسماه « روضة الفريد وسلوة الوحيد ، قال فى مقدمته : « حين أدركت نفسى الحقيرة أن نهايتى قد قربت ورحيلى عن هذا العالم وشيك الحدوث ، قررت وضع كتاب يتضمن اختباراتها وثمار أبحاثها . وإذ ذاك وضعت كل اتكالى على الله فأدركت أننى بلغت الهدف مقدماً . أما هدفى فيتلخص فى تعزية الحزين وإرشاد الضال إلى طريق البر ، وبعد هذه المقدمة القصيرة قسم ابن كليل كتابه إلى اثنى عشر فصلاً كالآتى :

١) الغاية التى خلق الله الإنسان من أجلها - فهو جل اسمه لم يخلق الإنسان عبثاً وإنما خلقه لغرض نبيل فخلقه منتصباً لكى يرفع عينيه نحو السماء ويقترب إلى خالقه وينال نعمته وبركاته . ولما كان الإنسان مخلوقاً على صورة الله ومثاله (تكوين ١ : ٢٦-٢٧) وجب عليه أن يسعى نحو الكمال ليكون أهلاً لأن يقترب من الله ويرث ملكوته .

(١) سجل مكتبة البطريركية القبطية بمصر لمرقس سميكة ويسى عبد المسيح رقم ٣١ ، ٣٦ ، ٣٧ لاهوت .

٢) الإيمان بالله - يمتدح الكاتب الانسان الذى يتصف بالشجاعة الأدبية فيعترف بمبادئه دون تردد ، ثم يوضح بعد ذلك الإيمان الأرثوذكسى الذى تتمسك به الكنيسة القبطية .

٣) التقوى وخوف الله - هنا ينصح الكاتب بوجوب المداومة على قراءة الانجيل وغيره من أسفار الكتاب المقدس ، ثم يصف الحرية التي يتمتع بها كل من يعرف امكانياته بما فيها من قوة وضعف ، ويختتم الفصل بقوله أن الرجل الذى يخاف الله أشبه بواحة زاهرة وسط صحراء قاحلة ، أو كالنجم فى ليلة مظلمة .

٤) الصلاة - ويعرفها بأنها غذاء القلب والدرع الواقى الذى يحمى الانسان من سهام العدو النارية .

٥) الصوم - إن أول وصية أمر الله الانسان بحفظها هى الصوم إذ قال لآدم « من شجرة معرفة الخير والشر لا تأكل » تك٢ : ١٧ . ويدعم ابن كليل أهمية الصوم بسرده عدداً من الوقائع التى نجا فيها الناس من الأخطار المحيقة بهم بقوة الصوم والصلاة . ويختتم حديثه هذا بقوله إن الانسان الذى لا يقرن صومه وصلواته بأعمال الخير لا يدخل ملكوت السماوات .

٦) الصبر - إن هذه الفضيلة لها قيمة عظمى لأنها الأساس الذى تقوم عليه بقية الفضائل وبها يقتنى الانسان نفسه كما قال رب المجد(لو٢١:١٩).

٧) المحبة والعطاء - إن المحبة هى أعظم وصية وبها يكمل الناموس والأنبياء (مت ٢٢:٣٧-٤٠) . والمحبة الحقيقية تؤدى إلى العمل لأن الانسان الذى يحب أن يخدم أحباءه . أما العطاء فلا يقدم عن رضى وفى الخفاء فحسب بل يجب على المعطى أن يستشف حاجات إخوته ويسدها مقدماً حتى يوفر عليهم مذلة السؤال .

٨) العفاف - إن الانسان الذى يرغب فى أن يتحكم فى نفسه ، حقاً عليه أن يحترس من الخطايا الموصوفة بالصغيرة . فكأس من الخمر قد لا تضر فى حد ذاتها ، ولكنها قد تؤدى إلى الرغبة فى ثانية وثالثة إلى أن يصبح الادمان عادة يصعب التغلب عليه ، فتسيطر الخمر على مدمنها وتجعل منه عبداً ذليلاً . لذلك يجب الاحتراس من الخطايا الصغيرة .

٩) التواضع والهرب من الغرور - بما أن الله تعالى هو أبو الناس جميعاً كانوا إخوة ، ولكل منهم نفس عاقلة ثمينة أمام هذا الآب السماوى الرؤوف وأمام الإبن الكلمة الذى تنازل وتجسد من أجلها . فلا داعى لأن يتشامخ إنسان على آخر مادام رب المجد قد قدم نفسه أسمى قدوة للتواضع.

١٠) المغفرة - أعطى موسى الناموس القائل عين بعين ، أما السيد المسيح فقد أعطانا ناموس المغفرة إلي أبعد الحدود إذ قال له المجد « أحبوا أعدائكم ، باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويضطهدونكم » مت ٥ : ٤٣-٤٥ .

١١) القناعة - لما كانت حياة الانسان على هذه الأرض عابرة ، وكل أمجادها وأفراحها سراباً ، وجب علي كل من يبغى الكمال أن يدرب نفسه على القناعة . لأن من يرغب فى أمجاد العالم هو عبد لهذه الرغبة ولم يبلغ الحرية بعد .

١٢) الصيت الحسن - إن هذه الفضيلة لا يبلغها إلا من يداوم على قراءة الكتاب المقدس ويعمل بما فيه . ويجب عليه أن يذكر نفسه بأنه يستطيع أن يزرع ما يشاء ولكنه سيحصد بالحزن إن هو لم يزرع بالحكمة . ولما كان للأصدقاء أثر بعيد على الانسان وجب عليه اختيارهم بحرص شديد ومجانبة المستهترين لئلا يصبح مثلهم ، كذلك عليه أن يتجنب شرب الخمر لأنه إن شربه فى السر فرائحته ستفضحه وخير ما يتحلى به الانسان هو العلم ، فعلى كل من رام الكمال أن يغترف منه ما استطاع .

هذا ملخص ما قدمه ابن كليل للمؤمنين جميعاً ، ولا يزال كتابه هذا طى النسيان إذ قد طبع مرة واحدة [١] .

وليس ذلك فحسب بل إن ترجمة هذا المرشد الروحى غير معروفة ، فهو أيضاً جندى من كتيبة الجنود المجهولين .



(١) ورد فى آخر هذه الطبعة ما نصه : تم طبع هذا الكتاب المبارك بالمطبعة الوطنية يوم الخميس ٩ أبيب سنة ١٦٠٢ للشهداء الأطهار وعلى الله حسن الختام . تم

جـ - الأنبا مرقس الثالث

١٤٨- كانت مصر فى ذلك العهد فريسة للوزراء الطامعين فى الحكم والخلفاء المستضعفين : فكانت القوى المسيطة هى الحسد والتحزب والدسائس والوشايات فأضحت شوارع القاهرة أشبه بميادين القتال منها بطرقات عامة ، لأن رجال الجيش كانوا حزبين : أحدهما موال للخليفة وثانيهما موال لوزيره . فإذا ما تقابل الحزبان على قارعة الطريق تقاتلا على مرأى من المارة . وقد أدى هذا التحزب إلى الفوضى والاضطراب فانتشر اللصوص وقطاع الطريق فى طول البلاد وعرضها ، ولم يعد فى الوادى الأمين انسان يشعر بالطمأنينة . وقد ضاعف هذا الاضطراب تربص الجيوش الصليبية والتركية بالبلاد المصرية .

١٤٩- وفى وسط هذه الأهوال انتقل الأنبا يؤنس الخامس إلى الأخدار السماوية . وإدرك الأساقفة والأراخنة أن ما يحيق بالبلاد من ضيق وعناء يستلزم الاسراع فى انتخاب الراعى الأعلى للكنيسة لأن الشعب المضطرب سيشعر بالطمأنينة إن هو وجد أباً حنوناً يفزع إليه فى الملمات ، كالطفل المذعور لا يشعر بالهدوء إلا إذا ارتمى على صدر أبيه (أو أمه) رغم عدم زوال الخطر . ولقد ألهم الآب السماوى المسئولين - من أساقفة وأراخنة - إلى الاجماع على الشماس أبى الفرج ابن أبى السعد حتى لا تتفرق كلمتهم

ويضيع الوقت فى النقاش حول هذا أو ذاك - وكان أبو الفرج هذا - مع كونه تاجراً يعيش فى العالم - ناسكاً متبتلاً معروفاً لدى الجميع بفضله حتى لقد وصفوه بأنه ذو همة ومروءة ، عاقل ، رزين ، حازم يحسن السياسة والتدبير كما أنه جليل مهيب نافذ الكلمة [1] . فتمت رسامته سنة ١١٥٧م باسم مرقس الثالث إذ قد اختار له الأساقفة هذا الاسم تيمناً بالكاروز المحبوب الذى أصبح هذا البابا الخليفة الثالث والسبعين فى سلسلة خلفائه .

وما أن تمت رسامته حتى غادر الاسكندرية وركب مركباً سارت به فوق النهر الخالد لترسو هنا وهناك فينزل الأنبا مرقس الثالث منها ليتفقد شعبه المضنى ويعزى القلوب الكسيرة ، فكانت رحلة كلها بركة إذ امتلأت القلوب عزاء وشعوراً بالأستقرار رغم التأرجح الخارجى .

١٥٠- وبينما كان الأمراء فى مصر يتطاحنون ، نجح نور الدين فى الاستيلاء على دمشق وفى الاستئثار بلقب « حامى حمى الاسلام ». فكان لزاماً عليه - والحالة هذه - أن لايتحالف مع القوات المصرية الخاضعة لخليفة شيحى ، كما كان لزاماً عليه أن يقاتل الفرنجة (الصليبيين). وكان هؤلاء يخشون بأسه فلم يجسروا على غزو مصر وهو قريب منهم لئلا يهاجمهم من الخلف على الرغم من أنهم كانوا ، أصحاب القدس وكانوا متلهفين على الاستيلاء على مصر [2] .

١٥١- وكان طلائع بن رزيق - وزير مصر يرغب رغبة أكيدة فى التحالف مع نور الدين إذ كان متيقناً من أن مثل هذه المحالفة هى أضمن وسيلة للقضاء على الصليبيين . وقد اختار الشاعر أسامة ليكون مندوبه - ومع أن هذا الشاعر كان ذائع الصيت وقد تقدم إلى نور الدين بقصيدة عصماء فقد فشل فى مهمته تماماً إذ تكسرت أبياته على آذان صماء . ولم تضع هذه القصيدة فحسب ، بل أن انتصار الجيش المصرى على الفرنجة فى غزة لم يكن له من أثر اطلاقاً . ولم ييأس رزيق فجمع مجموعة من قصائده

---

(١) الخطط للمقريزى جـ٢ص٤٩٦ ، « الكافى فى تاريخ مصر الحديث والقديم » لميخائيل شاروبيم جـ٢ ص٣٨٦

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية)الستانلى لاين پول ص ١٧٤ .

الحربية وأرسلها هدية إلى نور الدين . وللمرة الثالثة فشل فشلاً ذريعاً .

١٥٢- وفى سنة ١١٦٠ انتقل الفائز (الخليفة الصورى) إلى رحمة مولاه وهو فى الحادية عشرة من عمره فتولي ابن عمه العاضد لدين الله الخلافة من بعده . وما أن اعتلى العاضد العرش حتى اغتيل رزيق وأعلن شاور والى الصعيد الحرب على ابن رزيق وانتصر عليه فأقام نفسه والياً على القاهرة . وبعد شهور قليلة تغلب ضرغام (وهو وال آخر) على شاور الذى لجأ إلى بلاط نور الدين خوفاً على حياته ، وهناك وعد نور الدين بثلث خراج مصر إن هو ناصره . ونجح المال حيث فشل الشعر والأدب لأن حاكم دمشق الذى رفض كل عروض رزيق رضى بالتعاون مع شاور فأرسل معه جيشاً بقيادة شيركوه والتقى بالجيش المصرى عند تل بسطة (بالشرقية) وانتصر عليه فاستعاد شاور السلطة . على أنه حين وصل إلي الحكم خان عهده مع نور الدين فبعث برسوله إلى أماليرك ملك الفرنجة المتولى أمر القدس يستنهضه لمحاربة نور الدين . فزحف أماليرك على مصر لمناصرة شاور واضطر شيركوه إلى العودة إلى سوريا . على أن شيركوه لم يكن بالرجل الذى يرضى بالهزيمة أو يغض الطرف عن الخيانة فاستفزه فشله واستثار فيه رغبة جامحة فى الاستيلاء على مصر فظل يلح على نور الدين بأن يرسله على رأس حملة ضد الجيش المصرى . ولم يفلح شيركوه فى بادىء الأمر ، ولكن لما سمع نور الدين بقيام تحالف بين شاور وأماليرك رأى أن الوقت قد حان للهجوم على مصر .

١٥٣- وكان سباق للاستيلاء على الوادى العتيق ، وعادت المأساة التى مثلت مراراً وتكراراً : فقد رابط أماليرك وجيشه فى الفسطاط على الضفة الشرقية من النيل بينما رابط شيركوه وجنده عند الجيزة على الضفة الغربية منه ، فحق للمصريين أن يقولوا : ما أشبه الليلة بالبارحة - فكم من غزاة وقفوا هذه الوقفة على ضفتى النهر الخالد ! لقد تغير القواد وجنودهم أما الفريسة فهى هى . إنها الأرض المقدسة أرض النيل العريق . فقد كان لاسم مصر (ولا يزال) رنين خلاب طالما تسبب فى أن تفيض قلوب أبنائها بالوجع والحسرة . فكم من مرة عدا عليها المغيرون فداسوا بأقدامهم الغليظة هذه الأرض الوادعة وأرووها - رغماً منها - بدم أبنائها وساموهم الخسف والعذاب . وفى تلك الفترات الحالكة سكتت فى مصرنا الحبيبة أصوات المرح

والنشيد وحلت محلها التأوهات والأنين . وانطوى الشعب على ألمه يتأمل الباطش الغاصب ويتحمل فى صمت غدره وقسوته إلى أن تحين ساعة النجاة . وهذا الصبر الذى امتاز به المصريون مقترناً بإيمانهم الذى لا يتزعزع فى الله تعالى هو سر إنتصارهم المرة بعد المرة على كل من أغاروا عليهم ، وهو سر عميق لا يدرك كهنه الساخرون .

١٥٤- وأدرك شاور خطورة موقفه فسعى بكل ما لديه من حيلة ودهاء إلى استمالة الفرنجة لمناصرته . وأدرك الفرنجة بدورهم أنه إنما يخطب ودهم ليحتمى خلفهم فتشددوا فى مطالبهم مشترطين عليه أن يعطيهم مائتى ألف دينار ومائتى ألف أخرى عند انتصارهم . ثم تقدموا بطلب لم يكن فى الحسبان : فقد صافح الملك أماريك مندوبى الخليفة بيده فطالب بأن يحظى مندوبوه بمصافحة الخليفة ! ولم يكن هذا الطلب بالأمر الهين لأن الخلفاء الفاطميين كانوا قد اعتادوا أن يحيطوا أنفسهم بستار من الغموض والخفاء إلى حد أن عدد المسلمين الذين حظوا برؤياهم كان ضئيلاً - فكيف ومطالبو المقابلة من الفرنجة ؟ وكان طلب أماريك معناه أن العاهل الخفى المتعالى الذى لم يسمح لغالبية رعاياه بمقابلته سيسمح بأن يظهر أمام أغراب عنه ديناً ووطناً !، وفشلت المحاولات الأولى ولكن أماريك أصر على أن ينال حقه . ولم يكن شاور فى مركز يسمح له بالرفض إذ لم يكن أمامه إلا أن يختار بين التسليم بهذا المطلب أو الوقوع فى يدى نور الدين . فرضخ للفرنجة وأشرف بنفسه على ترتيب المقابله بين الخليفة ومندوبى أماريك وهما : هيو حاكم قيصرية وجيوفرى فولشر . « فاقتيدا داخل ممرات سرية ، ومرا خلف أبواب تغطيها الستائر ويقف أمامها الحراس شاهرى السلاح ، ثم وصلا إلى فناء فسيح فى الهواء الطلق تحيط به أروقة ذات أعمدة مرمرية وسقوف مزخرفة وموشاة بماء الذهب والألوان الرائعة ، بينما كانت أرضها من الموزايكو البديع الصنع . وحملق الغريبان فى كل مظاهر البذخ والجمال وقد امتلأت نفساهما ذهولاً إذ لم يعتادوا رؤية هذا الذوق الفنى الرفيع وهذا الترف المتناهى . وكانت كل خطوة يخطوانها بها تكشف لهما عن مظاهر جديدة من آيات الفن والرفاهية : فهنا فسقيات مرمرية تتغنى حواليها الطيور من سكان المناطق الحارة والمعتدلة وهى ذات أصوات رخيمة وألوان

آية فى التنسيق . وهناك فى ركن ثان مجموعة من الحيوانات قد يبتدعها فنان عبقرى أو يصفها شاعر موهوب أو يحلم بها عقل ذو خيال مرهف [١].

١٥٥- وبعد السير من ممر إلى آخر ومن دهليز إلى ثان ومن بهو إلى بهو وصل المندوبان فى النهاية إلى قاعة العرش التى فاق جمالها كل خيال [٢] ، وحظيا بمصافحة الخليفة وبتوقيع المعاهدة فى حضرته . وعلى أثر ذلك بدأت المعركة ضد قوات نور الدين التى كانت تحت قيادة شيركوه . وكانت الموقعة الأولى فى منطقة المنيا (فى الصعيد الأوسط) . وانتصر جيش شيركوه ولكن الانتصار لم يكن حاسماً . وفى هذه المعركة ظهر صلاح الدين للمرة الأولى فى تاريخ مصر . وقد أبدى فى هذه المعركة الأولى تلك البسالة التى تميز بها حتى آخر حياته . ولم يتراجع الفرنجة بل استمروا يقاتلون فى عناد حتى اضطروا شيركوه إلى الانسحاب إلى سوريا للمرة الثانية .

١٥٦- وتنفس شاور الصعداء ، ووجد الفرصة سانحة لينكث عهده مرة أخرى وبخاصة لأن الفرنجة بدورهم نكثوا عهدهم . فإنهم لم يكتفوا بما فرضوه من مال بل طالبوا بمئة ألف دينار علاوة عليه . ثم أصروا على أن يقيموا من جنودهم حراساً على أبواب الفسطاط . فلما أعلن شاور رفضه زحفوا على مصر من جديد ولكنهم كانوا فى هذه المرة خصوماً لا حلفاء . وقاد أماليك الجيش بنفسه وما كاد يدخل بلبيس حتى أضاف الجريمة إلى

---

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پول ص.١٨

(٢) روى الدكتور عبد الرحمن زكى هذه المقابلة وصفاً تفصيلياً وانتهى منها بقوله : وصل الفرنج الى القصر الكبير حيث يقطن - الخليفة - وفاق هذا القصر كل ما رأوه من قبل ... وأدخل المبعوثون الى قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان . وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية . وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة ... وارتفعت الحبال فجأة وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق كأنها ملاءة خفيفة وظهر الخليفة الطفل (السلطان العاضد) لأعين الفرنج المبعوثين . وكان على وجه هذا الأمير نقاب يخفيه تماماً وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة - راجع كتابه « القاهرة : تاريخها وآثارها (من جوهر القائد الى الجبرتى المؤرخ) » ص ٢٠-٢١.

الخيانة . فقد أعمل رجاله سيوفهم فى رقاب أهلها وأبادوهم عن بكرة أبيهم : فلم يحترموا سناً ولا جنساً ولم يفرقوا بين مسيحى ومسلم . وراقب شاور ما اقترفوا من فظائع ووجدهم منتصرين على طول الخط ، فأمر باشعال النار فى الفسطاط كى لا يحتمى الفرنجة فيها ورابط هو وعسكره فى القاهرة . وكانت الفسطاط آهلة بالسكان كما أنها كانت العاصمة مدى ثلاثة قرون . وحين رآها المصريون مشتعلة بالنار امتلأت قلوبهم غيظاً . وتضاعف غيظهم أضعافاً إذ استمرت النار مشتعلة أربعة وخمسين يوماً . وذكرتهم النيران بالخيانة المزدوجة : خيانة شاور وخيانة الفرنجة وأدركوا أن مدينتهم ذهبت ضحية لهذه الخيانة المزدوجة فانضموا بجموعهم إلى شيركوه . بل إن الخليفة العاضد أدرك معهم هذه الحقيقة المرة فبعث برسوله يستنجد بنور الدين الذى استجاب هذه المرة على الفور [1] .

١٥٧ - وأصيب الفرنجة بانكسار مريع عند أسوار دمياط ، وأصاب شيركوه وابن أخيه صلاح الدين سلسلة من الانتصارات ودخلا الفسطاط بجنودهم فأبادوا شاور ورجاله وقضوا على الحرس السودانى المرابط داخل قصر الخليفة فى يومين اثنين فقط ! [2] .

١٥٨ - وكان حريق الفسطاط ضربة قاصمة للقبط : فقد كان الكثيرون منهم يعيشون فيها ويمتلكون بيوتهم ، كما كان حصن بابلون يضم أقدم كنائسهم وأعظمها . ومما يجدر تسجيله بالاعتزاز هو أن بعض الكهنة رفضوا أن يغادروا المدينة وصمموا على البقاء إلى جانب كنائسهم لعلهم يستطيعون حمايتها أو يموتون داخلها . وقد تجلت مراحم الله فى هؤلاء الكهنة البواسل إذ سلمت ست كنائس من الحريق تماماً [3] .

---

(١) تاريخ مصر ... لستانلى لاين بول ص ١٨١ - ١٨٢ ، « مختصر تاريخ مصر » (بالفرنسية) ص ١٩٦ - ١٩٧ ، « تاريخ الأمة المصرية ... » (بالفرنسية) ص ٢٩١ - ٢٩٧ .

(٢) « تاريخ الأمة المصرية ... » ص ٣٠١ حيث يشهد باندحار الفرنجة اذ يقول : " Les Francs furent reduits à Solliciter une paix que l'on accorda bien Volontiers; ils durent payer une forte indemnité, et evacuer sans delai le territoire Egyptien " وترجمته ما يلى « اضطر الفرنج الى طلب الصلح الذى قوبل بالرضى ، وألزموا بدفع تعويض بالغ وباخلاء الأراضى المصرية على الفور » .

(٣) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٤٤ - ٥٤٥ .

وكانت كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) ضمن الكنائس الست التى سلمت من الحريق . وكان بها آنذاك مكتبة ثمينة بها الكثير من كنوز الفكر . وحدث أن قام جدال حول موعد عيد القيامة فلجأ العلماء إلى الكتب الموجودة بتلك المكتبة ودرسوها فاقتنعوا بأن الحساب القبطى هو الحساب الصحيح [١] .

١٥٩ - على أن حريق الفسطاط لم يكن غير نذير بشر مستطير إذ قد صب شيركوه غضبه الذى شعر به نحو الصليبين على القبط . فلم يجد أمامه من يكفر عن سيئات حاملى الصليب زوراً وبهتاناً غير حاملى الصليب الآمنين من أهل هذا الوادى العريق . فاستشهد منهم عدد كبير وأحرقت كنائس كثيرة وتضاعفت الجزية . ورأى بعض قبط الصعيد أن يطلبوا إلى العرب المقيمين بينهم حمايتهم وتجنبهم الاضطهاد أو الموت مقابل معاملتهم كعبيد . لقد كانت فترة حالكة الظلام مليئة بالأهوال .

ورغم الظلام والأهوال كان هناك وميض من النور - هذا النور الذى استمر يسطع كالخط الذهبى المعلن عن وجود الشمس خلف السحب المتكاثفة . فقد كان فى هذه الفترة أرخن من الأراخنة اسمه **الاسعد صليب بن ميخائيل** المعروف بابن الايغومانس مشهوداً له بالعلم ومحبة العلماء كما كان متعلقاً بالكنيسة فى صدق وولاء . فلما انطفأت النيران التى كان شاور قد أشعلها فى الفسطاط قام هذا الأرخن بتجديد كنيسة مارمينا وألحق بها مدرسة ومنتدى يجتمع به رجال العلم والأدب للتباحث والتناظر . وقد كتب رسالة عن أسرار الكنيسة محفوظة الآن بدار الكتب بلنينجراد (فى روسيا) وأشار إليها أحد المستشرقين الروس فى كتاباته [٢] .

١٦٠ـ وكان هناك رجل قبطى من أهالى أسيوط اسمه زكريا بن أبى المليح بن مماتى منحه الله المقدرة على كتابة الشعر السلس العذب . فبعث بقصيدة من روائعه إلى شيركوه يستعطفه ليخفف الوطأة على القبط .

---

(١) مرشد المتحف القبطى لوديع شنودة ص ٢٦ .

(٢) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس جـ ١ ص ٣٧ - ويلاحظ أن مدينة لينجراد تحول اسمها إلى ستالينيجراد ثم إلى موسكو .

ولكن شيركوه كان رجل السيف لا يهزه القلم ، فلم يعبأ برجاء زكريا رغم أنه فى قالب شعرى جميل . بل إنه ليبدو أن هذا الاستعطاف أحدث فى نفس شيركوه أثراً عكسياً فضاعف تنكيله بالقبط بدلاً من أن يخففه . ولم يحتمل زكريا هذه المحنة المتزايدة فخان عهد آبائه بأن أنكر دينه واعتنق الاسلام وفى الحال عينّه شيركوه ناظراً للدواوين [1] . وقد ساعدته هذه الوظيفة التى استمر يشغلها أثناء حكم صلاح الدين والتى أورثها لإبنه من بعده - ساعدته على أن يكتب كتاباً بعنوان « قوانين الدواوين » صور لنا فيه أوامرالدولة المصرية إذ ذاك ، كما ضمنه وصفاً دقيقاً للسفن التى كان يتألف منها الأسطول المصرى فى ذلك العصر . فأوضح بدقة وصفه مدى اهتمام صلاح الدين بالأسطول كما أوضح عناية الصناع المصريين بانتاج السفن المطلوبة منهم [2] . وفى الكتاب عينه تحدث عن بعض المنشآت فى مختلف البلاد المصرية فذكر ضمن ما ذكر « دير العسل » من أعمال الأشمونين وكان هذا الدير يقع على ضفة النيل ويشغل مساحة كبيرة . تتوسطه كنيسة باسم مارجرجس تحيط بها قلالى النساك . ولقد غرس الآباء كرماً فى مزرعته كما بنوا إلى جانبها معصرة حجرية لعصر قصب السكر . ولهذا السبب سمى الدير « دير العسل » [3] .

أما ابن مماتى فقد توفى فى حلب [4] . على أنه كان هناك من آثر

---

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٦٠ - ١٦٢ .

(٢) راجع كتاب « الفن الاسلامى فى العصر الأيوبى » للدكتور عبد العزيز مرزوق ص ١٣ و ١٩ - ٢٠ .

(٣) اقليم المنيا فى العصر القبطى للقمص ميصائيل بحر نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة السادسة العدد الأول (يناير سنة ١٩٦٤) ص ٢٦ - ويورد الكاتب أيضاً ما جاء فى دائرة المعارف القبطية عن هذا الدير وهو أنه كان محصناً وبه جوسقان . كذلك نقل عن أبى المكارم حديثه عن الأنبا سيمون وهو : « كان من رهبان دير العسل ورسم أسقفاً للدير . وكان عابداً زاهداً مشهوراً بالصلاح فاستفاد منه الرهبان وأقبل الناس على تعاليمه » .

(٤) ذكر الدكتور عبد الرحمن زكى فى كتابه « القاهرة » تاريخها وآثارها على ص ١٣٩ هذا الكاتب وقال عنه فى هامش الصفحة عينها ما يلى « هو أبو المكارم أسعد بن المهذب المصرى القبطى الأصل ... » ، وراجع ترجمته فى المقريزى ج ٢ ص ١٦٠ . وقد طبع كتابه على نفقة الجمعية الزراعية الملكية باشارة الأمير عمر طوسون - راجعه وحققه الدكتور عزيز سوريال عطية سنة ١٩٤٣ .

الموت بل فضل أن يتحمل العذاب على انكار دينه فقد جبن الشاعر زكريا وتراجع أمام سطو الجند على حرمة الأديرة مع أنه لم يكن من ساكنيها . ولكن المعتدين على ساكنى برية شيهيت اصطدموا بعزيمة الراهب شنوفاً الذى كانوا قد خطفوه من دير الأنبا مكارى الكبير وهددوه بالقتل إن لم ينكر دينه . فواجه تهديداتهم ببسالة أجداده وانتهى به الأمر إلى أن نال إكليل الشهادة كما نالوه .

وفى تلك الفترة الحالكة صدر الأمر بهدم كتدرائية مارمرقس بالاسكندرية التى كانت تطل وقتذاك على الميناء بحجة أنها ضخمة منيفة قد يجد فيها الصليبيون قلعة يحتمون فيها إن هم تمكنوا من دخول المدينة [١] .

كذلك قامت حملة تأديبية على النوبة بتخريب واسع النطاق شمل دير القديس سمعان بأسوان وكنيسة ابريم بالنوبة ، وسبى أهالى تلك المنطقة وعلى رأسهم الأسقف القبطى وسيقوا جميعاً إلى سوق النخاسة . وعم التخريب مدينة قفط أيضاً وتساوت بالأرض فلم تعد لها قائمة مذاك [٢] .

١٦١ - ولكن - ما الذى كان يفعله خليفة مارمرقس خلال هذه الظلمة الحالكة ؟ أنه - حين تأمل شعبه المتوجع المتألم - لم يجد أمامه غير سبيلين : أولهما الصوم والصلاة وثانيهما تفقد الشعب المعذب . فابتهج هذين السبيلين معاً واستطاع بهما أن يثبت أولاده على الإيمان ويحصنهم ضد العذاب .

ولقد استجاب الآب السماوى ضراعة الأنبا مرقس الثالث ونظر إلى دموعه وإلى أصوامه غير المنقطعة لأنه تعالى لا ينسى تعب المحبة .

---

(١) كان الأنبا أغاثون (البابا الـ ٣٩) قد بناها سنة ٦٦٢ م ابان الفتح العربى وكانت بالفعل آية فى الضخامة والفن . ولقد سعى القبط إلى أنقاذها وعرضوا أن يدفعوا (٢٠٠٠) ألفى دينار فى سبيلها ولكن مساعيهم ذهبت أدراج الرياح .

(٢) حينما قام علماء الآثار بعملية انقاذ آثار النوبة قبيل بناء السد العالى عثروا خلال حفرياتهم على بقايا كنيسة ابريم كما عثروا على عدد من الكنائس بعضها أطلال وبعضها يكاد يكون سليماً .

راجع أيضاً كتاب عزيز سوريال عطية عن « تاريخ المسيحية الشرقية » (بالانجليزية) ص ٩٥ .

فانقضى بموته عهد شيركوه بعد شهرين من انتصاراته إذ قد انتقل فجأة إلى الدار الباقية . فانقضى بموته عهد الظلم والظلام وتولى صلاح الدين الوزارة تحت الحكم الصورى للخليفة العاضد .

١٦٢ - وكان صلاح الدين اسماً على مسمى : فقد بدأ معه عهد من الاستقرار والعدالة فأنصف جميع المصريين على السواء . وقد ازدانت عدالته بالكرم والسماحة فأحبه المصريون حباً جماً وأخلصوا له الولاء . وكان انتصاره على القلوب حاسماً . وفى هذه الفترة فاضت موجة الأخوة والرخاء فمسحت التوتر والعوز وانسجم ميزان المجتمع المصرى انسجام النيل بما يتناوبه من فيض وانحسار . ولقد عبر القبط عن عرفانهم بالجميل لهذا التغيير بما كتبوه فى مخطوطات ذلك العصر إذ نقرأ هذه العبارات : « ولم تزل الأمور تتوطأ بصلاة هذا الأب القديس الطاهر أنبا مرقس وهو يجاهد على شعبه إلى أن أصلح الله لهم قلب السلطان فقربهم وأدناهم واستخدمهم فى ديوانه وأنعم عليهم فعادوا إلى أرفع مما كانوا عليه .. وصار لهم جاهاً ونفاذ كلمة وعزاً . وأكثروا من الصدقات ولازموا الصلوات فنمت أرزاقهم وصلحت أمورهم وانشرحت صدورهم وأخذوا الإذن من السلطان بعمارة ما هدم من البيع وفتحها لاقامة صلواتهم والدعاء لله بسلامة سلطانهم المحسن إليهم . وعادت الأمور إلى أوفى مما كانت عليه »[1] .

١٦٣ - وفى سبتمبر سنة ١١٧١ انتقل العاضد إلى رحمة مولاة فى غفلة وانزواء فكان موته سبباً من الأسباب العديدة التى دعمت سلطان صلاح الدين الذى تسلم الحكم من غير منازع . وقد رأى أن يدع أقرباء الخليفة الراحل يعيشون فى بذخ وترف دون أن يكون لهم رأى أو صوت فى سياسة الدولة - أى أنه وضعهم فى قفص ذهبى جميل . أما كنوز العاضد فقد وزعها صلاح الدين على المجموعة الجديدة من الرجال الذين انتخبهم لمعاونته فى القيام بأعباء الحكم ، وكانت مكتبة الفاطميين تحوى إذ ذاك مئة وعشرين ألفاً من المخطوطات وهبها للفقيه القاضى الفاضل . وفى الوقت عينه رفض صلاح الدبن أن يعيش فى قصر الفاطميين لأن ما يحويه من مظاهر الأبهة والترف يتضارب مع ما كان يمتاز هو به من بساطة .

---

(١) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بديره جـ ٢ ص ٤٤٠ - ٤٤١ .

ولقد اتخذ صلاح الدين لنفسه كاتباً خاصاً من عائلة قبطية كريمة هي عائلة شرافي . وكان أبوه من كبار رجال ديوان الخليفة العاضد واسمه أبو المعالي . فلما وثق به صلاح الدين وأمنه على سره منحه لقب الشرف والرئاسة فصار معروفاً باسم الشيخ الرئيس صفي الدولة ابن أبي المعالي . ولقد ظل يخدم صلاح الدين إلى يوم وفاته (١) .

١٦٤ - ولقد استطاع صلاح الدين بما حباه الله من مواهب نادرة أن يصبح الزعيم الأول للمسلمين في الشرق الأوسط فامتد سلطانه من آسيا الصغرى شمالاً إلى ما بين النهرين شرقاً . ورغم هذا السلطان المتزايد فقد ظل محتفظاً بعدالته ونزاهته وبساطة معيشته .

وألقى نظرة النسر حوله فرأى أن يبني قلعة فوق الربوة الغربية لجبل المقطم واختار لتنفيذ رغبته مهندسين قبطيين هما أبو منصور وأبو مشكور ليبنياها له (٢) . ولما تم بناؤها أصبحت المقر الرسمي للحكومة وأطلق عليها اسم « قصر الجبل » . فكان منظرها يملأ النفس رهبة فيردع كل من تسول له نفسه بأن يتمرد أو يعتدي وقد استمرت القلعة المقر الرسمي لحكام البلاد مدى ستمائة وست وستين سنة - أي إلى سنة ١٨٧٤ م حينما بنى اسماعيل باشا قصر عابدين واتخذه مقراً وسار خلفاؤه على نهجه (٣) .

١٦٥ - وقد نجح صلاح الدين في التغلب على جميع أعدائه والمتآمرين عليه فأصبح صاحب الكلمة العليا . وتهلل المصريون لذلك لأنهم كانوا قد رزحوا تحت نير ثقيل فترة طويلة فتنسموا الحرية في ظل هذا القائد الشاب النزيه وأجمع القبط والمسلمون على الصلاة من أجله . وكانت استجابة الله لهم هذه المرة سريعة إذ قد منحه السلطان من النيل إلى الفرات . وقد ملأه النصـــر زهــواً هذه المرة فارتكب غلطة كانت السبب في سقوط أسرته فيما

---

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٧٦ .

(٢) في ٢٦ يوليو سنة ١٩٦٢ افتتح برنامج رائع للصوت والضوء حول القلعة التي لا تزال شـــامخة فوق ربوتها - وهـــي مبنية على الطراز البيزنطي . راجـع أيضـــاً كتاب « تاريخ مسيحية الشرقية » (بالانجليزية) لعزيز سوريال عطية ص ٩٥ .

(٣) راجع مقال « القلعة » بقلم الدكتور عبد الرحمن زكي أستاذ الآثار الاسلامية بجامعة القاهرة نشر بجريدة الأهرام في ٢٨ يناير سنة ١٩٦٩ بمناسبة ذكرى مرور ألف سنة على تأسيس القاهرة .

بعد ، وهى أنه أقام من رجال عشيرته حكاماً فى كل البلاد التى أخضعها لسطانه . وتمادى فى هذا الغرور إلى حد أنه أقام ابنه ملكاً على حلب مع أنه كان صبياً تجاوز العاشرة بقليل .

١٦٦ - واحترم صلاح الدين والفرنجة الهدنة التى أبرموها معاً ومن ثم استقرت الأمور وعم الرخاء . ثم جاء الحصاد وافراً ورخصت أسعار الحاجيات اليومية واتسعت التجارة وسعد الجميع .

١٦٧ - أما الأنبا مرقس الثالث فقد فاض قلبه بالسبح لله الذى أبدل البؤس نعيماً . ورأى أن يتفقد شعبه فى الرخاء كما تفقده فى الضيق ليوضح فى هذه الزيارة الراعوية الثانية مدى عناية الآب السماوى بأبنائه على هذه الأرض . وقد لاقاه الشعب بالفرح : سواء أكان من القبط أو من المسليمن .

كذلك عاد القبط إلى العمل فى دواوين الحكومة إذ قد أقر صلاح الدين حقوقهم كما أعاد إليهم أملاكهم المصادرة . فازدحموا فى الكنائس ليرفعوا شكرهم إلى الآب السماوى ، وواظبوا على الأصوام والصلوات والصدقة . وازداد عرفانهم حين جاءهم الإذن باعادة ما تهدم من الكنائس وتجديد عمارة الأديرة . وهكذا بدأت باباوية الأنبا مرقس الثالث فى جو مكفهر ملبد بالغيوم القاتمة . وانتهت بسماء صافية ساطعة النور . وانعكس هذا البهاء على وجهه فلمعت أساريره وزادته جاذبية مما زاد حب الشعب فيه . وانقضت بضع سنوات كلها صفاء وطمأنينة انتقل بعدها البابا المرقسى إلى مساكن النور . وكان انتقاله فى السادس من طوبة سنة ٨٩٦ ش (١١٨٠م) وقد دامت باباويته اثنتين وعشرين سنة وستة أشهر [١] .

وقد اختتم كاتب تاريخ البطاركة سيرة هذا الأب البار بكلمات لها دلالتها وجمال تعبيراتها لذلك ننقلها كما هى : « ..... ولم تزل الأمور تتوطأ بصلات هذا القديس مرقس البطرك وهو يجاهد على شعبه ورغبته إلى أن أصلح الله لهم قلب سلطانهم ببركة صلواته فقربهم وأدناهم واستخدمهم فى ديوانه فى أموال دولته وأنعم عليهم فعادوا إلى أرفع مما كانوا عليه وركبوا

---

(١) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بديره جـ ٢ ص ٤٣٢ - ٤٤١ .



قلعة صلاح الدين الأيوبى

بنيت لأسباب استراتيجية وظلت مقراً للحكم ٦٦٦ سنة

الخيل والبغال ولبسوا الخفاف والثياب المفرحة وساروا معه فى الغزوات كتاب ديوانه وكتاب أهله وأقاربه وكتاب أجناده وتعلق كل نصرانى بكتاب أمير من أمراء دولته ومن أهله وأقاربه وحفظ كل منهم حرمة كاتبه فصار لكلمتهم جمال ومال وجاه ونفاذ كلمة وعز ونقل الله بصبرهم وصلوات بطركهم ورجوعهم إلى الله وطاعتهم لرئيسهم ذلهم إلى عز وإهانتهم إلى كرامة وبغضهم إلى محبة وضعفهم إلى قوة . وأكثروا من الصدقات ولازموا الصلوات وتشبهوا ببعضهم بعض فى المسارعة إلى فعل الخيرات . فنمت أرزاقهم وصحت أجسامهم وكثر بنوهم وبناتهم وخزاينهم من خيراتهم . وصلحت أمورهم وطابت قلوبهم وانشرحت صدورهم وعلت كلمتهم عند سلطانهم فتنجزوا التواقيع منه والكتب عنه إلى ولاة الأعمال بمرمة بيعهم وما تشعت من كنايسهم وفتحها لاقامة صلواتهم والدعاء لله بسلامة سلطانهم فرموا ما كان وهى وبنوا ما كان هدم ورموا ما كان تشعث وعادت الأمور إلى أوفا ما كانت من السلامة ورخص الأسعار وطيب الثمار وجرى النيل ونزول الأمطار وتنيح هذا القديس أنبا مرقس وقد رضى الله عن شعبه بصلواته وهم محفوظين بصلوات القديس آمين » [(١)] .



---

(١) بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين - المجلد الثالث - الجزء الثانى - قام على نشره دكتور أنطون خاطر ودكتور أزولد بورمستر - (القاهرة سنة ١٩٧٠) ص ٩٧ - ٩٨ .

« جلال الملك أيام وتمضى ... »[1]

١٦٨ - كان شهر سبتمبر سنة ١١٧١ شهراً بعيد المدى فى مجرى الحوادث المصرية : فيه انتقل الحكم من أيدى الفاطميين إلى أيدى الأيوبيين وأعظم رجال الدولة الجديدة هو صلاح الدين من غير نزاع وهو الذى دعيت الدولة باسمه إذ كان يدعى يوسف بن أيوب الملقب بالملك الناصر صلاح الديـن .

وكان العصر الفاطمى من أعجب العصور ، فقد شهد فيه المصريون أفخم مظاهر الترف كما عرفوا فيه طعم البؤس والجوع ، وسعدوا بالتسامح الدينى الشامل كما كانوا فريسة الاضطهاد والاستبداد . وخلال هذه المتناقضات كان عصراً ازدهرت فيه العلوم والفنون ، وتزاحم المؤرخون والكتاب والشعراء ورجال القانون والعلماء فى قاعات الخلفاء الذين اشتهروا بكرمهم الذى كان مضرب الأمثال . كذلك وفد على مصر عدد غير قليل من السواح سحرهم جمالها فتركوا للأجيال المتعاقبة وصفاً دقيقاً رائعاً عما شاهدوه .ومما يؤسف له أن القصور الفخمة التى وصفوها قد أصبحت أثراً بعد عين ولكن المساجد لا تزال باقية تشهد لمبدعيها بطول باعهم فى الذوق والفن كما تشهد بما استمتعوا به من حرية [2] . وليس ذلك فحسب بل أن الصناع هـم أيضاً

(١) عن قصيدة لأمير الشعراء عن توت عنخ آمون ومطلعها « قفى يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا » .

(٢) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالأنجليزية)الستانلى لاين بوول ص ١٨٦ - ١٨٩ ، مختصر تاريخ مصر ... لجيستون فييت ص ١٩٩ - ٢١٤ .

قد برزوا ، ولا تزال آثارهم تنطق للآن بعملهم المتواصل واتقانهم وذوقهم ومن أروع منتجات هذا العصر النسيج : فقد أفلح النساجون فى تنيس [١]. فى انتاج نوع من القماش أطلقوا عليه « بوقلمون » كان لونه يتموج من ساعة إلى ساعة حتى لكأنه يتبدل ويتشكل . بينما صنع نساجو أسيوط قماشاً من الصوف للعمائم ناعماً خفيفاً إلى حد أن الناس كادوا يظنونه من الحرير [٢] . وليس ذلك فحسب بل إن العرب استمروا يطلقون على النسيج المصرى اسم « القباطى » فذكر كل من المقريزى وأبى المحاسن أن الحاكم بأمر الله كسا الكعبة بالقباطى فى السنة العاشره من حكمه . وكانت بعض مصانع النسيج تحت الاشراف المباشر من الحكومة وكانت تعرف بالطرازى فكان الانتاج الذى يصدر عنها مزخرفاً بانتظام وتنسيق كما كان قبطى الأسلوب [٣] .

ولما كانت الحياة مؤثرات وانطباعات فإن اعتياد القبط تصوير هالة من النور تحيط برأس القديس أو الشهيد كان لها أثر فى نفس الفنان المسلم الذى أخذ هذه الفكرة الفنية عنهم ولكنه وضعها حول رأس الشخصيات البارزة كالأمير مثلاً ، أو للتعبير عن الفرح فى حفلة استقبال .

وثمة فن آخر كان له أهمية كبرى لدى القبط وبخاصة لدى الرهبان منهم ، هو فن تجليد المخطوطات بالجلود ذات الزخارف المضغوطة وقد ازدهر هذا الفن فى مختلف العصور .

وتدل بعض جلود المصاحف المحفوظة للآن فى دار الكتب - تدل دلالة صريحة على الأثر القبطى : فإحدى هذه الجلود محفورة فى أشكال صليبية شبيهة بزخارف تزين قطعة من النسيج القبطى موجودة فى فيينا [٤] .

---

(١) خرب الفرنجة هذه المدينة تخريباً شاملاً .

(٢) مختصر تاريخ .... ص ٢٠٩ .

(٣) « أثر الفنون التشكيلية الوطنية القديمة على فن القاهرة فى العصر الفاطمى » لسعاد ماهر ص ٤ و ١٧ .

(٤) « تراث الاسلام » تعريب لجنة الجامعيين لنشر العلم جـ ٢ ص ٨٧ - ٨٨ ، دليل المتحف القبطى لمرقس سميكة جـ ١ ص ٤٢ ، ٥١ - ٥٢ ، وللوقوف على المؤثرات المتبادلة فى الفنون المختلفة بين القبط والمسلمين راجع كتاب زكى محمد حسن : « الفن الاسلامى فى مصر » « وكنوز الفاطميين » .

وبازدهار كل هذه العلوم والفنون سرت موجة من الهناءة عمت المصريين جميعاً ، فاندفعوا فى التعبير عن وجداناتهم وخلجات نفوسهم فى رضى وحبور . وكانت الأعياد تتيح أمامهم الفرصة للتشارك فى هذا التعبير : فكان قبط مصر ومسلموها يعيدون معاً أعيادهم المختلفة ، ولم ينسوا فى ذلك العهد السعيد أن يتشاركوا فى العيد الذى ورثوه عن آباتهم الفراعنة وهو عيد وفاء النيل (١) .

وأن الصورة التى خلفها لنا الفاطميون عن الأعياد فى عصرهم لهى صورة الانسانية المثلى التى ترتفع فوق الاختلافات كلها (٢) علـى أنه مما يؤسف له أن كل ما هو انسانى هو مؤقت مهما بلغ من المجد - فزالت دولة الفاطميين وحلت محلها الدولة الأيوبية .

١٦٩ - وفى فترة الهناء والاستقرار شغرت السدة المرقسية . وتلفت الأساقفة والأراخنة حولهم باحثين عمن يجدر بهم انتخابه . ويبدو أن الهدوء النفسى الذى كانوا يستمتعون به كان قد تغلغل فى أعماقهم فاتفقوا برأى واحد على انتخاب شماس متبتل اسمه أبو المجد بن غالب . ولم يكن هذا الشماس متبحراً فى العلوم الكنسية فحسب ، بل كان - إلى جانب ذلك - صالحاً تقياً يزدان محياه بابتسامة جذابة تكاد لا تفارق شفتيه وبصوت حنون وحديث عذب . كذلك كان ذا ثروة كبيرة إذ « كان فى ابتداء أمره تاجراً يتردد على اليمن فى البحر ... وكان معه لما استقر فى البطريركية سبعة عشر ألف دينار مصرية أنفقها على الفقراء ... » (٣) .

وكان أيضاً يملك مصنعاً للسكر وطاحونة للغلال . ولكن ثروته لم تنسه انسانيته ولم تنسه وجـوب العبادة وشكر الله تعالى ، فكان سخياً لا يرفض

---

(١) مختصر تاريخ . . . ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) مختصر تاريخ مصر . . . جستون فييت ص ٣٠٧

(٣) الخطط للمقريزى ج٢ ص ٤٩٦-٤٩٧ ، بينما يصفه كاتب تاريخ البطاركة بقوله : « ... وكان كاملاً فى دينه ودنياه وغير محتاج إلى شىء من أمور الدنيا يصدق صدقات كثيرة ومع اشتغاله بأمور الدنيا ما كان يغفل عن صلوات السواعى الليلية والنهارية محباً ومجتهداً فى ضيافة الغرباء وافتقاد المرضى والمحبوسين ويدفع الجوالى عن الفقراء من أهله والمحتاجين من قومه . وكان كثير المودة لكل أحد ويفعل الخير مع كل أحد ... » - تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لأسقف الأشمونين - المجلد الثالث جـ ٢ - قام على نشره أنطون خاطر وأزوولد بورمستر ص ٩٩ .

لسائل طلباً ، يبحث عن الغرباء والمسجونين ليقدم لهم ما يمكنه من مساعدة . وحين استقرت الأنظار على هذا الشماس التاجر المتبتل رأى الأساقفة والأراخنة استصحابه إلى الاسكندرية من غير تسويف حيث رسم البابا الرابع والسبعين للكرسي المرقسي باسم يؤنس السادس سنة ١١٨٠م [١].

١٧ - ولم يكد هذا البابا يتسلم مقاليد الرياسة حتى بلغه أن مطران الحبشة قد انتقل إلى دار النعيم . ولما أخذ يفكر في رسامة خليفة له وجد أن مطران فوه قد أصبح بلا ايبارشية لأن الفرنجة كانوا قد أفنوا أهالي تلك المدينة عن بكرة أبيهم : فلم يبقوا فيها على نسمة واحدة سواء في ذلك القبط أو المسلمين ، وأن المطران كان قد اضطر إلى الالتجاء إلى الدير إذ لم يعد له شعب يرعاه . فاستقر رأى الأنبا يؤنس السادس إذ ذاك على ارسال هذا المطران إلى البلاد الحبشية بدلاً من رسامة راهب ظناً منه أن الاختبارات والسن ستجعل من المطران المكلوم راعياً مثالياً [٢] فلما وصل المطران - كيلوس - إلى أكسوم تلقاه الشعب وامبراطوره بالترحاب . على أنه مما يؤسف له أن كيلوس هذا خيب آمال البابا الاسكندرى كما خيب آمال الأحباش . ويبدو أن المحنة التى جازها قد حولت قلبه إلى صخرة صماء بدلاً من أن ترهف مشاعره . فانصرف عن أمور الرعيه إلى الاستمتاع بملاذ الحياة وحدث أن ضاعت آنية ذهبية غالية من أوانى الكنيسة بأكسوم ، واتهم كيلوس حارس المخزن بسرقتها . فأمر بضربه حتى يعترف . فانهال خدامه على المتهم ضرباً ولكماً إلى أن مات دون أن يتفوه بكلمة . فثار أهل القتيل وقاموا فى جمع غفير يريدون اقتحام المطرانية أخذاً بالثار . وارتاع كيلوس ففر إلى مصر . وحينما رآه الأنبا يؤنس السادس امتلأ ألماً ودهشة وسأله عما حدا به إلى ترك ايبارشيته . وخاف كيلوس أن يعترف بالحقيقة فتمتم بعذر أحس البابا الاسكندرى بتفاهته . فأبقاه فى الدار البابوية وبعث برسول من قبله إلى الحبشة ليستعلم الحقيقة وبعد سنة من الزمان عاد الرسول البابوى ومعه عدد من كبار رجال البلاط وعلى رأسهم

---

(١) تاريخ البطاركة - مخطوط ... جـ ٢ ص ٤٤١ .

(٢) مما تجدر الاشارة إليه هنا أن القانون الكنسى يمنع نقل مطران من كرسى إلى آخر - إلا أن الأنبا يؤنس السادس رأى أن ارسال كيلوس إلى الحبشة لا يعتبر نقل بالمعنى الصحيح لكون المطران كان قد فقد ايبارشيته وكان عائشاً فى الدير إذ ذاك . وعلى الرغم من ذلك فقد ثبت عدم صلاحية هذا النقل .

أبو اعتراف الامبراطور . وقد طلب هؤلاء الأحباش إلى الخليفة المرقصى أن يستدعى كيلوس ليشتكوا عليه فى مواجهته .

ولما استمع الأنبا يؤنس السادس إلى الشكوى . دعا مجمعاً من الأساقفة ومــن أراخنــة الشعب وتناقش معهم فيما جرى واعترف كيلوس بأنه مذنب فعــلاً . وعندها أصدر المجمع حكمه بتجريده مــن كل رتبة كهنوتيه مع السماح له بأن يعيش فى الدير راهباً بسيطاً . وبهذا الحكم شغرت الايبارشية الحبشية . فتفاوض البابا الاسكندرى مع مجمعه عمن ينتخبونه واستقر رأيهم على رسامة راهب اسمه اسحق من دير الأنبا أنطونى .

ورأى المطران الجديد أن العبء الذى وقع عليه ثقيل ، فهو لم يتسلم رعاية شعب حزين على راع ساهر ، متطلع إلى راع يخلفه - بل تسلم رعاية شعب حانق غاضب يجب استعادة ثقته وطمأنينته . فاستصحب معه عدداً من مهرة الصناع والفنانين القبط وحالما استقر به المقام انشغل هؤلاء القبط فى بناء الكنائس الجديدة وتجميل القديمة . وقضى أيامه فى تفقد أبنائه ولياليه فى السهر عليهم . فأحبوه حباً جماً وأخلصوا له الولاء ومن نعمة الله أن الأنبا اسحق قضى أربعين سنة يرعى الشعب الحبشى دون أن يكل أو تفتر له عزيمة [١] .

١٧١ - ثم نقض الفرنجة عهدهم واعتدوا على قافلة للحجاج فكانت هذه الخيانه فاتحة لسلسلة من المعارك دامت خمس سنوات طلب الفرنجة فى نهايتها الصلح وأبرموا مع صلاح الدين معاهدة فى الرملة (بفلسطين) مؤداها تسليم جميع الأراضى الواقعة غربى الأردن إلى أيدى أصحابها ما عدا شريط ضيق على الشاطىء ما بين صور ويافا ، فظل صلاح الدين سيداً بلا منازع من جبال كردستان إلى صحراء ليبيا . وسارع ملك جورجيا وكاثوليكوس الأرمن وسلطان كونيا وامبراطور القسطنطينية نفسه إلى التحالف معه [٢] .

١٧٢ - ولــم تكن مقدرة صلاح الدين الحربية بالميزة الوحيدة التى رفعت مــن قدره بين شعوب هذا الشرق العريق ، بل إنه كان أول مــن فكر

---

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٣٨ - ٥٣٩ .

(٢)تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پوول ص٢٠٨-٢١١.

فى الحاق المدارس بالجوامع كما كان صاحب ذوق فنى . لأنه - حين دانت له فلسطين - أرسل مجموعة من الصناع والفنانين إلى القدس الشريف ليجددوا قبـة الصخرة [١] وبعد أن جددوها زخرفوها بالنقوش البديعة ثم لونوها باللون الفيروزى الممـوه بماء الذهب . ولا يزال جمـال هذه القبة ينطق بدقة الفنانين المصريين وحسن ذوقهم الذى توارثوه عن أجدادهم الفراعنة واحتفظوا به فى أعماق نفوسهم يبرزونه كلما سنحت لهم الفرصة .

١٧٣ - ولم يكن تجديد قبة الصخرة بالخدمة الوحيدة التى أداها صلاح الدين للقدس ، بل أنه أقام فيها مستشفى وجد فيه المرضى والجرحى من الأهلين والجنود العلاج مجاناً . وعندما زار هذه المدينة المقدسة شخصياً نزل فى دار القسوس المجاور لكنيسة القيامة . ثم رأى أن يعوض القبط عما أصابهم بعدما تبين لـه اخلاصهم فمنحهم المكـان الـذى أصبح معروفاً باسم « دير السلطان » نسبة إليه [٢] . وليس ذلك فحسب بل أنه رد إليهم كل

---

(١) يروى التقليد أن هذه الصخرة هى التى رفع ابراهيم ابنه اسحق فوقها - وبعد أجيال أصبحت ضمن هيكل سليمان . كما يروى أيضاً أن سمعان الشيخ الذى تلقى السيد المسيح على يديه فى الهيكل (لو ٢: ٢٥ - ٣٥) كان يعيش فى المغارة الواقعة تحت هذه الصخرة انتظاراً لمجيء الفادي الذى تنبأ عنه أشعياء بأنه سيولد من عذراء (٧ : ١٤) .

(٢)تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٤٩ ، مذكرة بملكية دير السلطان بالقدس للاقباط الارثوذكس أصدرها الأنبا ياكوبوس مطران الكرسى الأورشليمى فى أغسطس سنة ١٩٥٣ وأيدها الأنبا باسيليوس خليفته بمذكرة أصدرها فى مارس سنة ١٩٦١ . وقد جاء على ص١ من المذكرة الأولى ما نصه : يجدر بنا قبل استعراض الأسانيد التى تثبت ملكية القبط لدير السلطان من أن نتحرى أسباب هذه التسمية اذ لا نسبة بين « الدير » « والسلطان » إلا اذا كانت نسبة الهبة إلى الواهب . والهبة لا تأتى جزافاً بل لابد لها من حافز مثل نفع ذى صلة كصلة القربى أو صلة التبعية ، وما دام السلطان هنا هو الواهب فلا ريب إن الصلة كان أساسها التبعية أو الرعوية » وجاء على ص ٢ ما نصه : « ... وهل ننسى من حاربوا فى صفوف جيوش الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى يقول لنا التاريخ عنه أنه لما تم الصلح فى فلسطين عم السرور بين الفريقين ونادى المنادون أن البلاد الاسلامية والنصرانية واحدة فى الأمن والمسالمة ... وتوجه الملك الى القدس لتفقد أحوالها . وأقام فيها مدة يقطع الناس ويعطيهم دستوراً ويتأهب للسير إلى مصر ... » راجع أيضاً ص ٧٥٥ من المجلد =

الأماكن التى كان الفرنجة قد سلبوها منهم . وكان مسلك صلاح الدين بإزائهم على هذا النحو ناتجاً عن أن عدداً غير قليل من القبط قد رافقه فى حملته على الأراضى المقدسة : بعضهم بوصفهم كتبة والبعض الآخر عمالا وفنانـين [1] ولم يكتف بذلك بل إنه أعفـى الحجاج من الضرائب و « راعى القبط والأحباش وثبتهما فى أماكنهما لأن القبط كانوا من رعاياه والأحباش من جيرانه » [2] .

ثم حدث أن هاجر عدد كبير من الأرمن وتركوا ضمن مخلفاتهم كنيسة لهم فى الفسطاط فأنعم بها صلاح الدين على فقيه دمشقى . غير أن كاتبه صفى الدولة طلبها منه لقومه فأعطاها لهم على يده [3] .

ومما يجدر ذكره أيضاً أن الفرنجة حينما استولوا على القدس رفضوا السماح للقبط وغيرهم من مسيحى الشرق بأن يسعدوا بزيارة الأماكن المقدسة . فلما استرجعها منهم صلاح الدين فتحها مرة أخرى لهم [4] .

١٧٤ - ومما يؤسف له جد الأسف أن الحروب التى اضطر صلاح الدين إلى خوضها سنة بعد سنة قد أثرت على صحته فانتقل إلى دار الخلود بعد حكم دام أربعاً وعشرين سنة . ومن حسن حظ المصريين أن المنصور محمد اتبع سياسة أبيه العزيز عثمان وجده صلاح الدين . بل لقد كان حبه للعدالة قوياً إلى حد أنه كان يعمل جهده على غرسها فى قلب ابنه العادل الذى يبدو أنه تأثر إلى حد بعيد بالاسم الذى يحمله. فرأى أن يرفع عن المصريين

= العاشر من دائرة المعارف العمومية للبستانى ، تاريخ القدس لعارف باشا العارف ص ٧٨ ، قصة الأقباط فى الأرض المقدسة لديمترى رزق ص ١٢٣ - ٢٤٤ حيث أورد الوثائق والخطابات المتبادلة بين مطارنة الكنيسة القبطية للكرسى الأورشليمى وبين المسئولين من رجال الدين ورجال الدولة - وكلها تؤيد ملكية القبط لدير السلطان .

(١) « قصة الأقباط ... » ص ٢١

(٢) شرحه ص ٢٢ حيث يستشهد بكتاب « خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية لشحاده خورى ونقولا خورى ص ٧٨ - ٨٠ .

(٣) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ٥٤٨ - ٥٤٩ .

(٤) تاريخ القدس لعارف باشا العارف ص ٧٨ - ٧٩ ، قصة الاقباط . ص ٢١ حيث يستشهد بأبى المكارم المؤرخ القبطى الذى كان آخر ما كتبه فى سنة ١٢٠٨ .

كل ظلم ويفرح قلوبهم بالانصاف . ومن الطريف أن حسوداً أراد أن يوغر صدر العادل ضد القبط فادعى أمامه أن دير الأنبا مكارى الكبير يحوى كنوزاً ثمينة . وعندها صدر الأمر بانتداب بعض كتبة الديوان للذهاب إلى الدير المذكور والبحث عما فيه من كنوز . فلما قابل المندبون رئيس الدير عرفوا منه أن الكنوز الموجودة فيه فعلاً هى أوانى المذبح والملابس الكهنوتية فأخذوها بعد أن أكدوا لرئيس الدير أن العادل منصف للغاية . وحينما رأى الملك هذه الأشـيـاء أمر بتقييمها وعرف أنها لا تساوى غير ثلاثة آلاف دينار . فأمر بتسليمها إلى الأنبا يؤنس السادس مع الاعتذار له وتوقيع العقاب على الحسود . وحينما حاول بعض دعاة السوء اقناع الملك العادل بمضاعفة الضرائب على القبط كما فعل غيره أجابهم : « إن كان غيرنا قد ظلم فلا داعى لأن نكون ظلمة » .

ومقابل هذه العدالة النزيهة التى ملأت قلوب القبط طمأنينة نجد أن الفرنجة حينما فاجأوا المصريين بهجومهم على رشيد تقدموا إلى فوه وتحصنوا فيها . وكانت آنذاك أسقفية إذ كان عدد القبط فيها كبيراً . فأعملوا السيف فى الرقاب وقتلوا من قتلوا وسبوا من بقى حياً . ولم ينج من بطشهم إلا من استطاع الهرب . فلما وجد الأسقف نفسه وحيداً إذ لم يبق من شعبه صريخ ابن يوم واحد ذهب إلى البابا المرقسى وأعلمه بما حدث [1] (وهو المطران الذى أقيم على الحبشة كما سبق القول) .

ولم يكن بطش الفرنجة بالكارثة الوحيدة التى أصابت المصريين فى تلك الأيام بل لقد أصاب القحط بلادهم فحدث غلاء لم يسمع بمثله من قبل . فرأى عدد من الأقباط أن يهجروا مصر إلى الحبشة ووجدوا من ملكها كل ترحاب . ذلك لأن غالبيتهم كانت من أصحاب الصنائع فانتهز الملك فرصة مجيئهم وشغلهم فى بناء الكنائس وغيرها من المبانى الضخمة . وقيل أن بين من هجروا رجل من أكابر قومه اسمعه فخر الدولة ، وجد من الملك ترحيباً خاصاً ، ثم عهد إليه الملك بتنظيم مملكته وترتيب الدواوين بها وفقاً للنظام المعمول به فى مصر [2] .

---

(١) الكنيسة القبطية تواجه الاستعمار والصهيونية لوليم سليمان ص ١٦ .

(٢) تاريخ الامة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٧٨ .

١٧٥ - على أنه لما كان الكمال لله وحده كان كل ما هو انسانى يتضمن على الأقل ناحية من النقص . وفى هذا العصر حين سعد المصريون بالعدالة الشاملة أصاب القبط منهم خيبة أمل جارفة : ذلك أن المدن الخمس التى كان البابا الاسكندرى يرسم لها مطراناً قد تحول أهلها جميعاً عن دين المسيح [١] . فامتلأت نفس الأنبا يؤنس السادس حزناً على النفوس التى حفرت بينها وبين فاديها هوة سحيقة . وقد مهد هذا الحزن للمرض الذى أضعف من قوته فلم يلبث أن انتقل إلى الأمجاد السماوية بعد باباوية دامت ستاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً [٢] .

كذلك وقع حادث وإن يكن فردياً إلا أنه كان مؤلماً . ويتلخص هذا الحادث فى أن رجلاً ممن تولوا بعض مناصب الجيش استقال من منصبه رغبة منه فى الرهبنة . فترك العالم وتوحد فى صحراء جبال حلوان . وأشيع أنه عثر على كنز من أيام الحاكم بأمر الله لأنه كان ينفق المال الكثير فى معاونة الفقراء والهاربين والمستورين من القبط والمسلمين على السواء . فذاع صيته وكثر قاصدوه وبالطبع بلغ صيته مسامع السلطان صلاح الدين الذى رغب فى رؤيته فجئ به إليه . ولاطفه السلطان محاولاً أن يعرف حقيقة ما أشيع عن الكنز . إلا أن الرجل رفض أن يبوح بسره مما أغضب السلطان فشتمه وتطاول عليه بالسب ، ولكن الرجل لم يزدد إلا سكوتاً . وأشار بعض المحيطين بالسلطان بوجوب قتله خوفاً منهم على ضعاف الايمان من المسلمين وتدعم غضب السلطان بهذا الاقتراح فأمر بتعذيب الرجل إلى أن مات [٣] .

١٧٦ - وإن سجلات القبط فى القرون الوسطى - وإن تكن ضئيلة - إلا أن ما بقى منها يحوى الكثير من المعلومات الشيقة التى تفتح للباحث كوة ينفذ منها إلى رؤية بعض صور الحياة فى تلك القرون . ومن هذه المعلومات أن سيدة اسمها ترفه عاصرت الأنبا يؤنس السادس ، وكانت واسعة الثراء فبنت كنيسة أطلقت عليها اسم أبا نوفر السائح . كذلك شيدت

---

(١) كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا لزاهر رياض - ص ٦٧ - ٧٠ .

(٢) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بديره جـ ٢ ص ٤٤١ - ٤٥٤ .

(٣) أهل الذمة فى الاسلام ترجمه إلى العربية دكتور حسن حبشى ص ٢٩ .

ديراً للراهبات أوقفت عليه من الأطيان ما يكفى للانفاق عليه . ثم صرفت أموالاً طائلة فى نسخ عدد كبير من الكتب الكنسية وهبتها للراهبات ، لربح نفوسهن فحافظت بذلك على التقليد المصرى الذى جعل من المرأة « حاملة الشعلة » لتضئ الطريق أمام جميع الباحثين عن الحق [1] .

١٧٧ - ونقف مرة أخرى لنتأمل شخصية جبارة من تلك الشخصيات التى أنجبتها كنيستنا العريقة . وهذه الشخصية - رغم انتاجها الروحى الفنى - هى أيضاً ضمن الجنود المجهولين الذين لا نعرف عنهم غير أعمالهم . فحقاً أنه يجدر بنا أن نطلق على كنيستنا المصرية اسم « كنيسة الجنود المجهولين » وهذا الجندى المجهول الذى نحن بصدده هو الأنبا ميخائيل مطران دمياط فى القرن الثانى عشر . فقد كان هذا المطران يدرك أن الراعى الحق هو من يسهر على الرعية ، فلم يسهر على رعيته المعاصرة له فحسب بل سهر أيضاً على الأجيال الآتية من بعده . ذلك أنه كان فناناً كما كان مصرياً صميماً . وحين تأمل أبناءه وجد أن الكثيرين منهم يجهلون القراءة والكتابة . فأراد أن يوصل لهم بشرى الخلاص باللغة التى يستطيعون قراءتها وهى لغة الفن . فرسم تسعين صورة للبشائر الأربع . والقول بأنها تسعون إنما هو وصف اجمالى فحسب لأن كل صورة من هذه الصور التى ابتدعها خيال الأنبا ميخائيل هى مجموعة من المناظر الموضحة للعجيبة أو للمثل أو للحادثة . وذلك لكى يدرك كل من يراها تسلسل الوقائع الواردة فيها بالضبط . فمثلاً حينما أراد أن يوضح مجريات الأمور التى أدت إلى أن يقتل هيرودوس الملك أطفال بيت لحم رسم فى ركن من الصفحة صور للمجوس سائرين خلف النجم الهادى تليها صورتهم وهم واقفون فى القاعة الملكية وقد جلس هيرودوس على العرش بينما انشغل الكهنة والشيوخ فى قراءة النبوات التى تشير إلى مولد الملك المنتظر ، أما الصورة الثالثة فتبين هيرودوس وهو يعطى تعليماته للمجوس ، تتبعها صورة المجوس على الطريق خلف النجم مرة أخرى ، ثم وصولهم بيت لحم وتقديمهم الهدايا ، فعودتهم من طريق آخر ، وفى آخر هذه السلسلة من المناظر صورة جند هيرودوس يخطفون الأطفال من أمهاتهم ويقتلونهم ، ثم مجموعة من أولئك الأمهات الثكالى يبكين ويتساندن إلى شجرة باسقة بينما حمل الجند

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٤١ .

جثث أطفالهم في مقاطف ليوصلوها إلي هيرودوس. وهذه المجموعة من الصور مرسومة على الطريقة الفرعونية . أي أنها في صف واحد من غير فاصل بين الواحدة والأخرى كما أنها على مستوى واحد من غير مسطحات مختلفة ، بل إن الأشخاص جميعاً واقفون جنباً إلى جنب . ولولا أن هذه الصور مسيحية لظن من يراها أنها من العصر الفرعوني . وهذا الطراز المصري الصميم لا يتناول التصوير فحسب بل يشمل التلوين أيضاً . وهذه الصور تجتذب القلب قبل أن ترضى العين لبساطتها ودقة تعبيرها . وهي تتخلل سطور البشائر الأربع المكتوبة باللغة القبطية . وقد قضى الأنبا ميخائيل سنتين في اتمام هذه الصور التسعين لأن المخطوط الذي يشتمل عليها يحمل في آخره تاريخ سنة ١١٧٩ - ١١٨١ .

ويعد هذا المخطوط من أعظم المخطوطات أهمية لندرة البشائر المصورة في كل العالم ، ولأنه يوضح كيف أن مطراناً قبطياً في القرن الثاني عشر ظل محتفظاً في أعماق عقله الباطن بالروح الفرعونية الفنية .

على أنه من المؤلم أن المستعمرين والغزاة كانوا يسطون على تراثنا الروحي كلما سنحت لهم الفرصة . وهذا المخطوط ضمن مخلفاتنا العظمى المحفوظة الآن بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم « مخطوط قبطي ١٣ » ومن الشائع أن الملك لويس التاسع أخذه خلسة حين عاد إلى وطنه بعد أن فشل في حملته الصليبية التي وقع فيها أسيراً في أيدي المصريين سنة ١٢٥٠ م .

كذلك ترك لنا الأنبا ميخائيل عدداً من المواعظ والتفاسير للكتاب المقدس ولا تزال الرسائل التي تبادلها وأبا صالح الأرمني [١] باقية للآن - وتتعلق بشخص لابد أنه كان ذا حيثية يتذبذب بين الأرثوذكسية وبين المناصرين للمجمع الخلقيدوني .

---

(١) عثر المنقبون منذ سنوات على مخطوطة ضاعت ورقاتها الأولى ، عليها اسم « أبو صالح الارمني » ، فظنوه مؤلف المخطوطة ولكن علماء الآثار يرجحون أنه لم يكن سوى صاحب المخطوطة ، وأن المؤلف الحقيقي هو أبو المكارم المؤرخ القبطي الذي عاش في القرن الثاني عشر أيضاً .

ورغم هذه المخلفات التي تركها لنا هذا الفنان الذى حظى بكرامة الأسقفية فإننا نجهل سيرته : فلا توجد اشارة إلى تاريخ ميلاده ولا أين ترهب ولا متى نال الأسقفية « فهو جدير حقاً بالكنيسة التى خدمها »[1].

١٧٨ - ومرة أخرى نجد الحيرة تستولى علينا . فهناك كاتب ذا نزعة فكاهية اسمه الأسعد بن مماتى عاش فى عهد صلاح الدين وكانت له مكانة ممتازة جعلته منافساً لقراقوش وزير هذا الملك الكبير . وقد يدهش البعض من أن قراقوش كان وزيراً بالفعل لأن الكثيرين يتصورون أنه من الشخصيات التى ابتكرها الخيال المصرى . ولكنه كان وزيراً أضفى عليه الخيال العـدد الوفير من النوادر والفكاهات . ومن أبرز الذين ساعدوا على نشر هذه النوادر كاتب جيش صلاح الدين واسمه الأسعد بن مماتى الذى وضع عنه كتاباً بعنوان « الفاشوش فى حكم قراقوش » [2] وقد نال الأسعد بن مماتي حظوة لدى السلطان إلى حد أنه منحه رياسة بيت المال بالاضافة إلى وظيفته الأصلية وهى كاتب الجيش [3] .

وهناك رجل آخر سبق كلا من الأسعد وزكريا فى حمل لقب « ماماتى » وعاش في عصر الخليفة المستعلى . فهل هذان الرجلان من سلالته أم أنه مجرد تشابه فى الأسماء ؟ على أن هناك فرقاً بسيطاً فى هذا التشابه وهو أن الأول نال لقب « ماماتى » [4] لأعماله وهذان لقبهما . « ابن مماتى » على أية حال لقد أدى كل منهم واجبه نحو الوطن .

❖ ❖ ❖

---

(١) ذكر رينودو (الفرنسى) الأنبا ميخائيل هذا وتحدث عن تصويره للبشائر الاربع بهذه الكلمات .

(٢) يصف دكتور عبد العزيز مرزوق هذا الكتاب بكلمة « لطيف » فى كتابه « الفن الاسلامى فى العصر الأيوبى » .

(٣) رينودو ص ٣٦ - ٣٧ .

(٤) وردت سيرته في نهاية سيرة الأنبا مكارى الأول البابا الاسكندرى التاسع والخمسين بين أراخنة ذلك العصر .

ضيف منصف

١٧٩ - كانت مصر على مر العصور محط الأنظار : فكما جاءها هيرودوت وغيره فى العصور القديمة جاءها ضيوف كثيرون فى العصور الوسطى . ومن أبرز الذين جاءوها فى هذه الفترة الطبيب العالم الرحالة موفق الدين عبد اللطيف البغدادى الذى ترك لنا وصفاً مسهباً لبلادنا كما شاهدها حوالى سنة ١٢٠٠م فى كتابه « الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » . ومما جاء فى هذا الكتاب أن المصريين « يحكمون قنوات المراحيض حتى أنه تخرب الديار والقناة باقية ، ويحفرون الكتف ... وأما حماماتهم فلم أشاهد فى البلاد أتقن منها وصفاً ولا أتم حكماً ولا أحسن منظراً ومخبراً ... يصب فيها ميزابان حار وبارد وقبل ذلك يصبان فى حوض صغير جداً مرتفع ، فإذا اختلطا فيه جرى منه إلى الحوض الكبير ... وفى وسطه (الحمام) بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة ، وجميع ذلك مزوق السقوف مزخرف الجدران مبيضها ، مرخم الأرض بأصناف الرخام مجزع باختلاف ألوانه ، وترخيم الداخل يكون أبداً أحسن من ترخيم الخارج ، وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الأزاج ، جاماته مختلفة الألوان صافية الأصباغ ، بحيث إذا دخله الانسان لم يؤثر الخروج منه ...» ومن طريف ما نقرأه فى هذا الكتاب وصف البغدادى لأهم الأطعمة فقال إن القاهريين يطبخون الدجاج بالسكر ويضيفون إليه الفستق أو الجوز أو الخشخاش ويسمونه الفستقية أو الجوزية أو الخشخاشية . أما الحلوى فكثيرة ولهم مهارة فى صناعة المربى (١) .

وهكذا نجد أن عدداً كبيراً من الضيوف الذين آنسوا إلى أبناء مصر قد شهدوا بمهارتهم وبتقدمهم فى مختلف الصناعات .



---

(١) راجع تفصيلات هذا الوصف فى كتاب « القاهرة ... » للدكتور عبد الرحمن زكى ص ٨٨ - ٩٢ .

ميــــاه معــــكرة

١٨٠ - حينما انتقل الأنبا يؤنس السادس إلى مساكن النور كانت مصر على رأس الامبراطورية المترامية الأطراف التى أحرزها البطل صلاح الدين ، وكانت عشيرته منفردة بالحكم إذ قد سقط هذا العاهل النزيه فى خطأ أودى فى النهاية بأسرته . وهذا الخطأ هو أنه أقام من أولاده وإخوته وأبناء أعمامه حكاماً على جميع بلاد هذه الامبراطورية الشاسعة التى استطاع أن يخضعها لسلطانه والتى امتدت من ليبيا إلى بلا العرب . وقد اعترفت جميع هذه البلاد بزعامة مصر ولو أن الزعامة ليست درعاً واقياً ضد المحن والأهوال . فقد جاء الفيضان ناقصاً فنقص المحصول ، وأعقبه فيضان شحيح فانتشرت المجاعة . وكان الطبيب الكبير عبد اللطيف البغدادى فى مصر آنذاك ليستمع إلى بعض المحاضرات فى الأزهر ، فوصف الأهوال التى شاهدها وصفاً دقيقاً وأوضح كيف أن آلام الجوع والمرض تضاعفت بما أحدثه الأشرار من ذعر واضطراب وكأن قسوة الإنسان على أخيه الإنسان لم تكن بكافية فجاءت الصقور والضباع وبنات آوى لتملأ كيل

الأوجاع والمخاوف . وانضمت الأرض نفسها إلى القوى المدمرة المفزعة فتزلزلت زلزالاً أسقط العدد العديد من البيوت إلى حد أنه دك مدناً بأكملها وازداد الاضطراب إذ بدأ رجال الدولة الأيوبية يتشاجرون على حق الأولوية . على أنه كان بينهم رجل ثاقب البصيرة هو العادل أخو صلاح الدين الذى بذل قصارى جهده فى توحيد الصفوف وجمع الكلمة خوفاً من أن يخرق الفرنجة الهدنة . وبالفعل خرقوها ظناً منهم أنهم قد يصلون إلى هدفهم ، ولكنهم لم يحرزوا أى نصر فعقدوا الهدنة من جديد . وكان العادل سياسياً محنكاً بالفطرة يفضل المفاوضات على القتال فحظى بحليف قوى بأن منح البندقيين حق التجارة فى الاسكندرية وتسيير سفنهم فى النيل .

١٨١ – وفى سنة ١٢١٢م قرع اينوشنسيوس الثالث (الأسقف الرومانى) طبول الحرب مرة أخرى . على أن رجع صداها لم يكن سوى حملة هزيلة تعرف فى التاريخ باسم « حملة الصبية » لم تكن لها من نتيجة غير ازدحام مصر بالأسرى من الفتيان . وقد استثارت هذه الحملة التاعسة الغضب فهب عدد من الأشراف إلى الميدان وقاموا بمعارك ثلاث فشلت جميعها : أولاها كانت ضد مدينة بيسان بالأردن ، وثانيتها ضد الحصن الذى أقامه السلطان العادل فوق جبل طابور ، وثالثتها ضد بوفور . وراقب السلطان العادل هذه المعارك عن كثب ولكنه لم ينزل إلى الميدان .

١٨٢ – وبينما كان الصليبيون يقومون بهذه المحاولات الفاشلة أدركوا حقيقة عظمى : هى أنهم إن أرادوا النصر فعليهم أن يضربوا القلب – وأن قلب هذا الشرق هو مصر ، فلو أنهم نجحوا فى اخضاع مصر لسلطانهم لاستطاعوا أن يسيطروا على فلسطين من جديد ولامتد نفوذهم منها إلى جيرانها . فوطدوا العزم على مهاجمتهاوقذفوا بقواتهم على دمياط سنة ١٢١٨ م [١]. وكان هذا الميناء المصرى محاطاً بسور منيع وبقلعة منيفة – وبمركزه الجغرافى الطبيعى إذ أنه يقع على لسان وسط المياه . وكان الكامل يشارك أباه العادل السلطنة فاتخذ مكانه على الضفة الشرقية للنيل، بينما

---

(١) يؤكد هذه الحقيقة جميع من أرخوا للحملات الصليبية فقد جاء فى كتاب « لويس التاسع فى الشرق الأوسط » لجوزيف نسيم يوسف ص ٢٤ ما نصه : « ساد الاعتقاد بين أهل الغرب أنه لا يمكن امتلاك بيت المقدس والمحافظة على كيان اللاتين بالشرق العربى إلا بالاستيلاء على مصر زعيمة العالم الاسلامى ومركز امداده ومعقله المنيع » .

رابط الفرنجة على الضفة الغربية – وأعاد التاريخ نفسه إذ ربضت القوتان المتنازعتان على ضفتى النهر الخالد : تبغى كل منهما الظفر بأرض الفراعنة وانتصر المصريون فى بادئ الأمر . ولكن الامدادات المتعاقبة التى ظلت تتوالى على جيش الفرنجة أدت فى النهاية إلى سقوط دمياط فى أيدى الغزاة .

١٨٣ – وكان سقوط هذا الميناء ضربة قاصمة كسرت قلب الملك العادل فمات حزناً وكمداً . وكان قد عرف معنى المجد ، وقضى خمسين عاماً في جهاد مستمر : نصفها مع أخيه العظيم صلاح الدين والنصف الثانى بعد أن اعتلى عرش مصر . وقد منحه الله تحقيق معظم أحلامه إذ دانت له امبراطورية أخيه (ماعدا شمال سوريا) . وكانت همته عاليه وشخصيته جذابة فتغنى به الشاعر بهاء الدين زهير . ولما انتقل إلى رحمة مولاه ترك عبء القتال لابنه الكامل الذى ورث عنه مقدرته الحربية ولباقته السياسية .

وفى الفترة التى استولى الصليبيون أثناءها على دمياط لم يسيئوا إلى القبط وينكروا عليهم حقوقهم فحسب بل زادوا على ذلك بأن عينوا أيضاً مطراناً من رجال كنيسة رومية اللاتينية الغربية عن مصر جنساً وعقيدة . كذلك استباحوا خطف الأطفال من أحضان أمهاتهم ، كما استباحوا القتل بغير مراعاة لجنس أو لسن : فالشيوخ كالشبان والنساء كالرجال – من سقط منهم فى أيدى هؤلاء المنتحلين الصليب لقى حتفه . ولهذا كله يقول دكتور عبد العزيز مرزوق : « إننا كنا فى حرب ضد الصليبين أو بعبارة أوضح ضد مسيحى أوروبا الذين اتخذوا الصليب شعاراً لهم والدين المسيحى ستاراً استتروا به فى اندفاعهم إلى الشرق لتخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين . فى هذه الحرب التى كان ظاهرها الدين وباطنها الدنيا والرغبة فى السيطرة لم يتحرك من أجلها الأقباط فى مصر[١] .

١٨٤ – ولما تسلم الكامل مقاليد الحكم ، بدأ الفريقان يعززان مراكزهما

---

(١) فى كتابه « الناصر محمد بن قلاوون » ص ١٣ – راجع أيضاً « الكنيسة القبطية تواجه الاستعمار والصهيونية » لوليم سليمان ص ١٥ – ١٦ ، السنكسار الأثيوبى ... ترجمة واليس بودج جـ ٢ ص ٥١٥ – ٥١٦ .

ويزودان جيوشهما بالامدادات العديدة . وبدا كأن جيوش الفرنجة عرمرما من الصعب القضاء عليها إلى حد أن الكامل بدأ يفاوضهم فى الصلح وعرض عليهم أن يعطيهم مملكة القدس ثمناً لمغادرة دمياط . وامتلأ الفرنجة غروراً وخيلاء لهذا العرض ، وازدادوا تيهاً لشعورهم بأنهم سادة البحر وأن فى مقدورهم مضاعفة عددهم وعتادهم . فتوهموا - بهذا التيه - أنهم أصبحوا سادة هذا البلد العريق بالفعل . ودفع بهم هذا الغرور إلى رفض شروط الكامل . وعندما لـم يجد أمامه مـن سـبيل غير القتال ، وكأن لسان حاله يقول : « إذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جباناً » . واتخذ لفوره خطتين حاسمتين : أولاهما هدم الحصون المحيطة بأورشليم وغيرها من مدن فلسطين كى لا يتحصن الفرنجة خلفها ، وثانيتهما اقامة المتاريس حول قرية جنوبى دمياط لم تلبث أن أصبحت مدينة ذات شأن عظيم هى مدينة المنصورة .

١٨٥ - وقد تهيأت الفرصة أمام الكامل لتنفيذ خطته لأن الفرنجة بدأوا يتشاجرون ويناصر كل فريق منهم رئيساً مختلفاً . ولما وجدهم الملك الأيوبى لا يزالون فى تحزباتهم وانقساماتهم بعث برسله إلى أقاربه الحكام فى مختلف البلاد ليهيب بهم أن يتعاونوا جميعاً ويضموا الصفوف فى وجه الخصم المشترك . وقد استجابوا بالاجماع لندائه وسارعوا إلى تدعيم الجيش المصرى بجيوشهم . وكان المصريون يقاتلون فوق أرضهم الحبيبة ومن أجلها ، وكانوا يعرفون طبيعة هذه الأرض التى عاش فيها أجدادهم منذ عصور سحيقة فى القدم ضاع التاريخ فى متاهاتها . وكان النيل قد بدأ فى الارتفاع . ففتحوا الجسور والسدود ، وهيأوا الفرصة لنهرهم الخالد للاشتراك معهم فى الدفاع عن واديه . فلما انتبه الفرنجة من مشاجراتهم وجدوا أنفسهم محاطين بأراض قد غمرتها المياه وبخصم ساهر خلفها . ولكنهم كانوا قد رفضوا الصلح فى صلف فلم يبق أمامهم غير القتال . فلما بدأوا المعركة انقض عليهم المصريون من كل ركن وكل زاوية . ودارت الدائرة على الفرنجة الذين أدركوا بعد مضى يومين فقط على الحرب أنهم هالكون لا محالة فجاء دورهم للمطالبة بالصلح . ومع أن الكامل كان سيد الموقف فقد رأى أن التسامح خير من التشدد ، وأنه إن تعنت مع خصومه فقد يعاودون القتال للثأر . فلم يشترط عليهم غير الاجلاء التام عن مصر وتسليم دمياط لأهلها

والوعد باحترام السلام مدة ثماني سنين . وفى أسبوع نفذ الفرنجة مطالب الكامل ورحلوا عن مصر . وتبخرت أحلامهم كالفقاقيع ، وكالزبد الطافى على سطح المياه الذى لا تلبث الأمواج أن تبتلعه . وانتهى الصراع هذه المرة ببقاء النيل فى أيدى أبنائه (١) .

وهذه النهاية أبهجت القبط . « ولما رأى الملك الكامل منهم ذلك ركن إليهم وقربهم ورفع مقامهم وعمل على ما فيه راحتهم . يدل على ذلك أن بعض الأمراء قبض على بعض الرهبان وسلبهم مبلغاً من المال بحجة أنهم تأخروا فى دفع الجزية السنوية . وكان هذا المبلغ هو كل ما يملكه الرهبان فشكوه للملك الكامل فنظر فى دعواهم وأمر بارجاع المال إليهم (٢) .

١٨٦ - وبينما كانت كل هذه العوامل تتصارع لتفوز بالسيطرة على وادى النيل الرحيب كان القبط فى هم وألم . بل أن وجعهم كان أضعاف وجع مواطنيهم إذ لم يكن مجرد التوجع لما يحيق ببلادهم من خطر داهم بل امتلأت نفوسهم حسرة فوق ذلك لأن المعتدين الغاشمين كانوا يحملون على صدورهم وعلى بيارقهم شارة الصليب زوراً وبهتاناً . واستبدت بهم الهواجس إلى حد نسوا معه أن يجتمعوا للتشاور فى أمر انتخاب الخليفة المرقسى . وانصرفوا إلى الصوم ليتدارك الآب السماوى بلادهم سريعاً ويرفع الغمة عن قلوبهم . وهكذا ظل الكرسى المرقسى شاغراً زهاء عشرين عاماً .

وكان الأنبا يؤنس السادس قد تنبأ قبل نياحته بأن أوجاعاً وضيقات كثيرة ستحل بالبلاد وبالكنيسة « حتى يقيم لكم المسيح رجلاً يأتى به من حيث لا تعرفون وتكون أيامه هادية وروح الله تكون فيه » (٣).

وكان الملك الكامل بعد أن اطمأن إلى نتيجة المعارك قد خرج ذات يوم للصيد فعبر الترعة عند ابيار ورأى هناك صومعة حبيس وعندها وقف

---

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پوول ص ٢١٧ - ٢٢٤ .

(٢) الكنيسة القبطية تواجه الاستعمار والصهيونية لوليم سليمان ص ١٦ .

(٣) تاريخ بطاركة ... لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين - المجلد الثالث - الجزء الثانى - قام على نشره وترجمته أنطون خاطر وأرولد بورمستر على نفقة جمعية الآثار القبطية ص ١٢٢ .

ونادى على رجل الله وشكا إليه من وجع فى فؤاده . فصلى الحبيس على زيت وأعطاه له قائلاً « ادهن به موضع الوجع والله هو الشافى » . فلما أطاع زال وجعه لساعته فقدم له منحة وأصبحت له مكانة فى نفسه .

١٨٧ - وكان فى ديوان الملك الكامل قبطى يلقب بابن المقياط كما كان لديه قبطى آخر اسمه الاسعد بن صدقة جعله ضامناً لدار التفاح . فلما استتب السلام وبدأ المصريون جميعاً يتنسمون عبير الحرية والهدوء النفسى أدرك القبط أنهم عاشوا سنوات كثيرة من غير راع مسئول عن رياسة الكنيسة مدبراً لأمورها . على أنهم رغم طول المدة التى شغر فيها الكرسى المرقسى اختلفوا فيما بينهم عمن ينتخبون فزكى ابن المقياط الراهب داود بن لقلق وأيده بنفوذه فى الديوان السلطانى بينما رأى الأسعد بن صدقة أن حبيس ابيار أولى بهذه الكرامة العظمى . وكان الملك الكامل من مؤيدى الحبيس إلا أن ابن المقياط أفهمه بأن رجل الله لا يريد عن وحدته بديلاً . ولما كان هذا الملك لا يميل الى فرض سيطرته فى هذه الأمور اقتنع بكلام كاتبه وترك الأمر للقبط [1] . وهكذا انتهى الاختلاف إلى التركيز على داود بن لقلق وبخاصة لأن السنوات الطويلة أدت إلى أن يصبح عدد من الايبارشيات بغير أساقفة يسوسونها . فقرر المسئولون الاسراع فى انتخاب البابا تعويضاً للوقت ولكى يرسم الأساقفة اللازمين للكنيسة حرصاً على الخلافة الرسولية التى تسلمها الآباء عن مرقس البشير وصوناً للشعب المحتاج إلى الرعاة ليرشدوه ويكونوا مفزعاً له ساعة المخاوف والشدائد . وبدأوا يتشاورون فى الموضوع فاقترح بعضهم الراهب داود بن لقلق المترهب بدير القديس بقطر خارج مدينة الفيوم والمعروف بسعيه وراء المعرفة وبتفتيشه الكتب بلا فتور . وقد صادف اقتراحهم قبولاً ومن ثم ساروا به إلى الاسكندرية حيث أقيمت المراسيم الروحية التى رفعته إلى الكرسى المرقسى باسم كيرلس الثالث وجعلت منه البابا الخامس والسبعين فى سلسلة خلفاء كاروز الديار المصرية فى الثانى والعشرين من شهر بؤونه المبارك سنة ٩٤٢ ش (١٦ يونيو سنة ١٢٢٦ م) .

---

(١) شرحه ص ١٢٣ - ١٢٥ ، تاريخ المسيحية الشرقية (بالانجليزية) لعزيز سوريال عطية ص ١٩٥ .

وما أن تمت رسامته حتى ذهب لزيارة دير نهيا . وبعد هذه الزيارة قصد إلى قصر الشمع (بمصر العتيقة) فألف له شعبه موكباً فخماً تقدمه الكهنة والشمامسة فى صفوف منتظمة : كل صف يتألف من خمسين شخصاً وهم يترنمون بالمدائح والتسابيح . وقد سار معهم نائب والى مصر وسار أمامهم جميعاً حاملو الطبول والأبواق - حتى إذا ما أشرفوا على القاهرة دقوا طبولهم ونفخوا أبواقهم ايذاناً باقتراب الموكب من القاهرة . ومما زاد الموكب رونقاً الشموع الموقدة والصلبان المرفوعة على عيدان والأناجيل الملفوفة فى الابروسفارينات المحمولة على أيدى الكهنة . وهكذا شارك الوالى الشعب القبطى فى احتفائه بالبابا الجديد .

١٨٨ - وكان من الطبيعى أن يستهل الأنبا كيرلس الثالث باباويته برسامة أساقفة للكراسى الشاغرة ، وقد تخير إذ ذاك الممتازين من الرهبان لهذه الكرامة التى هى خدمة فى أسمى معانيها . وأبرز هؤلاء الآباء الأنبا بولس البوشى أسقف بابلون ، الأنبا خريستودولس أسقف دمياط ، الأنبا يوساب أسقف فوه وكاتب سير باباوات الاسكندرية ، الأنبا يؤنس أسقف سمنود المعروف بالكبير .

١٨٩ - ثم رأى أن يحافظ على صلات المودة التى استمرت على مدى الأجيال بين كنيسته والكنيسة الأنطاكية ، فبعث لبطريركها مار أغناطيوس برسالة الشركة - حيّاه فيها ثم أعلن له عن اغتباطه بوحده الايمان التى ترتبط بين الكنيستين وعن رغبته فى دوام هذه الوحدة . ثم قال لذلك رأيت أن أستعرض معك الإيمان الذى تتمسك به كنيسة الاسكندرية وأعرف منك إن كانت كنيسة أنطاكية تقره . أما الإيمان الذى تسلمناه من الآباء فهو الذى أعلنه مجمع نيقية المسكونى الأول البالغ عدد آبائه ثلاثمائة وثمانية عشر والذى صادق عليه آباء مجمع القسطنطينية المئة والخمسون المؤلفون للمجمع المسكونى الثانى وآباء مجمع أفسس المائتان وعلى رأسهم كيرلس الكبير فيلسوف المسيحية الذى رأس المجمع المسكونى الثالث . وهذا الإيمان بعينه هو الإيمان الذى جهر به بطل الأرثوذكسية الأنبا ديسقورس فى مجمع خلقيدون اللاتينى اليونانى ويهمنا أن نذكر لكم أن سلفكم العظيم البطريرك ساويرس قد جهر بهذا الإيمان بعينه ، وتحمل النفى فى سبيله ، وقد علمنا هؤلاء الآباء أن الله واحد (وحدانية الله) فى أقانيم

ثلاثة ، وأنه - تعالى - خلق البرية بحكمته وهو الذى يدير شئوننا وقد منحنا تمام الحرية لأنه لا يستبد بنا . ونحن نتمسك بهذا الإيمان ونلقنه أولادنا مغطسين إياهم فى جرن المعمودية ثلاثاً باسم الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد . ونجد اشارة لوحدة الله المثلث الأقانيم فى الاصحاح الأول من سفر التكوين حيث يقول « لنصنع الانسان على صورتنا كشبهنا »[1] وهذه الآية وردت فى أثرها الآية القائلة : « هوذا الانسان قد صار كواحد منا »[2] . وفى الآيتين نجد ضمير المتكلم في صيغة الجمع . بينما يوجه ابراهيم الحديث إلى الثلاثة الذين قابلهم عند بلوطة ممرا بقوله : « ياسيدى إن كنت قد وجدت نعمة فى عينيك »[3] . مخاطباً الثلاثة بصيغة المفرد . وهناك أمثلة عديدة وردت فى أسفار العهد القديم تشير إلى وحدة الثالوث ولكننا نكتفى بما أوردنا . أما العهد الجديد فلا يشير فحسب إلى حقيقة الله الواحد المثلث الأقانيم ولكنه يعلنها صراحة . فحينما اعتمد المخلص من يوحنا المعمدان[4] وكان صاعداً من الماء ظهر الروح القدس فى شكل حمامة ورن صوت الآب من السماء قائلاً : « هذا هو ابنى الحبيب » وهذه هى التعاليم التى تسلمها آباؤنا من رب المجد وسلموها إلينا بدورهم . لذلك يجب علينا أن نتمسك بها ونذود عنها . ومنها نعرف أن الله الآب قد أرسل ابنه الوحيد ليخلص به بنى آدم ، كما انبثق منه الروح القدس الناطق فى الأنبياء والمعلم للرسل والتلاميذ مذكراً إياهم بكل ما قاله لهم المخلص[5] . وهذا الإيمان بثالوث الأقانيم ووحدة الجوهر المقترن بما نؤمن به من تجسد الكلمة وانبثاق الروح القدس من الآب هو الذى به نتمسك هاتفين مع الأنبا ألكسندروس (البابا الاسكندرى الـ ١٩) : يا لعمق السر الذى يفوق الادراك البشرى ، الذى يقف أمامه الملائكة مبهتوين ويرتعد من عظمته الشياطين ، وتتزلزل من رهبته الأرض . هذا السر العجيب هو أن القاضى حوكم وظل صامتاً ، والقدير قبض عليه ولم يبد حراكا ، ورب الحياة ذاق الموت ودفن ليطأ الموت بموته ويقيم الموتى معه ، والهيولى اتخذ جسداً وتحمل فى جسده هذا صنوف العذاب فى صمت دون أن يجازى معذبيه ، وغير المرئى أصبح مرئياً على هذه الأرض . هذا السر العظيم

(١) تك ١ : ٢٦ . (٢) تك ٣ : ٢٢ . (٣) تك ١٨ : ٣ .
(٤) لو ٣ : ٢٣ . (٥) يو ١٤ : ٢٦ .

هو التجسد الإلهي الذى به بدا رب المجد فى صورة العبد ، فهو إذن إله متأنس جمع بين اللاهوت والناسوت بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير . لذلك نؤمن بأنه إله حق من إله حق ، وأنه نور من نور ، وهو الابن الأزلى خالق كل الأشياء وصانع العجائب ، وهو فى الوقت عينه قد ولد من السيدة العذراء ونما تدريجياً ، وعرف معنى الجوع والشبع والراحة والتعب . وهذه هى التعاليم التى نتمسك بها ونعيش بمقتضاها ونصل عن طريقها إلى عرش النعمة ... » .

« وإننا ندعو الله أن يسعدنا بصلواتكم ، ونعرفكم أن عيون أبنائنا متشوقة إلى قراءة ردكم وقلوبهم متعطشة إلى معرفة ما سيتضمنه . ونرفع جميعاً المجد والتسبيح لإلهنا - الآب والابن والروح القدس - من الآن وإلى الأبد آمين » [١] .

وقد حمل هذه الرسالة البابوية إلى أنطاكية نفر من أساقفة الكرازة المرقسية . فقوبلوا بكل مظاهر المودة والاكرام . وقد أبدى مار أغناطيوس فرحه لاستلام رسالة الشركة بأن جعلها تقرأ فى جميع الكنائس الخاضعة لكرسيه الرسولى . ثم بعث برده مبيناً فيه أن الكنيسة الأنطاكية تتمسك بالإيمان عينه وتعيش بمقتضاه فتهللت قلوب المصريين والأنطاكيين لدوام الألفة التى يدعمها الايمان المشترك [٢] .

١٩٠- ثم ذهب الأنبا كيرلس الثالث بعد ذلك إلى برية شيهيت للتبرك بزيارة دير الأنبا مكارى الكبير عملاً بالتقليد الذى سار عليه أسلافه . وقد قام هناك برسامة عدد من الكهنة والشمامسة . ثم غادر دير هذا القديس الجليل وقضى يومين في كل من أديرة هذه المنطقة المقدسة عاد بعدها إلى القاهرة .

١٩١ - ومن المؤلم أن هذا البابا الضليع فى العلوم والقوانين الكنسية

---

(١) مجلة صهيون عدد ٦ سنة ١٩٤٩ (يونيو) ص ١٦٢ - ١٧٦ نقلاً عن مكاتبات كيرلس بن لقلق - مخطوط رقم ٢٩١ لاهوت محفوظ بمكتبة الدار البطريركية بالقاهرة ص ٤٨ - ٦٠ .

(٢) « البابا كيرلس الثالث » جمعه الشماس كامل صالح نخلة وطبعه بمطبعة دير السيدة العذراء الشهير بالسريان سنة ١٩٥١ ص ٢٣ .

قد تناسى فجأة ما يحتمه عليه هذا التبحر وما تقتضيه الكرامة الكهنوتية العليا من وجوب المحافظة على الوديعة التى ائتمن عليها . فاندفع فى رسامة الأساقفة وغيرهم من رجال الكهنوت بالسيمونية بدلاً من اختيارهم لفضلهم وصلاحهم . وامتلأت القلوب دهشة وأسى ولكن الألسنة ظلت صامتة أملاً فى أن يكون الصمت أبلغ من الكلام فيرجع الأنبا كيرلس الثالث عن هذا التصرف الخاطئ . ولكن الصمت لم يجد نفعاً إذا استمر هذا البابا فى سياسته السيمونية . بل لقد أمعن فيها إذ أخذ يطالب بمبالغ متزايدة كلما سنحت له الفرصة لرسامة أى شخص .

١٩٢ - على أن السيمونية لم تشغل البابا الاسكندرى عن واجباته الراعوية ، فبعث برسالة إلى ملك الحبشة اختتمها ببركته الرسولية ، وبرسالة أخرى إلى مطران الحبشة . وهذه الرسالة الثانية لها قيمة عظمى إذ تبين مدى تبحر الأنبا كيرلس الثالث من العلوم الكنسية ومن ادراكه الواجبات الراعوية . فبعد التحية وطلب البركات الإلهية للشعب الحبشى قال للمطران : « ليحميك الله من شرين هما حب السلطة وحب المال . وليفرح قلبك بشعبك وقلوب أبنائك بك ، لكى تقف معهم أمامه عرش النعمة فى يوم الدينونة بوجه ساطع ونفس وادعة وتقول فى ملء الثقة « هوذا الأولاد الذين أعطيتنى » . ولهذا الغرض رأيت أن أكتب لك لأذكرك بما أنت عالم - أى لأذكرك بالمواظبة على تعليم شعبك ومحبتهم محبة الأب لأولاده وبمعاملتهم برفق وحنان وتواضع ورحمة لأن الرجل الجدير برياسة الناس هو الرجل الذى يحبهم إلى حد الاستعداد للموت عنهم »[(١)] .

١٩٣ - ولم ينصب اهتمام الأنبا كيرلس الثالث على الأحباش وحدهم إذ قد بعث برسالة إلى أبنائه المقيمين في دمشق أيضاً، قال لهم فيها :« لتمتلئ قلوبكم بسلام الله الذى يفوق كل عقل ، وليضئ عقولكم ويكللكم بالبهجة، وليحل عليكم ذلك السلام الذى منحه رب المجد لتلاميذه حين قال لهم : سلامى أتــرك لكم . سلامى أعطيكم »[(٢)] وليملأكم قــوة وتهليلاً . يا أولادى اذكروا على الدوام أنكــم أبناء الله ثم استرسل فى خطابه واعظاً

---

(١) « البابا كيرلس الثالث » جمعه الشماس كامــل صالح نخلة - المرجــع السابق ص ٣٢ - ٣٩ .

(٢) يو ١٤ : ٢٧ .

ومرشداً ومعلماً . فلما وصلت الرسالة البابوية قرئت فى الكتدرائية ليسمعها كل المؤمنين . وقد قدم لها القارئ بهذه الكلمات : « إليكم رسالة نبيلة من القلاية المقدسة العامرة ، فاصغوا إليها بعقول واعية وقلوب صاحية ، فهى رسالة من خليفة مارمرقس لتثبيتكم فى الايمان . وقد وصلتنا من قداسته بنعمة الله فانتبهوا لها لتعملوا بما فيها كأطفال مطيعين لنصائح أبيهم . لأنه الوكيل الأمين الذى هيأ لنا الطعام السماوى ، لذلك أنعشوا نفوسكم به لتزدادوا رسوخاً فى المبادئ المسيحية . والله تعالى يجعلكم عاملين بالكلمة لا سامعين إياها فقط ... » وقد انتبه المؤمنون إلى هذه الرسالة بقلوبهم وبعثوا إلى البابا المرقسى بالرد التالى : « ليحفظ الله كرامة القلاية الأرثوذكسية التى لمعلمنا الموقر وراعينا الساهر ، كرسى القديس مرقس الذى ملأت تعاليمه القلوب لأنها سراج موضوع على منارة ... لقد وصلتنا رسالتكم الكريمة وقوبلت بما يليق من التبجيل . وحينما قرئت على مسامعنا قرر أبناؤكم العمل بما فيها لأنها تهيئ للوصول إلى السعادة الأبدية ... وأن تلاميذ قلايتكم المباركة يرجون منكم أن تؤازروهم بصلواتكم ليجدوا بواسطتها الرحمة . وهم يطلبون إليكم أن تكتبوا إليهم ثانية وثالثة لكى يمنحهم الله تعالى الحكمة لأنكم كنتم الوسيلة لقيادتهم فى طريق الحق والحياة بما قدمتم لهم من ارشاد فى رسالتكم . وليجعل الله كلمتكم مثمرة إلى انقضاء الدهور[١] .

١٩٤ – ثم رأى الأنبا كيرلس الثالث أن واجبه لا يقتصر على الكتابة ، كما رأى أن القبط المقيمين فى فلسطين وإلى حدود الفرات فى حاجة إلى راع يسهر عليهم ويعلمهم ويثبت قلوبهم فى الشدة وفى الرخاء . فعزم بنعمة الله أن يرسم لهم أسقفاً . وقد عارضه فريق من أبنائه فى مصر بحجة أن أحداً من أسلافه لم يسبقه إلى هذا العمل . ولكنه أقنعهم بقوله إنه مادام عدد أبنائه فى الخارج يتزايد باستمرار وهو لا يستطيع افتقادهم لبعد المسافة بينه وبينهم فلا بد من رسامة مطران لهم ليفتقدهم ويرعى شئونهم . فاختار لهم راهباً ممتازاً ورسمه باسم باسيليوس وأشار عليه بأن يجعل أورشليم مقر كرسيه[٢] .

---

(١) البابا كيرلس الثالث ... ص ٥٥ – ٥٦ .

(٢) مجلة النهضة المرقســية للأقباط الأرثوذكس بالقدس السنة الأولى العدد الخامس (مايو ١٩٥٢) ص ١٥٧ – ١٥٨ .

وبعد ذلك بشهور قليلة حل الصوم الكبير . فقصد مار أغناطيوس بطريرك أنطاكية ومعه البطريرك الأرمنى إلى أورشليم لقضاء هذه الفترة المقدسة هناك . وقد استاء كلاهما فى بادئ الأمر لوجود المطران القبطى وبخاصة لأن البطريرك الأنطاكى كان حتى ذلك الوقت مسئولاً عن رعاية الأقباط فى البلاد المقدسة ، ولم يخفيا استياءهما . وكان الأنبا كيرلس الثالث قد توقع هذا الغضب فبعث بخطاب وهدايا نفيسة إلى البطريرك الأرمنى الذى رفض كليهما رفضاً باتاً ، وبعث بخطاب إلى مار أغناطيوس الذى قبله بمودة وسرور . وقد قال البابا الاسكندرى فى خطابه إلى البطريرك الأنطاكى : « كيرلس - عبد يسوع المسيح وخادم الكرسى الجليل الذى للقديس مرقس - يجدد عهد المودة المسيحية مع الأب الوقور والوكيل الأمين والعامل الكامل ... رئيس كهنة السريان القديس أغناطيوس بطريرك المدينة العظيمة أنطاكية وكل الكرازة السريانية ... يا أخى أنكم تعرفون أن الآباء قد قرروا - منذ العصور الأولى - أن تكون أورشليم مستقلة . وليس من شك فى أن الروح القدس أوحى إليهم بهذا القرار إذ رأوا بعين الايمان أورشليم وقد أصبحت محط أنظار المسيحيين جميعاً ، يتلاقى فيها اليونان والسريان والقبط . وغيرهم . وأنه لا يليق - فى هذه المدينة المقدسة - أن يتسلط شعب على آخر . كذلك تعرفون أن الراعى الحق لا يتسلط على أراض وممتلكات بل هو مرشد للنفوس . وقد حدث فى السنوات الأخيرة أن اجتاحت المجاعات مصر مما اضطر بعض القبط إلى هجرة وطنهم للسكنى فى فلسطين حيث استقروا ومارسوا تجاراتهم وصناعاتهم . وإذ قوبلوا بالترحيب والاكرام وربحت تجاراتهم قرروا الاقامة نهائياً فى هذا البلد الشقيق . وبنوا كنائس جديدة لم تكن موجودة من قبل فاحتاجوا إلى رعاة روحيين لأنه لم يكن فى استطاعة أحدهم أن يقام كاهن خارج حدود سلطة البابا المرقسى . وقد وقفت من أبنائى هؤلاء على جلية الأمر وأدركت أنهم فى أشد الحاجة إلى رعاة ، فلم يسعنى - بوصفى المسئول الأول عنهم - أن أصم أذنى عن طلبهم ورسمت لهم مطراناً لكى يرسم لهم الكهنة بدوره حرصاً على سلامتهم الروحية . وليس عملى هذا بغريب ، فأنتم لكم مطران فى مصر يرعى الشعب السريانى المقيم بيننا مع أننا جميعاً أرثوذكس ، وهذا ما يفعله البطريرك الأرمنى أيضاً ، كذلك تعرفون يا أخى أن كل راع مسئول عن رعيته أمام الله ، وأنكم لن تجيبوا عن القبط يوم أن تقفوا

أمام عرش الديان لأنهم ليسوا رعيتكم . ولما كنت مسئولاً عنهم فإننى رأيت أن أبرئ ذمتى أمام البارى فى هذا الأمر الخطير هاتفاً نحـوه تعالى « يا الله أعنى واغفر لى أثمى ... » ولقد اقتنع بطريرك أنطاكية بوجهة نظر الأنبا كيرلس الثالث ومد يد الصداقة إليه . ولكى يؤكد هذه الصداقة لشعبه وللشعب القبطى بعث برسالة إلى أبنائه أعلن لهم فيها وحدة الإيمان الذى يربط بين الكرسـيين الرسـولـيين : الاسكندرية وأنطاكية [1].

ولقد تمت رسامة باسيليوس مطراناً على أورشليم فى مستهل سنة ٩٤٧ش (١٢٣١ م) . ومذاك يتعاقب المطارنة القبط على هذه المدينة المقدسة وتتضمن رعايتهم فلسـطين والأردن وسوريا وغيرها من بلاد الشرق الأوسط (أو ما يعبر عنها بكلمة « المشرق ») .

١٩٥ - وهذه الأعمال كلها تبين أن الأنبا كيرلس الثالث كان راعياً صاحياً . ولكنه رغم هذا استمر فى سياسة السيمونية . ومن العجيب أن يدعو للمطران المرسوم على الحبشة بأن يحفظه الله من حب المال ولا يدعو لنفسه بذلك ! فحق عليه قول الشاعر :

« يا أيها الرجل المعلم غيره   هلا لنفسك كان ذا التعليم »

بل كيف استساغ هذا البابا المدرك لمسئوليته تفضيل صاحب المال على صاحب الصلاح والفضل ؟ هذه أسئلة حيَّرت المؤمنين - وما زالت تحيرهم - إذ لم يجدوا لها رداً قاطعاً . وقد حاول أصدقاء الأنبا كيرلس الثالث أن يلتمسوا له المعذرة بحجة أن الضرائب المفروضة عليه من الولاة كانت باهظة. ولكن اعتذارهم هذا واه لأن وسائل جمع المال متعددة . ولم يقتنع ضمير المسئولين من القبط بهذا العذر ، وأحسوا بالغيظ يتسرب إلى نفوسهم . فحاول الأساقفة أن يقنعوه بالعدول عن هذا الطريق المعوج ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح . وحينما رأوا الغضب الشعبى يتزايد بذلوا قصارى جهدهم فى تهدئة الخواطر صوناً للكرامة البابوية . وعلى ذلك استحسنوا أن يعقدوا مجمعاً جرياً على التقاليد القبطية التى قامت منذ العصر الرسـولى

---

(١) « البابا كيرلس الثالث » جمعه كامل صالح نخلة ص ٨٢ - ٩٠ ، قصة الأقباط فى الأراضى المقدسة لديمترى رزق ص ٢٨ - ٢٩ .

والتى تحتم أن يكون الحكم للجماعة لا للفرد . فانعقد هذا المجمع فى شهر توت ٩٤٧ ش فى القلعة (التى كان صلاح الدين قد بناها) ، وفى حضرة الوزير معز الدين . وقد حضر الأراخنة مع الأساقفة كما حضر بعض المسلمين من أصدقاء الوزير . وبعد التداول فى مسلك الأنبا كيرلس الثالث أصدر المجمع قراراً بتعيين الأنبا يؤنس البوشى أسقف بابلون وأحد أساقفة الدلتا مستشارين له ومدبرين لأموال البطريركية [١] .

١٩٦ - وكان صاحب السلطة إذ ذاك السلطان الكامل الذى أطلق حرية العبادة للمصريين جميعاً ، فسرى الشعور بالاطمئنان إلى قلوبهم . كذلك أنشأ هيئة من رجال الضبط لحراسة الطرق والموانى حرصاً على سلامة المسافرين والتجار . كما عنى بحفر القنوات واقامة الجسور لتحسين حالة الزراعة فى البلاد . وفوق هذا كله فقد بنى مدرسة ضخمة أطلق عليها اسم « المدرسة الكاملية » وجرياً على تقاليد أسرته جمع حوله عدداً من العلماء والأدباء يجتمعون به فى قصره مساء كل خميس للمناظرة العلمية والأدبية [٢] .

وحدث أن الملك الكامل كان في الاسكندرية . وفى طريق عودته إلى القاهرة ذهب إلى برية شيهيت وزار أديرة الأنبا مكارى الكبير هو وحاشيته . ورحب بهم الرهبان واستضافوهم عدة أيام بمودة واكرام . ولقد سر الملك الكامل من كل ما رأى وأحسس ، فرغب فى أن يكرم الرهبان بدوره ، وعلى ذلك منحهم ثلاثمائة أردب من القمح والشعير ومائة من الفول ومائة من الترمس . وفوق ذلك فقد أعطاهم مرسوماً يتضمن اعفاءهم من كل ضريبة وأيلولة تركة الراهب بعد وفاته إلى الدير الذى ينتمى إليه [٣] .

وفى مثل هذه الفترة من التقدير والاستقرار سادت المودة المتبادلة بين القبط والمسلمين حتى أنهم كانوا يساهمون فى حياة المسلمين الاجتماعية . ومن أروع الأمثلة على هذه المساهمة أن المسلمين فى اسنا وأسوان اعتادوا دعوة القبط فى أفراحهم وأعراسهم . فكان القبط يسيرون أمام موكب

---

(١) « البابا كيرلس الثالث » جمعة كامل صالح نخلة - ص ١٠٢ - ١٠٥ .

(٢) تاريخ مصر ... (بالانجليزية) لستانلى لاين پوول ص ٢٣٠ .

(٣) أديرة وادى النطرون (رسالة مارمينا السادسة) للدكتور منير شكرى ص ٢٨٦ .

العروس فى الشوارع والأسواق وهم يوصلونها من بيت أبيها إلى بيت عريسها وفى سيرهم كانوا يغنون باللغة القبطية الصعيدية [١]. ولا يستبعد أن هذه الأغانى التى كانوا يترغون بها كانت تتضمن ألحاناً كنسية .

كذلك أبدى المسلمون تقديرهم العظيم للأطباء النصارى ، فكانوا يطلقون على حنين بن اسحق لقب « رأس أطباء عصره » فى حين أن وهبة الله بن تلميذ كان فى رأيهم « أبو قراط عصره وجالينوس دهره » [٢] .

١٩٧ - ومن المؤلم جد الألم أن الملك الكامل كان كالنار التى لا تخلف غير الرماد لأن ابنه العادل كان شاباً مستهتراً لا يقدر المسئولية إلى حد أن الشعب ثار عليه واضطره إلى التنازل عن الملك بعد سنتين من ارتقائه . فخلفه أخوه الصالح أيوب . وكانت السنتان اللتان حكم فيهما العادل فترة من القلاقل ، ومع قصرها فقد وجد فيها الأنبا كيرلس الثالث فرصة للخروج على حكم المجمع والعودة إلى سياسته الخاطئة وهى السيمونية . فعاتبه المطارنة ورجوا منه احترام القوانين الكنسية . ولكنه لم يصغ إليهم ، فثار الشعب ثورة جارفة بقيادة راهب نزيه اسمه بطرس ابن التعبان كان يتمتع بمكانة ممتازة لدى القبط والمسلمين على السواء . فقام بحملة علنية ضد البابا كيرلس متهماً إياه بنقضه عهده . وكانت كلماته ملتهبة فاستثارت الشعب كله كما اهتز لها حكام البلاد حتى أنهم أرادوا أن يحاكموه . ولكن المطارنة أقاموا من أنفسهم سياجاً حوله ورفضوا أن يسمحوا بوقوفه أمام الحكام المدنيين حرصاً منهم على استقلال الكنيسة [٣] . واجتمعوا فى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة [٤] حيث تشاوروا معاً . وبعد التداول قصد الأنبا بولس البوشى إلى باباه ورجا منه الاعتزال فى أحد الأديرة ريثما تهدأ العاصفة فاستمع له وقصد إلى دير الشمع .

١٩٨ - على أن الذى لا مراء فيه هو أن الأنبا كيرلس الثالث كان

---

(١) « أهل الذمة فى الاسلام » ترجمه إلى العربية دكتور حسن حبشى ص ١٧٠ .

(٢) شرحه ص ١٨٢ .

(٣) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٦٠ .

(٤) الكنائس القبطية الأثرية فى مصر لبطلر (بالانجليزية) جـ ١ ص ٢٨٣ .

شخصية عجيبة ، لأنه رغم نزعته إلى السيمونية ورغم خروجه على حكم المجمع ، قد رأى أن واجبه يحتم عليه تعليم الشعب . فوضع كتاباً عن سر الاعتراف أطلق عليه اسم « المعلم والتلميذ » يتألف من اثنين وعشرين فصلاً في قالب السؤال والجواب ، بيّن فيه القيمة الروحية للاعتراف مما جعل الكنيسة تضعه ضمن أسرارها .

ولم يكتف الأنبا كيرلس الثالث بهذا الكتاب ولكنه جمع كل ما تسنى له جمعه من القوانين الكنسية الخاصة بالأسرار السبعة إذ لاحظ أن الشعب القبطى كاد أن ينسى قوانين كنيسته وأسرارها . وقد استهل غبطته هذه القوانين بالمقدمة التالية : « باسم الآب والابن والروح القدس : الله الموحد الجوهر المثلث الأقانيم ، مبدع السماوات والأرض . هذه القوانين تستهدف تثبيت المؤمنين لما يجب أن يتبعوه برعاية باباهم وأساقفتهم وكهنتهم من آباء الكنيسة المصرية . باركهم الله هم وشعبهم وكراسيهم ، وألهمهم العمل بمقتضى هذه القوانين الأبوية حفظاً للإيمان الأرثوذكسى وتقاليد الكنيسة المقدسة . وكل من يخالف هذه القوانين أو يحيد عنها فليكن محروماً من الكنيسة الجامعة مقطوعاً من جسمها بفم الثالث الأقدس : الآب والإبن والروح القدس ، وبفم الثلاثمائة وثمانية عشر المجتمعين بنيقية - بطريركاً كان أو أسقفاً ، شخصى (أنا) أو أحد أساقفتى . حمانا الله جميعاً من هذا المصير آمين ولربنا التسبيح والشكر دائماً » .

« ولقد رأيت أنا كيرلس الحقير بين رؤساء الكهنة ، المدعو بنعمة الله وتزكية السيد المسيح بطريركاً للكرسى المرقسى ، أن أوضح الواجبات الملقاة على عاتقى وعاتق الأساقفة - شركائى فى الخدمة الرسولية . فإننا جميعاً مسئولون عن التمسك بالعقيدة المقدسة التى تسلمناها من الثلاثمائة والثمانية عشر المجتمعين بنيقية بتأييد الآباء فى مجمعى القسطنطينية وأفسس إذ أنها من وحى الروح القدس . ونحن نعبر عن مسئوليتنا هذه فيما نتلوه من قداسات وشعائر ... وعقيدتنا هذه هى : أن المسيح هو الكلمة المتجسد الذى وحد بين اللاهوت والناسوت وحدة بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير ، وأنه أقنوم واحد بمشيئة واحدة . لذلك نستطيع أن نصفه بكل الصفات الإلهية وكل المميزات الانسانية . هذا ملخص عقيدتنا وحجر زاويتها . وكل من حاد عنه أصبح غريباً عن الكنيسة الأرثوذكسية » .

وبعد هذا التمهيد قسم البابا الاسكندرى كتابه عن القوانين الكنسية إلى اثنى عشر فصلاً عن انتخاب الأساقفة وتكريسهم ورسامة الكهنة ، ثم عن ترتيب الأصوام ، وعما يجب اجراؤه عند محاكمة الاكليروس وحقوق الاكليروس وواجباته

١٩٩ - ومن النقاط الشيقة فى هذا الكتاب ما جاء في الفصل الخامس إذ يتعلق بمطران غزة . فقد استهل الأنبا كيرلس الثالث هذا الفصل بقوله : « إن توقيع مطران غزة ضرورى مع توقيع الكهنة الخاضعين لرياسته ، إذ أن التوقيـع اعلان منهم بأنهم موافقون على ما قررته الكنيسة الأرثوذكسـية ، وهم ملتزمون بقانون إيمانهم ، ويرفض ما لم تقبله مجامعـها . فإن لم يقبل مطران غزة وكهنته هذا الوضع القانونى كانوا مقطوعين من جسم الكنيسة » . وإن حديث البابا الاسكندرى بهذه الصيغة يثبت لنا أن غزة كان لها أسقف معدود ضمن أساقفة الكرازة المرقسية [١] .

٢٠٠ - وانتقل الأنبا كيرلس الثالث بعد ذلك إلى الحديث عن واجبات الأسـاقفة وصـلاتهم ببعضهم البعض . ثم تحـدث عن الصبـغة المقدسـة (المعمودية) ، فالزواج والميراث والوصايا . وكان حديثه عن هذه الموضوعات مفصلاً ، فهو - والحالة هذه - صورة صادقة للعادات التى كانت شائعة وقتذاك . ثم استكمل البابا المرقسى حديثه بالكلام عن الكهنة والشمامسة ، فبين شروط انتخابهم والسلوك المثالى الذى يجب أن يسلكوه ، وصلاتهم ببعضهم البعض وبالأساقفة والشعب .

وفى النهاية لخص الأنبا كيرلس الثالث الغرض من كتاباته بقوله : « لقد جاء هذا الكتاب تلبية لرغبة الشعب وحرصاً عليه . وأن الواجب على كل مؤمن أن يطيـع ما جاء فيه . ولا حـق لبطريرك أو مطـران أو كاهن أو

---

(١) كان مطران الكرسى الأورشليمى يقال له : « مطران غزة » فى أول سنى الرسامة التى بدأها الأنبا كيرلس الثالث - راجع « تاريخ الكرسى الأورشليمى » للشماس كامل صالح نخلة فى سلسلة مقالات نشرها بمجلة النهضة المرقسية التى كانت تصدر فى عهد نيافة الأنبا ياكوبوس (١٩٤٧ - ١٩٥٧) والنقطة المشار إليها وردت فى العدد السادس من السنة الأولى الصادر في القدس في يونيو ١٩٥٢ ص ١٨٩ .

علماني أن يحيد عنه لأى سبب . وكل من خالفه تعرض للعقاب . وإننا نضرع إلى إلهنا الذى وعد أن يكون معنا إلى الانقضاء وأعلن أنه فى وسط اثنين أو ثلاثة مجتمعين باسمه ، وأعطى رسله السلطان أن يحلوا ويربطوا ، نسأله أن يعيننا ويهدى خطواتنا وينير بصائرنا - جميعاً - رعاة ورعية . له المجد الدائم من الآن وإلى دهر الداهرين . آمين » [1] .

« نقلت هذه النسخة عن القوانين التى وضعها لنا الرسل المباركون والآباء الأبرار ، وعن التعليمات التى أذيعت من حين إلى حين بنياناً للمؤمنين والله يبارك المطارنة والكهنة والمؤمنين الخاضعين لرياستهم » .

« ولقد وافق إخوتنا المطارنة على هذه النسخة ووقعوا عليها فى العشرين من شهر توت المبارك سنة ٩٥٥ للشهداء الأطهار ، لتحل علينا بركاتهم بنعمة الله ، والمجد لربنا الذى يمنحنا الفهم » .

٢٠١ - ولقد دامت باباوية الأنبا كيرلس الثالث سبع سنين وتسعة شهور أثبت فيها أن الحياة لا تقاس بالدقائق والساعات ، ولا حتى بالشهور والسنوات . وإنما تقاس بالجهد والعمل . لأنه رغم سياسة السيمونية قد أنتج فى هذه السنوات القصيرة ما لا ينتجه غيره فى ضعف هذه المدة [2] .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) « البابا كيرلس الثالث » جمعه الشماس كامل صالح نخلة ص ١٠٢ - ١٠٥ .

(٢) « تاريخ البطاركة » مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البراموسى ... جـ٢ ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .

حمــــلة الشعلة

(أ) شخصيــة مغناطيسية

٢٠٢ - كان السلام مستتباً فى القرن الثالث عشر . فاستمتع القبط بما ساد من طمأنينة واستقرار ، واستطاعوا أن ينتجوا فى العلوم والفنون . فظهر فى هذا القرن عدد غير قليل من العلماء والفنانين الذين وجدوا الفرصة سانحة للتعبير عما فى نفوسهم من ملكات . ذلك لأن النفس الآمنة من الخوف والاضطهاد والحرب تستطيع أن تسعى وأن تعبر دون قلق . لذلك استرسل القبط فى التعبير عما يحسون من اندفاعات فنية وعلمية وسبروا غور الأبحاث الروحية والفلسفية [١] .

٢٠٣ - ومن أبرز المفكرين فى هذا العصر الأنبا بولس البوشى أسقف بابلون الذى ترهب فى أحد الأديرة الواقعة بمنطقة الفيوم واشتهر بين الجميع بالعفاف والاخلاص للكنيسة العريقة والتفوق فى البحث العلمى . وكان متوقد الغيرة متفانياً فى الخدمة ، فصبغت غيرته كتاباته بالقوة حتى أن خطبه كانت تلهب الأفئدة فتفعل فيها فعل السحـر كذلك كان راهباً حكيماً

(١) « البابا كيرلس الثالث » جمعه كامل صالح نخلة ص ١٣ ، أما الأب يعقوب مويزر (الهولندى) فيصفه كما يلى : « رجل نزيه ، محب لشعبه ، بعيد عن الأهواء الحزبية ، لا يعرف غير مصلحة الكنيسة ورفع شأنها ، عالم جليل طويل الباع فى المعارف الدينية ... كاهن تتقد فى قلبه غيرة الرسول بولس ، مفسر قدير على شرح الأقوال الإلهية والتعليق عليها ، كاشفاً غوامضها ومفصلاً لمشكلاتها ، خطيب دينى مصـقع يرفع القلوب النافرة إلى المعالى ويلهبها ، مجادل ماهر ذو ذهن وقاد ، قوى الحجج ، وردوده أشبه بالخمسة الحجارة المكساة فى جراب داود الغلام عند مبارزته جليات الجبار راجع « صور من تاريخ القبط » مطبوعات جمعية مارمينا العجايبى - الأسكندرية ١٩٥٠ ص ٢١٣ .

متزناً عرف كيف يصارع نفسه ويخضعها لإرادته . فلما خلت السدة المرقسية بانتقال الأنبا يؤنس السادس كان ضمن المرشحين لها . على أنه آثر أن ينعزل ويترك الميدان لحرصة على كرامته الكهنوتية وعلى هدوئه النفسى اللازم لتأملاته وصلواته .

ويجهل التاريخ كل شئ عن طفولته وشبابه كما يجهل يوم انتظامه فى سلك الرهبنة . والمتداول بين معاصريه أنه رسم قساً في الدير الذى ترهب فيه . وفى الفترة التى كانت المشاورات دائرة حول من يستحق أن يكون خليفة لمارمرقس ظل منزوياً فى ديره مشتغلاً بالعلم والصلاة ، زاهداً فى كل رياسة . فبرهن بمسلكه هذا على حرصه على سلام الكنيسة . وكان صديقاً صدوقاً للراهب داود بن لقلق ، وظل على صداقته بعد ارتقاء صديقه السدة المرقسية . بل إن ولاءه لهذا البابا الاسكندرى كان خالصاً إلى حد أنه كان يناصره حتى فى الآونة التى كان الشعب يثور فيها عليه كما كان يقف إلى جانبه ليسدى إليه النصح ويذود عن كرامته بالعمل على تهدئة خواطر الثائرين من الشعب .

٢٠٤ - وكان تقدير الأنبا كيرلس الثالث لصديقه بالغاً دفعه إلى أن يرسمه أسقفاً على بابلون ليكون إلى جانبه . ولقد أدرك الأنبا بولس البوشى عظيم الأمانة التى استودعها إياه باباه ، فجاهد لحفظ كرامة الكهنوت فى كل المناسبات ، كما عكف على تعليم الشعب ورعايته فى تواضع . وقد عرف الشعب فضائله . فلما انعقد المجمع للتداول فيما يجب اتخاذه بإزاء سيمونية الأنبا كيرلس الثالث ، اختار الأنبا بولس البوشى واحداً من المطرانين المسئولين عن الشئون الادارية في الكنيسة .

٢٠٥ - ولقد انشغل الأنبا بولس البوشى أيام أن كان راهباً فى الدير بتأليف الكتب ومن حسن الحظ أن كتبه لا تزال جميعها موجودة ، ولو أنها لا تزال مخطوطة مع الأسف الشديد لم يطبع منها واحد للآن ! وبعض هذه الكتب يعالج فيها الموضوعات اللاهوتية : ١ - رسالة عن « الأدلة العقلية التى توصل إلى معرفة الإله المتأنس » ، وقد استهدف من هذه الرسالة توضيح سر التجسد فقال « إن هذا السر وإن يكن فوق الادراك إلا أنه من الممكن أن يلمح العقل قبساً منه عن طريق التأمل والتفكير العميق والمنطق المسلسل » . لذلك جنّد كل الحجج التى تعلمها عن الآباء ونظمها بشكل

منطقى متتابع تدعيماً للإيمان بتجسد ابن الله من السيدة العذراء . وهذا البحث لا يزال محفوظاً فى مكتبة بودليان بجامعة أوكسفورد رقم ٣٨/٥. وهناك مجموعة من المخطوطات محفوظة بمكتبة البطريركية القبطية بالقاهرة بعنوان « مجموعة الابحاث الدينية » تحـوى مقالاً موضوعه « كتاب التجسد » وقد يكون هذا الكتاب ملخصاً للنسخة الأولى ، إذ أن المخطوطين مهملتان لم يتناولهما البحث للآن ! وهذه المجموعة الموجودة فى القاهرة يرجع تاريخها إلى القرن الخامس عشر مما يدل على أنها منقولة عن الأصل ، ولو أن ناقلها مجهول . فالقول بأنها ملخص للمخطوطة المحفوظة بأكسفورد إنما هو مجرد استنتاج . ٢ - كتاب عن العلوم الروحية - والنسخة المتضمنة لهذا البحث محفوظة بمكتبة دير السيدة العذراء الشهير بالسريان بوادى النطرون رقم ٣٧/ ٤ . وهذه المخطوطة تتألف من ٣٤٧ ورقة ، والتاريخ المكتوب عليها هو سنة ١٥٦٧ ش - (١٨٦٠ م). ومعنى هذا أن القبط عنوا بكتابات الأنبا بولس البوشى حتى القرن التاسع عشر - أى بعد انتقاله من هذا العالم بستة قرون على الرغم من أنه لم يكن لديهم مطبعة حتى ذلك الوقت . أما الآن والمطابع متوفرة لديهم فلا توجد نسخ متداولة من كتابات هذا الأسقف البحاثة !

ولم يكتف الأنبا بولس بما وضع من كتب ، بل أراد أن يدعم مكانة الأنبا كيرلس الثالث بأن آزره فى السهر على تعليم الشعب وذلك بمعاونته فى وضع كتابه : « المعلم والتلميذ » . وكانت مساهمة الأنبا بولس هى أنه جمع كل ما كتبه آباء الكنسية القبطية عن سر الاعتراف ووضع ملخصاً لها . وقد أوضح هذا الملخص أن الاعتراف بالخطايا - على من منحهم المسيح له المجد سلطان الحل والربط - إنما هو طب روحى ، وأن أبا الاعتراف طبيب روحى هدفه ابراء النفوس العليلة مما تشكو من أسقام واعادة الصحة لها . لذلك سن الآباء أن يعرف الأب الروحى شخصية المعترف ليقدم له الدواء الذى يفيده شخصياً والذى قد لا يفيد غيره . ولقد صادف هذا الكتاب من الرواج ما جعله ينتشر بين جميع طبقات القبط . كذلك عنى كل دير بنقل نسخة منه والاحتفاظ بها لخير الرهبان . وجميع هذه النسخ المنقولة محفوظة فى الأديرة ، كما أن المكتبة البطريركية تحوى نسخة أيضاً . على أنه رغم وجود نسخ مخطوطة متعددة من هذا الكتاب فلا توجد نسخة مطبوعة اطلاقاً !

٢٠٦ - وهنا يحق لنا أن نتساءل عن السبب فى هذا الاهمال - فإن كان القبط لا يزالون يتصفون بالميل إلى الروحيات كأسلافهم - فلماذا لا يطبعون كتب آبائهم ؟ لقد عنوا بنشر كتب الأنبا بولس البوشى حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وتداولوها فى وقت لم تكن لهم مطبعة . أما الآن وعندهم المطابع العديدة فأنهم لا يتناقلونها . ومثل هذا الوضع يستدعى التساؤل ... أما أن القبط لا يزالون ذوى نزعة روحية فهذه حقيقة لا شك فيها تبدو لكل من يرقبهم فى نواحى نشاطهم المتعددة . فالقوى الداخلية لم تتغير وإنما تغيرت المؤثرات الخارجية . ذلك أن الدعايات التى روج لها الغرب بينهم والتى سرت فيهم سريان السموم حولتهم عما كتبه آباؤهم ليكتفوا بقراءة الكتب الدخيلة زعماً منهم أنها أحدث عهداً وأقوى منطقاً فهى التى تروى ظمأهم . على أنه رغم ما فعلته هذه الدعايات المغرضة المضللة فى بعض الأحيان فإن فجراً جديداً قد انبثق على الكنيسة العتيقة ، إذ قد استيقظ الوعى القومى واستيقظ معه الاعتزاز بتراث الآباء والأجداد وبوجوب المحافظة عليه .

أما كتاب « المعلم والتلميذ » التى انشغل البابا كيرلس الثالث والأنبا بولس البوشى بوضعه فهو مأخوذ عن كتاب « الرؤوس » الذى لا نزال نجهل واضعه . ويبين هذا الكتاب أهمية « المعلم الروحى » أو « مرشد الضمير » الذى يقود تلميذه بعيداً عن الأمواج المتلاطمة والتيارات العنيفة ويصل به إلى ميناء السلام والاستقرار .

٢٠٧ - ومن الموضوعات التى شغلت القبط خاصة والشرقيين عامة موضوع المصير المحتوم والحرية الانسانية ، وكان هذا الموضوع الشغل الشاغل للمفكرين - وعلى وجه التحديد - المفكرين الذين عاشوا ما بين القرن العاشر حتى القرن الرابع عشر . ولما كان الأنبا بولس البوشى مرشداً للنفوس ، فقد رأى أن يدرس هذا الموضوع درساً وافياً من الناحيتين : العقلية والوجدانية . ثم وضع كتاباً ضمنه بحثه هنا ، وانتهى فيه إلى أن الله تعالى هو الذى منح الانسان الحرية ، فحق على الانسان أن يعمل بهذه الحرية التى هى منحة إلهية متوخياً رضى الله الذى منحه هذا الحق .

٢٠٨ - وإلى جانب هذه المؤلفات اللاهوتية والفلسفية فقد وضع الأنبا بولس تفسيراً لسفر الرؤيا فإن هذا السفر كان - ولا يزال - مثيراً للفكر .

فحاول الآباء فى مختلف العصور أن يسبروا غور تشبيهاته واستعارته ، وأن يستشفوا المعانى الكامنة خلفها . ومن أقدم المخطوطات التى تعالج هذا الموضوع مخطوطة باللغة القبطية بلهجتها الصعيدية رقم ٢٨ محفوظة بمتحف بيير بونت مورجان بنيويورك (ورقمها فى الدليل هو ٥٩١) يرجح أن كاتبها هو الأنبا كيرلس الكبير (البابا الاسكندرى الـ ٢٤) . وتدل هذه المخطوطة على مدى اهتمام آباء الكنيسة المصرية بسفر الرؤيا . فالأنبا كيرلس الكبير قد عاش فى القرن الخامس ، بينما عاش الأنبا بولس البوشى فى القرن الثالث عشر ، وخلال القرون الثمانية التى تفصل بين هذين الحبرين فى الزمن لا فى الفكر حاول غيرهما أن يوضح سفر الرؤيا الذى يبدو أنه خلب ألباب المفكرين من الآباء على مدى الأجيال . والتفسير الذى قدمه بولس البوشى لهذا السفر الساحر يضعه فى مرتبة أعاظم المفكرين من آباء الكنيسة المصرية . فحافظ بذلك على صيت الكنيسة ومكانتها العلمية فى عصر يصفه المؤرخون ضمن العصور المظلمة .

٢٠٩ - وهناك موضوع آخر لا يزال أرضاً بكراً للمشتغلين بالدراسات القبطية ، وهذا الموضوع هو الاهتمام البالغ الذى كان يبديه القبط والمسلمون على السواء بالأمور الدينية . ولعظم عنايتهم بهذه الأمور كانوا يجتمعون معاً ليتناقشوا ويتناظروا . كذلك كتبوا الرسائل العديدة فى الروحيات . وفى هذه الرسائل نجد المسلم يلقب « بالسائل » لأنه يطرح الأسئلة وإذا لم يقتنع برد من الردود اتخذ منه سؤالاً جديداً . بينما يوصف القبطى « بالمجيب » إذ عليه أن يعطى اجابة صريحة واضحة . ومن الطريف أن المناظرات كانت تقام دائماً بأمر السلطان وفى حضرته . وإلى جانب هذه الاجتماعات الرسمية التى يدعو إليها صاحب الحكم فى مصر ، كانت هناك مداولات ودية ، إذ كان المتصوفة من المسلمين يسألون إخوتهم القبط عن أسرار ايمانهم ، فيسارع القبط إلى الاجابة عليهم . وإن الاطلاع على ما كتب فى هذه الموضوعات ليشبع النفس إذ يعرف القارئ مدى تعمق القبط فى دراسة دينهم وحسن دفاعهم عنه . ولقد كان بولس البوشى من أبرز « المجيبين » الذين أنجبهم القرن الثالث عشر . ومما يروى عن هذا الاسقف أنه دعى ذات يوم هو والأنبا كيرلس الثالث للمناظرة أمام السلطان الكامل بن العادل أيوب . وقد أعجب هذا السلطان بما قاله كل من البابا والأسقف

فقامت بينه وبينهما صلات متينة من المودة ولقد استجاب الأنبا بولس البوشي لرغبة الشعب فوضع كتاباً بعنوان « كتاب المناقشات » لا تزال نسخة واحدة منه باقية للآن . ويتضمن هذا الكتاب أبرز الأسئلة التي وجهها إليه المسلمون والأجوبة عليها .

٢١٠ - على أن الأنبا بولس لم يكتف بهذه الأبحاث إذ قد وضع ميامر خاصة بالأعياد السيدية [١] ومن حسن الحظ أنه يوجد عدد غير قليل من النسخ لكل ميمر ولكنها جميعاً محفوظة في الأديرة . وقد نشر القس منقريوس عوض الله هذه الميامر السيدية في سلسلة مقالات في مجلة تعاليم الكنيسة التي كان يصدرها ثم جمعها كلها في كتاب قائم بذاته . ولكي يرى القارئ كيف أن آباء القرون الوسطى سبروا عمق الروحيات بنفس الأغوار التي سبرها آباء القرون الأولى ، ولكي يدرك بهذه الرؤيا أن الكنيسة القبطية أنجبت المفكرين الروحيين في مختلف العصور سواء منها العصور التي يصفها العالم بأنها « عصور ذهبية » أو تلك التي يقولون عنها بأنها « عصور مظلمة » نورد للقارئ بعض سطور من ميمر البشارة (وهو أول عيد سيدي كبير) ثم من ميمر العنصرة (وهو سابع الأعياد السيدية الكبرى وآخرها) . قال بولس البوشي : « .... نؤمن أن الكلمة مولود من الآب ميلاداً أزلياً لا بدء له ، وقد شاء أن يتجسد من القديسة البتول مريم من بيت داود من سبط يهوذا من زرع ابراهيم لكيما يستطيع العالم مشاهدته ولكي يخلص الشبه بشبهه [٢]. فأرسل أمامه رئيس ملائكة مقدس للبشارة منذراً بأن المتجسد هو الرب لأنه حيث يكون السيد الملك السماوي هناك يكون خدامه العلويون الروحيون » .....« تفسير اسم جبرائيل في اللغة العبرانية رجل الله ،وهو سر التجسد لأن الإله متحد بالانسان بالتجسد العجيب » [٣].« .... لما دخل عليها الملاك قال لها افرحي يا ممتلئة نعمة الرب معك . أعطاها الملاك سلاماً من الله مملوءاً فرحاً

---

(١) هي الاعياد الخاصة بالسيد المسيح له المجد كعيد الغطاس مثلاً - راجع ص ٥١٠ - ٥١١ من الجزء الثاني لهذا الكتاب .

(٢) علق جناب القس منقريوس على هذا التعبير بقوله : « أي أن أقنوم الابن اتخذ شكل الانسان بتجسده لكي يخلص الانسان بآلامه وهو حامل شكل الانسان » .

(٣) أي أن معنى اسم جبرائيل « رجل الله » يشير صراحة إلى التجسد الذي جمع بين اللاهوت والناسوت

ليزيل حزن حواء » ... « قال لما سمعته اضطربت من كلامه وفكرت قائلة ما هذا السلام ، أعنى أنها لم يكن لها مخاطبة أحد لأنها تربت فى الهيكل فى ستر وسكون عابدة الله ليلاً ونهاراً . ثم أن الانجيل أظهر فضلها فى كونها لما اضطربت من صوت الملاك لم تدع عنها التحفظ الذى ألفته والسكون الذى تربت فيه . ولم تصرخ ولم تدفع كلامها بالجملة بل فكرت فى نفسها لا غير ... » فصرفت أشواقها للرب . وتاقت للقول الذى أخبرها به الملاك ... وأجابته قائلة هأنذا أمة للرب فليكن لى كقولك ، وعند قولها هذا للتو حل فيها شمس البر . لأنه لم يرد أن يغضب الطبيعة التى أعطاها تخيير الإرادة وسلطة الحرية منذ البدء حتى طلبت هى ذلك أولاً بشهوة من الله من تلقاء الروح ... »[(١)] .

هذه مقتطفات عابرة من الميمر الخاص بالبشارة أما عن العنصرة فقد جاء فى الميمر ما يلى : « ... وهكذا نؤمن أن الثالوث الأقدس لاهوت واحد لأن الله موجود ناطق حى سرمدا . فإذا قلنا الله فإنما نقول الآب والابن والروح القدس لأن الخواص لا تزيد عن ذلك ولا تنضم أقل من هذا ... وقد شبهوا هذا الاتجاه بنار وحرارة متولدة منها ونور منبعث . فالنار واحدة والخواص ثلاثة لجوهر النار الواحد ... وحيثما يوجد اللهيب يوجد معه دائماً الحرارة والنور ، وان كان القياس ليس هو كالمقاس به فى كل أنحائه وإنما يراد به وجه واحد لا غير . لأنه لو كان القياس لا يخرج عن المقاس بشئ فى كل أنحائه كان إذن هو الشئ نفسه الذى يراد به القياس . فالثالوث يتعالى عن كل التشبيهات لكمال خواصه ... وإن قال قائل لما أثبتم أن الله متكلم حى والكلمة والحياة قديمان معه فأوجبتم لكل صفة أقنوماً فهو إذن سميع عليم بصير ، فى حالة الأزلية والقدم فأوجبوا لهذه الصفات أقانيم زد عليه قائلين إنما الكلمة والحياة صفتان ذاتيتان وأما غيرها فهى أفعال صادرة عن الصفات لأنه لا يكون واضع الناموس إلا متكلم ولا يأمر وينهى إلا ناطق ولا سميع عليم إلا حى . فيصد عنه لهذه الصفات وغيرها لافتعالها منه ... » .

---

(١) علم الآباء منذ العصور الأولى بأن التجسد تم فى اللحظة التى سلمت فيها العذراء تسليماً كاملاً للبشرى الإلهية ووافقت بفرح وشوق روحى على حلول الكلمة المتجسد فى أحشائها : فالتجسد إذن لم يتم غصباً فى الطاهرة مريم بل تحقق برغبتها وحريتها .

وبعد أن تحدث الأنبا بولس البوشى عن عمل الروح فى الأنبياء أشار إلى ما قيل من أن « الروح القدس الذى كان على ايليا تضاعف دفعتين على أليشع تلميذه »(١) ثم تساءل : « كيف يفسر ذلك وايليا إلى اليوم الأكبر من اليشع ؟ فاعلم إذن أن الكتاب لم يقل شيئاً باطلاً وإنما تضاعف الروح فى فعل الآيات . ذلك أن ايليا صنع سبع آيات مشهورة وصنع اليشع أربع عشرة آية معلومة . وقد أقام ايليا بصلاته ميتاً واحداً وأقام اليشع اثنين . إلا أن فعل الآيات ليس كما يشاء النبى بل كما يشاء الروح الفاعل فيه »(٢) .

« .... ولنختصر الآن فى فعل الأنبياء ونتكلم فى فعل الروح القدس مع الرسل الأطهار ونبين ما هو التفاضل الذى بينهم وبين الأنبياء . فنقول إن أولئك كانوا يتكلمون حين حلول الروح القدس عليهم بما هو مزمع أن يكون ، وأما الرسل فكان الروح حالاً فيهم دائماً مستمراً ، ذلك لأنهم تقلدوا تدبير كل المسكونة بالبشرى الانجيلية والتعليم والتعمير ووضع يد الرئاسة وفعل الآيات ...» ، « ... والروح القدس .... هو المتكلم عن الآب الآخذ مما للابن المرشد إلى الحق الناطق فى الناموس والأنبياء والرسل والقديسين جيلاً بعد جيل بلا انقضاء ... هو فصاحة الرسل الأطهار فى النداء بالبشرى ... فقال عنهم خرجت أصواتهم فى كل الأرض وبلغ كلامهم أقطار المسكونة »(٣) .

« هؤلاء الرسل الجميلون فى انذارهم بالخيرات العتيدة كما تنبأ أشعياء قائلاً : ما أجمل أقدام المبشرين بالخيرات . الينابيع الحلوة التى أخبرنا بها موسى أول الأنبياء قائلاً أنهم لما عبروا بحر سوف نزلوا على اثنى عشر عين

---

(١) ٢ ملوك ٢ : ٩ .

(٢) أورد الأنبا بولس البوشى مختلف الآيات المعبرة عن عمل الروح القدس ، وإليكم بعضها : تك ١:٢-٣ ، ٣:٦ ، ٣٨:٤١ ، خر ٢:٣١-٥ ، عـد ٢٩:١١ ، تث ٩:٣٤ ، اصم ٦:١٠ ، ١٤:١٣:١٦ ، أش ٢:١١ ، ١٦:٤٨ ، ٢١:٥٩ ، ١:٦١ ، حـز ٢٤:١١ ، ٢٥:٣٦-٢٦ ، ٤:٣٧ ، دا ٢ : ٢٧-٢٨ ، ٤٥:١٣ ، ميخا ٨:٣ ، حج ٥:٢ ، مت ١١ : ٢٧ ، ٣:١٥ ، ١٧:١٦ ، يو ٣٧:٦ ، ٤٤ ، ٦:١٤ ، ١٦ ، ١٥ : ٥ ، ١٦ : ٥ ، ١٣ ، ١٢:١٧ ، ٨:٣ ، أع ١٥:٩ ، ٢:١٣ ، رو ٦:١ ، ٢٣:٨ ، اكو ١٠:٢و١١ ، ٣:١٢ ، غلا ١٥:١ ، أف ٣:٢-١٤،١ تى ١٥:٦ ، عب ١٢:٤ .

(٣) مز ١٩ : ٤ .

ماء وسبعين نخلة [1] ، اشارة إلى الاثنى عشر رسولاً والسبعين تلميذاً الذين منهم استقى العالم التعاليم الروحانية ... نجدهم فلاحين لأنهم نقوا أرض قلوبنا وزرعوا فيها الزرع الإلهى . نجدهم سقاة للمسيح الملك لأنهم سقوا نفوسنا من ماء ينبوع الروح القدس . نجدهم كرامين لأنهم تعبوا وعملوا فى كرم نفوسنا . نجدهم خاطبين لأنهم خطبوا نفوسنا نقية للختن السمائى المسيح . نجدهم شفعاء عنا عند المسيح . نجدهم الذين أعطوا الحياة للبشر فى بشرى الإيمان وصبغة المعمودية ... قد سر الرب الإله أن لا يكون المبشرون باسمه فلاسفة من حكماء هذا العالم لأنهم لو كانوا كذلك لكانت أقوالهم متناقضة بعضها من بعض . كما نجد أقوال الفلاسفة الواحد يبطل قول الآخر ويزدرى به ويعظم نفسه ... » .

كذلك قام بعض آباء دير السيدة العذراء الشهير بالسريان (بوادى النطرون) بطبع سلسلة من ميامر الآباء ، من بينها الميمر الذى كتبه هذا الآب الساهر عن القيامة المجيدة ... ولقد قسم الآباء ميمره هذا إلى قسمين :ا- تأملات في القيامة ، ب - شرح حوادثها . أما القسم الأول فيتضمن : ١ - أعطنى فهماً ونطقاً ، ٢ - لأقول ، ٣ - آدم ونسله ماتا موتين ، ٤ - الخلاص ، ٥ - بكر الراقدين ، ٦ - فلنسرع مع هؤلاء فرحين . أما الجزء الثانى فيشمل : ١ - الزلزلة والحجر المختوم ، ٢ - الملاك المخيف المفرح ، ٣ - تدرج معقول ، ٤ - إخوتى ، ٥ - متى أولاً ثم يوحنا ، ٦ - ثم لوقا ومرقس ، ٧ - تلخيص ، ٨ - لماذا أكل المسيح بعد قيامته ، ٩ - حنان الأم ، ١٠ - لمن ظهر الرب أولاً بعد قيامته ؟ ، ١١ - وقدس الرب هذا اليوم المبكر ، ١٢ - ما معنى « استراح الرب » فى السبت ؟ ١٣ - كيف نحفظ هذا اليوم ، ١٤ - تعب صومكم [2] .

٢١١ - ورغم هذه المؤلفات كلها فإننا نجهل سيرة هذا الأسقف العظيم جهلاً تاماً ، فهو أيضاً ضمن جمهرة الجنود المجهولين . ولكن ما الذى يهم ؟ ألا يكفيه فخراً أنه حمل الشعلة أمام الجميع ؟

---

(١) خر ١٥ : ٢٧ . ولعل فى هذه المقتطفات القصيرة ما يستثير القارئ إلى المزيد فيسارع الى اقتناء هذه الميامر وغيرها فى نصها الكامل كى تمتلئ روحه نشوة من هذه التعاليم الروحية العميقة .

(٢) ميمر القيامة نقلها آباء دير السيدة العذراء الشهير بالسريان باختصار عن الميمر العاشر (مخطوطة رقم ٢١٤ - ميامر وعظية) تم طبعه بمطبعة الدير فى أبريل سنة ١٩٥٦ .



قطعة من الخزف الاسلامى عليها رسم من صلب السيد المسيح
(بدار الاثار العربية رقم ١٣١٧٤)

الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الاسلامية - وهى محاضرة ألقيت في قاعة الجمعية الجغرافية فى ١٠ فبراير سنة ١٩٣٧ ونشرت بعد ذلك فى مجلة جمعية محبى الفنون القبطية (الآثار القبطية حالياً) لنفس السنة (المجلد الثالث) ص ١-١٩ . (من القرن الثالث عشر) .

(ب) صانع السلام

٢١٢ - جندى مجهول آخر

٢١٢ - وثمة أسقف آخر حمل عبء المسئولية مع الأنبا كيرلس الثالث والأنبا بولس البوشى هو الأنبا يوساب أسقف فوه الملقب بابن المبارك وهو أيضاً واحد من أولئك الجنود المجهولين - المعروفين لأنه معروف بكتاباته وبأسقفيته . ولكن متى ولد ؟ وأين ؟ ومن أبواه ؟ وما هى البيئة التى شب وترعرع فيها ؟ هذه الأسئلة وغيرها الكثير لا نعرف الاجابة عنها حتى الآن وإلى متى سيظل مجهولاً ؟ لا نعرف ذلك أيضاً . أما ما نعرفه فهو أنه قضى سنى رهبنته فى دير الأنبا يؤنس ببرية شيهيت وأنه كرس نفسه خلالها للتعبد والدراسة ولخدمة إخوته الرهبان فأحبوه وانتخبوه وكيلاً لديرهم ، وأنه كان يشغل هذه الوكالة حينما ذهب الأنبا كيرلس الثالث ليكرس الميرون فى دير الأنبا مكارى الكبير . وقد أغضب هذا البابا مجمع الرهبان يومذاك لأنه أضاف إلى القداس جملة لم تكن موجودة فى الأصل . فسعى وكيل الدير إلى تهدئة خواطرهم ونجح فى احلال الصفاء بينهم وبينه . وقد أعجب به الأنبا كيرلس يومذاك وقدره إلى حد أنه رسمه أسقفاً عندما خلا كرسى فوه . وبعد سنوات - لما اجتمع المجمع لينظر فى أمر البابا كيرلس الثالث لاتباعه خطة السيمونية - كان الأنبا يوساب ضمن من حضروا المجمع وكان مناصراً للشعب فرجا البابا أن يعدل عن خطته .

كذلك كان الأنبا يوساب ضمن من ساهموا فى انتخاب الأنبا أثناسيوس الثالث .

هذا كل ما نعرفه عن حياة هذا الأسقف الذى كتب سير البطاركة الاسكندريين وغيره من الكتب التى تبحث فى تعاليم الكنيسة . ولا تزال مؤلفاته متداولة بين القبط . وأن كتابه عن البطاركة لسفير قدير إلى قومه ينبئهم بمجد تراثهم الكنسى القومى ويستحثهم على السعى ليكونوا جديرين به [١] .

---

(١) « البابا كيرلس الثالث » جمعه كامل صالح نخلة . ص ١١٩ - ١٢٠ .

(جـ) قادة الفكر

٢١٣ - عمل الانسان يساوى اسمه ويعرفنا بشخصه .
٢١٤ - خدام امناء .
٢١٥ - الجهود لحفظ اللغة القبطية .
٢١٦ - اخوة اربعة .
٢١٧ - مؤلف مابين القرنين الثالث والرابع عشر .

٢١٣ - كان الأنبا بولس البوشى واحداً من المفكرين العديدين الذين ازدان بهم القرن الثالث عشر : أدركوا مسئولياتهم الجسام . فلم يرضوا أن يحفظوا معلوماتهم لأنفسهم بل أرادوا أن ينشروها لفائدة الأجيال الآتية من بعدهم . وقد عالجوا مواضيع متباينة كالنحو والقانون والأدب ، والعلوم واللاهوت . ولكنهم - هم أيضاً - ينتظمون فى سلك الجنود المجهولين إذ أن مؤلفاتهم باقية فى حين أن تاريخهم مجهول - اللهم إلا بعض شذرات لا تطفى غلة . فيمكن تشبيههم بيوحنا المعمدان حينما أجاب سائليه عن اسمه بقوله « أنا صوت صارخ فى البرية - أعدوا طريق الرب »[١] فهم - لكونهم مجهولون - يعلنون لنا جهاراً أن عمل الانسان ، يكفى ليدلنا على شخصه فالذى يزرع نخلة يهيئ ثمرها للعدد العديد من الناس فيخدمهم بعمله وإن يكن مجهولاً منهم . هكذا الحال مع هؤلاء الخدام الأمناء للكنيسة وللبلاد . ويمكن لمن يقرأ كتاباتهم أن يترك لخياله العنان فيصورهم كما يشاء له خياله وبذلك يكون تاريخهم رحلة من المغامرة فى أغوار الماضى . ولقد أنار هؤلاء المفكرون الطريق أمام رجال القرن الرابع عشر الذين جاهدوا بدورهم فحفظوا الشعلة متقدة .

٢١٤ - ومن حملة الشعلة خلال العصر الأيوبى عدد غير قليل وصلتنا أسماؤهم ولو أنه لم تصلنا سوى لمحات عنهم مع أن الكثير منهم شغل مناصب هامة فى الدولة ومن هؤلاء . الشيخ ابن أمين الملك بن المهذب أبو سعيد يوحنا الاسكندرانى - كان شاعراً رقيق التعبير سلس المعانى ، وكان معاصراً للأسعد صليب بن ميخائيل الذى كان بحاثة كما كان يعمل بلا هوادة فرمم دير مارمينا بفم الخليج بعد حريق الفسطاط وبنى إلى جانبه مدرسة ومنتدى علمى ، وإلى جانبه وقف أمين الدولة ابن المصوف الذى كان

---

(١) مت ٣ : ٣ .

أميناً على أموال الحكومة فى أيام صلاح الدين كما كان أميناً لكنيسته فأنفق المال الوفير على تجديد كنيسة الأمير ثيئودورس (تادرس) وعلى ترميم عدد من الأديرة التى وقف عليها بعض الأراضى أيضاً ، الشيخ الثقة جبريل - كان من كبار القبط واشتهر بتجديد جملة كنائس كان الأكراد قد خربوها ، والشيخ شرف الرياسة سعيد بن هبلان ، كان كاتب الجيش فى خلافة العاضد وتولى الكتابة فى حكم صلاح الدين . وقد رمم بيعة أبى السيفين بمصر القديمة وجعلها بناءاً باذخاً ، الأسعد ابن أبى سعيد الملقب بشرف الدين أبى المكارم الذى كان من أبرز الكتاب نظماً ونثراً والمعروف عنه أنه وضع ما يربو على عشرين مؤلفاً من بينهم كتاب التاريخ الذى نسب خطأً إلى أبى الصالح الأرمنى . وقد ذكر البعض عنه أنه لما توفيت زوجته ترهب فى أحد الأديرة ، أبو اليمن بن البزار اهتم بتجديد الكثير من البيع والأديرة فى منطقة الجيزة ، أبو الفتح ابن الأقمص المعروف بالحوفى الذى كان مصوراً ماهراً زين جدران كنيسة الزهرى (التى تلاشت) بأيقونات لمختلف القديسين ، أبو الفتح الصعيدى القس العالم نسخ الكثير من الكتب ووقفها على الكنائس والأديرة التى ساهم فى ترميمها أو تجديدها أبو الفرج بن ميخائيل كان رئيس الديوان أيام الملك العادل ، أبو الفضائل بن أبى الليث جدد عدداً من الكنائس والأديرة ووجه عناية خاصة بترميم المنظرة العجيبة المشيدة فى دير يوحنا المعمدان ، أبو الفضل بن فروج أنفق المال الوفير على تجديد الكنائس وتزيينها حتى لقد جعل كنيسة أبى جرج (مارجرجس) آية فى الجمال وعامرة بالمصلين ، أبو الفرج بن أبى اليمن كان كاتباً لوالى القاهرة أيام الملك العادل وقد وجه عناية خاصة إلى كنيسة السيدة العذراء التى كانت بجهة العدوية ، وكانت هذه الكنيسة آية في الجمال تحوى أيقونات بديعة كذلك اهتم بكنيسة أبى قلته ووسعها وزينها إلى حد أنها أصبحت بطريركية . بل لقد هدم بعض أملاكه المجاورة لها ليجعل أمامها ساحة فسيحة . أبو مشكور وأبو منصور - وهما المهندسان اللذان وضعا تصميمات قلعة صلاح الدين وشيداها كما حفرا البئر الملحقة بها المعروفة ببئر يوسف وقاما ببناء الجسور وحفر الخلجان والترع . ولقد كافأهما السلطان على ما أديا من خدمات فصرفا المال على ترميم الكنائس والأديرة ، أبو المنصور بن بولس انشغل برفع شأن مدرسة القاهرة فازدهرت وتخرج منها الكثير ممن اشتغلوا كتبة فى بلاط السلاطين . وكانت

هناك منطقة بالقاهرة تعرف بأرض الحبش بها دير كان أصلاً للنسطوريين فلما تسلمه القبط وجه أبو المنصور هذا عناية خاصة إليه . وقد شاركه في هذه العناية الشيخ المكين أبو البركات المعروف بابن كثامة الذى وقف أرضاً واسعة على الدير عينه ، الخطير بن أبى قدامة كان من أبرز العلماء وأرق الشعراء حتى لقد ذكره الأصفهاني وذكر الكثير من شعره ، ومن أجمل ما ذكره الأبيات التى كتبها الخطير فى كتمان السر وهى :

و أكتم السر حتى عن اعادته إلى المسير من غير نسيان
و ذاك أن لسانى ليس يعلمه سمعى بسر الذى قد كان ناجانى

ابن أبى يوسف اشتهر بعلمه وفضله وتقلد المناصب العالية حتى لقد لقب بالشيخ مصطفى الملك وقد اهتم بترميم الأديرة وببناء الكنائس ، الأسعد بن صدقة : كان كاتباً لدار التفاح فى عهد الملك العادل ، الشيخ أبو سعيد بن جبرائيل : المعروف بابن الأعرج كان واسع النفوذ فى ديوان السلطان ، الشيخ علم الرياسة ابن الصغر : من أبرز الذين خدموا السلطان الأيوبى وقد أنفق كل ثروته على الكنائس والأديرة ، فلما انتقل إلى دار البقاء دفنه السلطان على نفقته الخاصة ورتب معاشاً لأرملته ، الشيخ السديد أبو الفضائل المعروف بابن ستمائة : كان كاتب الأمير على بن أحمد الكردى وأميناً على خزانته وأمواله وقد جدد بناء كنيسة أبى السيفين والعمارة المقامة إلى جانبها لتصلح أن تكون مقراً باباوياً كما عمر كنيسة الملاك ميخائيل بمصر القديمة وجدد غيره من كنائس المنطقة ، الشيخ أبو سعيد بن أندونه : كان مستوفياً بالديوان العادلى الخاص كما كان كاتباً ماهراً ورجلاً خيّراً وقد جدد ما تهدم من كنيسة الملاك غبريال بمصر القديمة واشترى الساحة التى أمامها وفتح الطريق الموصل إليها ، الشيخ الأسعد أبو الفرج صليب بن ميخائيل كان صاحب ديوان الملك الصالح القس بطرس السندمنتى الذى ترك لنا كتاباً يبحث فى أعماق الروحيات عنوانه : « التصحيح فى آلام السيد المسيح » . وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٥٨٨ ش (١٨٧٢ م) وقد جاء فى آخره ما يلى : « تم طبع هذا الكتاب الجليل بأمر غبطة السيد الأب كيريو كيرلس الخامس بطريرك الكرازة المرقسية المائة والثانى عشر وبتصحيح سيادة أبينا الفاضل الأغومانس محب الله فيلوثاوس رئيس الكنيسة الكاتدرائية المرقسية بالأزبكية . (الحمد لله دائماً) » .

ويتضمن هذا الكتاب مقدمة وبابين . والباب الأول يشتمل على :«مفهوم كتاب التصحيح » وهو عشرة أمور أحدها ايراد النص الانجيلى ، وثانيها حل النص بما يمكن من أقسام التفسير ، وثالثها احضار الأدلة الشرعية الموافقة لاثبات ما ادعى من التفسير ، ورابعها تلخيص جملة الأقسام فى قسم واحد، وخامسها ايراد ما يمكن الخصم ايراده من الأشكال والاعتراضات بما يمكن وردها بالقياس إلى مقدم التأويل ، وسادسها وسابعها تعنيف الخصوم ودحض دعواهم ، وثامنها إثبات الحق اثباتاً لا يشوبه خلل ، وتاسعها ترجيح بعض الأدلة على بعض بالقياس إلى كونه أنسب إلى النص ، وعاشرها ايراد ما يليق ايراده من التهذيب الموافق لمتقدم النص والتأويل . أما الباب الثانى فتتممه للأول ويبدأ بالحديث عن مخلصنا الحبيب حينما أوصى تلاميذه الثلاثة بأن يصلوا في البستان ثم ابتعد عنهم قليلاً وجثا على ركبتيه وأخذ يصلى - ثم كرر عمله ثلاث مرات وفى كل مرة عاد إلى تلاميذه وجدهم نياماً . وينتهى بالحديث عن عدد المرات التى ظهر فيها رب المجد لتلاميذه بعد قيامته وقبل صعوده [1] .

❖ ❖ ❖

رسالة دكتوراه أمام جامعة ليون

عن القس بطرس السدمنتى

بطرس السدمنتي هو أحد الكتاب والمؤلفين الذين زودوا مكتبتنا الدينية والكنسية فى القرن الثالث عشر بالعديد من النفائس وكان راهباً فى دير مارجرجس بسدمنت الجبل بمحافظة الفيوم ،وهو واضع كتاب (التصحيح فى آلام السيد المسيح) . والفضل فى معرفتنا بهذا الكتاب يرجع إلى المطبعة التى أحضرها أبو الاصلاح القبطى الأنبا كيرلس الرابع ، فكان بين المخطوطات القليلة التى طبعت بها ومما يدعو إلى الأسف أننا ما زلنا نجهل الشئ الكثير من تراث آبائنا والقس بطرس السدمنتى له أربعة عشر مؤلفاً . وهذه المؤلفات مبعثرة بين

(١) النسخة التى هيأت لى النعمة الإلهية قراءتها موجودة بمكتبة كنيسة مارمرقس بحدائق شبرا وهذه الكنيسة تابعة لجمعية أصدقاء الكتاب المقدس .

المكتبة الأهلية بباريس ومكتبة الفاتيكان ومكتبات بعض أديرة لبنان . أما الذى عنى بالبحث عنها والتنقل بين هذه المكتبات وهذه البلدان ليخرج تلك الكنوز إلى عالم النور فهو أحد المستشرقين (الراهب الجزويتى بطرس فان أكبرج) جزاه الله خيراً .

ولعل مجهوده هذا ، يحفز أبناء الكنيسة القبطية على البحث عن الحلقات الأخرى فى سلسلة كتابنا فى هذا القرن (الثالث عشر) ، وخصوصاً الرهبان الذين قد تسمح ظروفهم بالاطلاع على مكتبات الأديرة ، ولهم أن يتقدموا بنتيجة أبحاثهم إلى المعهد العالى للدراسات القبطية ، فنسمع عن رسالات دكتوراه فى ذلك تقدم إليه ، ويتبع ذلك طبع هذه الرسالات فنقرأ عن كنوز كثيرة فى تراثنا الروحى ، هى غذاء دسم للنفوس ، لا يعلم جيلنا المتعطش إلى الروحيات شيئاً عنها ، وهى كتب يجد فى بطونها حياة » .

دكتور منير شكرى

عن جريدة وطنى الصادرة فى يوم الأحد الموافق ٢٦ يناير سنة ١٩٦٩ .

بطرس بن الثعبان الراهب – وكان يلقب بالشيخ السنى . ترهب وعاش بكنيسة السيدة العذراء بالمعلقة (بمصر القديمة) . وقد اشتغل بالكتابة وكان أستاذاً لأولاد العسال [١] ، أبو البشر يوحنا الذى اشتغل بالكتابة هو أيضاً وكان رئيساً على بيت أولاد العسال ، أبو المعالى ابن شرافى من كبار رجال الحكومة فى أيام الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وسليل عائلة نبغ عدد من رجالها . وقد اتخذ صلاح الدين ابن أبى المعالى كاتب سر له وأمنّه على أسراره وقدره حتى أنه منحه لقب الرياسة والشرف فصار معروفاً باسم الشيخ الرئيس صفى الدولة ابن أبى المعالى [٢] أبو الخير الطيب الذى كان كاهناً وطبيباً معاً . ثم عين كاتب سر للأمير القاضى الفاضل وزير

---

(١) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس جـ ١ ص ٣١، ٣٢، ٣٦، ٣٧، ٤٥، ٥٩، ٦٠، ٦٥، ٦٩، ٧٤ .

(٢) « تاريخ الأمة القبطية » ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٨٣ – ١٨٦ .

السلطان عثمان صلاح الدين . وقد كتب هذا العلامة الذى جمع بين كرامة الكهنوت والطب وخدمة الدولة عدداً من المؤلفات منها « تنوير العقول » و « خلاصة معتقد الملة المسيحية » و « الرد على طائفتى الاسلام واليهودية من موضوعاتهم وأصول مذاهبهم » و « رسالة البيان الأظهر فى رد من يقول بالقضاء والقدر » [1] .

وفى هذه السطور القصيرة تتلخص حياة رجل كان من غير شك ذا شأن عظيم فى عصره إذ قد خدم فى ميادين اللاهوت والعلم والسياسة . فى حين أن غيره ممن خدموا تتلخص حياتهم فى سطر واحد . ومن يدرى كم من الخدام الأمناء لم يذكرهم التاريخ حتى بهذا السطر الواحد ؟

٢١٥ - كذلك بدأت المجهودات فى سبيل المحافظة على اللغة القبطية ابتداء من القرن العاشر ولكنها كانت وقتذاك مجهودات فردية لم يتردد صداها ولم يتجاوبها الترديد . لأن اللغة كانت حتى ذلك القرن لا تزال متداولة ولم تكن العربية قد حلت محلها ، كما لم يكن ليدور فى خلد أحد أن التداول باللغة القبطية سينتهى بعد قرون قصيرة . على أن اللغة العربية أخذت تتسرب إلى الأوساط القبطية تدريجياً حتى كادت تغرقها . وعند ذاك خشى المفكرون أن تضيع نهائياً . فأخذ عدد من أراخنة القرن الثالث عشر يفكرون فى وضع المعاجم والكتب الخاصة بقواعدها . وكانوا فى تلك الفترة يكتبون العربية بالحروف القبطية إذ قد بدأوا يحلونها محلها . والكتب التى وضعها هؤلاء الأراخنة تعرف بالمقدمات . أما معاجمهم فاسمها « السلالم » . ومع أنه قد انقضت سبعة قرون منذ أن ظهرت هذه المقدمات والسلالم إلا أنها ما زالت المرجع الذى يعتمد عليه المشتغلون باللغة القبطية وبدراستها حتى الآن .

أما كتب القواعد التى وصلت إلينا عن رجال القرن الثالث عشر فهى :

١ - « مقدمة » للأنبا يؤنس السمنودى - وكان فى طليعة الأساقفة الذين رسمهم الأنبا كيرلس الثالث .

٢ - « مقدمة » لابن كاتب قيصر الذى نال أبوه لقب « الأمير علم

---

(١) دائرة المعارف القبطية - لرمزى تادرس - جـ ١ ص ٧٤ .

الدين» لما كان يتمتع به من نفوذ سياسى . أما عنوان المقدمة التى وضعها فهو « التبصرة » إذ كانت تتضمن تفسيراً تفصيلياً لقواعد اللغة القبطية . وتوجد نسخ عديدة من هذه المقدمة ، وأقدم هذه النسخ موجود فى مختلف المكتبات الأوربية كالمكتبة الأهلية بباريس - ولقد صاغ ابن كاتب قيصر اللغة القبطية التى كتب بها فى قالب صحيح فصيح يبين للقارئ أنه متبحر فى كل من القبطية والعربية .

ولم يكتف ابن كاتب قيصر بالكتابة عن اللغة القبطية بل وجه انتباهه أيضاً نحو العلوم الدينية فوضع تفسيراً لانجيل متى ، أعمال الرسل ، رسائل بولس ، الكاثوليكون (أى رسائل بقية الرسل) ، ثم سفر الرؤيا .

كذلك توجد بدار الكتب (بالقاهرة) نسخة هى الترجمة العربية للبشائر الأربعة وهى مخطوطة ومقيدة تحت رقم ٩٧ لاهوت كتب عليها : « أنها منقولة من نسخة الرئيس الفاضل ابن كاتب قيصر » [(١)] .

٣ - الأسعد أبو الفرج بن العسال - وهو أحد أربعة إخوة [(٢)] - أنتجوا العدد الوفير من الكتب العربية . ولا تزال ميامرهم تقرأ فى المواسم والأعياد . وقد وضع أبو الفرج « مقدمة » ثم ألهب قلب صديقه الراهب القليوبى ليكتب هو أيضاً . وكان القليوبى هذا أبناً لكاهن وحفيداً لكاهن . فلم يكتف بكتابة « مقدمة » عن اللغة القبطية بل ترجم المزامير أيضاً من القبطية إلى العربية ونشرها باللغتين ، كذلك شجع أولاد العسال الكثير من الكتاب ، ومن الأدلة على هذا التشجيع نسخة محفوظة بمكتبة المتحف القبطى تتضمن البشائر الأربعة باللغة القبطية ، تزين أول كل بشارة رسوم هندسية رائعة ملونة بماء الذهب . وقد جاء فى آخر هذه النسخة عبارات قبطية وترجمتها هى « كتبه الناسخ الراهب القس غبريال فى بيت

---

(١) كتاب تفسير رؤيا القديس يوحنا اللاهوتى لابن كاتب قيصر - عنى بمراجعته ووضع حواشيه القمص أرمانيوس حبشى شتا البرماوى المترهب بدير السيدة العذراء الشهير بالسريان . نشرته جمعية المحبة القبطية بالقاهرة سنة ١٩٣٩ - المقدمة .

(٢) كتب دكتور جراف المستشرق الألمانى مقالاً ضافياً عن هؤلاء الاخوة نشره فى « اوريونتاليا روما » سنة ١٩٣٢ جـ ١ نبذة ١ ، ٢ ، ٣ .

الأرخن المكرم الأمجد ابن العسال الذى أقام به عشر سنوات فى سوريا وبابلون - وقف على الكنيسة المعلقة [1] .

٤ - كتاب يتضمن نقداً وتكملة للكتب السالفة كلها وضعه أسقف دمياط الذى كان ضمن من حضروا المجمع المقدس للنظر فى أمر الأنبا كيرلس الثالث .

٥ - الأنبا أثناسيوس أسقف قوص [2] الذى جاء من بعدهم مباشرة ورأى أن يحذو حذوهم فى سبيل الاحتفاظ باللغة القبطية فوضع «مقدمة» باللهجتين البحيرية والصعيدية جعل عنوانها « قلادة التحرير فى علم التفسير » ، على أنه لما كان رجل دين فإنه وجه اهتماماً خاصاً نحو التعاليم الكنسية ، فوضع كتاباً عن الأحوال الشخصية وآخر عن تقديس الميرون . ومن الشيق أن كتابه هذا غير قاصر على الشعائر الدينية ، إذ قد تضمن وصفاً تفصيلياً للرحلة من القاهرة إلى وادى النطرون لأنه كان قد اشترك مع باباه فى تأدية هذه الشعائر بدير الأنبا مكارى الكبير عملاً بالتقاليد الكنسية القديمة . ومن حسن الحظ أن كتابه لا يزال موجوداً وهو محفوظ بالمكتبة البابأوية القبطية بالقاهرة [3] .

٦ - وقد عاصر الأنبا أثناسيوس أسقف قوص مؤلف واسع المعرفة عميق التفكير والبحث هو أبو شاكر بن الراهب أبو الكرم بطرس بن المهذب شماس كنيسة السيدة العذراء الشهيرة بالمعلقة . كتب كتاباً مستفيضاً بعنوان « الشفا فى كشف ما استتر من لاهوت سيدنا المسيح وما اختفى » . ونظرة - ولو عابرة - تكفى للدلالة على عمق أبحاث هذا الشماس ومدى تأملاته . فلقد قسم كتابه هذا إلى ثلاثة أصول : الأصل الأول يتضمن نبوات الأنبياء ، الفاتحة من بولس الرسول، رؤى ثمانية :الأولى رؤيا أشعياء النبى ، الثانية رؤيا حزقيال النبى ، الثالثة رؤيا دانيال النبى ، الرابعة رؤيا ابراهيم الخليل ، الخامسة رؤيا يعقوب ، السادسة رؤيا موسى النبى فى

---

(١) دليل المتحف القبطى لمرقس سميكة جـ ١ ص ٤٢ - ٤٣ ، وراجع أيضاً « مرشد المتحف القبطى » لوديع شنودة ص ٨١ حيث أورد النص القبطى تليه ترجمته .

(٢) كان هذا الأسقف ابناً لقسيس غرب قمولة ، وقد ترهب قبل رسامته أسقفاً بدير الشهيد مار بقطر السحروانى - أنظر دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس جـ ا ص ٩٥ .

(٣) مخطوط رقم ١٠٦ طقس .

حوريب ، السابعة رؤيا شعب إسرائيل على الجبل ، الثامنة رؤيا موسى كليم الله عند أخذألواح الجواهر المكتوبة باصبع الله، النتيجة تصريح الأنبياء بأن الله يظهر بين الناس ويمشى علانية ، ونبوتهم بحقيقة أزلية لاهوت سيدنا المسيح وحقيقة بشريته . ثمراتها تسع وعشرون ثمرة ، عدد فصولها مائة وستة وخمسون فصلاً ؛ الأصل الثانى يتضمن الأقوال الانجيلية ، الفاتحة من الانجيل المقدس، الرؤى خمسة : الأولى التجلى، الثانية العماد ، الثالثة المشى على المياه ، الرابعة الصلب ، الخامسة القيامة ، السادسة اظهار ألوهية المسيح وحقيقة بشريته المتحدة بلاهوته ، ثمراتها ستة عشر ثمرة ، فصولها ستة وتسعون فصلاً؛ الأصل الثالث يتضمن الأقوال الرسولية، الحواريون الأطهار وتلاميذ ربنا يسوع المسيح له المجد ، الفاتحة قول الرسول بولس الرؤى خمسة : الأولى الصعود ، الثانية انتخاب سيدنا لشاوول ، الثالثة صعود بولس إلى السماء الثالثة ، الرابعة رؤيا اسطفانوس ، الخامسة شهادة يوحنا والنتيجة حقيقة ألوهية سيدنا المسيح وحقيقة بشريته ، ثمراتها ست عشرة ثمرة ، فصولها ماية وتسعة وثلاثون فصلاً ، الخاتمات الأولى اثبات حدوث القديم فى المحدث ، أربعة فصول . الثانية الاستدلال على سبب التجسد وهو اثنا عشر دليلاً وأيضاً شرح المزمور الرابع والأربعين . وقد مهد أبو شاكر لكتابه بمقدمة فى سر التوحيد والتثليث .

ونورد هنا بعض ما جاء فى الكتاب للدلالة على عمق الروحيات التى سبرها هذا المفكر الروحانى . فمثلاً قال : « ... ومن أشعياء النبى - هوذا يتزل من سمائه على سحابة مسرعة فيدخل إلى مصر ويضرب أوثان مصر ... هذه النبوة تمت على مصر وسقوط الأوثان بدخول سيدنا المسيح إلى أرض مصر مع مريم أمه ويوسف فأبطل الأوثان منها » ... « صلاة حبقوق النبى على مجئ مسيح الله - يارب سمعت صوتك فخفت . تأملت أعمالك فبهت ... التفسير اليهود يظنون أن هذه النبوة تدل على خلاصهم من بابل لكنها تدل على أحوال المسيح سيدنا وعلى هلاكهم بعده من ملوك الروم والدليل على ذلك قول النبى لأن الله قد أنبأنى وأرانى يوم النصر الذى يقبل على الشعب ...وقول النبى سمعت صوتك فخفت أشار إلى صوت المسيح سيدنا على عود الصليب ، وقوله تأملت أعمالك فبهت أشار إلى تدبيرات الصلب والآلام والموت والقيامة والصعود التى تفوق كل عقل

وتدبير ... وقوله يعلمونك فيما بين حيوانين دل على رفعته على عود الصليب بين اللصين . فبقوله يا رب أعترف بلاهوته الأزلى وبقوله بين حيوانين اعترف ببشريته المتحدة به .... وقول داود [1] ارتجت الشعوب وهزت الأمم بالأباطيل - نبوة على شعب اليهود والأمم الذين قاموا على سيدنا المسيح وقاوموه لأنه الرب ومسيحه : فهو الرب من حيث هو الإله كلمة الله وهو مسيحه من حيث مسح [2] لاهوته لناسوته ... وقوله أنت ابنى أنا اليوم ولدتك دل بهذا على أزلية الوالد لأن يوم الرب ليس له ابتداء ولا انتهاء ... » ، وقول ملاخى ها أنذا أرسل ملاكى ويسهل الطريق أمامى وبغته يأتى إلى هيكل الرب - أنظر وتأمل أن النبى لما فرغ من ذكر الرسول وتسهيل الطريق أمامه ذكر مجئ ملك العهد الجديد الذى هو سيدنا المسيح ...» ، « لأشعياء النبى فى ظهور المعمودية [3] ...وحسن ها أنذا صانع مغوثة جديدة تظهر ولا تعلموها ... ويكرمنى وحش الصحراء - أشار بالمغوثة الجديدة إلى المعمودية وبالوحش إلى الأمم الخارجة ... »[4] .

هذه أمثلة قليلة جداً من هذا الكتاب الروحى العظيم . ومع ضخامة الجهد الذى بذله أبو شاكر فإننا نجهل كل ما يتعلق بحياته . كذلك وضع كتاباً عن حساب الأبقطى أوضح فيه القواعد التى قامت عليها مواعيد الأعياد القبطية والتاريخ المسيحى ، وله - عدا هذين الكتابين - كتاب التواريخ ويشتمل على تاريخ الآباء الأولين والقضاة والملوك وميلاد السيد المسيح و خراب أورشليم ، وتاريخ الخلفاء الراشدين وبنى أمية والعباسيين والفاطميين والأيوبيين ، ثم تاريخ بطاركة الاسكندرية من مارمرقس إلى البطريرك السادس والسبعين. وتوجد نسخة من هذا الكتاب بمكتبة الفاتيكان

(١) المزمور الثانى .

(٢) المعنى هنا من المسحة المقدسة التي كانت تستعمل قديماً لمسح الملوك والأنبياء والكهنة ثم تحولت فى العهد الجديد الى مسحة لها صلواتها وشعائرها .

(٣) الإصحاح الثاني عشر .

(٤) هذا الكتاب طبع على نفقة القمص جرجس بمطرانية بنى سويف والراهب بدير القديس أبو يحنس كامل الشهير بالسريان - طبع بمطبعة رمسيس بالفجالة بمصر فى أيام الأنبا ايساك مطران كرسى البهنسا وبنى سويف وباباوية الأنبا كيرلس الخامس . ومع أن هذه الطبعة قد نفذت فإن أحداً لم يعدها مع الأسف لأن هذا الكتاب ثمين للغاية يوضح الكثير من النبوات الخاصة برب المجد .

مع ترجمتها اللاتينية . وقد نشر المستشرق الفرنسى شابيا النص العربى الأصلى مع ترجمته اللاتينية [1] . وله أيضاً كتاب فى قواعد اللغة القبطية قال فى التمهيد له أنه استقاه من أربعة وعشرين مصدراً من بينها مصدران هما « مقدمة » أسقف سخا وأخرى لابن الرجال . ومما يؤسف له جد الأسف أن التاريخ يجهل كل شئ عن هذين المؤلفين كما يجهل من هو ابن الراهب هذا . على أنه يوجد بالمتحف القبطى كتاب مخطوط يتضمن أعمال الرسل والرسائل فى نهرين : عربى وقبطى ، والصفحة الأولى من كل رسالة مزينة برسوم هندسية ومحلاة بماء الذهب . وفى أول الكتاب هذه العبارة : « اهتم به شاكر بن الراهب ، كتبه غبريال الراهب ... » والجزء الأول لهذا الكتاب - وهو البشائر الأربعة - محفوظ بمكتبة المعهد الكاثوليكى بباريس [2] .

٢١٦ - أما المعاجم فقد ظهر منها فى ذلك العصر مخطوطان أولهما للأنبا يؤنس الذى سبق ذكره فى الحديث عن المقدمات ، وثانيهما لأبى اسحق بن العسال بعنوان : « السلم المقفى والذهب المصفى » اتبع فيه خطة منظمة بأن راعى تسلسل الحروف الأبجدية كما راعى مع هذا التسلسل تقارب النطق اللفظى ، فمثلاً وضع كلمات ناديت (ⲁⲓⲙⲟⲩⲧ)، والهاوية (ⲁⲙⲉⲛϯ) دودة (ⲁⲙⲛⲧ) وضعا متتالياً .

وأبو اسحق هو واحد من ثلاثة أخوة هم أبناء فخر الدولة أبى الفضل ابن أبى اليسر يوحنا العسال ، ويقف بعدهم رابعهم وهو حفيد لهذا الرجل الكبير . وقد تفوق الجميع في الخدمة والكتابة ومازالت مؤلفاتهم للآن تحفاً رائعة . والأخوة الثلاثة هم : الشيخ الرئيس مؤتمن الدولة أبو اسحق ، الشيخ الحكيم الأسعد أبو الفرج هبة الله ، الشيخ الصفى أبو الفضائل الأمجد . أما الحفيد فهو أبو شاكر بن أبى الفرج أى أنه ابن للأخ الأوسط بين الثلاثة . والألقاب المقترنة بأسمائهم إنما هى مما أضفاها عليهم السلاطين الأيوبيون تقديراً لخدماتهم الممتازة . ولا نعرف بالضبط ما هى الوظيفة التى كان يشغلها كل من الأخوين الكبيرين ولكن أصغرهم كان كاتب

---

(١) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس جـ ١ ص ٣٤ .

(٢) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس جـ ١ ص ٣٤ .

ديوان الجيش كما أنه اختير ليكون كاتب سر للمجمع الاكليريكى الذى انعقد للنظر في موقف البابا كيرلس الثالث (بن لقلق) . وقد تمكن الجميع من اللغة العربية إلى حد أن كتاباتهم ما زالت تهز القلوب حتى الآن . كذلك برعوا فى القبطية والسريانية واليونانية وتبحروا فى الرياضة والفلك والتاريخ والطبيعة والتركيبات الكيماوية . إلا أنهم تفوقوا فوق هذا كله فى العلوم الدينية العقيدية والقوانين الشرعية .

أما مؤلفاتهم الباقية بين أيدينا فهى :

أولاً - للمؤتمن أبى اسحــق : مجموع أصول الدين ومسموع محصول اليقين ، التبصرة المختصرة فى اللغة القبطية ، آداب الكنيسة ، خطب الأعياد السيدية ، مقدمة فى رسائل بولس - هذه إلى جانب المعجم المذكور فى اللغة القبطية .

ثانياً - للأسعد أبى الفرج : مقدمة فى اللغة القبطية ، مقابلة بين ترجمات الأناجيل الأربعة ، رســالة عن مقدمة رسائل بولس التى كتبها أخوه ، كتاب عن الحساب الأبقطى يشتمل على بعض القواعد الفلكية والتاريخية وجدول للبطاركة ، أرجوزة فى هذا الحساب ، رسائل عن الأنفس بعد مفارقتها للأجساد .

ثالثاً - للصفى أبى الفضائل : الصحائح في الرد على النصائح ، نهج السبيل فى الرد على من قدح فى الانجيل ، المجموع الصفوى وهو موســوعة قانونية ، الكتاب الأوســط فصول مختصرة عن التوحيد والتثليث ، حواشى متنوعة على مناظرات الشيخ عيسى الوراق العالم المسلم مع الشيخ يحيى ابن عدى العالم اللاهوتى السريانى وأجوبة قاطعة على اعتراضات الشيخ عبد الله الناشئ والامام فخر الدين بن الخطيب ، فصول فى العماد والزواج والوصية والميراث ، نبذة عن الأوقاف ، كفاية المبتدئين فى علم القوانين - وقد ضاع هذا الكتاب إذ لم يعثر عليه للآن .

رابعاً - لأبى شاكر بن أبى الفرج : مختصر فى الأبقطيات تاريخه سنة ١٠٥٣ ش . وهناك كتاب روحى يختص بتفسير رؤيا يوحنا اللاهوتى كتبه أحد الإخوة . وهذا التفسير حلقة ضمن السلسلة غير المنقطعة لما كتبه

القبط عن هذا السفر الملئ بالغموض والذى استثار عقول المفكرين والساعين نحو معرفة كنه الأسفار الإلهية فى مختلف العصور .

ومع أن العديد من كتاباتهم محفوظ فى مختلف المكتبات الأوروبية ، ومع أن المستشرق الألمانى جراف قد كتب عنهم وذكر مؤلفاتهم كما كتب عنهم المستشرق الفرنسى مالون إلا أن سيرتهم ومؤلفاتهم ما زالت أرضاً بكراً يجدر بالباحثين القبط الساعين إلى التعرف على تراثهم الروحى أن يبدأوا بتفليحها [(١)] .

ومن الكتب التى عثر عليها المستشرقون كتاب عنوانه : « قصة عجائب رئيس الملائكة ميخائيل فى أرض فلسطين » ، وهو يتضمن أربع عشرة أعجوبة لهذا الملاك العظيم بالاضافة إلى ثلاثة عشر مقالاً تسرد أحدها سيرة القديس تكلا هيمانوت كبير قديسى أثيوبيا بينما تسرد المقالات الأخرى قصصاً لمختلف القديسين . وقد نشر هذا الكتاب كرتشنوفسكى المستشرق الروسى سنة ١٩٠٩ . ويغلب الظن على أنه من مؤلفات ابن الراهب ولو أن البعض يرجح أنه لأحد أولاد العسال [(٢)] .

٢١٧ - ومما يحز فى النفس أن هذه المؤلفات جميعها لم تقو على حفظ اللغة القبطية ، فقد طغت عليها اللغة العربية حتى لم تعد تسمع فى غير طقوس الكنيسة . ومنذ القرن التاسع عشر زحف على مصر رهط من الأجانب الذين فتحوا المدارس واستتروا وراء العلم لبلوغ الغرض المذهبى الذى هجروا بلادهم من أجله . فكان من أبرز آثار هذه المدارس تحول بعض

---

(١) « مدرسة لعلماء من القبط » (بالفرنسية) لاكسيس مالون - المبحث الثانى - طبع بمطبعة سان جوزيف ببيروت سنة ١٩٠٧ ص ٢١٢ - ٢١٥ ، تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٨٥ ، تاريخ المسيحية الشرقية (بالانجليزية) لعزيز سوريال عطية ص ٩٦ ، تاريخ الأمة القبطية - الحلقة الثانية - لكامل صالح نخلة وفريد كامل ص ١٢٤ - ١٢٨ ، دائرة المعارف ... ص ٥٣ ، ٦١ ، ٧٤ . كذلك جاء فى كتاب ترياق العقول فى علم الأصول ص ٥١ ما يلى : « السيد الفاضل عرف بابن العسال سبط الأب المكرم الحسن الشيخوخة الأب بطرس المعروف بالسدمنتى وتبين لنا هذه الجملة أن القس بطرس السدمنتى كان معلماً لأولاد العسال .

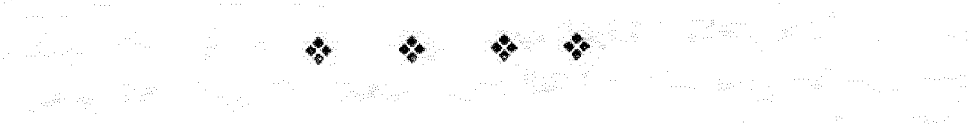
(٢) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس جـ ١ ص ٧٤ .

القبط عن عقيدتهم وتراثهم الفكرى المصرى العريق إلى ما بثه فى نفوسهم أصحاب تلك المدارس من ثقافة غريبة باعدت بينهم وبين بيئتهم الروحية .

ومما زاد الطين بلة أن بعض رجال الدين - نزولاً على رغبة أبنائهم الذين استقوا علومهم فى تلك المدارس الأجنبية - أصبحوا يؤدون معظم الشعائر الدينية باللغة العربية بدلاً من القبطية . فلم يعد ما بقى منها غير صدى خافت لما كانت عليه .

على أنه رغم هذه العوامل الهدامة ، فقد أخذ بعض المفكرين فى هذا العصر يشعرون بضرورة احياء تراث الآباء روحياً ولغوياً . ومن أقوى الوسائل التى تذرعوا بها الكلية الاكليريكية والمعهد العالى للدراسات القبطية . وهذه الجهود - وإن تبدو ضئيلة الآن - تبشر بانبثاق فجر جديد : فجر شبيه بفجر القيامة المجيدة .

وإلى جانب هولاء الكتاب نقرأ عن أراخنة كانوا ذوى مكانة ممتازة فى عصرهم منهم : أبو المكارم بن أبى الطيب جد العلامة بن المكين الذى كان يمتلك المزارع الواسعة وله فيها خلايا النحل ، تزوج من أخت سمعان ابن كليل وأنجب منها ثلاثة أولاد هم النجيب أبو الفضل والعميد أبو الياس وأبو المكارم الكاتب المعروف . وقد عاصرهم المعلم يوحنا الشهير بأبى المصرى الذى كان رئيساً على كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة فصرف الكثير من المال على نسخ الكتب ووقفها على هذه الكنيسة [1] .



(١) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس جـ ١ ص ٧٤ .

(د) زعيم روحـى

٢١٨ - اخوان متباينان ٢١٩ - مؤلفات ابن المكين

٢١٨ - كان جرجس بن العميد الملقب بابن المكين من أرخنة الفكر كما كان أخاً لرئيس فى العالم : فقد كان يتولاً بحائلة بينما كان أخوه الأسعد ابراهيم كاتب الجيوش فى عهد الملك العادل . وقد كان قلب ابن المكين ملتهباً بحب الكنيسة فترك الجاه العالمى ليعيش فى دير الأنبا يؤنس القصير بطرة (جنوبى القاهرة) حيث كرس نفسه للبحث والدراسة والصلاة والتأمل في عظائم الله . وقد تضلع فى القبطية والعربية واليونانية والمنطق والفلك والتاريخ ، كما أثبت جدارته فى التقوى والتقشف والمحبة . فألبسه رئيس الدير الاسكيم المقدس . وقد راقب ابن المكين شعبه فوجد غالبيته تائهة فى ظلمة الجهل ، ورأى أن يتدارك هذا الجهل قدر امكانه فانشغل بالكتابة فى العقيدة الأرثوذكسية مبيناً أنها هى العقيدة التى زاد عنها الشهداء بدمائهم والمعترفون بآلامهم والآباء بكل جهودهم الفكرية والروحية .

٢١٩ - وابن المكين شبيه بعدد كبير من أمثاله الذين حملوا الشعلة فى كونه جندى مجهول - ولا نعرف عن سيرته إلا الأمر الضئيل . ولكنه ترك لنا أربعة مؤلفات لها قيمتها هى :

١ - « المستفاد من بديهة الاجتهاد » الذى امتدح فيه المجدين الكادحين .

٢ - تاريخ مدنى عنوانه « المجموع المبارك » ويقع فى جزئين ترجم الجزء الثانى منه إلى الفرنسية [1] .

٣ - بعد أن فرغ من وضـع كتابه التاريخى وجـد أن المؤرخ المعروف - الطبرى - قد انتقل إلى دار البقاء من غير أن يكمل كتابه فأخذ على عاتقه تكملته .

---

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٨٦ ، ويقول عزيز سوريال عطية فى كتابه « تاريخ المسيحية الشرقية » (بالانجليزية) ص ٩٦ بأنه ترجم إلى عدة لغات مختلفة منذ القرن السابع عشر كما كان مرجعاً موثوقاً به إستند إليه المقريزى .

٤ - أما كتابه الرابع فعنوانه « مختصر البيان فى تحقيق الإيمان الموسوم بالحاوى » ويقع فى جزئين أيضاً ، وقد قال فى مقدمته : « لما كانت هناك أهوية فاسدة لاتوافق قواعد البيئة الأرثوذكسية وبنائها في حقيقة التجسد الممجد ... وهو مما كان الآباء النجباء عمد البيعة الأرثوذكسية المؤيدون باليد المنيعة قد اجتهدوا وجاهدوا فى محو أثره من أذهان المؤمنين وأزالوا ذكره من ألسنة الأرثوذكسيين كمثل مقالة أريوس الملحد الذى كان يعتقد أن يسوع المسيح ابن الله مخلوق من حيث حقيقته ، ومقدونيوس القائل بأن روح القدس مخلوق كسائر المخلوقات وأوطاخى القائل بأن الجسد المأخوذ من مريم العذراء ليس كأجسادنا الآدمية بل مخالفاً فى جوهره ... ثم تبلبلت الآراء فى الاعتقادات . فلما اجتمع بى بعض من يجب على حقه .. فأطلعنى على ما عنده من الحيرة والتقسيم ... واستعفيت من الكلام لعلمى بتقصيرى وضعفى ... فلما كلفنى اتباع غرضه وبغيته . وبعد أن ظهر لى أن طاعتى إياه تزيل مرضه وتفيد صحته أطعته طاعة المستفيد الرابح ... قدمت له فتات موائد السادات ... » [1] وهكذا ارتضى أن يكتب فى العقيدة مستلهماً الآباء مستعيناً بمؤازرة الروح القدس .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) « مختصر البيان .. » لابن المكين طبعه القمص بطرس عبد الملك خادم الكنيسة المرقسية الكبرى (البطريركية) بالقاهرة سنة ١٩٠٦ ص ٣ - ٩ .

الفصل الثالث *

ويحتوى على :

* ما يجب اعتقاده من القول بالقضاء والقدر .
* ما ينبغي فهمه من قول الرسول (أم ليس للفاخورى سلطان على الطين رو ٩ : ٢١)

(١) ما يجب اعتقاده من القول بالقضاء والقدر

نقول أنه من أمس الضرورات وأشدها احتياجاً الكلام فى هذه المسألة وتحقيقها لأن الكلام من أبناء البيعة والأمم الخارجة كثيراً ما يقع فيها البحث لتحقيقها وخصوصاً هذه المسألة . ولأن هذه القضية من القضايا العويصة فيجب أن نذكر حلها من جهتى النقل والعقل لأن القضايا إذا تحققت من هاتين الوجهتين كانت من الأمور المتيقنة فى الطرف الأقصى .

رأى الخارجين عن معتقدنا :

أنهم يرون أن كل شئ مما يقع في الوجود ويظهر من خير وشر هو من عند الله تعالى . وهذا الكلام يلزم منه أن البارى عز وجل هو علة الشرور ابتداء . ويلزم من هذا أيضاً عدة شفاعات منهم أن ارساله الأنبياء وتكليفهم بالتبشير عبث لا ضرورة له ولا فائدة فيه . وذلك أن البارى سبحانه يعلم المطيع الصالح قبل ارساله النبى له أنه مطيع صالح ومن أهل الطاعة فقول النبى له وأمره بالصلاح لا فائدة فيه ولا يجدى له نفعاً ، لأنه لو قال له لا تعمل صالحاً لا يمكنه أن لا يعمل صلاحاً لأن الخروج عن المقدور غير مستطاع لأن المقدور لابد من وقوعه حتماً . وكذلك قوله للطالح .

---

* صفحة ١٤١ من كتاب «مختصر البيان فى تحقيق البيان الموسوم بالحاوى » لابن المكين - نقحه وبوبه وعنى بنشره القمص تاوضروس شحات رئيس الدير المحرق وفؤاد باسيلى الأستاذ بالكلية الأكليريكية (باكورة انتاج دار النشر القبطية بشبرا)

ومن نعمة الله أن أطاع ابن المكين [(١)] رغبته ورغبة أصدقائه لأن الكتاب الذى تركه لنا عن الإيمان يشهد بتعمقه فى فهم حقيقة هذا الإيمان الأرثوذكسى كما يشهد بجدارته فى أن يحمل الشعلة التى حملها علماء المدرسة الاسكندرية فى العصور الأولى [(٢)] . ونظرة واحدة الى الموضوعات التى عالجها تبين هذه الحقيقة ولـو أن من يطالـع الكتاب يزداد اقتناعاً - لأن العنوان وإن دل على الموضوع إلا أنه مقتضب بحكم الضرورة . فبعد المقدمة عالج ابن المكين الموضوعات الآتية في الجزء الأول من كتابه : الباب الأول - الفصل الأول : ١ - الكلام على الاجتهاد فى طلب علم الشريعة المسيحية وأنه من الفروض الواجبة ، ٢ - الرد على من يتأول قول الرسـول . وعندما ظنوا أنهم حكماء صاروا جهلاء (رو ١ : ٢٢) تأويلاً ردياً ، ٣- القول على أن العالم هو الذى يمكنه فى الحقيقة اقامة الموتى ، ٤ - الرد على من يعتذر كون سيدنا اختار رسله جهالاً ، ٥ - الخاتمة .

الفصل الثانى : ١ - ما يجب فهمه من قول المزمور « أنا قلت فى تحيرى أن كل انسان كاذب » ، ٢ - وجوب اقامة المعلمين فى البيعة المسيحية وما يجب عليهم ، وتحقيق أن الأعمار ليست بمحدودة ولا مقدرة بالدليل النقلى .

الفصل الثالث : ١ - ما يجب اعتقاده من القول بالقضاء والقدر، ويتضمن فوائد أخرى ، ٢ - ما ينبغى فهمه من قول الرسول « أم ليس للفاحورى سلطان على الطين » رو ٩ : ١٢ . وبقية هذا الفصل .

الباب الثانى - الفصل الأول : ١ - ما ينبغى أن نعتقد فى الوقائع الحادثة بالمؤمنين صالحة كانت أو طالحة ، ٢ - الكلام على واقعة داود النبى مع شمعى الذى سبه وما فيها من التأويل وحله وغير ذلك .

الفصل الثانى : ١ - ما ينبغى فهمه من قول الرسول بولس « أن قبل ما تأتى الشـريعة كانت الخطيئة ميتة وكنت أنا حى . ولما جاءت الشريعة

---

(١) مما يجدر ذكره أن ابن المكين هذا هو ابن أخت سمعان بن كليل الذى وردت لمحة عنه على ص ٤٩ - فيكون هو وخاله ضمن حملة الشعلة المثابرين .

(٢) تاريخ القديس الأنبا يحنس القصير للقمص ميصائيل بحر ص ٦٣ - ٦٦ .

عاشت الخطيئة ومت أنا » رو ٧ : ٩ . وفيه ما ينبغى فهمه من قول متى الرسول «ادخلوا من الباب الضيــق الخ » مت ٧ : ١٣ . ومن قوله أيضاً « ما أكثر المدعوين وأقل المنتخبين » مت ١٦:٢ ، ١٤:٢٢ . ٢ - ما ينبغى فهمه من قول بطرس الرسول « إن كل أمة تعمل البر فهى مقبولة قدام اللّه » أع ٣٥:١ . ٣ - قول لوقا البشير « قليلون هم الذين يجدون الحياة » لو ١٣ : ٢٤ . الفصل الثالث : ١ - لِمَ أتت الشريعة النقلية أولاً لبنى اسرائيل خاصة دون غيرهم من الموجودين فى وقتهم ؟ ولِمَ لم تعم الناس جميعاً عند ظهورها : ولِمَ أهمل الناس بغير شريعة نقلية إلى أيام موسى ؟ ولِمَ ظهر التجسد المجيد من أمة اسرائيل دون غيرها ؟ ٢ - الرد على من بكت أهل الشريعة الكتابية بقولهم « أن تأخير الخير والجود الذى هو الشريعة من وقت إلى آخر قدح فى حق الجواد » الرد على من يعتقد أن الشريعة المسيحية يصح عليها النسخ والتبديل والتغيير فى الأناجيل . وفيه ما يتعلق بنسخ الشريعة الموسوية بالشريعة المسيحية .

الباب الثالث - الفصل الأول : ١ - سرد ذكر صليب رب المجد وكونه كان ضرورى الوقوع وفيما يترتب عليه من النعم والفوائد الجزيلة . وفيه بأن تسليمه كان ارادياً اختيارياً . وفيه أن الشريعة المسيحية لا تقبل النسخ ولا التغيير ، ٢ - ان التحريف والتبديل مستحيل فى الأناجيل .

الفصل الثانى : ١ - لِمَ أرسل سيدنا تلاميذه بعد قيامته ليكرزوا بدعوته قال لهم « امضوا وتلمذوا كل الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » مت ١٩:٢٨ . و لِم لم يقل فى جملة أمره لهم بهذا التعليم (الإله الواحد) ؟ ٢ - لِمَ سمى سيدنا له المجد « كلمة اللّه وابن اللّه » من فم الأنبياء قبل ظهوره وبعد ظهوره ؟ ٣ - ظهر الروح القدس على التلاميذ فى علية صهيون ظاهراً للحس شبه ألسنة نارية و لِمَ يظهر فيما بعد على المؤمنين عند العماد كذلك ؟ ٤ - هل يجوز أن يقسم اللّه بغير ذاته تعالى أم لا يجوز ؟

الفصل الثالث : القول على الذين وقعوا فى سقطة الجحود ووافقوا الخارجين عن الإيمان على رأيهم واصطلاحهم - كيف ينبغى أن نفهم قول

ربنا له المجد « من أنكرنى قدام الناس ... الخ » مت ١٠:٣٣ . ما ينبغى عليهم فى كيف يكون التنصل من هذه الواقعة – ما هو دواؤهم وكيف يتمكن الطبيب فى استعمال الدواء معهم .

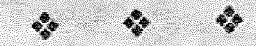
على أن المؤمنين الآن فى حاجة إلى الاطلاع على ما كتبه هذا الراهب العلامة توضيحاً للعقيدة الأرثوذكسية لذلك نقتطف ما يلى :

« لأن كل ما له لحم و عظم فهو فى جملة المركبات . وكل مركب فهو كائن بعد إن لم يكن .وكل ما اندرج تحت الكينونة فهو محدث لا محالة . والرسول لوقا قد صرح فى بشارته قائلاً : « وأما الصبى فكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة » فأطلق عليه اسم الصبا فى وقت واسم الولادة الزمنية فى وقت آخر ليس إلا لتحقيق صحة القول بأن ناسوته ينمو ويتزايد فى أقطاره الثلاثة وينشأ تدريجياً . ليعلمنا أنه بعد أتحاده بالأزلى لم يتغير جوهره . بل كان واحد من الأزلى والزمنى حافظ لجوهره وخاصته . فهو واحد من أزلى وزمنى ، مات بانسانيته بقوة لاهوته . فهو فاعل فى ذاته بذاته ... ففيه الإله الكلمة المعبر عنه بالابن الأزلى وفيه الابن الزمنى المأخوذ من الطبيعة المريمية . فهو واحد متقوم من اثنين . فاعل بوجه ومنفعل بوجه آخر . وهذا الأمر قد حققه وأظهره فى أقواله وأفعاله . فمنها قوله تعالى لليهود . انقضوا هذا الهيكل وفى ثلاثة أيام أقيمه وقد شهد البشير أنه إنما عنى به هيكل جسده فإن كان الذى اتخذه من السر المريمى وهو جسده الممجد قد صار باتحاده الأزلى أزلياً وتغير عن حقيقته فما هو الذي ينقض ؟ وما هو الذى يقيمه بعد موته ؟ ... » .

« ... وليس يردع المخالفين للأصول المسيحية إلا قولنا بأن المفهوم من اسم يسوع المسيح أنه الكلمة الأزلى ظهر متحداً بانسان زمنى مخلوق محدث . حتى إذا قالوا : إن الهكم صلب ومات ، نقول – نعم الأمر كذلك . ولكنه صلب ومات بما له من الجوهر المحدث المخلوق . ولهذا نقول إنه جوهر من جوهرين أزلى وزمنى . صار منهما حقيقة واحدة ... وله ولادتان : ولادة أزلية من الآب قبل كل الدهور ، وولادة زمنية كائنة بعد أن لم تكن . وظهر تجاهنا بولادته الزمنية . وتصرف بيننا تصرف الإله المتأنس . ولذلك تلا الرسول هذا الكلام بقوله وحل بيننا ورأينا مجده .

« أى أنه اتحد بجسد مخلوق من الأحشاء المريمية وحل بيننا به ، وظهر لنا منه ظهوراً ورأينا منه مجده الذى حقق لنا به أن ابن الله تعالى وابن البشر وأنه إله العالمين وديانهم يوم الدين ... » .

« ... فيسوع المسيح تعالى أقنوم واحد صار عن أقنومين : أزلى خالق وزمنى مخلوق . ففيه الولادة الأزلية والولادة الزمنية . فلذلك قال علماء البيعة المسيحية ان اسم يسوع المسيح له المجد يتضمن جوهراً من جوهرين . أحد الجوهرين هو الذى لا يقبل الأعراض ولا يشغل حيزاً ، والآخر هو الجوهر الزمنى المحدث الذى يقبل الأعراض ويشغل حيزاً . ولهذا كان جوهره الزمنى المحدث هو الذى يصح عليه الصلب والموت والقيامه من القبر ... [1] » .



(١) مختصر البيان ... ص ١٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٨ - ٣٩ .



ايقونة للسيدة العذراء

موجودة عن يمين الداخل الى الكنيسة المشيدة على اسمها ، الشهيرة بالكنيسة « المعلقة » لكونها مبنية فوق أحد أبراج حصن بابلون (مصر العتيقة).

وهذه الأيقونة رمز رائع لوحدة التاريخ التى تحدثنا عنها فى الجزء الأول من هذا الكتاب لان صورة السيدة العذراء وإلى يسارها ابنها الإلهى من انتاج القرن التاسع ، فى حين أن يوحنا المعمدان الراكع يقبل احدى قدمى المخلص من انتاج القرن الحادى عشر .ويحيط بالأيقونة اطار من الخشب المحفور والملون من انتاج القرن الثالث عشر . ولا يستطيع أى شخص أن يدرك هذه الفوارق الزمنية من مجرد النظر إلى الأيقونة - إلا الاخصائيون بالطبع . والأيقونة بأطارها تؤلف وحدة متجانسة منسجمة يتلاشى الزمن أمام تجانسها وانسجامها .

القرعة الهيكلية

٢٢٠ - تجاوب الأصداء
٢٢١ - الاستقرار أخيراً
٢٢٢ - العودة إلى القيم الروحية .
٢٢٣ - تكريس الميرون .
٢٢٤ - حزن البابا الاسكندرى فانتقاله إلى دار النعيم .

٢٢٠ - فى سنة ٩٥٢ ش خلت السدة المرقسية بانتقال الأنبا كيرلس الثالث إلى الأخدار السماوية . وكان السأم مخيماً على القلوب من أثر السيمونية التى كان البابا الراحل قد تمادى فيها . فاتفق الاكليروس والشعب فيما بينهم على أن يرجئوا التشاور فى موضوع انتخاب الخليفة المرقسى إلى أن تهدأ النفوس مما أصابها من قنوط . وعلى ذلك ظلت السدة المرقسية خالية سبع سنوات وستة أشهر وثمانية وعشرين يوماً . « ولم يعد بعد ذلك أحد يتحدث فى أمر اقامة بطريرك لا كبير ولا صغير ولا من عظماء الأمة ولا من عامة الشعب ولا سراً ولا جهراً » [(١)] . ولقد رأى الملكيون [(٢)] الفرصة مواتية فقصدوا إلى السلطان نجم الدين أبى الفتوح أيوب الذى اشتهر بالتسامح الدينى وطلبوا إليه أن يأذن لهم بأن يقيموا من بينهم بطريركاً . فأذن لهم متجاوزاً عن مطالبتهم بأداء المال المفروض فى مثل هذه الحالات . فاختاروا راهباً طبيباً يلقب بالحكيم المصرى ورسموه باسم غريغوريوس الأول معتبرين إياه خليفة لمارمرقس . وكأنما كانت هذه الرسامة ناقوساً أيقظ القبط فنبههم إلى وجوب الاسراع فى انتخاب البابا الاسكندرى الشرعى . على أن الأراخنة حينما انتبهوا لهذا الأمر الخطير اجتمعوا للتشاور وحدهم فى كنيسة الأنبا شنودة ببابلون (مصر القديمة) . وقد رأس هذا الاجتماع ابن صاعد وزير السلطان المعز أيبك (الذى خلف نجم الدين) وابن صاعد هذا كان ابن أخت الراهب ابن التعبان (الذى كان قد تزعم الثائرين على الأنبا كيرلس الثالث) ، وكان سياسياً

---

(١) تاريخ البطاركة للأنبا يوساب أسقف فوه ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) نسبة إلى الملك مرقيانوس الذى رأس الجلسة الأولى لمجمع خلقيدون المشئوم سنة ٤٥١ م ، وقد أطلق المصريون هذه التسمية على مشايعى خلقيدون الذين ردوا عليهم بتسميتهم « يعاقبه » .

ذا دهاء فأصدر قراراً بأن يدفع التجار والصيادلة وغيرهم من رجال المهن والثروات ضريبة سنوية محددة للدولة [1] وفى هذا الاجتماع رأى الأراخنة أن أسهل وسيلة يستعينون بها فى اختيارهم هى الاحتكام إلى القرعة الهيكلية حسماً لما قد يحدث من نزاع وبخاصة لأنهم لم يستشيروا الأساقفة مع أن الأنبا خريستودولس الملقب بابن الدهيرى أسقف دمياط كان موجوداً بالقاهرة إذ ذاك . وقد نفذ الأراخنة رأيهم بسرعة فأسفرت عن فوز الراهب ابن كليل المصرى المترهب بدير الأنبا أنطونى .

غير أن الأخبار ما لبثت أن وصلت مسامع الأنبا خريستودولس الذى ثار لمجانبة الأراخنة التقليد الكنسى القبطى الذى ينص على « وجوب انتخاب البابا من سينودس - الأساقفة وجماعة الأكليروس والشعب كمسرة الروح القدس » فلما سمع الأراخنة بثورة أسقف دمياط اجتمعوا بالراهب ابن التعبان وبالوزير ابن صاعد وبأرخن اسمه الشيخ الحكيم الرشيد بن خليفة واتفقوا معهم على الاستنجاد بالأنبا يوساب أسقف فوه ورجائه بأن يوافيهم إلى القاهره وبصحبته أسقف دمنهور عميد الأساقفة وأسقف سمنود أو من رسمهم البابا كيرلس الثالث . ولقد استجاب الأنبا يوساب لرغبتهم بسرعة واهتمام . وكان بعض العربان المقيمين فى مديرية البحيرة ثائرين على الأهالى فى تلك الأونة مما أحدث اختلالا فى الأمن . على أن الأنبا يوساب نجح فى توصيل رسالته إلى شريكه فى الخدمة الرسولية بدمنهور رغم هذه القلاقل كما نجح فى توصيلها إلى أسقف سمنود . ومن الطريف أن الأنبا يوساب قد جاء من فوه إلى القاهرة فى مركب صغير عن طريق النيل . وقد وصل الأساقفة الثلاثة سالمين .

٢٢١ - وفى تلك الأثناء وصل إلى القاهرة من دمشق راهب مصرى اسمه غبريال كان صديقاً للأمجدين العسال كما كان معلماً لابنه فخر الدولة. وقد رغب الأمجد فى اكرام معلم ولده إلى حد أنه لم يتراجع عن محاولة استغلال منصبه لتجليس الراهب غبريال على السدة المرقسية بدلاً من الراهب ابن كليل المصرى الذى أنجحته القرعة الهيكلية بعد أن - يضيفوا اسم

---

(١) الخطط للمقريزى جـ ٣ ص ٣٨٦ ، تاريخ مصر الحديث لزيدان جـ ٢ ص ١٠ ، تاريخ البطاركة لأسقف فوه ص ١٦٤ .

الراهب غبريال إلى من يقترعون عليهم . إلا أن الأنبا يوساب استطاع أن يتفاهم بسرعة ولباقة مع الأنبا خريستودولس بن الدهيرى ومع أسقفى دمنهور وسمنود فقرروا جميعاً أنه مادامت القرعة الهيكلية قد أجريت فلا يليق اعادتها ثانية . وكان هناك أرخن اسمه مخلص بن أندونه جاء مع جماعة من أصحابه وتفاهم مع الأساقفة واستطاع أن يوفق بين مؤيدى الراهب ابن كليل المصرى ومؤيدى الراهب غبريال إلى حد أن الجميع اتفقوا على تقدمة الأول .

ونتيجة لهذا الاتفاق السليم قام الأساقفة برسامة ابن كليل المصرى قمصاً بكنيسة السيدة العذراء (المعلقة) فى احتفال يفوق عن الوصف إذ قد ازدحمت الكنيسة بجماهير الشعب من باب الهيكل حتى سلالم الباب الكبير . وبعد هذا الاحتفال الرائع استصحب الأساقفة هذا القمص المكرم إلى الأسكندرية . وما أن بلغوا مشارف المدينة العظيمة حتى هرع الجميع لاستقبالهم وألفوا موكباً فخماً سار فى الشوارع حتى وصل الكنيسة المرقسية حيث تمت المراسيم الدينية المجيدة التى جعلت من ابن كليل المصرى البابا الأسكندرى السادس والسبعين باسم أثناسيوس الثالث سنة ١٢٤٢ م .

٢٢٢- وحالما تمت رسامته قام بتكريس عدد من الهياكل وبرسامة الكهنة اللازمين لخدمتها فى الثغر الاسكندرى . وبعد ذلك ذهب لزيارة أديرة وادى النطرون لتسعد روحه ببركة القديسين الذين ترددت أنفاسهم فى تلك المنطقة المقدسة .

ولما عاد من هذه الزيارة المباركة ليباشر مهام كرامته الكهنوتية العظمى امتلأت القلوب هدوء لأن البابا قضى على السيمونية تماماً ، فلم يلتفت إلا إلى ما يتميز به المرشحون للكهنوت من روحانية وفضل . كذلك وضع جميع الذين كانوا قد نالوا هذه الكرامة بالسيمونية تحت رقابته الخاصة وطالبهم بأن يقدموا له شخصياً تقارير عن كل ما هو حادث فى كنائسهم وعن أعمالهم من أسبوع لأسبوع . فساد الاستقرار كل مرافق الكنيسة حتى لقد شمل فروعها الممتدة شرقاً لأن هذا البابا الساهر الأمين نجح فى الحصول على تعهد من السلطان الظاهر بيبرس على حماية المقدسات التابعة له فى القدس الشريف وغيره من مدن البلاد المقدسة [1] .

---

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لتغرى بردي جـ ٧ ص ١٩٤ .

٢٢٣- وفى أثناء تفقده للكنائس لاحظ الأنبا أثناسيوس حاجتها إلى مزيد من الميرون . فدعا الأساقفة لكى يذهبوا فى صحبته إلى دير الأنبا مكارى الكبير ويشتركوا معه فى اقامة الشعائر المقدسة اللازمة لعمل الميرون . وقد لبى دعوته اثنا عشر أسقفاً وذهبوا جميعاً إلى برية شيهيت حيث قضوا بضعة أيام أدوا فى أثنائها الشعائر المقدسة فى فرح روحى شامل . وقد زاد هذا الفرح وجودهم فى دير الأنبا مكارى أبى برية شيهيت الذى فاضت محبته على الجميع حتى وهو بعد فى الجسد - فكم بالحرى تغمرهم هذه المحبة بعد أن سما فوق الجسد .

٢٢٤ - وساد السلام البلاد المصرية وجاراتها فترة من الزمن استقرت خلالها القلوب ، ولكن السلام لم يحل إلا لبضع سنوات قصيرة تبدد من بعدها . ذلك لأن ابن صاعد القبطى الأصل استمر قابضاً على زمام الأمور لأنه أنكر المسيح . ولما كان مثل هؤلاء الجاحدين أكثر الناس تعسفاً فقد استبد هذا الوزير بالشعب عامة وبالقبط خاصة ففرض عليهم الحوالى (وهى جزية معينة) وتشدد فى جبايتها . كذلك استثار الرعاع فى كل من مصر وسوريا . وعلى الرغم من أن هذا الوزير كان قد تنكر لدين المسيح وللمؤمنين بالمسيح فإن الرعاع فى ثورتهم أضرموا النار فى عدد من الكنائس وقتلوا الكثير من القبط . بل إنه استفز عوام دمشق فخربوا كنيسة على اسم السيدة العذراء ونهبوا كل ما فيها ثم أضرموا فيها النيران . فطغى الحزن على قلب الأنبا أثناسيوس الثالث حينما رأى كل ما أصاب الناس من شر على يدى هذا الجاحد ، واستبد به الحزن إلى أن انتقل إلى بيعة الأبكار . فاحتفل بدفنه الاحتفال المهيب الذى يقام لخلفاء مارمرقس فى كنيسة أبى السيفين ببابلون (مصر القديمة) بعد أن قاد دفـة الكنيسة إحدى عشرة سنة وشهراً واحداً وثمانية عشر يوماً . ومع قصر هذه المدة - نسبياً - فإنه عاصر خمسة من حكام مصر هم : شجرة الدر وموسى الأشرف وخليل والملك المعز والمنصور والمظفر والظاهر بيبرس [1] .

---

(١) تاريخ البطاركة - الحلقة الثانية - جمع الشماس كامل صالح نخلة ، طبع بدير السيدة العذراء الشهير بالسريان سنة ١٩٥٢ ص ٦ - ١٥ .

فترة كلهـــا فوضى

أ - تغير الدولة

٢٢٥ - شهدت السنوات الأخيرة من باباوية الأنبا أثناسيوس الثالث أحداثاً جسيمة انتهت بانتقال الحكم مـن أيدى الأيوبيين إلى أيدى المماليك . وأول من أفسح المجال للمماليك هو صلاح الدين بالذات : فقد أراد أن يحيط نفسه بحاشية تكون طوع يديه وتقف سداً منيعاً فى وجه أية ثورة قد تقوم ضده . فابتاع عدداً من الشباب الأقوياء الأغراب وجعل منهم حرسه الخاص . ولما كان شراء الأيوبيين لهؤلاء المماليك سنوياً فقد أخذ عددهم يتزايد على مر السنين ويتزايد معه سلطانهم إلى أن أصبحوا هم أصحاب السلطة الحقيقية رغم وجود السلاطين الأيوبيين [١] . فكانوا يعزلون السلطان الذى يغضبون عليه ويقيمون مكانه من يرضون عنه . ولم يكتفوا بالعزل فـى بعض الأحيان بـل كانوا يذهبون إلـى حد قتل السلطان الغاضبين عليه .

ولقد كان الأيوبيون فى غالبيتهم على جانب كبير من العدالة والعمل على خير الرعية رغم اصابتهم بشهرة الحكم . ولقد عمل الملك الكامل على راحة القبط فأذن لهم باصلاح الكنائس المتصدعة وبناء كنائس جديدة ، فلم يصلحوا ولم يبنوا فقط بل زينوا الكنائس بما يلائمهم من الفنون - وهناك عدد مـن الأيقونات يرجح أنها رسمت فـى هذه الفترة الآمنة - تنطق كلها

(١) « مختصر تاريخ مصر » (بالفرنسية) جـ ٢ المبحث الثانـى : « مصر الاسلامية ... » لجاستون فييت ص ٢٢٨ - ٢٥٥ .



أيقونة السيدة العذراء العجائبية

بكنيستها الأثرية الكبرى بحارة زويلة من القرن الثالث عشر الميلادى

بالدقة وعمق الروحانية . ومن أبدعها تلك الأيقونة الفريدة فى اخراجها وفى عظمتها إذ تمثل يسى أبا داود الملك وقد تفرعت منه شجرة والسيدة العذراء جالسة فى وسطها تحمل على ذراعيها المباركتين الطفل الألهى . وهذه الشجرة ترمز إلى شجرة الحياة ، ويحيط بها ست عشر نبياً يمسك كل منهم بكتاب متضمناً للنبوة التى نطق بها عن تجسد الابن الكلمة من العذراء القديسة مريم ، ولا تزال هذه الأيقونة تزين المقصورة القبلية الشرقية الملاصقة لهيكل كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة [1] .

ثم أن هناك أيقونة ضمن عدد غير قليل من الأيقونات التى تزين كنيسة مارمينا بفم الخليج - هذه الأيقونة تمثل شخصين متشابهين إلى حد بعيد حتى لكأنهما توأمان . فكل منهما واقف فى مواجهة الناظر إليه وفى عينيه نظرة متأملة بعيدة ، ونصفه الأعلى عار بينما تغطى حقويه منطقة من وبر الإبل . ولحيته البيضاء الطويلة تكاد تصل إلى قدميه ، وشعر رأسه وشواربه طويل ناصع البياض ، وهو يحمل صليباً فى يده اليسرى بينما ارتفعت يمناه بالبركة . وخلفه نخلة واحدة تحمل بلحاً أصفراً . هذان الصنوان هما أبو نفر السايح والأنبا برسوم العريان [2] .

والتشابه البادى فى الأيقونات قد يعده بعض المعاصرين تقصيراً من الفنان أو تغاضياً منه عن واقعية الشكل . ولكن الذى يجب أن نذكره هنا هو أن الأيقونة ليست صورة فتوغرافية ولا تصويراً واقعياً مادياً من نموذج جسمى محدد بل هى مستوحاة من الروح للتعبير عن الحقائق الروحية وعن اللازمنية ويجب أن تصدر عن بصيرة روحية وتفهم روحى متمازج مع مصدره الذى يعلو على الماديات المحدودة . وإلى جانب هذا كله فالأيقونة يجب أن تترابط مع محيطها العضوى للبناء الروحى الذى تؤلف جزء منه فلا كيان لها إلا داخل أطار العقيدة والعبادة حتى متى وضعت فى بيت خاص . لذلك فالخطوة الأولى اللازمة لتفهمنا الأيقونة هى تفهمنا للوقائع

---

(١) عن نشرة أصدرها مترى خريستو ناظر كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة خاصة بهذه الكنيسة الأثرية فى أول توت سنة ١٦٦٦ ش (١١ سبتمبر سنة ١٩٤٩) القاهرة

(٢) « الكنائس القبطية القديمة فى مصر » (بالانجليزية) لألفريد بطلر جـ ١ ص ٥١ .

الروحية التى يصدر عنها القداس الإلهى . وعلى هذا الأساس لا يمكن أن تكون الأيقونة مجرد نقل حرفى للوقائع العالمية المادية لأنها تسعى إلى تجسيد الأفكار وتستهدف توصيل صورة للنظام الإلهى المقصود من العالم - أى أنها صورة للأشياء كما هى فى حالتها الحقيقية الأصيلة « فى عينى الله » وليست صورة لهذه الأشياء كما تبدو لنا من وجهة نظرنا المحدودة . ثم أن الأيقونة محاولة لتذكير الإنسان بمعنى كرامته الحقة وما يمكن أن يكونه فتذكره بأنه ساكن فى الأبدية وشريك للحياة الملائكية إلى جانب كونه مخلوق من هذه الأرض محدود بالزمن . فالفنان لكى يصل إلى رسم أيقونة بمعناها الصحيح عليه أن يرفع رؤيته من الأرضيات إلى السماويات بالمدى الذى يصبح فيه قادراً عقلياً أن يستضيف الشكل الذى سينقله وإلى أن « يعيش » هذا الشكل فى أعماقه بحيويته الداخلية الخاصة [(١)] .

وكل من الأيقونة والصليب لايستهدف توجيه خيالنا أثناء صلواتنا فقط بل أن الأيقونة والصليب هما فى واقع الأمر مركز مادى ينبعث منه نشاط وتستقر فيه قوة إلهية توحد نفسها مع الفن الإنسانى . وعلى هذا النحو أيضاً فرسم علامة الصليب والماء المقدس وكلمات الأسفار الإلهية المقروءة أثناء الشعائر المقدسة والترنم الكهنوتى وزخارف الكنيسة والبخور والشموع الموقدة - كلها هى رموز بالمعنى الواقعى للكلمة : إنها اشارات مادية لوجود العالم الروحى وحضوره أمامنا [(٢)] .

ومن أبدع الأمثلة على هذا التصوير للأفكار اللازمنية اللامادية أيقونة للقديس يوحنا الحبيب بمارمينا أيضاً . فهذا البشير يتمشى وحده وعيناه ممتدتان إلى الأمام فى تأمل عميق ، وقد أمسك فى يسراه انجيلاً مفتوحاً وفى يمناه ريشة للكتابة وجسمه مائل قليلاً لأن الساق اليسرى مثناه قليلاً

---

(١) « فن الأيقونة » (بالانجليزية) لفيليب شيرارد - مقال نشره فى كتاب « السر والصورة » الذى أصدرته جمعية سانت ألبان وسانت سرجيوس الروسية فى لندن سنة ١٩٦٧ - ص ٥٧ - ٦٧ .

(٢) لوسكى :« روحانية اللاهوت فى الكنيسة الشرقية » (بالانجليزية) ص ١٨٩ .

عند الركبة ، والقدم على شكل التأهب للمسير إذ أن طـرفها الأمامى مازال مرتكناً على صخرة منخفضة خلفها . والعينان الواسعتان بنظرتهما البعيدة الغور تعبران عـن حقيقة الأيقـونة - فهما عينا رجـل استوقفته أفكاره وذكرياته فبـدا كأنه يغوص فـى أعماق روحه حيث يجـد الوحى الإلهى [١] .

وثمة أيقونة أخرى بلغت هذا التعبير الروحى الجميل هى صورة للقديس قلتة بكنيسة أبى السيفين بمصر القديمة . فقد كان هذا القديس طبيباً معروفاً . وهو واقف ممسكاً بيمينه عصا صغيرة يشير بها إلى صندوق مرفوع الغطاء مقسم داخله إلى ستة أقسام يحوى كل منها نوعاص من العقار الطبى . وعن اليمين وكأنه فى الهواء صليب دقيق الصنع مذهب اللون ، وعن اليسار عصا للرعاية . فالكثير من البطاركة اشتهر بمهارته الطبية [٢] .

ومما يحسن ذكره أن هناك طشتا من النحاس المكفت [٣] بالفضة يرجع إلى عهد الملك الصالح . وهذا الطشت محفوظ بمتحف فرير للفن بواشنطون ، وهو آية من آيات الفن : فهو مزين بزخارف متباينة منسجمة رغم تباينها تشتمل على كتابات كوفية ونباتات تنتهى بعض فروعها برؤوس آدمية والبعض الآخر برؤوس حيوانية ومناظر تمثل لعبة البولو . على أن أهم ما يلفت النظر فى هذه الزخارف المناظر المأخوذة عن المسيحية أهمها البشارة ، العذراء والطفل ، الهروب إلى مصـر ، ابراء الأبرص ، الدخول إلـى أورشليم ، العشاء الربانى .

---

(١) الكنائس القبطية القديمة فى مصر (بالانجليزية) لألفريد بطلر جـ١ ص ٥٧- ٥٨

(٢) شرحه جـ ١ ص ٨١ ولقد ذكر أبو المكارم أن الذى رسم أيقونات الأعياد السيدية الكبرى بكنيسة السيدة العذراء بحارة الروم هو الرسام أبو اليسرى من مليج . كذلك ذكر فى كتابه عن الديارات والكنائس أنه كان بجبل الطير حتى القرن الثانى عشر ثلاث كنائس اثنتان فيها باسم السيدة العذراء والثالثة باسم أنبا مكارى الكبير صاحب الدير المعروف الكائن فى برية شيهيت .

(٣) ان فن التكفيت يتلخص فى حفر الزخارف على سطح الاناء حفراً عميقاً ثم ملء الجزء المحفور بالذهب أو الفضة أو غيرها من المعادن .

ويتساءل البعض : ترى هل صنع هذا الطشت صناعاً قبط أم أن صناعاً مسلمين رسموا المناظر المسيحية لاهدائه إلى أمير مسيحى ممن يتعاملون مع مصر ، إن كتابة اسم الملك الصالح عليه تدل على أنه صنع لاستعماله فى مصر فى قصر الملك الصالح نفسه أو فى قصر أحد الأمراء . لأن العادة التى كان معمولاً بها وقتذاك فى المنتجات المصنوعة للهدية هى أن تكتب عليها ورقة عليها العبارة التالية « بركة لصاحبه » ولا ينقش اسم السلطان عليها . فأغلب الظن أن هذا الطشت أنتجه صانع قبطى ليستعمله الملك الصالح أو أحد أمرائه (١) .

وفى الواقع أن القبط سعدوا بما نالوه من انصاف فاستجابوا لثقة الملك الكامل بهم وحدبه عليهم بأن أخلصوا له الولاء فى رضى وطمأنينة (٢) . ومما يؤثر عنه أن طبيبه الخاص كان قبطياً اسمه علم الدين أبو النصر جرجس بن أبى حليقة ، سأله أثناء مرضه ذات يوم : كيف نوم السلطان ؟ فأجابه منشداً بيتاً من الشعر :

ياخليلى خبرانى بصدق   كيف طعم الكرى فإنى نسيت (٣)

ويوصف هذا الطبيب بأنه « كان متفنناً فى العلم والأدب ، حسن المعاملة ، لطيف المداواة رؤوفاً بالمرضى ومحباً لفعل الخير » . وكان الملك الكامل قد رآه وهو صبى ولمح الذكاء فى عينيه فقال لأبيه : « ولدك هذا ذكى فلا تعلمه الجنديه لأن الجنود عندنا كثير وأنتم بيت مبارك فعلمه الطب » . وابتهج أبوه بهذه الملحوظة الصادرة عن الملك فعلم ابنه الطب فعلاً . وقد خدم أبو حليقه الملك الكامل فالملك الصالح نجم الدين أيوب فالملك المعظم وأخيراً خدم الظاهر ركن الدين بيبرس الذى أكرمه وأجزل له العطاء . وبعد هذه الخدمة الطويلة اعتزل مهنة الطب لكى يخلو إلى العبادة والانصراف إلى الروحيات . وخلال جهاده فى سبيل المحافظة على الأجسام سليمة كتب مقالتين احداهما عن « ضرورة الموت » وثانيتهما عن « حفظ

---

(١) الفن الاسلامى فى العصر الأيوبى لعبد العزيز مرزوق ص ٨٧ - ٩٠ .
(٢) « تاريخ الأمة القبطية » ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٧٥ - ١٨٣ .
(٣) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٣٨٨ .

الصحة » ، كما كتب كتابين : الأول عن الأدوية المفردة سماه « المختار فى الألف عقار » والثانى عن الأمراض وأسبابها وعلاماتها ومداواتها بالأدوية المفردة و المركبة » [1] .

ويبدو أن وصف السلطان الكامل لعائلة هذا الطبيب « بالبيت المبارك » كان تعبيراً صادقاً لأن ابن علم الدين ابن النصر جرجس كان طبيباً هو أيضاً بدوره مشهوداً له بأنه « أحاط » بعلوم الحكمة وقد بلغ منزلة كبرى عند الظاهر بيبرس وكان اسمه مهذب الدين وقد وضع كتاباً فى الطب . أما أخوه موفق الدين أبو الخير فقد برع فى صناعة الكحل حتى لقد صنف للملك الصالح نجم الدين أيوب كتاباً فى الكحل . كذلك بلغ أخوه الأصغر مصاف العلماء الحاذقين فى الطب [2] .

على أن فن الرسم لم يكن بالفن الوحيد الذى لاقى عناية كبرى عن المصريين - قبطاً ومسلمين - فى العهد الأيوبى بل إن فن العمارة الذى لايزال البعض من منتجاته باقياً للآن يشهد بأن البناء المصرى كان محتفظاً حتى ذاك ببراعته القديمة . ومن أبرع الأدلة على هذه البراعة تلك السلسلة المتماسكة من الأبنية ذات القباب الرشيقة المزخرفة زخرفاً مبتكراً يعرف بالمقرنص لا مثيل له فى أى فن سابق على العصر الأيوبى .

وإلى جانب هذه الفنون المختلفة برز فن التجارة - فقد كان النجارون فى العصر الأيوبى يزخرفون منتجاتهم بحشوات محفور عليها زخارف نباتية رائعة من بينها عناقيد العنب وآيات بالخط الكوفى والخط النسخ وبالتلوين والحفر والتطعيم . والقطع الخشبية الباقية من هذا العصر « تتجلى فيها الدقة فى الحفر والرقة فى الزخرفة والروعة فى الخط [3] » .

وثمة فن آخر برع فيه المصريون فى ظل الأيوبيين هو التفنن فى صناعة الأوانى الزجاجية . ذلك أنهم كانوا يعنون عناية كبرى بالعطور الزكية وبالعلوم الكيماوية فكانوا فى حاجة إلى القدور الزجاجية . ومع أن صناعة

---

(١) تراث القاهرة العلمى والفنى فى العصر الاسلامى لعبد الرحمن زكى ص ٤٤ .

(٢) شرحه ص ٤٤ - ٤٥ .

(٣) محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الأسلامى فى العصر الأيوبى ص ٥٠ .

الزجاج فى مصر كانت سابقة على العصر الأيوبى إلا أن زخرفته بالتذهيب ظهرت فى العصر الفاطمى بينما برع فنانو الأيوبيين فى ترصيعه بالميناء . وقد تمشى فن الخزف جنباً إلى جنب مع فن الزجاج وامتاز بالرقة والجمال والحيوية [1] .

ولقد برع هؤلاء الفنانين والمفكرين فى العصر الأيوبى نتيجة لاستقرارهم النفسى . فلما دالت دولة الأيوبيين أحسوا جميعاً بالأسى يدب إلى نفوسهم متساءلين عما عساه أن يكون نصيبهم فى ظل الدولة الجديدة : دولة المماليك الذين لا يعرفون غير الحرب والنزال والاستئثار بالحكم والتحزب المرير . ذلك لأن المماليك كانوا الوسيلة التى استعان بها كل سلطان شاء أن يقضى على منافسيه . يضاف إلى ذلك أنهم كانوا عبيداً فى قصور الحكام كما كانوا فى الوقت عينه من بلاد مختلفة ونزعات متباينة . صحيح أن غالبيتهم كانت من الجراكة والتركمان والأكراد ولكن كان بينهم الصقليون والأسبان . بل إن بعض الأسرى من الصليبيين الوافدين من الشمال الأقصى (كالبلاد الأسكندينافية) ضموا إلى هؤلاء المماليك . وهذا التباين الشاسع بين الجنسيات سبب كاف لشيوع الاضطرابات فكيف يكون الحال إذا أضيف إليه أن بعض هؤلاء الناس كانوا من المغامرين الذين باعوا الأهل والوطن بينما البعض الأخر سقط فى الاسر أو بيع رغماً عنه فامتلأت نفسه مرارة وحقداً ؟ لقد أقضوا مضجع التاريخ نفسه ! ويبدو لنا هؤلاء المماليك أشخاصاً أشبه بأبطال الأساطير : فقد كان الرضى والحقد والجرائم الشنعاء والنزعة الروحانية تمتزج فيهم امتزاجاً غريباً . فهم عبيد لا صلة بهذه الأرض الطيبة وليس هناك من حرمة يرعونها للأهل والوطن ومع ذلك فقد أقاموا من مصر امبراطورية مترامية الأطراف وبنوا روائع المساجد والمدارس والمستشفيات ما لم يبنه غيرهم !

وكان تورانشاه آخر الأيوبيين لأن المماليك تآمروا عليه وقتلوه . ولم يلبثوا أن قتلوا ابنه فأرملته شجر الدر وبهذه الاغتيالات الثلاثة استهلوا حكمهم ولكنهم سرعان ما اغتالوا قطز الذى كانوا قد أولوه السلطنة

---

(١) شرحه ص ١٦ - ١٧ و ٢١ و ٢٦ و ٢٨ - ٢٩ و ٥٠ و ١٠٦ - ١٠٨ .

واختاروا بيبرس مكانه . على أن هذه الوسيلة لم تكن في الاستهلال فقط بل استمرت الوسيلة الوحيدة المستساغة لدى المماليك طيلة مدة حكمهم إلا أنها في بداية الأمر كانت التعبير عن تصميم المماليك على تصفية الحكم الأيوبى والقبض على زمام السلطة « وهنا يثور على الفور السؤال الهام : وأين كان الشعب المصرى من ذلك كله ؟ الواقع إنه لم يكن غائباً عن كل ما يجرى . ولكن وجوده كان يتخذ أشكالاً متعدده تتفق وطبيعة الشعب نفسه ، وصراع القوى الذى يحدث ، وامكانيات التحرك المتاحة [1] » .

وأول المماليك وأقواهم سطوة هو الظاهر بيبرس الذى أقام دولة المماليك البحريين [2] . وقد وصفه أحد الكتاب بقوله أنه « شابه يوليوس قيصر فى شجاعته ونيرون فى خبثه وحقده ومع ذلك فقد كان عاقلاً عفيفاً عادلاً أحسن معاملة رعاياه حتى لقد شملت عدالته المسلمين والقبط على السواء [3] . بينما نقرأ أيضاً أنه كان « من القبط رجل اسمه التاج بن سعيد الدولة يعانى الكتابة وهو يومئذ فى خدمة الأمير بيبرس وقد احتوى على عقله واستولى على جميع أموره . كما هى عادة ملوك مصر وأمرائها » [4] .

٢٢٦ - على أنه فى فترة انتقال الحكم من أيدى الأيوبيين إلى أيدى

---

(١) عن مقال للدكتور وليم سليمان بعنوان « القاهرة فى مصر المملوكية » نشر فى مجلة الطليعة « العدد الثانى - السنة الخامسة - فبراير سنة ١٩٦٩ ص ٤٨ .

(٢) كان الصالح أيوب قد بنى للمماليك ثكنات على البحر « النيل » ومن هنا كانت تسميتهم بالبحريين على أن هناك من يقول بأن هذه التسمية ترجع الى كونهم جاءوا من وراء البحار - « راجع تاريخ مصر الأسلامية : العصران الأيوبى والمملوكى » للدكتور جمال الدين الشيال ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٣) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بوول ص ٢٦٣ .

(٤) « تاريخ الأمة القبطية » ليعقوب نخلة روفيلة ص ٢١٦ ، الخطط للمقريزى جـ ١ ص ٦٩ - ويلاحظ القارىء أن تطور اللغة لا يمتد الى استعمال ألفاظ جديدة فقط بل يشمل التغيير فى معنى اللفظ أيضاً ، فالمقريزى استعمل كلمة « يعانى » بمعنى « يمارس » خلافاً للمعنى الشائع الآن لكلمة « يعانى »

المماليك رأى المصريون جميعاً (قبط ومسلمون) أن القتل والغدر كانا الوسيلة التى وصلت بها الدولة الجديدة إلى الحكم . فامتلأت القلوب مخاوفاً .

وفى وسط هذا الضيق الجاثم على صدور المصريين تبادل الأنبا يؤنس السابع والأنبا غبريال الثالث السدة المرقسية بطريقة غير مألوفة وغير لائقة . فقد حدث فى « سنة ١٢٦١ م - وهى السنة التى انتقل فيها الأنبا أثناسيوس الثالث إلى الأخدار السماوية - أن كان الشعب يقدر راهبين تقديراً متساوياً : أحداهما يؤنس السكرى وثانيهما غبريال ابن اخت الأنبا بطرس أسقف طنيدى وتساوت الأصوات التى نالها كل منهما فرأى المسئولون أن يلجأوا للقرعة الهيكلية . وعلى ذلك اجتمعوا فى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) حيث اقاموا صلاة القداس ثم سحبوا القرعة فوقعت على الراهب يؤنس السكرى . على أن الخصام دب دبيبه بين الفريقين لأن أنصار الراهب غبريال لم تعجبهم النتيجة مع أنهم كانوا موافقين على مبدأ الاحتكام إلى القرعة الهيكلية فأخذوا يجدون السعى لتجليس مرشحهم على الكرسى البابوى . ولكن أنصار يؤنس كانوا أقوى نفوذاً إذ كان بينهم عدد من كبار رجال الدولة فنجحوا فى رسامة مرشحهم خليفة للقديس مرقس فى الثامن من شهر طوبى المبارك سنة ٩٨٧ ش باسم يؤنس السابع .

٢٢٧ - وفى تلك الأثناء استطاع « يكونو أملك » مللك الحبشة أن يستعيد العرش السليمانى من أسرة مغتصبة له . فأرسل إلى مصر - عن طريق صاحب اليمن - يرجو من البابا الاسكندرى أن يرسم لهم مطراناً . إلا أن الظاهر بيبرس لم يأذن للرسول الآتى من اليمن يحمل رسالة الملك الحبشى بالدخول إلى مصر . ولما كان يكونو أملك فى حاجة إلى مطران يمسحه ملكاً ليدين له الشعب بالولاء ، إرسل إلى بطريرك أنطاكية يرجو منه رسامة مطران لبلاده - فتم له ما أراد وبذلك حدثت جفوة بين مصر والحبشة .
وكأن هذه الجفوة لم تكن كافية لأن تقلق القلوب فقد أراد السلطان الظاهر بيبرس أن يحرق القبط كلهم ، إلا أنه كان هناك من تشفع فيهم من مواطنيهم فلم ينفذ السلطان رغبته التخريبية واكتفى بأن أخذ منهم خمسين

ألف دينار [١] .

٢٢٨ – ثم حدث أن تأخر داود ملك النوبة عن دفع البقط [٢] . فرأى بيبرس بدهائه أن يمهد لنفسه السبيل قبل مقابلته . وعلى ذلك سعى إلى استمالة شيكندا ابن أخى الملك داود ونجح فعلاً فى ضمه إلى صفوفه . ثم حارب بيبرس داود وانتصر عليه وقتله . وعندها أقام شيكندا ملكاً على النوبة . ومن حسن حظ بيبرس أن شيكندا الذى خان عمه حفظ العهد الذى أخذه على نفسه بعد توليه الملك وهو أنه أقسم بأن يؤدى البقط من جديد كما أقسم بأن يدفع سنوياً نصف دخله لمصر مرفقاً به ثلاثة فيلة وثلاث زرافات وخمس نمور ومئة هجين وأربعمائة ثور [٣] .

كذلك نجح بيبرس فى ضم السودان إلى مصر كما استولى أسطوله على قبرص . بل أنه قبيل وفاته كان سلطانه ممتداً من ساحل الفرات إلى جنوب بلاد العرب مشتملاً شلال النيل الرابع [٤] .

٢٢٩ – وقد تولى الأنبا يؤنس السابع مهام بابويته مدة ست سنوات وتسعة أشهر وتسعة عشر يوماً . وكان الفريق الآخر قد تمكن بعدها بما بذل من جهود من خلع الأنبا يؤنس وتجليس مرشحهم باسم الأنبا غبريال الثالث الذى لم يتح له الجلوس على السدة المرقسية غير سنتين وشهرين انزوى الأنبا يؤنس خلالها فى ديره . ولما كانت نياحة الأنبا غبريال الثالث سابقة على نياحة الأنبا يؤنس السابع فقد عده المؤرخون الكنسيون فى سلسلة الباباوات الاسكندريين السابع والسبعين ووضعوا الانبا يؤنس من بعده فى هذه السلسلة .

---

(١) الخطط للمقريزى جـ ٢ ص ٣٠٢ طبعه روفائيل عبيد – القاهرة سنة ١٨٩٠ ، قصة الأقباط فى الأرض المقدسة لديمترى رزق ص ٣٠ .

(٢) البقط هو العدد المعين من العبيد الذى كان مفروضاً عليه أن يقدمه لمصر سنوياً .

(٣) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بوول ص ٢٦٢ – ٢٧٥ موجز تاريخ مصر الاسلامية من الفتح العربى الى الفتح العثمانى (بالفرنسية) لجاستون فييت ص ٢٣٢ – ٢٣٤ .

(٤) القاهرة ... للدكتور عبد الرحمن زكى ص ١٠٥ .

ورغم قصر المدة التى قضاها الأنبا غبريال على الكرسى المرقسى فإنه قام بتكريس الميرون المقدس .

٢٣٠ - على أن المطران الأنطاكى الذى كان قد رسم بناء على رغبة يكونو أملك كان محباً للمال ، وفى الوقت عينه كان الشعب الحبشى على ولائه للبابا المرقسى فكان يتطلع إلى مطران مرسوم منه . فكانت النتيجة أن ثار الأحباش على المطران الأنطاكى ثورة جعلت يجبيا سيون بن يكونو أملك يرسل إلى الأنبا يؤنس السابع رسالة قال له فيها : « أتوسل للبطرك - بطرك الاسكندرية - أبو يحنس ... اسمع كلامى واقض حاجتى وابعث لى مطران جيد صالح يعلمنى كل شىء جيد ... وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم ... ولأجل محبتنا فى بطريركية مصر ما خليناهم ... وما كانوا قعدوا عندنا إلا بوالدنا لأنه ما كان عنده أحد من جهتك . سير إلينا مطراناً حتى يشكرك الرب المسيح . واذكر مرقس (الرسول) لا تخلينا بخطيتنا ... ولا تخلى هؤلاء السريان فى بلادنا ونخرجهم إذا قلت اطردهم ، وإن قلت خلوهم خليناهم ، وإن أنكرت علينا بسببهم فاغفر لنا هذا الذنب حتى لا تبقى علينا خطية واغفر لكل من عندنا وتكون بركتك علينا فى الحياة وفى الموت » . كلام آخر « السلام لك يامنصور . اسمع ياسلطان مصر نصرك الله أعط البطرك الدستور يبعث لى أسقفاً فنحن وهم أمانتنا واحدة من زمن مرقس وإلى اليوم . والرسم الذى لك والتقدمة أنا اغطيه إذا سيرت لى أسقفاً . وإذا سيرته أنا انقضى منه عن رسمك ومهما قال فعلته [١] .

ولقد وهب يكونو أملك للكنيسة ثلث ايرادات الدولة للصرف منها على احتياجاتها [٢] . وكانت اللغة العربية قد أصبحت لسان القبط المتداول بينهم والذى يكتبون به آدابهم وعلومهم فبدأ فى مصر مذاك أدب مسيحى عربى وكان الأحباش يستقون معلوماتهم الدينية والأدبية من إخوتهم القبط . ولما

---

(١) « قصة الأقباط فى الأرض المقدسة » لديمترى رزق هامش ص ٣١ - ٣٢ ويذكر المؤلف أن يجبياصيون أرسل أيضاً خطاباً منفرداً الى السلطان . ومما تجدر الاشارة اليه بساطة التعبير والألفة البادية فى كلمات الخطاب الخالى من كل تنميق .

(٢) كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا للدكتور زاهر رياض ص ٩٥ .

كان يكونو أملك صاحياً قوياً حث شعبه على طلب العلم فسرت فى بلاده حيوية نبعت من مصر . ذلك لأنه قامت وتتذاك حركة واسعة النطاق لترجمة ما كتبه الآباء المصريون إلى اللغة الأمهرية أولاً . وقد بدأت هذه الحركة فى القرن الثالث عشر الذى نحن بصدده . فكما أن الأحباش أخذوا ما كتبه الآباء الأولون بالقبطية كذلك أخذوا ما كتبوه ابتداء من هذه الفترة بالعربية . وابتداء من القرن الرابع عشر لم يكتف المترجمون بنقل كتب الآباء إلى الأمهرية بل ترجموها إلى الجعزية التى ذاعت عن خلالها أغلب الكتب اللاهوتية والكنسية . وقد رأس حركة الترجمة فى النصف الأول من القرن الرابع عشر المطران القبطى . وقد عبر الأحباش عن تقديرهم لمجهوداته بأن أطلقوا عليه لقب « الأب تراجوامانا » . وقد بدأ بمراجعة الترجمة الموجودة باللغة الحبشية القديمة للكتاب المقدس ومقارنتها بالنص العربى . ثم نشر طبعة جديدة لهذا الكتاب الذى هو قاعدة التعاليم الروحية لدى المسيحيين جميعاً . كذلك ترجمت قوانين الرسل (الدسقولية) والقصص الخاصة بآدم وحواء وأعمال الرسل ، ثم الليتورجيات (القداسات) والميامر وسير القديسين والشهداء والسنكسار ، تبعتها ميامر أخرى وعجائب السيدة العذراء ، وعجائب مارجرجس الذى من اللد وسيرته .

ومن نعمة الله أن تمت هذه الترجمات وانتشرت لأن هناك كتباً كثيرة ضاعت فى الأصل (القبطى أو العربى) ولكنها بقيت فى الترجمة الحبشية مما يضاعف قيمتها طبعاً . ومن أشهر الكتب التى ضاعت كتاب التاريخ الذى وضعه يؤنس النيقيوسى وترجمه شماس قبطى وزميل حبشى له ، فقد جاء فى ختامه : « لقد عنيت أنا الحقير بين الناس والشماس غبريال الابن الروحى ليؤنس القصير بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الحبشية القديمة بمنتهى الدقة ، وقد أدينا هذه الترجمة نزولاً على إرادة الملكة مريم سنا وأثناسيوس قائد الجيش الحبشى »[1] .

وهناك كتابان فى التاريخ أولهما كتبه جرجس بن العميد الملقب بابن المكين وثانيهما وضعه أبو شاكر بن الراهب أبو الكرم بطرس بن المهذب

---

(١) قصة الكنيسة القبطية . الكتاب الثانى ص ٢٨٤ - ٢٨٨ .

شماس كنيسة المعلقة ، وكلاهما عن تاريخ العالم بصفة عامة وعن تاريخ مصر بالتفصيل والتدقيق . وقد ترجم كلاهما أيضاً [١] .

والكتب وإن كانت أعظم ماقدمته الكنيسة القبطية لأبنائها من الأحباش أن هناك تقدمات أخرى إلى جانبها . ومن بين الأعمال المعمارية الضخمة سلسلة من الكنائس شيدت فى حكم الملك لاليبالا (فى أوائل القرن الثالث عشر) . والمخطوطات الباقية من هذا العهد تصل بنا إلى أن بنائيه كانوا من القبط . فالمخطوطة المعروفة بمخطوطة رافراى تقول بأن الملك التقى لاليبالا أمر بأستحضار أربعمائة أو خمسمائة عامل من أورشليم ومن الأسكندرية وتشمل هذه المخطوطة على صفحة عجيبة مكتوبة بثلاث لغات هى القبطية والعربية والجعزية . وكاتب هذه الصفحة رجل اسمه سيدى مسقل الذى يبدو أنه المهندس والبانى لهذه الكنائس .والنصف الأول من اسمه عربى فى حين أن النصف الثانى هو الكلمة الأمهرية لكلمة « صليب » فمن الواضح أنه كان قبطياً اتخذ أسماً أمهرياً حين ذهب إلى الحبشة . والعجيب أن أهل المنطقة إذا ما سئلوا عمن بنى هذه الكنائس يجيبون بأنهم «أشخاص بيض » ساعدتهم الملائكة فكان هؤلاء البيض يبنون فى النهار بينما يبنى الملائكة فى الليل . ومن المعروف أنه فى العصر الذى شيدت فيه كنائس لاليبالا كان القبط يعانون الاضطهاد فنزح بعض منهم إلى الحبشة واستوطنوها كذلك يرى الاخصائيون أن هذه الكنائس المنحوتة فى الصخور لايمكن أن تكون من عمل بنائين محليين ، ولها نظائر فى البلاد المصرية سواء منها ما شيد فى عهد الفراعنة أو خلال القرون الوسطى فالمصريون من عهود قديمة بنوا معابدهم منحوتة فى الصخر ، وهم جيران الأحباش ، وليسوا جيراناً فقط بل هم جيران مترابطون ، والتاريخ ينبئنا عن الأعمال المعمارية التى قام بها الصناع والفنانون القبط فى تونس وفى فلسطين وفى غيرهما من بلاد هذا الشرق القديم . فمن الطبيعى أن يتجه الأحباش بأبصارهم إلى المصريين ، ومن الطبيعى أيضاً أن يلبى المصريون طلب إخوتهم الأحباش . خصوصا إذا تذكرنا أنه فـى تلك العصور لم تكن أوربا

---

(١) ترجمات من العربية إلى الأدب الاثيوبى (بالانجليزية) مقال للدكتور مراد كامل نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية العدد السابع (سنة ١٩٤١) ص ٦١ - ٧١ .

(وبالتالى أمريكا) لها وجود فى القارة الأفريقية . فلم يكن غير الأفريقيين مع بعضهم البعض . فإذا ما تأملنا كل هذه الروائع وصلنا إلى أن القبط لا محالة هم الذين قاموا ببناء كنائس لاليبالا [1] .

ولما انتقل الأنبا غبريال إلى بيعة الأبكار أعيد الأنبا يؤنس السابع إلى السدة المرقسية . ومن أرق ماقيل عن انسان تلك الكلمات التى وصف بها هذا البابا الاسكندرى وهى : « كان رجلا جليل القدر وقوراً واسع العلم والمعرفة . فلما استقر به المنصب دبر الأمور فأحسن التدبير وعمل على ازالة الوحشة من بين الأحزاب وبالغ فى التلطف مع الحزم ففاز ونجح ومالت إليه القلوب واتحدت على محبته الخواطر . فعظمت شهرته واتسعت كلمته وطالت أيامه » [2] .

على أن الحالة السياسية إذ ذاك كانت عصيبة بسبب ما ساد مصر من الفتن والقلاقل . وكان الدافع لهذه الفتن فداحة الضرائب المتزايدة والتشدد فى فرض ملابس خاصة على القبط وترك العامة يتهجمون عليهم بلا رادع [3] . فبذل الأنبا يؤنس جهوداً عنيفة فى سبيل شعبه إذ قد راعه أن يجد الكثيرين منهم يخورون فيجحدون المسيح .

ولقد ظلت مدة رياسته ـ عدا السنين الست الأولى ـ اثنين وعشرين سنة وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوماً انتقل بعدها إلى الأخدار السماوية فامتلأت القلوب حزناً لفقده إذ قد أحس الجميع بما يشبه لوعة اليتيم لأنهم كانوا قد وجدوا فى هذا الراعى الأمين أباً واساهم فى شدائدهم ونكباتهم وعرف أن يسكب الهدوء والطمأنينة على نفوسهم [4] .

---

(١) كنائس لاليبالا الضخمة (بالانجليزية) مقال للويس فيندلاى نشره فى مجلة الآثار القبطية العدد التاسع سنة ١٩٤٣ ص ٢١ - ٢٣ ، كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا لزاهر رياض ص ٩٨ - ٩٩ - وقد سبقت الاشارة إلى هذه الروائع المعمارية فى ف ٥٦ .

(٢) الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث « لميخائيل شاروبيم » جـ ٢ ص ٤٩٥ .

(٣) الخطط للمقريزى جـ ٤ ص ٤٠٢ - ٤٠٤ (طبعة أهلية) .

(٤) تاريخ بطاركة الاسكندرية ـ الحلقة الثانية ـ جمعه الشماس كامل صالح نخلة طبع بدير السيدة العذراء الشهير بالسريان ص ١٦ - ٢٢ .

ب - الأنبا برسوم العريان

٢٣١ - كان تورانشاه آخر الملوك الأيوبيين . وكان الشرق الأوسط فى عهده وعهد أبيه الملك الصالح يسوده الاضطراب الناشىء عن الحروب الصليبية ولما كانت الحروب التى قام بها الصليبيون لم تنته بانتصار حاسم فقد ظلت نيرانها تصلى الشرق فترة طويلة .

وفى سنة ١٢٦٠ م انتصر الملك الصالح على الصليبين انتصاراً أتاح له أن يسيطر على المنطقة الواقعة من غزة جنوباً إلى القدس شمالاً ، فحفزه هذا الانتصار على الزحف نحو حمص ولكنه اضطر إلى البقاء فى دمشق لمرضه . وبينما هو هناك بلغه أن امدادات جديدة فى طريقها إلى الشرق ، وأن خمسين ألفاً من الجنود الفرنسيين بقيادة ملكهم لويس التاسع يزحفون على دمياط . فنسى الملك الصالح مرضه وبدأ يستعد للمعركة . ولم يلبث أن وصل إلى دمياط وقام بتحصين المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم مدينة المنصورة للنصر الذى تم فيها على لويس التاسع غير أن المنية عاجلت الملك الصالح قبل أن يصطدم فتولى ابنه تورانشاه - المعركة . وبعد جزر ومد انتصر المصريون انتصاراً ساحقاً وأسروا الملك لويس التاسع والضابط الذى يليه فى القيادة وهو السنيور دى جوانفيل وسجنوهما فى دار بن لقمان ثم اضطروا الفرنسيين إلى دفع فدية عن ملكهم مقدارها مئة ألف جنيه [١] ، وإلى الاجلاء تماماً عن الأراضى المصرية بلا قيد ولاشرط . وكان هذا النصر المبين نهاية الحروب الصليبية فى مصر .

وفى فترة المفاوضات مع الجيوش المغيرة تآمر المماليك البحريون على الملك تورانشاه وقتلوه بالاتفاق مع زوجته شجر الدر . فأخفت خبر مقتله

---

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بول ص ٢٣٩ .

وأتمت المفاوضات وبعد انسحاب الفرنسيين أعلنت النبأ وتولت الملك بنفسها .

٢٣٢ - وبين الرجال الذين ائتمنهم شجر الدر على خدمتها قبطى اسمه الوجيه مفضل الذى اتخذته كاتماً لأسرارها (سكرتيراً) وكان الوجيه مفضل وزوجته يتقيان الله ويحفظان وصاياه ، فكانا يوزعان المال الوفير على المعوزين والمسجونين . وكان لهما ولد وحيد اسمه برسوم .

٢٣٣ - ولما بلغ برسوم سن الشباب فقد والديه . ولاحظ أن خاله طامع فى الثروة التى خلفاها له فتنازل له عنها وعاش فى مغارة خارج الفسطاط مدة خمس سنين قضاها فى النسك والعبادة . ولتقشفه لم يستتر بغير منطقة من جلد الماعز حول حقويه فأطلق عليه مواطنوه لقب « العريان » ثم ترك المغارة وقصد إلى كنيسة القديس مرقوريوس (المعروف بأبى السيفين) لأن بها حجرة مربعة أشبه بالمغارة واقعة عن شمال الداخل إلى الكنيسة وهى منخفضة عن سطح الكنيسة يصلها الزائر بهبوط خمسة عشر درجة . وحينما دخلها الأنبا برسوم لأول مرة وجد بها ثعباناً ضخماً . فرسم بعلامة الصليب المقدس وهتف مع داود النبى: « على الأفعى وملك الحيات تطأ وتسحق الأسد والتنين ... الرب نورى وخلاصى ممن أخاف »[1] ولبد الثعبان فى ركنه فى سكون تام وعندها وجه القديس إليه الخطاب قائلاً : « من الآن تكف عن ايذاء الناس وتخضع لى للسلطان الذى منحه إياى ربى عليك » وقد خضع الثعبان له بالفعل وعاش مع القديس فى المغارة عينها عشرين سنة . ولقد أقيم مذبح فى هذه المغارة بعد حياة الأنبا برسوم ، وتقام عليه شعائر القداس الإلهى مرة فى السنة فى يوم ذكرى نياحة القديس . ويحضر هذا القداس المرضى والمقعدون وكل من يكون لدغه ثعبان أو عقرب . وينال العدد الكبير منهم الشفاء ببركة شفاعة رجل الله الذى استطاع أن يقهر طبيعة الثعبان حتى وهو بعد فى الجسد .

٢٣٤ - ولقد ذاع صيت برسوم العريان فى كل الأرجاء فقصد إليه المصريون - قبطاً ومسلمين - لينالوا بركته وليسترشدوا بحكمتـه الروحية

---

(١) مزمور ٩٠ فى الأجبية (٩١ /١٣ فى الكتاب المقدس) ، ٢٦ فى الأجبية (٢٧:١ فى الكتاب المقدس)

فى أمورهم الخاصة . ومن بين الذين جاءوا إلى المغارة طلباً لنصحه وتوجيهاته معلم أطفال اسمه مكين . وكان هذا المعلم قد سئم مهنة التدريس لما فيها من عناء ولما يتعرض له القائم بها من مضايقات تأتيه من أولياء الأمور أكثر مما تأتيه من تلاميذه . ولما سئمها فكر فى أن يستبدلها بمهنة أخرى . ولكنه قرر أن يستشير القديس قبل أن ينفذ رغبته فعلاً . فلما وصل إليه وجلس بين يديه تفرس فيه القديس فى هدوء وابتسام وابتدره بالحديث قائلاً : « حضورك فى هذه الساعة من قبل الله » وشعر مكين بشىء من الدهشة وتعلقت عيناه بوجه القديس الذى استطرد يقول : « انسان يبتغى أن يبنى كنيسة مثل هذه البيعة التى للشهيد العظيم أبى السيفين - ترى كم من المال والجهد ينبغى عليه أن يصرف فى هذا السبيل ؟ » أجابه مكين : « لا ياسيدى الأب - أنها تحتاج إلى مال كثير ولا يستطيع أن ينهض واحد بمفرده باقامتها » . فكرر الأنبا برسوم العريان السؤال عينه على مكين مرتين أخرتين وهو يجيبه نفس الأجابة . وبعد ذلك قال له القديس : « إذا حفظ طفل « أجيوس » التى تفسيرها قدوس الله إلى آخرها وسبح بها وبغيرها من الألحان الكنسية فى البيعة المقدسة كان معلمه عند السيد المسيح أبر وأكثر قبولاً ممن يصرف الأموال الجزيلة على عمارة الكنائس . لأن صناعة التعليم والمداومة على تلاوة كتب الله وأغانى الروح أفضل من سائر الصنائع » . ولقد تعزى قلب المعلم مكين بهذه الكلمات . فنهض وضرب « المطانوة » [1] للأنبا برسوم العريان ثم عاد إلى تدريسه هانىء النفس [2] .

٢٣٥ - ثم اشتعلت إذ ذاك فتنة أثارها بين الرعاع مغربى كان ماراً بمصر فى طريقه إلى الحج . ونتج عن هذه الفتنة أن قبض الوالى على عدد كبير من القبط من بينهم برسوم العريان الذى ما أن وجد نفسه داخل

(١) المطانوه كلمة يونانية الأصل ، قبطية بالاستعمال ومعناها الاستغفار مع الانحناء حتى تمس الجبهة الارض .

(٢) عن الكتاب المقدس من أخبار السادات الآباء القديسين مخطوط رقم ٥١ تاريخ محفوظ بمكتبة البطريركية القبطية بالقاهرة ص ١٥٧ .

السجن حتى أخذ يضرع إلى الله لكى يرفع عـن شعبه ما حل بهم مـن بلاء . فاستجاب الآب السماوى إذ صدر الأمر بالافراج عنه وعمن معه من المسجونين القبط ، كما صدر أمر بالكف عن مضايقة القبط ، وتأمينهم على أعمالهم .

ولما خرج القديس من السجن قصد إلى دير شهران حيث عاش فوق سطحه مداوماً على نسكه وتأملاته واستشفاعه فى شعبه . ثم انتقل إلى بيعة الأبكار فى الستين من عمره .

وقد بنى القبط كنيسة على اسم الأنبا برسوم العريان فى المعصرة – حوالى منتصف الطريق بين القاهرة وحلوان . ولا تزال هذه الكنيسة قائمة حتى الآن يذهب إليها مئات الزائرين فى أيام تذكار هذا القديس (١) .

ومن الملاحظ أن هذا القديس يذكر اسمه على المذبح المقدس وقت رفع الذبيحة مع زميل له هو القديس رويس الملقب «تيجى» وهما لم ينالا أى رتبة كنسية ولا قبلا الطقس الرهبانى ولا نالا الشهادة ، ولكن سيرة حياتهما وزهدهما الشديد وحبهما للتجرد من مظاهر الدين والدنيا معاً أهلتهما لدى الكنيسة الواعية اليقظة لينالا كرامة كأعظم القديسين .



وبمناسبة تذكار نياحة القديس أنبا برسوم العريان كتبت مرثا منصور مقالا عنه فى جريدة « وطنى » الصادرة فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٧. نقتطف منها الأعجوبة التالية :

وقد ظهر على يدى هذا القديس عجائب كثيرة نذكر منها فقط : كان كاتب قد أراد السفر إلى جهة معينة فقصد دير القديس لكى يأخذ منه البركة فلما رآه القديس صرخ فى وجهه قائلاً له : « الأحسن لك أن تعود إلى منزلك ولا تسافـر قبل أن تطفأ النار التى بلغ عجاجها أطراف السماء

(١) السنكسار الأثيوبى ... ترجمة واليس بودج جـ ٤ ص ١٢٨٣ - ١٢٨٦ .

وهذا لا يكلفك أكثر من ألفى جنيه » فلما سمع الرجل ذلك قبل يديه وقال له استحلفك بالله أن تخبرنى عن كيفية حصول هذا الحريق وفى أى مكان ، فقال له : أذهب إلى الباب الشرقى تجد بيتاً . اطرق بابه وأدخل سريعاً تجد النار تلتهب فأسرع باطفائها ثم سافر بعد ذلك أينما تريد » . فلما توجه الرجل إلى ذلك البيت تذكر أنه بيت أحد أصدقائه الذى عينه وصياً على أهله قبل وفاته وقد نهب جميع ماله ، فلما طرق الباب ودخل وجد النساء عراة الجسد يبكين لما حل بهن من الجوع والفقر فقال لهن « لماذا أنتن بهذه الحالة السيئة ؟ » فأجابته احداهن وقالت له « لماذا تسأل وأنت أدرى منا بحاجتنا . ألم نتوسل إليك مرات كثيرة أن تعطينا شيئاً نقتات بـه فلم تقبل ؛ وأخذت كل أموالنا التى أتتمنك عليها فقيدنا وهانحن الآن لنا ثلاثة أيام لم نتذوق فيها الطعام وصرنا نتضرع إلى أب الأيتام أن يجازيك عما جنت يداك » . فبكى الرجل كثيراً وندم وطلب منهم الصفح عنه وأعطاهم ألفى جنيه وعرفهن أنه مستعد لقضاء كل مصالحهن مادام حياً ثم رجع إلى القديس وأخبره بما حصل فقال له القديس الآن قد أخمدت لهيباً كان دخانه صاعداً إلى السماء نحو كرسى الحق ، فاذهب كما تريد ولتكن نعمة الرب معك مادام قد رفع غضبه عنك .



جـ - التفكك الأليم

٢٣٦ - الاستقرار فى رسامة البابا التاسع والسبعين .
٢٣٧ - خيبة أمل قاسية .
٢٣٨ - ضيقات متنوعة .
٢٣٩ - تكريس الميرون .
٢٤٠ - انتقال الانبا ثيئودوسيوس إلى مساكن النور .
٢٤١ - تطور فى وجهات النظر .

٢٣٦ - وهدأت العاصفة السياسية التى كانت قد اجتاحت مصر : ذلك لأن بيبرس رغم المعارك التى خاضها على حدود مصر وفى البلاد السورية قد استطاع أن يقر الأمن فى البلاد . فهو قد بسط العدالة من جانب ، ومن الجانب الآخر حفظ التوازن فى الإدارات المدنية وعهد لعدد من القبط بهذه الإدارات[١] .

ثم قام بزيارة مفاجئة لمديرية الغربية ووصل إلى دمياط فالاسكندرية . ثم سافر فى طريق الصحراء وقضى بعضاً من الوقت فى أديرة وادى النطرون حيث بادل الآباء الكرم والمودة[٢] .

كذلك أنشأ بيبرس مركزاً للاسعاف فى خيمة جمع فيها شتى العقاقير وعهد بها إلى عدد من الأطباء والجراحين[٣] . ثم أنشأ بريداً منتظماً بين القاهرة ودمشق إذ أقام مراكز على مسافات متساوية ، وفى كل مركز جياد مطهمة وفرسان مدربون وفيه أيضاً الحمام الزاجل المهيأ لحمل الرسائل ، وكان البريد يتم مرتين أسبوعياً من القاهرة إلى دمشق وبالعكس . وإلى جانب كل مركز للبريد أقيم خان به عدد من الغرف تتوسطه نافورة إلى جانبها بئر لكى يجد الناس والخيول والحمام مكاناً للأكل والراحة . وكان المقيمون فى مراكز البريد لا يقدمون الخيول إلا لمن يبرز لهم الأوراق الرسمية التى تثبت أنه يعمل فعلاً فى هذه المهنة[٤] .

---

(١) « تاريخ الأمة المصرية ... » المبحث الثانى لجاستون فييت ص ٣٩٩ .
(٢) شرحه ص ٤١٥
(٣) شرحه ص ٤١٦
(٤) شرحه ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .

على أنه لما كانت شيمة المماليك الغدر والتحاسد فإن الظاهر بيبرس رغم بطولته وانتصاراته المتوالية على فلول الصليبيين وعلى المغول ، ورغم المعاهدات التى أبرمها مع امبراطور القسطنطينية وغيره من الحكام المسيحيين لتأمين حدود بلاده - رغم هذا كله فقد مات مسموماً . وبموته انتقلت السلطنة بعد أقل من ثلاث سنين إلى قلاوون [١] .

وتنفس المصريون الصعداء حينما استتب السلام . على أن الأنبا يؤنس السابع لم ينعم بهذا الهدوء إذ قد انتقل إلى العالم الباقى قبل استقراره . وانقضت خمسة عشر شهراً دون أن يفكر أولو الأمر فى حاجة الكنيسة إلى الراعى الأول . وبعد هذه المدة اجتمع الاساقفة وتشاوروا معاً من غير أن يرسلوا فى طلب الأراخنة للتشاور معهم خلافاً لما تقتضى به التقاليد ، واستقر رأيهم على الراهب عبد المسيح ابن المكين من دير أبى فانا [٢] . فرسموه البابا المرقسى التاسع والسبعين باسم ثيئودوسيوس الثانى سنة ١٢٨٦ م .

٢٣٧ - على أن الأساقفة أصابتهم خيبة أمل قاسية لأن الشخص الذى أولوه ثقتهم - متغاضين فى ذلك عن رغبة الشعب - كان محباً للمال فنهج منهج السيمونية كما رفض أن يصغى إلى نصح الناصحين واشتد الشعور

(١) شرحه ص ٤٢٦ ، تاريخ مصر الاسلامية : العصران الأيوبى والمملوكى للدكتور جمال الدين الشيال ص ٢٢٥ - ٢٣٠ .

(٢) أحد الأديرة التى لم يعد لها أثر وكان فى وسطه أبنية عديدة وحديقة وبرج منيع ، ولم يبق من هذا كله غير سور مربع تتداعى جدرانه . أما الكنيسة فباقية الى اليوم ، وهى مقسمة الى ثلاث أسواق يفصل بينها اثنا عشر عاموداً ، والسوق الوسطى تنتهى بحنفية على شكل نصف دائرة ، ولها معبدان هما كجناحيها على شكل عارضتى الصليب . أما المعبدان القائمان على جانبى الحنفية على خط واحد والقهاب التى تعلو جناحى الصليب والمدخل المبنى على جانب الكنيسة فكل ذلك من الطراز القبطى . وقد أكثر المصور الذى نقش هذه الكنيسة الأثرية الجميلة - من رسم علامة الصليب فى كل نواحيها . وهذه الرسوم أعجب ما يرى فى الكنيسة وهى ناصعة الألوان منظمة على طرائق شتى بصناعة بالغة حد الاتقان والاحكام . أنظر دائرة المعارف القبطية رمزى تادرس جـ ١ ص ٦٠ .

بالخيبة إلى حد الثورة الجامحة مما جعل بعض الأساقفة يمتنعون من ذكر اسم الأنبا ثيئودوسيوس الثانى فى القداسات وغيرها من الصلوات الكنسية . وفى هذا المسلك أيضاً شذ هؤلاء الآباء عن التقليد الكنسى الذى يقضى بالصلاة من أجل البابا الاسكندرى . ولكنهم لم يلبثوا أن استعادوا هدوءهم النفسى فعاودوا الصلاة من أجل باباهم .

وفى تلك الفترة بعث يجيباسيون ملك الحبشة إلى السلطان محمد بن قلاوون برسالة يخبره فيها بأنه يعامل المسلمين فى بلاده بكل تسامح ويطالبه - مقابل هذه المعاملة - وأن يبدى التسامح الدينى مع القبط لكى تتدعم بذلك علاقات الود والألفة بين البلدين .

أما داود ملك النوبة فلم يجد للكتابة نفعاً فسار على نصح الشاعر القائل بأن « السيف أصدق أنباء من الكتب » بأن غزا الصعيد بجيشه . واستنجد السلطان بالبابا المرقسى الذى بادر بالكتابة إلى ملك النوبة يطمئنه إلى حالة القبط فى مصر ويرجو منه سحب قواته . إلا أن الملك النوبى لم يسحب جيشه فعلاً إلا حينما وصله تعهد من السلطان بحسن معاملة القبط .

٢٣٨ - ولكن متاعب أخرى كانت بالمرصاد إذ قد جاء الفيضان ناقصاً للغاية فتضاءل الحصاد وارتفعت الأسعار ارتفاعاً لم يسبق له مثيل فمات مئات من الناس جوعاً . وعندها ارتفعت القلوب إلى الله تعالى وكأن لسان حالها قد استبقى ذلك البيت الشعرى الذى قاله أمير الشعراء مخاطباً الخالق :

ففى أى وجود غير جودك أطمع ... ولأى باب غير بابك أقرع
سدت على مذاهبى ومسالكى ... إلا إليك فما عساى أصنع

وترددت هذه الابتهالات وتجاوبتها الأصداء فاستجاب لها الآب السماوى برحمته إذ قد جاء الفيضان التالى وافياً ، وبدا كأن ميزان الحياة سيستعيد استقامته . ولكن قبل أن يتركز على عاموده فعلاً صدر أمر من السلطان محمد بن قلاوون بعمل سجلات لكل الأراضى الموقوفة على الكنائس والأديرة واحضارها إلى « ديوان الأحباس » [١] فلما تم تسجيلها اتضح أنها تبلغ

(١) أى ديوان الأوقاف .

خمسة وعشرين ألفاً من الأفدنه فتقرر فى الحال توزيعها على الأمراء (المماليك) بالاضافة إلى اقطاعاتهم . وكأن الكيل لم يطفح بهذا الاستيلاء إذ قد خرج والى القاهرة مع حاجب القصر ناحية شبرا الخيام وهدما كنيسة كانت هناك [1] .

٢٣٩ - ثم وجد البابا الاسكندرى أن كمية الميرون لم تعد كافية لحاجات الكنائس فدعا الأساقفة لكى يشتركوا معه فى اقامة الصلوات الخاصة بتكريسه . وقد لبى دعوته سبعة من أساقفة الصعيد وخمسة من الدلتا واجتمعوا معه فى كنيسة أبى السيفين ببابلون حيث بدىء بالشعائر المقدسة يوم اثنين البصخة وتمت يوم خميس العهد .

٢٤٠ - وبعد أن قاد الأنبا ثيئودوسيوس الثانى دفة الكنيسة مدى خمس سنوات وخمسة أشهر وثمانية عشر يوماً إنتقل إلى الدار الباقية [2]

٢٤١ - من العجب أنه رغم التنافس العنيف بين الأمراء المماليك فقد تمكنوا من الانتصار على أعداء مصر الخارجين بمهارة فائقة ويرجع ذلك إلى أنهم كانوا قد اعتادوا عيشة المخاطر والإدراك بأن الواحد منهم إن لم يكن آكلاً فسيكون مأكولاً . كذلك كان جلدهم علي القتال والتجاؤهم إلى المكر والخديعة من مميزاتهم التى هيأت لهم الانتصار . ولقد انتصر الجيش المصرى بقيادة المماليك على التتار (المغول) أربع مرات أولا بقيادة بيبرس ثم بقيادة قلاوون وفرح الشعب بهذه الانتصارات المتتالية فرحاً عظيماً وحيث أعلن نبأ الانتصار الأخير أضيئت الأنوار وخرج الناس إلى الشوارع وعلى النيل يغنون ويقرعون الطبول حتى ساعات متأخرة من الليل . بل لقد بالغ المصريون فى التعبير عن فرحهم مبالغة قصوى ولم يوقفهم غير هزة أرضية عنيفة اجتاحت البلاد من الاسكندرية حتى حدود النوبة .

وكانت النتيجة الحتمية لهذه الانتصارات أن اتسع نفوذ مصر وخطبت الشعوب ودها فقامت بينها وبينهم اتفاقات تجارية عديدة، وجاء إلى القاهرة

---

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٢) تاريخ البطاركة - الحلقة الثانية - جمعه الشماس كامل صالح نخلة ، طبع بدير السيدة العذراء الشهير بالسريان سنة ١٩٥٢ ص ٢٣ - ٢٥ .

سفراء من أسبانيا غرباً إلى الهند شرقاً ، ومن ثم عم الرخاء . ومن نعم الله أن رواج التجارة دعمته الزراعة أيضاً . ونتج عن هذا كله أن قامت فى مصر امبراطورية واسعة النفوذ والثراء ازدهرت فيها مختلف الفنون والصناعات . وأكبر شاهد على ذلك تلك المخلفات الفنية المتبقية لنا من هذا العصر ؟ أليسوا هم أبناء مصر الذين حذقوا الصناعة وابتكروا الفن منذ عهود سحيقة ؟ فبناة المساجد سلالة بناة الكنائس وبناة المعابد الفرعونية - جميعهم أبناء مصر الذين شادوا أمجادها وأحبوها وتفانوا فيها فرضوا فى سبيلها بكل ما أصابهم من عذاب وتنكيل منتظرين يوم الفرج من الرب الرؤوف الذى وان أمهل فهو تعالى لا يهمل .

ولقد حدث إذ ذاك تطور عجيب فى وجهات النظر لدى كل من الفرنجة والمصريين : فلقد خمدت عند الفرنجة النعرة الصليبية الداعية إلى الحرب لتخليص قبر المسيح له المجد من أيدى المسلمين وحلت محلها الرغبة فى التجارة والكسب المادى فتسابقوا إلى عقد المحالفات مع السلطان قلاوون ، كذلك رأى حكام مصر (بيبرس أولا وقلاوون ثانياً) أن المفاوضات والمحالفات أجدى وأنفع من الحرب وبخاصة لأن آخر جندى صليبى قد غادر الشرق نهائياً . وبهذا التطور الجديد حل عهد من الرخاء فى مصر واعترف الأوربيون بسلطانها كما اعترفت به شعوب الشرق حتى الهند [١] .

غير أنه كانت هناك نغمة من النشاز : هى النغمة الصادرة عن العلاقة بالنوبة . ذلك أنه حدث (كما حدث مراراً وتكراراً من قبل) أن امتنع النوبيون من دفع الضريبة المفروضة عليهم . ومع أن قلاوون لم ينجح فى الانتصار انتصاراً حاسماً عليهم إلا أنه خرب بلادهم تخريباً واسعاً واستولى على الكثير من الأسرى الذين باعهم كالعبيد كما أخذ الكثير من الأسلاب والغنائم [٢] .

---

(١) تاريخ الأمة المصرية - المبحث الثانى « مصر الاسلامية ... » (بالفرنسية) لجاستون فييت ص ٤٥٢-٤٥٦ ، تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بول ص ٢٦٢ - ٢٧٥ .

(٢) « تاريخ الأمة » (شرحه) ص ٤٥٧ .

النار فى الهشيم

أ - الأنبا يؤنس الثامن

٢٤٢ - ومن نعمة الله أن اتفقت كلمة الأساقفة والأراخنة هذه المرة إذ قد أجمعوا على انتخاب الراهب يؤنس بن قديس رئيس دير شهران [١] الذى كان كامل الرأى صائب الفكر حسن التدبير محبوباً معظماً [٢] . ولقد نشأ هذا الراهب فى منية خصيب [٣] بالمنيا ثم ترك بيت أبيه وهو بعد يافع ليعيش فى الدير . وهناك قضى أيامه فى نسك ودعة مكرساً نفسه لخدمة اخوته الرهبان . فأحبوه وانتخبوه رئيساً لهم . فضاعف هذا الانتخاب حبه لهم ورعايته إياهم . فلما شغرت السدة المرقسية زكوه للناخبين واتحدت أصوات الجميع . ومن ثم أصبح البابا الثمانين فى سلسلة خلفاء مارمرقس الرسول باسم يؤنس الثامن وتمت رسامته فى ١٤ فبراير سنة ١٢٩٢ .

٢٤٣ - وفى هذه الفترة أرسل ليناد نجل امبراطور الحبشة إلى ايمانويل الثانى ملك البرتغال يستنجد به ضد الامام أحمد إبراهيم صاحب اليمن الذى

---

(١) هو الدير المعروف الآن بدير الأنبا برسوم العريان .

(٢) الكافى ... جـ ٢ ص ٥٠٨ .

(٣) روى الشيخ المؤتمن أبو المكارم فى كتابه عن الديورة والكنائس أن ابن خصيب اسم رجل من أغنياء القبط أنشأ البلدة المسماة بمنية ابن خصيب وبنى بها الدور والقصور وسكن فيها مع جماعة من أهله وأتباعه - راجع دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس جـ ١ ص ٣٤ ، ويقول القمص ميصائيل بحر أنه كان بها أربع عشرة كنيسة : أشهرها اثنتان باسم السيدة العذراء واثنتان باسم الملاك ميخائيل وواحدة باسم مارجرجس ومرقوريوس وأبى قيس - راجع مقاله « اقليم المنيا فى العصر القبطى » نشره فى مجلة صوت الشهداء - السنة السادسة العدد الأول (يناير سنة ١٩٦٤) ص ٢٧ .

كان قد ثار هو وقومه على الأحباش ، وتقدمت جيوش اليمنيين إلى حد أن الامبراطور إضطر إلى الهرب والتنقل من بلد إلى اخر فى أطراف امبراطوريته . وقد تعهد ليناد نجل لملك البرتغال أن ينضم إلى الكنيسة الكاثوليكية ويقطع علاقته بمصر إن هو أسعفه . فقبل امانويل الثانى استغاثة الامبراطور الحبشى الذى طرد المطران المصرى تمهيداً للانضمام إلى مذهب الملك البرتغالى . على أن الشعب الحبشى غضب غضبة جامحة بأزاء تصرف امبراطوره ورفض أن ينفصل عن كنيسة مارمرقس التى يعدها الكنيسة الأم . وكان من نتائج هذه الثورة الشعبية أن الامبراطور جلاوديوس ابن ليناد نجل طرد بعثة الرهبان الكاثوليك حالما أعتلى العرش وبعث برسول عاجل إلى البابا الاسكندرى يستعطفه ليرسم لهم مطراناً ويعيد العلاقات إلى ما كانت عليه من قبل . وقد فرح الأنبا يؤنس الثامن بهذا الطلب وبادر بإرسال الأنبا سلامة الثانى إلى الحبشة ، فبدأ عصر انتعاش أدبى لا يزال الأحباش يستمتعون بثماره حتى الآن [1] .

٢٤٤ - وحدث فى السنة الأولى لبابوية الأنبا يؤنس الثامن أن مر مغربى بمصر فى طريقه إلى أداء فريضة الحج . وفيما هو سائر فى أحد شوارع القاهرة رأي رجلاً وجيهاً مرتدياً الحرير المزركش وممتطياً صهوة جواد رشيق فسأل عمن يكون ، ولما علم أنه قبطى غضب غضبة حمقاء أدت إلى استثارة الدهماء ليحرقوا الكنائس . وقد بلغ بهم الهياج مبلغاً جعلهم يتجهون نحو بابلون بقصد اضطهاد القبط المقيمين هناك فأصبح من المجازفة لأي قبطى أن يظهر فى الشوارع بل إن التعرض للخطر بلغ البابا نفسه فاضطر إلى البقاء داخل مقره . ولقد استمر هذا الغليان الشعبى مدة سنتين بلا انقطاع لأن الأمراء أنفسهم عجزوا عن قمعه مع أن المغربى الذى استثاره كان قد غادر مصر . ولما وجد القبط أن العزاء والطمأنينة لايمكن الحصول عليهما من الناس اتجهوا نحو مصدر العزاء والطمأنينة راجين إياه تعالى أن يتداركهم بمراحمه . وفى تلك الفترة ورغم الخطر سعى بعض القبط لدى الأمراء ليضمنوا لهم الوصول الـى الكنائس للصلاة فيها لأن الغوغاء كانـوا

(١) السياسة الفاشية فى أثيوبيا - مقال للدكتور زاهر رياض نشره فى مجلة نهضة أفريقيا العدد الثالث عشر (يناير سنة ١٩٥٩) ص ٢٤ - ٢٥ .

يسدون عليهم الطرق إليها فأصبحت مغلقة . ونتيجة لهذه الوساطة قبل الأمراء فتح كنيسة واحدة . على أنهم لم يستطيعوا حراسة الشعب الذاهب إلى الكنيسة مما أضطرهم إلى اعادة اغلاقها . فظلت الكنائس مغلقة خلال السنتين اللتين استمر فيهما الغليان الشعبى .

ووصلت أنباء هذه الضائقة إلى مسامع امبراطور القسطنطينية كما بلغت ملك أراجون (بأسبانيا) وكانت مصر إذ ذاك تتبادل التجارة مع هاتين الدولتين وغيرهما من الدول المسيحية . وكانت تجارتها رائجة وفيرة الربح . فرأى الامبراطور القسطنطينى والملك الأرجوانى أن يتوسطا فى الأمر ولو أن وساطتهما كانت منصبة على رعاياهم المقيمين فى مصر . ولقد أرسل ملك أرجوان الهدايا النفسية للسلطان وللأمراء الا أن الاستجابة للهدايا وللوساطة كانت هزيلة للغاية إذ لم يصدر الأمر إلابفتح كنيستين : إحداهما كنيسة القديس نيقولا للروم وثانيتهما كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة للقبط . ذلك لأن المسئولين فى البلاد رأوا أنه من عدم اللياقة أن يؤمنوا الروم للذهاب إلى الكنيسة ولا يمنحوا هذا الأمان للقبط الذين هم من رعاياهم [1] . ولهذا السبب أصبحت كنيسة العذراء بحارة زويلة المقر البابوى ، واستمرت كذلك نحو قرن من الزمان .

---

(١) تاريخ البطاركة - الحلقة الثانية - جمعه الشماس كامل صالح نخلة وطبعه بدير السيدة العذراء الشهير بالسريان ص.٣ ، تاريخ الامة ... المبحث الثانى « مصر الإسلامية » لجاستون فييت ص ٤٧٣ ، الخطط للمقريزى جـ ٢ ص ٣٩٩ حيث يقول ما نصه : « ... فقام المغربى فى هدم الكنائس فلم يمكنه قاضى القضاة تقى الدين محمد بن دقيق العيد من ذلك وكتب خطه بأنه لا يجوز أن يهدم من الكنائس إلا ما استجد بناؤه فغلقت عدة كنائس بالقاهرة ومصر مدة أيام فسعى بعض أعيان النصارى فى فتح كنيسة حتى فتحها فثارت العامة ووقفوا للنائب (عن السلطان) والأمراء فنودى فى القاهرة ومصر أن يلبس النصارى بأجمعهم العمائم الزرق . ومن لم يفعل ذلك نهب ماله وحل دمه ومنعوا جميعاً من الخدمة فى ديوان السلطان ودواوين الأمراء حتى يسلموا فتسلط الغوغاء عليهم وتتبعوهم فمن رأوه يغير الزى الذى رسم ضربوه . فبعث ملك برشلونة هدية جليلة زائدة عن عادته عم بها جميع أرباب الوظائف من الأمراء مع ما خص به السلطان وكتب يسأله فى فتح الكنائس فاتفق الرأى على فتح كنيسة حارة زويلة لليعاقبه (القبط) وفتح كنيسة البندقانيين (الروم) من القاهرة راجع أيضاً الكافى ... جـ ٢ ص ٥.٨ .

ولم يكتف السلطان بهذه القسوة بل فرض ديناراً على كل قبطى بالاضافة إلى الجزية المفروضة وإلى ما كان يؤخذ منهم والمسلمين سواء بسواء . كذلك استمع الى تحريض الجاشنكير بيبرس فعمل بقوله وهو ابعاد القبط من دواوين الحكومة واضطرارهم إلى لبس العمائم الزرقاء ومنعهم من ركوب الخيل وغيرها من الدواب . بل لقد غالى السلطان فى اصدار أوامره المستقاه من تحريض بيبرس فقال بأن من قتل قبطياً فله ماله ! وعلى الرغم من هذا كله فإن العامة ظلت ساخطة على بيبرس وتعالت صيحاتهم فى الشوارع والأزقة وهم يصرخون « لا نريد المظفر »[1] وخلال هذه الفترة الحالكة اضطر القبط الى الانزواء داخل بيوتهم وعدم الخروج الا للضرورة القصوى .

ولقد حدث زلزال عظيم فى تلك الآونة - فكأنما شاءت الطبيعة أن تعبر عن مشاركتها القبط بهذه الحركة المزعجة !

على أن الواقع أن بيبرس لم يكن وحده فى تحريض السلطان على القبط بل كان معه جمهرة من المماليك الذين خشوا على نفوذهم من تأثير القبط إذ رأوه يبغى انصافهم ويحميهم من بطش الغوغاء ... وترجع رغبته فى انصافهم أنه كان يقدر مهارتهم الفنيه وولاءهم له ، كما أنه كان واثقاً بأنه لن يكون منهم من يناقضه فى الحكم[2] .

٢٤٥ - وامتلأ قلب الأنبا يؤنس الثامن حسرة ، ولم يسعه الا أن ينتقل للسكنى بجوار كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة ليسهل عليه تأدية الشعائر الدينية دون اعتراض ولا مقاومة . وعلى الرغم من الوجوم الذى خيم على النفوس فإن البابا الاسكندرى ظل محتفظاً بالصلة المتينة بينه وبين أساقفته وشعبه ، ثم وجد أن الكنائس فى حاجة إلى الميرون فبادر إلى دعوة الأساقفة للاشتراك معه فى تأدية الشعائر المقدسة الخاصة بتكريسه . وقد لبى دعوته ثمانيه عشر أسقفاً وذهبوا معه إلى دير الأنبا

---

(١) تاريخ البطاركة - الحلقة الثانية ... لكامل صالح نخلة ص ٢٦ - ٣٥ .

(٢) تاريخ دولة المماليك فى مصر للسير وليم سوير ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ص ٨٤ .

مكارى الكبير حيث كرسوا الميرون فى يوم الاثنين من أسبوع البسخة المقدسة سنة ١٠١٣ ش .

٢٤٦ - ثم انشغل الأمراء فى حروب خارجية عديدة وانشغل معهم الشعب . وكان لهذا الانشغال أثره فى تخفيف حدة الهياج الذى كان قد أشعله المغربى فتناسى الشعب ما حدث وتشاغل بأحداث أخرى مما أدى إلى أن تنفتح الكنائس تدريجياً وفى هدوء فسعد القبط من جديد باقامة شعائرهم المقدسة داخلها . ثم حدث أيضاً أن سلسلة من الفيضانات المنخفضة والحصاد الشحيح كان لها أثر واضح فى تليين القلوب فعاد الأنبا يؤنس إلى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) ببابلون وهو مطمئن النفس . وعاود الاستقرار قلوب القبط فكانوا يزحمون الكنائس شكراً وتسبيحاً له .

ومن الشيق أن البابا الاسكندرى وجد نفسه مضطراً إلى تكريس الميرون مرة أخرى - لأن مثل هذه الحاجة ليست سوى دليل على تزايد عدد الذين ينالون بركة هذا السر المقدس . وقد رأى الأنبا يؤنس الثامن أن يؤدى الشعائر المقدسة الخاصة به فى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) . وقد اشترك معه هذه المرة خمسة وعشرون أسقفاً أحدهم أسقف كوللا بالنوبة الذى كان قد رسمه هذا البابا بنفسه [١] .

وكان تكريس الميرون للمرة الثانية آخر خدمة أداها الأنبا يؤنس الثامن إذ قد انتقل بعدها إلى مساكن النور . وكان مدة بابويته عشرين سنة وثلاثة أشهر وخمسة عشر يوماً .

ولقد عاش فى تلك الفترة مؤرخ ذو مواهب ممتازة اسمه ابن أبى الفضائل وضع كتاباً بعنوان « النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد » وقد علق فى كتابه هذا على « المجموع المبارك » الذى وضعه ابن العميد ثم بدأ تاريخه حيث انتهى سلفه وتدرج فى الكتابة من عصر الظاهر بيبرس إلى عصر محمد بن قلاوون مسجلاً تراجم السلاطين أيضاً بالاضافة إلى التاريخ العام [٢] .

---

(١) تاريخ البطاركة - الحلقة الثانية لكامل صالح نخلة ص ٢٦ - ٣٥ .

(٢) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى لمحمود رزق سليم ج٣ ص ١١٧ =

ب – ما أجمل الدين والعلم إذا اجتمعا

٢٤٧ – خادم أمين للدولة يكرس مواهبه لله

٢٤٧ – عاش فى أيام الملك المظفر – بيبرس الدويدار – رجل اسمه الشيخ الأجل شمس الرياسة ابن الشيخ الأكمل الأسعد المسمى بأبى البركات . اشتغل هذا الرجل كاتباً للملك حتى وهو بعد أمير وأخلص له الولاء إذ قد عاونه على تأليف كتاب نفيس لايزال مخطوطاً مع أنه معروف فى أوربا هو كتاب « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » . ويظن بعض الناس أنه كان طبيباً أيضاً لما بدا فى كتاباته من دقة عن العقاقير والعطور . على أن علم هذا الرجل وخدماته للعالم لتتضاءل أمام خدماته الروحية إذ لم يلبث أن ترك الخدمة فى ديوان الملك لينال كرامة الكهنوت ويصبح كاهناً لكنيسة السيدة العذراء الشهيرة بالمعلقة باسم « ابن كبر »

ولم تقتصر خدمته الكهنوتية على ما أداه من خدمات روحيه لأولاده الذين عاشوا تحت رعايته بل امتدت لتشمل الأجيال الآتية من بعده . فقد وضع عدداً غير قليل من الكتب التى مازالت تعتبر مراجع أساسية للباحثين

= ويعلق المؤرخ نفسه على تزايد عدد المؤرخين فى العصر المملوكى بقوله : « فى عصر المماليك يمكن القول أن فكرة الكتابة المستقلة عن مصر وقاهرتها قد اختمرت وبدت على المؤرخين المصريين أعراض هذا الحب الخالد الذى تثيره مصر دائماً فى قلوب أبنائها بدوراً رائعاً حتى لكأنهم آلوا على أنفسهم أن ينقذوا تاريخهم من يد النسيان » أنظر ص ١٠٧ – ١٠٨ من نفس الكتاب . وقد ترجع استثارة هذا الحب الخالد إلى الحالة النفسية التى سادت الشعب إذ ذاك ، وفى ذلك يقول دكتور وليم سليمان نقلاً عن دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور مايلى : « أن الذى ضاعف من كمد المصريين فى هذا القرن احساسهم بالخضوع لنوع جديد من الحكام هم المماليك ... فان الحقيقة المرة التى كان يصعب على المصريين أن يتناسوها فى سهولة هى أن المماليك أغراب عن البلاد وأهلها وأنهم جميعاً كانوا رقيقاً فى يوم ما ، وأنهم حكموا مصر وأهلها بوصفهم ارستقراطية متعالية فصلتها فجوة واسعة عن أهل البلاد وأنهم استحوذوا على أرض البلاد وثرواتها ....» راجع مجلة الطليعة عدد فبراير سنة ١٩٦٩ : مقال الدكتور وليم سليمان عن القاهرة فى مصر المملوكية ص٥٧ .

وأول ماكتب هو كتاب عن الميرون وصف فيه المواد التى يتألف منها وكيفية طبخه [1] بدقة متناهيه . ثم وضع كتاباً أسماه « جلاء العقول فى علم الأصول الملقب بكشف الأسرار الخفية فى أسباب المسيحية » . ويتضمن هذا الكتاب ثمانية عشر فصلاً فى وحدانية الله وتثليث أقانيمه وتجسد ابنه الإلهى . وتوجد نسخة من هذا الكتاب مكتوبة سنة ١٢٣٣ م محفوظة بمكتبة الفاتيكان ، كما أن هناك نسختين أخريين من عهد المؤلف احداهما فى دمشق . وثمة كتاب ثالث عنوانه « مصباح الظلمة فى ايضاح الخدمة » يوضح العقيدة المسيحية وأخبار الرسل والتلاميذ وقوانين البيعة والمجامع . ومن هذا الكتاب نسخة فى مكتبة الفاتيكان تاريخها سنة ١٣٣٣ أيضاً ، ونسخة فى مكتبة برلين موصوفة وصفاً واسعاً ، وثالثة فى المكتبة الأهلية بباريس . وإلى جانب هذه الكتب الجامعة فقد وضع رسالتين فى الردود على المسلمين واليهود ، ورسالة عنوانها « البيان الأظهر فى الرد على من يقول بالقضاء والقدر » . وهذه الرسالة تبين استمرار الاهتمام بموضوع الحرية الانسانية مقابل من ينادون بالقضاء والقدر . وقد استهدف الآباء من كتاباتهم فى هذا الموضوع توضيح المسئولية الملقاة على الانسان عما يعمل فهو بلا عذر فى اقتراف الشر ولا يستطيع تبرير أخطائه بحجة أنه « قسمة ونصيب » كذلك وضع كتاباً ضمنه خطبه فى مواقف مشهورة ومواقع خطيرة .

على أن ابن كبر لم يكتف بالكتابة فى الموضوعات الروحية والأدبية فقط بل وجه اهتمامه إلى اللغة القبطية فوضع فيها معجماً مفصلاً أسماه « السلم الكبير » وهناك خمس من هذا الكتاب معروف مكانها هى : نسخة بدير الأنبا أنطونيوس بالصحراء الشرقية ، نسخة محفوظة بمكتبة الكاتدرائية المرقسية بالاسكندرية ، نسخة فى كنيسة برما (قرب طنطا) وتحتوى على :

١ - مقدمة السلم المعروف بالسمنودى

٢ - مقدمة الشيخ العالم ابن كاتب قيصر وتسمى « التبصرة » .

٣ - مقدمة الوجيه القليوبى وتسمى « الكفاية » .

---

(١) هذا هو التعبير الكنسى لمزج المواد المختلفة التى يتألف منها الميرون أثناء الشعائر الدينية التى تتم خلال عملية المزج .

٤ – مقدمة الشيخ الأسعد أبي الفرج بن العسال .

٥ – مقدمة الشيخ الأجل الثقة ابن الدهيرى (الذى صار مطراناً لدمياط باسم خريستوذولس) ، نسخة بمكتبة جرجس فيلوثاوس عوض الخاصة ، نسخة مطبوعة فى رومية سنة ١٣٦١ ش . ولقد قسم ابن كبر هذا المعجم إلى ثلاثين فصلاً كل منها لموضوع معين : ففصل يختص بأسماء الله تعالى وصفاته ، وآخر يختص بالأمور العائلية والمنزلية ، وثالث بالاصطلاحات الجغرافية ... إلى غير ذلك وقد ذيل هذا المعجم بكشف ضاف لجميع الكلمات العبرية التى اقتبسها القبط من أسفار العهد القديم وأدخلوها ضمن لغتهم القبطية . كذلك وضع ابن كبر قائمة بأسماء المدن والقرى المصرية (١)

ويبرز تواضع هذا الكاهن العلامة من كتابته إذ قد قال فى مقدمة كتابه « مصباح الظلمة فى ايضاح الخدمة » ما يلى : « على أننى لست من العارفين بهذه الوظيفة ولا من القائمين ببعض حقوقها الشريفة ، لكننى جمعت ذلك من الكتب المقبولة والفرائد المنقولة ، والعرف المتداول فى عصرنا والوضع المستعمل فى مصرنا ، بحسب ما انتهت إليه القدرة واستوت عليه الفكرة ، مستعيناً بأبى الأنوار ومنير البصائر والأبصار ، وأنا أتضرع إلي كل من تأمله أن يسد خلله ويتدارك زلله ، ويصلح ما لعله وقع فيه من السهو والتقصير واعترضه التقديم والتأخير ، فليس يخلو من ذلك الماهر الفاضل والعالم والعامل والمحصل الكامل ، فكيف من هو عرى من هذه الخلل ، خلى من حلى العلم ملىء بالخطأ والزلل ... » (٢) .

وابن كبر عرف أن يحمل الشعلة بجرأة فى عصر طغت عليه ظلمات الأحقاد والقسوة فملأت القلوب جبناً وتخاذلاً – فهو بحق بطل روحانى ينتظم فى سلسلة الآباء الذين استعذبوا الجهاد . فحق لنا أن نهتف اكباراً له

---

(١) « ابن كبر » لجرجس فيلوثاوس عوض (المطبعة المصرية الأهلية) القاهرة سنة ١٩٣٠ .

(٢) « ابن كبر » لجرجس فيلوثاوس عوض (المطبعة المصرية الأهلية) القاهرة سنة ١٩٣٠ .

بذلك البيت الشعرى الجميل ونقول :

أن الذى جعل الحقيقة علقماً   لم يخل من أهل الحقيقة جيلاً[1]

ولقد ذكر ابو البركات بانه حين صدر الأمر باغلاق الكنائس بمناسبة الاضطهادات التى وقعت على القبط ظلت الكنائس القائمة فى أديرة برية أبى مقار (الأنبا مكارى) مفتوحة فأصبحت قلعة الكنيسة القبطية ومنارة تتجه إليها الأبصار (٢).

❖ ❖ ❖ ❖

(١) من قصيدة لأحمد شوقى أمير الشعراء عن العلم والتعليم مطلعها :

قـف للمعلـم وفـه التبجيـلا   كـاد المعلم أن يكـون رسـولا

(٢) أديرة وادى النطرون (بالانجليزية) لايفلين وايت جـ ٢ ص ٣٩٤ .

جـ - الأنبا يؤنس التاسع

٢٤٨ - انتخاب البابا الاسكندرى الحادى والثمانين . **٢٤٩ - تخريب وانتقام .** **٢٥٠ - امتداد اللهب .**

٢٤٨ - لم يبق الكرسى المرقسى شاغراً غير شهر واحد ، اجتمع بعده الأساقفة والأراخنة للتداول فى أمر الانتخاب ، واتفقوا بنعمة الآب السماوى على راهب متوحد اسمه يؤنس النقادى . فأقيمت حفلة الرسامة فى هدوء وألفة فى اليوم الأول من شهر بابه سنة ١٠٢٨ ش (١٣١٢) فى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة وقد احتفظ راسموه باسمه فأصبح الأنبا يؤنس التاسع الخليفة المرقسى الحادى والثمانين

٢٤٩ - وكانت بابويته مليئة بالأحداث والمتاعب لأن أحد العامة استثار الغوغاء ضد القبط فدمروا عدداً من الكنائس فى القاهرة ومن المؤلم أن عمل التخريب أمتد إلى الدلتا والصعيد . وكان كريم الدين ناظر ديوان السلطان يقيم وقتئذ فى الاسكندرية فما أن بلغه أخبار التدمير حتى سارع إلى القاهرة وقد وجد السلطان محمد بن قلاوون فى حدة الغضب على أولئك الغوغاء وكان يرغب فى معاقبتهم . ولكن الأمراء المماليك هدأوا من حدة ثورته بادعائهم أن هذا التخريب بأمر الله [١] .

---

(١) يقدم الدكتور وليم سليمان تعليلاً لهذه الواقعة فيقول : « ولقد حدث فى عهد الناصر أن قامت فتنة دينية ، تبادل فيها المسلمون والمسيحيون هدم الكنائس والمساجد وحرقها . ولم يحدث هذا فى القاهرة وحسب بل حدث فى مختلف أنحاء البلاد فى يوم واحد من قوص إلى البحيرة إلى الأسكندرية . واشتد غضب الناصر ، واتخذ اجراءات عنيفة لقمع الفتنة . وكان الأمراء يدافعون عن المخربين . ويبدو أن الفتنة كلها كانت من الأمراء اضعافاً للتأييد الشعبى الذى أحيط به الناصر . ويتأكد ذلك من أن الأمراء كانوا موزعين فى أنحاء البلاد ، بحيث أصبح تنفيذ الفتنة فى يوم واحد أمراً ميسوراً ، لأن توزيع الاقطاع جعل للأمير الواحد نفوذاً فى أماكن متعددة . وينسب المقريزى إلى الأقباط بحكم خبرتهم أنهم هم الذين قاموا بهذا التوزيع لكل اقطاع وليس من الغريب أن ينقم الأمراء على الأقباط خاصة ، وأن يستغلوا الفرصة لضرب التجمع الشعبى الذى كان سند الناصر فى مواجهتهم ولقد رأينا من قبل أن الأمراء اشتد سخطهم على العامة ، وبدأوا يتدبرون الأمر فيما بينهم ، ولقد دهش المقريزى من توافق حدوث التخريب فى اقليم مصر كله ، ونسب ذلك إلى أن المصريين يتحدثون بالأشياء قبل كونها ويخبرون بما يكون وينذرون بالأمور المستقبلة ولهم فى هذا الباب أخبار مشهورة .

ولم يكتف المماليك بتهدئة السلطان كى لا يوقع العقاب على المذنبين ، كما لم يكتفوا بما هدم من الكنائس بل طمعوا فى أوقاف القبط التى كانت تبلغ إذ ذاك خمسة وعشرين ألفاً من الأفدنة اقتسمها ثلاثة منهم فيما بينهم هم الأمير شيخو والأمير صرغتمش والأمير طاز . ثم أمعنوا بعد ذلك فى اضطهادهم للقبط فحولوا عدداً كبيراً من الكنائس فى الوجهين القبلى والبحرى إلى جوامع .

ولم يمض على هذا الحادث غير شهر حتى اندلعت النار فى ضاحية من ضواحى القاهرة . وكان اندلاعها فى يوم عاصف فأمتدت اللهب إلى عدة ضواحى مما أضطر أربعة وعشرين مملوكاً إلى أن ينضموا إلى البحارة وغيرهم لاخماد النيران . وقد اتهم بعضهم القبط باضرام هذه النار انتقاماً منهم لما تهدم من الكنائس . وقبض رجال الأمن على ثلاثة من القبط اعترفوا بأنهم اشعلوها فعلاً . فاتقد غضب السلطان وأراد أن ينزل بهم أشد العقوبات . غير أن كريم الدين ناظر الديوان السلطانى أعلن بأن المسئول الوحيد عن القبط هو البابا المرقسي . فاستدعاه إلى القصر ليلاً يحيط به الجند لحمايته من الرعاع . فلما تقابلا قدم كريم الدين إلى قداسته الثلاثة المقبوض عليهم لاضرامهم النار فاعترفوا للمرة الثانية بجرمهم . وحين سمع الأنبا يؤنس التاسع هذا الاعتراف بكى بكاء مراً وقال : « ان المسيحية تأمرنا بالمحبة والتسامح ، وما فعله هؤلاء مضاد لتعاليمنا تماماً . فليسوا سوى رعاع تصرفوا تصرفاً انتقامياً مقابل رعاع المسلمين . فالمسيحية براء من هذا العمل » وأدرك كريم الدين صدق البابا الاسكندرى واخلاصه فأمر رجاله بمرافقته إلى المقر البابوى كما قدم له حصاناً أبيضاً ليركبه عند عودته [1] .

---

(١) يعلق جاستون فييت على هذه الواقعه بقوله ما نصه :

Les Chrétiens n'ignorent pas l'atlitude du sultan , l'euvoi de la troupe , executé sansdelai , avait arrêté l'emeute ... En admettant que , sous le coupde l'exasperations , les coptes aient voulu user de représailles , ils l'auraient fait séance tenante . Quoiqu'il en soit , un moi plustard , les incendies eclaiéret ... dans les mosquées ... on serait bien tenté de soupçonner , dans =

٢٥٠- على أن هذه المقابلة - وإن دلت على ما كان من صفاء بين البابا وكريم الدين - لم تضع حداً للاضطرابات التى ظلت مستمرة بضع شهور . ورغم قصر هذه المدة فقد تهدم خلالها العدد العديد من الكنائس واستشهد مئات الناس .

وقد طغى الحزن والتوجع على قلب الأنبا يؤنس التاسع إذ لم يكن فى استطاعته أن يذهب إلى دير الأنبا مكارى الكبير لتكريس الميرون ، ولا أن يقوم برحلة راعوية لتفقد شعبه الجريح ، لأن تهور الغوغاء بلغ حداً جعل الظهور فى الأماكن العامة خطراً على رجل من رجال الدين المسيحى مهما بلغت منزلته . فلم يستطع أسقف ولا كاهن أن يخرج من مقره إلا بعد مغيب الشمس . فاعتصموا فى بيوتهم وكنائسهم وانصرفوا بكليتهم إلى الضراعة مركزين جهودهم على الصوم والصلاة التى بهما يستطيع الإنسان أن يخرج الشياطين وأن ينقل الجبال . فلما هدأت العاصفة أخيراً كانت صحة الأنبا يؤنس التاسع قد ساءت إلى حد أنه لم يعش طويلاً لينعم بالسلام

= cette vengeance a retardement , l'action de musulmans provocateurs, desireux de faire pression sur le sultan .

وترجمته ما يلى : « أن المسيحيين لم يكونوا يجهلون موقف السلطان . فارسال الجند بغير توان أوقف المصادمة ... ولو سلمنا بأن القبط تحت ضغط حنقهم أرادوا أن يأخذوا بالثأر لكانوا فعلوا ذلك على الفور . ومهما يكن الأمر فقد اندلعت النيران بعد شهر ... فى الجوامع . وأغلب الظن أن هذا الانتقام المتأخر كان عمل المسلمين المهيجين الراغبين فى الضغط على السلطان « راجع كتاب » تاريخ الأمة المصرية (بالفرنسية) - المجلد الرابع من الفتح العربى الى الفتح التركى - الفصل الخامس عشر الخاص بمحمد بن قلاوون ص ٤٨٦ . وترى فى تدليل وليم سليمان على أن المماليك هم المحرضون تصويراً أقرب الى الاحتمال من زعم جاستون فييت من أن المسلمين المهيجين هم الدافعون اليه . على أن هناك من يرى أن شدة التعذيب التى وقعت على القبط هى التى دفعت بهم الى القول بأنهم هم الفاعلون - أنظر تاريخ دولة المماليك فى مصر للسير وليم موير ترجمة محمود عابدين وسليم حسن - ص٨٤ أما كتاب « سلسلة تاريخ الباباوات بطاركة الكرسى الاسكندرى » فقد جاء فيه « ولكن الله أظهر براءة قبط مصر من هذه التهم الباطلة إذ قد ثبت أن المتسببين فى الحريق هم الرهبان الملكيون (الخلقيدونيون) المقيمون فى دير البغل بجهة المعصرة على جبل المقطم » ص ٤٤ - ٤٥ .

الذى تضرع من أجله . فطارت روحه نحو ذلك العالم الفياض بالنور حيث السلام الدائم بعد أن تحمل مسئولية الكنيسة ست سنين وخمسة أشهر [1] .

---

(١) تاريخ البطاركة - الحلقة الثانية - جمعه الشماس كامل صالح نخلة ، طبع بدير السيدة العذراء الشهير بالسريان ص ٣٦ - ١٥٠ أما الحوادث الأليمة التى وقعت فقد ذكرها المقريزى وغيره من المؤرخين المسلمين المنصفين . فقد جاء فى كتاب « أهل الذمة فى الأسلام » الذى ترجمه دكتور حسن حبشى الى العربية سنة ١٩٦٧ على ص ٦٧ ما نصه : « فى ٩ ربيع الثانى سنة ٧٢١ عم تخريب الكنائس بدرجة مروعة » ويعطينا المقريزى صور مفصلة لتلك الحوادث نقتطف منها ما يلى « ... فغلقت عدة كنائس بمصر والقاهرة مدة أيام فسعى بعض أعيان النصارى فى فتح كنيسة حتى فتحها فثارت العامة ... ومنعوا (القبط) جميعاً من الخدمة فى ديوان السلطان ودواوين الأمراء حتى يسلموا فتسلطت الغوغاء عليهم وتتبعوهم ... ثم لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين وسبعمائة هدمت كنائس أرض مصر فى ساعة واحدة ... واتفق مرور بعض كتاب النصارى على الجامع الأزهر من القاهرة وهو راكب بخف ومهماز وبقباء اسكندرى طرح على رأسه . وقدامه طرادون يمنعون الناس من مزاحمته وخلفه عدة عبيد بثياب سرية على اكاديش فارهة فشق ذلك على جماعة المسلمين وأنزلوه عن فرسه وقصدوا قتله قد اجتمع عالم كبير ثم خلوا عنه ... فتسلطت العامة عليهم وتتبعوا آثارهم وأخذوهم فى الطرقات وقطعوا ما عليهم من الثياب وأوجعوهم ضرباً ولم يتركوهم حتى يسلموا وصاروا يضرمون لهم النار ليلقوهم فيها ... ورسم السلطان (محمد بن قلاوون) بركوب والى القاهرة فلم تتمهل العامة ومرت بسرعة فخربت كنيسة بجوار قناطر السباع ... ودير فيها بالجيزة وكنيسة بناحية بولاق الدكرورى ... ونهبوا حواصل ما خربوه من ذلك وكانت كثيرة وأخذوا أخشابها ورخامها ... ومن أسلم منهم لا يمكن من العبور الى بيته ولا من معاشرة أهله الا أن يسلموا وأن من أسلم منهم بملازمة المساجد والجوامع لشهود الصلوات الخمس والجمع وان مات من أهل الذمة يتولى المسلمون قسمة تركته على ورثته ان كان له وارث والا فهى لبيت المال ...» واختتم المقريزى وصفه لما اسماه « يوم الهول للنصارى » بتلك الكلمات : «وكانت هذه الخطوب الجليلة فى مدة يسيرة قلما يقع مثلها فى الأزمان المتطاولة هلك فيها من الأنفس وتلف فيها من الأموال وخرب من الأماكن ما لا يمكن وصفه لكثرته » عن كتاب «الخطط» جـ ٢ ص ٤٩٨ - ٥٠٠ ، ٥١٧ .

ولنعد الى كتاب الدكتور حسن حبشى السابق ذكره لنقرأ ما يقوله على ص ٧٨ : « حينذاك صدر الأمر (من السلطان قلاوون) بأن يلبس النصارى العمائم الزرقاء ، وحرم عليهم ركوب الخيل والبغال، أما من يركب منهم حماره فيركبه مقلوباً ،والايدخل نصرانى حماماً الا وفى عنقه جرس ... والا يستعمل الأمراء كتاباً من النصارى وطرد منهم من=

د - نور وظلال

٢٥١ - لم تبق السدة المرقسية شاغرة غير شهر وأحد عشر يوماً لأن القلوب كانت متآلفة فاجتمع الآباء والأبناء (الأساقفة والأراخنة) فى الدار البابوية ليتشاوروا معاً مرتكنين إلى مؤازرة الروح القدس . فكان أن اتفقت كلمتهم على أن الرجل الذى ينشدونه هو الناسك بنيامين المتوحد بجبل طرة . وكان بنيامين هذا من بلدة دميقراط بأعالى الصعيد ، وبدأ حياة العزلة فى الصحراء القريبة من بلدته . ولكن اضطرام قلبه بالخلوة مع الله دفعه إلى ترك الصعيد والالتجاء إلى مغارة قرب طرة ظناً منه أن المسافة البعيدة التى تفصل بيته وبين أهله وعارفيه ستمكنه من التوحد الذى يبتغيه . وكان إلى جانب ذلك تبتله وتقشفه مصوراً ماهراً ، إلا أن

= كان فى خدمة السلطان الذى كتب الى سائر الأعمال يأمرها بفصل جميع المباشرين المسيحيين ، وقام المسلمون بعدة هجمات على النصارى حتى اضطروهم الى عدم الخروج فى الشوارع . وأسلم الكثيرون منهم » ثم ذكر بعد ذلك ان الكنائس التى هدمت فى « يوم الهول » بلغ عددها تسعة وخمسين كنيسة . ويستطرد الحديث بعد ذلك على ص ١١٩ فيقول : « ... وكانت جنازة زوجة أبى النصر ابن اسرائيل النصرانى سنة ٤٠٣ هـ سبباً فى اشعال الفتنة وحدوث الاضطراب اذ خرج النعش فى رابعة النهار وأمامه الصلبان والمشاعل والقسوس والرهبان يصلون ، والنساء يبكين وينحن ، مما انزعج له خاطر أحد المسلمين فتناول حجراً وقذف به النعش على الرغم من احاطة غلمان الأمير به وقيامهم على حراسته ، فما كان من أحدهم الا وان همز المسلم بحد سيفه فاضطرب الناس وهاجوا وكثر القتل فى المسلمين والنصارى على السواء . ففر أبو نصر الى بيت مناصح (الأمير المملوكى) وظلت الفتنة مشتعلة الأوزار حتى سلموه الى الثوار حيث أخذوه الى قصر الخليفة فبقى سجينه فترة من الزمن ، ثم اطلقوا سراحه ففرح النصارى . وظاهر هذه القصة أن العلاقات بين مناصح وبين تابعه كانت علاقات مودة اذ كان حاميه الطبيعى ولم يخيب له رجاء » .

راجع أيضاً « تاريخ الأمة المصرية » ... ص ٥٠٥ .

النور لابد أن يسطع ، ومتى سطع فلا يمكن تغطيته . لهذا شاعت فضائل بنيامين الناسك رغم اشتهائه العزلة . ومما تجدر الاشارة إليه أن الأنبا برسوم العريان حين رآه تنبأ له بأنه سيجلس على كرسى مارمرقس . فحدث بعد نياحة الأنبا يؤنس التاسع أن اتفقت كلمة الجميع على اختياره وتمت رسامته فى الخامس عشر من شهر بشنس سنة ١٠٣٥ ش باسم بنيامين الثانى فأصبح البابا الاسكندرى الثانى والثمانين .

٢٥٢ – على أنه لم يكد يتسلم مهام رياسته الراعوية حتى هبت ثورة عارمة أثارها الوالى شرف الدين بن التاج . وفى هذه الثورة خرب عدد من الكنائس والأديرة وذاق الرهبان والراهبات أقسى التعذيب . بل أن الأساقفة أنفسهم أصيبوا بالتنكيل رغم كرامتهم الكهنوتية . على أن المراحم الإلهية شاءت أن تفتقد الآباء والأبناء فلم تدم ولاية شرف الدين غير سنة واحدة وافته المنية بعدها ، وزادت رحمة الله وضرحاً فى تنصيب وال جديد كان حليماً منصفاً شديد العطف على الشعب سواء فى ذلك المسلم والقبطى . وفى هذا الهدوء الذى جاء بعد العاصفة وجه الأنبا بنيامين عنايته إلى إعادة بناء الكنائس المنهارة وتجديد أديرة برية شيهيت التى كانت قد تخربت وأقفرت من الرهبان . ذلك لأن البدو عندما أغاروا عليها قتلوا كل من فيها من الرهبان ولم ينج من قتلهم غير الذين تمكنوا من الهرب . وقد بدأ البابا بنيامين عمله بتجديد دير الأنبا بيشوى الذى كان الخراب قد فعل فعله فيه أكثر من بقية الأديرة . فأنفق عليه من ماله الخاص . وبعد أن جدده جمع فيه عدداً من الرهبان لاعادة تعميره .

٢٥٣ – وفى السنة الثالثة لبابويته وجد أن ما تبقى من الميرون لا يفى بحاجة الكنائس فبادر إلى دعوة الأساقفة للاجتماع به فى دير الأنبا مكارى وليشتركوا معه فى اقامة الشعائر الخاصة « بطبخة » الميرون . وقد لبى دعوته عشرون أسقفاً . ولما كان اجتماعهم معاً أثناء الصوم الأربعينى المقدس (الكبير) فقد وجدوا الفرصة مواتية ليستعيدوا ذكريات رهبنتهم ويعيشوا فى تأمل وخشوع وفى ألفة روحية تليق بالصوم الذى حافظت عليه الكنيسة منذ أن صامه فاديها الحبيب [1] .وكانت هذه الخلوة نعمة سماوية هيأها لهم الآب السماوى ليستعدوا بما نالوه من قوة روحيه لملاقاة

(١) لو ٤ : ١ – ٣ .

الأحداث التي ستقابلهم . ذلك أنهم ما كادوا يبلغون ايبارشياتهم حتى هبت عاصفة الاضطهاد من جديد [1] .

ووصلت أخبار التضييق والتعذيب إلى مسامع امبراطور الحبشة فكتب خطاباً إلى والى مصر يطالبه بحسن معاملة القبط مقابل حسن معاملته للمسلمين الخاضعين لسلطانه ، وكان قبل ذلك أن تعاون سلطان عدن مع تجار الرقيق المسلمين فبذل الامبراطور الحبشي جهداً كبيراً في القضاء على هذه التجارة المهينة للكرامة الانسانية . فكتب صاحب اليمن خطاباً استفزازياً لوالى مصر زعم فيه بأن عاهل الحبشة إنما يحاربهم حرباً دينية مستهدفاً إبادة المسلمين . فكان خطاب امبراطور اثيوبيا ذا هدفين : أولهما التشفع في القبط وثانيهما توضيح حقيقة موقفه من تجارة الرقيق وبسط حالة المسلمين في بلاده وكيف أنهم يعيشون في سلام يزاولون أعمالهم المختلفة دون أن يتعرض لهم أحد حتى أصبح بينهم عدد من الأغنياء ، وقد بنوا المساجد والمدارس وهم في أمن واستقرار . وقد نجح الامبراطور في الوصول إلى هدفيه إذ قد هدأ الاضطهاد في مصر كما استقر السلام في اثيوبيا استقراراً شمل عهود الأباطرة الثلاثة الذين تولوا العرش من بعده [2] كذلك استطاع القبط في ظل الهدوء أن يعيدوا ما تهدم من كنائسهم .

---

(١) ولقد قسا السلطان قلاوون قسوة جعلته ذات مرة يدفن نصرانياً حياً لتزوجه من أمرأة مسلمة ويأمر في الوقت عينه بجدع أنف المرأة - راجع « تاريخ دولة المماليك في مصر » ترجمه عن الانجليزية إلى العربية محمود عابدين وسليم حسن ص.٦٠ ، على أنه مما يجدر ذكره أنه على الرغم مما ساد عصر السلطان قلاوون من ظلم واستبداد بالقبط فقد استطاع هذا السلطان أن يجعل من مصر امبراطورية مترامية الأطراف . وكانت القصور التي عاش فيها هو وأمراؤه آية في الفن والترف فقد كانت ... من ظاهرها مبنية بالحجر الأسود والحجر الأصفر موزرة من داخلها بالرخام والفصوص المذهبة المشجرة بالصدف والمعجون وأنواع الملونات وسقوفها كلها مذهبة قد موهت باللازورد ، والنور يخرق في جدرانها بطاقات من الزجاج القبرسي الملون كقطع الجوهر المؤلفة في العقود ، وجميع الأراضي قد فرشت بالرخام المنقول اليها من أقطار الأرض وتشرف الدور السلطانية من بعضها على بساتين وأشجار وساحات للحيوانات البديعة والأبقار والأغنام والطيور والدواجن .... » راجع الخطط للمقريزي جـ ٢ ص .٢١٠ ، مختصر « تاريخ مصر ... » لجاستون فييت ص ٤٩٩ .

(٢) موجز تاريخ بطاركة الاسكندرية جمعه يعقوب جرجس واشرف عليه زاهر رياض هامش ص ٦٠ .

ومقابل هذا المد والجزر فى حياة الكنيسة كانت الحياة المدنية المصرية فى ازدهار : فقد وصلت المنسوجات المصرية إلى الهند كما أن أسماك دمياط كانت تصدر إلي سوريا وآسيا الصغرى . بل أن المراكب الراسية فى ميناء بولاق أيام الحصاد كانت تزيد على الألف [1] . كذلك امتلأت الأسواق بالسلع المختلفة . أما وصف الخانات فيبين مدى الذوق الفنى المصرى : فقد كان الخان واسعاً وجدرانه من الرخام المزخرف بالموزايكو ، وكان بناء مربعاً يحيط بحديقة داخلية جميلة التنسيق . أما غرف الخان فكانت تفتح على هذه الحديقة وكانت أشبه بغرف الرهبان [2] .

٢٥٤ - على أن استمرار السلام لم يكن من حظ القبط الذين عاشوا فى ذلك العصر ، لأن السلام والخصام كانا يتعاقبان بلا انقطاع . لهذا السبب ساد القلق على القلوب . وقد لاحظ الأنبا بنيامين ما يساور شعبه من حيرة واضطهاد فبذل جهده فى تهدئته . ولكى يصل إلى هذا الهدف قام برحلة راعوية فى أنحاء البلاد المصرية .فتسربت الطمأنينة إلى القلوب مكتسحة ما فيها من مخاوف . وكما كانت الزيارات الراعوية قديماً سبباً فى تثبيت الإيمان وفى ملء النفوس سكينة هكذا كانت زيارة البابا المرقسى إذ ذاك لأن لقاء الأب بأولاده من شأنه أن يفرح قلوب الأبناء بأبيهم والأب بأولاده . وخلال هذه الزيارة الراعوية داوم البابا المرقسى على الضراعة إلى رب الكنيسة ليتداركها بمراحمه ويجعل السلام يحل محل الخصام .

على أن باباويته لم تدم غير إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر . فامتلأ الشعب حزناً لفقده راعياً صاحياً عطوفاً . وقد أقيمت الشعائر الجنائزية على جثمانه الطاهر فى دير شهران حيث دفن باحتفال مهيب [3] .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) تاريخ مصر ... (بالفرنسية) لجاستون فييت ص ٤٩٨ .

(٢) تاريخ الأمة المصرية ... (بالفرنسية) لجاستون فييت ص ٤٩٢ .

(٣) سلسلة تاريخ الباباوات.. الحلقة الثانية - جمعه كامل صالح نخلة ص .٥ - ٥٣.

الشهيد بسطوروس

٢٥٥ - وفى فترة القلق والاضطراب التى نحن بصددها نال إكليل الشهادة عدد من الناس غالبيتهم مجهولة . ولكن من بين المعروفين من شهداء هذا العصر رجل اسمه بسطوروس [١] فقد حدث أن جحدت أمه الإيمان المسيحى ولكن بسطوروس ظل مع أبيه على ولائهما للمخلص ، وبعد سنين طويلة قام رجل قاس واشتكى بسطوروس إلى الوالى بحجة أن من كان أحد والديه مسلماً يجب أن يكون هو أيضاً مسلماً . فاستدعاه الوالى وحاول استمالته إلى انكار إيمانه فلم يفلح . فأمر بتكبيله والقائه فى السجن ، وبينما هو مسجون جاءت حمامة بيضاء ووقفت على رأسه . وسمع حارس السجن بالأمر فأبلغ الوالى به . وعندها استحضره الوالى أمامه وهدده بالحرق إن هو أصر على التمسك بإيمانه . فقال له بسطوروس : « أفعل بى ما شئت فسلطانك على جسدى فقط » . فأخرجوه إلى ساحة عامة حيث سمحوا لمن يشاء أن يضربه ويشتمه . فتحمل كل ما أذيق من عذاب بصبر وهدوء . وفى النهاية قطعوا رأسه بالسيف . وهكذا نال إكليل الشهادة . وقد شاء الله تعالى أن يكرم شهيده فجرت آيات وعجائب عن طريق جسده الذى ذاق أشكال العذاب . [٢] .

❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) المعنى الحرفى لكلمة بسطوروس هو « الصليب »

(٢) السنكسار الأثيوبى ... ترجمة واليس بودج جـ ١ ص ٨٤٢ .

الهدوء بعد العاصفة

٢٥٦ - كانت القلوب فى اضطراب حينما انتقل البابا الاسكندرى من دار الظلمة والظلم إلى دار النور والانصاف . لذلك ظل الكرسى المرقسى شاغراً سنة تنقصها أربعة أيام إذ لم يكن فى وسع الأساقفة والأراخنة أن يجتمعوا معاً للتداول والتشاور . على أنهم استجمعوا شتات أفكارهم ورأوا أن المؤمن الذى يلقى همه على ربه يجب أن يسير فى حياته مؤدياً واجبه حاملاً مسئوليته رغم كل ضيق . فاجتمع الأراخنة والأساقفة بالكنيسة التى أصبحت المقر البابوى وهى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة ودعوا الآباء والأساقفة ليجتمعوا معهم كى يتشاوروا واياهم فى أمر من يتولى رعايتهم .

وكان بين من استعرضوا من الرهبان ناسك وديع ورع يتميز بالتقوى والعلم اسمه بطرس ، بدأ حياته الرهبانية فى دير الأنبا مكارى الكبير ببرية شيهيت ثم اختير رئيساً لرهبان دير شهران الذى ذاع صيته بذيوع فضائل الأنبا برسوم العريان . فلما تناقش المجتمعون فى ما امتاز به بطرس من الخصال استقر رأيهم بالاجماع على انتخابه . وبهذا الانتخاب الاجماعى أصبح بطرس الخامس البابا المرقسى الثالث والثمانين سنة ١٠٣٢م ش [١] .

٢٥٧ - وقد حدث فى بداية بابويته أن بعض المسلمين فى الريف اشتكوا رجلا إلى القاضى بدعوى أنه قبطى مع أن جده كان مسلماً . واستمع القاضى إلى المشتكين وأصدر حكمه بوجوب اعتناق هذا القبطى الدين الأسلامى . ولكنه رفض أن يخضع لهذا الحكم . وعند ذاك أمر القاضى بالقائه فى السجن . وفى الليلة الأولى من سجنه ذهب القبط

---

(١) أى ١٣٤٠ ميلادية غربية .

فى جنح الظلام وأخرجوه منه . وحين رأى المسلمون هـذه الجرأة قرروا اعدام كل مـن يستطيعون القبض عليه مـن الأقباط الذيـن حاولوا بدورهم أن يهربوا .إلا أن عدداً كبيراً منهم نال إكليل الشهادة بعد أن ذاق العذابات الأليمة .ويبدو أن الدم المهرق زاد المعتدين رغبة فى الشر فاعتدوا على الكنيسة وسرقوا ما بها من ذخائر وهدموها . ثم شيدوا مسجداً مقابل المكان الذى كانت الكنيسة مشيدة عليه . وكلما اقترفوا اثماً إزدادوا قسوة بعد ذلك بالتنكيل بالأحياء بل نبشوا القبور وأخرجوا الجثث وأحرقوها . وكان من الطبيعى أن ترتبك الأمور فرفع الحاكم تقريراً إلى السلطان محمد بن قلاوون (فى مدة حكمه الثالث) شكا فيه من سوء تصرف القاضى واستثارته الجماهير . فكان هذا التقرير حافزاً للقبط ليتقدموا هم أيضاً بالشكوى مطالبين بإعادة بناء كنيستهم . وعندها أمر السلطان باستقدام القاضى إليه لمحاكمته . فأحتج بعض المسلمين قائلين بأنه من العيب محاكمة قاض مسلم لأنه اضطهد القبط . على أن السلطان لم يعبأ باحتجاجهم وحكم بعزل القاضى فبدأت فترة من السلام [١] .

٢٥٨ - ومن مراحم الله أن فترات السلام كانت فى ذلك القرن العصيب فرصا مواتية . وهنا العجب - لأن القرن الرابع عشر كان يفيض بالضيقات والاضطهادات العنيفة . ومع ذلك فإن الآباء كانوا يجدون الحاجة ماسة لعمل الميرون دليلاً على أن صمود الكنيسة أمام الضيق لم يكن مستمراً فحسب بل كان مثمراً أيضاً . وقد تمت الشعائر المقدسة فى دير الأنبا مكارى الكبير ببرية شيهيت كالمعتاد . وقد لبى الدعوة البابوية اثنا عشر أسقفاً والتقوا جميعاً فـى رحاب أبى برية شيهيت حيث استمتعوا بالخلوة مع الله فى هدوء نفسى شامل وبخاصة لأن الشعائر المقدسة اقيمت أثناء الصوم الأربعينى المقدس . واشترك بعض الكهنة مع البابا والأساقفة منهم الأسعد فرج الله بن القس الأكرم كاهن كنيسة السيدة العذراء (الشهيرة بالمعلقة) ومعه الشيخ المعلم يوحنا ابن شقيق الأنبا يؤنس (البابا المتنيح) . ثم انه لما احتفى الجميع بعيد القيامة المجيد عادوا إلى كراسيهم يحمل كل منهم ما يحتاج إليه من الميرون المقدس .

---

(١) سلسلة تاريخ ... الحلقة الثانية لكامل صالح نخلة ص ٥٥ .

٢٥٩ - على أنهم ما كادوا يستقرون فى ايارشياتهم حتى اندلعت نيران الاضطهاد مرة أخرى . فقام الغوغاء بهدم بيوت القبط القائمة أمام مساكن المسلمين ، واستمرأوا الاعتداء فأخذوا يتعقبون القبط فى الطرق ويمزقون لهم ثيابهم ويضربونهم ، ومن وجدوه راكباً دابة أنزلوه عنها عنوة ، بل أنهم ذهبوا إلي حد أنهم كانوا يلقون عليهم أحياناً اللهب المشتعلة ، فأدت كل هذه الاعتداءات المستمرة إلى اعتصام القبط ببيوتهم والامتناع من الظهور فى الشوارع حتى لقد خيل للرائى أنهم انقرضوا تماماً [١] .

٢٦٠ - وفى هذه الساعات العصيبة لم ينصب الضيق على الأشخاص فحسب بل ظهرت إلى جانبه كتب عديدة ضد القبط [٢] أبرزها « منهاج الصواب فى قبح استكتاب أهل الكتاب » وبعد أن أعلن المؤلف سخطه على القبط أورد الأدلة التى قدمها المماليك تبريراً لاستخدامهم فى دواوينهم إذ يقولون « لكن الضرورات تبيح المحظورات ولولا ضرورتهم ما قدمناهم ولكن للحاجة إليهم استكتبناهم » .والواضح أن مبتغى النفوذ كانوا يتخوفون من الأثر النفسى البعيد الذى كان للكاتب القبطى على الأمير الذى يعمل فى ديوانه . فقد كان كاتب المنهاج أيضاً : « ونجد الأمير مع ذلك يفوض إليه أمره ويطلعه على سره ويرجع إلى قوله فى اقطاعه وغلمانه وحاشيته حتى أن عدو الله تكون حرمته عند حاشية الأمير والفلاحين أكثر من حرمة الأمير : يقبلون يده ويقفون على رأسه إذا جلس لا يخالفه الأمير فيما يقول ولا يفعل إلا ما يشير به [٣] . وهذه الكلمات وغيرها تبين أن مهارة القبط كانت المبرر الوحيد لاستخدامهم إذ يستمر كاتب المنهاج فيقول: « فمن الواضح للغبى الجاهل أن هؤلاء يكونون للأموال أكثر استخراجاً ويكون

---

(١) أهل الذمة فى الأسلام « ترجمه عن الانجليزية دكتور حسن حبشى ص ٧٨ .

(٢) ومنها « الكلمات المهمة فى مباشرات أهل الذمة » للأسناوى ، المذمة فى استعمال أهل الذمة - دار الكتب مخطوط رقم ١٦٩٣ .

(٣) البيروقراطية القبطية فى عصر المماليك (بالأنجليزية) لريتشاردز . ألقاها فى أحاديث ألفية القاهرة ص ٨ .

الاقطاع بمباشرتهم أكثر خراجاً [١] . وليس ذلك فحسب ، بل ان مهارتهم الادارية قد دعمتها مهارتهم فى الطب والعمارة .

٢٦١ - ومن المحزن ان استمرار الضغط والتضييق قد جعل عدداً كبيراً من أعيان القبط يتنكرون لدينهم ويتحولون عنه إلى الأسلام . وفى هذا يقول النويرى « ولما منعوا من الاستخدام بالديار المصرية أسلم جماعة كبيرة من أعيانهم لأجل مناصبهم فاستمروا بعد اسلامهم على ما كانوا عليه » [٢] ولهذا السبب كان القبط المعتنقون للأسلام موضع احتقار المسلمين وتشككهم إلى حد أنه صدر الأمر بعدم استخدام القبطى حتى بعد اشهاره الأسلام لأنه على حد قول المقريزى إنما أسلم طمعاً فى الاحتفاظ بوظيفته وجاهه . بل أن المسلمين اتهموهم بأنهم أسلموا فى الظاهر فقط وأنهم استمروا على حياتهم المسيحية فى بيوتهم [٣] .

---

(١) البيروقراطية القبطية ... ص ٧ ، ويقول هذا الكتاب نفسه بأنه يمكن اعتبار الهياج على القبط بأعمال العنف ضدهم أعراض مرض اجتماعى وتنفيس عن المرارة ضد حكومة غريبة متعالية . لأن مثل هذه الأعمال كانت تشكل خطراً على نظام الحكم القائم قد يودى به فى نهاية الأمر . وكانت الحكومة تتخذ خطوات حاسمة للقضاء على الفوضى والاضطراب حرصاً على سلامتها كما كانت أحياناً تطلق العنان للغوغاء ليعبروا عن ضيقهم النفسى ضد القبط بدلا من التعبير عنه ضدها . إلا أنه فى كثير من الأحيان كانت الخواطر تهدأ لمجرد فصل الموظفين البارزين وبعد الهدوء يعاد استخدامهم . أما تغرى بردى - وهو من الكتاب المتزنين وكان على صلة بالحكام المماليك - فإنه رغم معارضته فى اطلاق كلمة « قاضى » على القبطى الذى أسلم حديثاً هرباً من الاضطهاد قد أقر بالحاجة اليهم لخدماتهم اذ قال :

« أنا لا ألوم الحكام لترقية هؤلاء الرجال لأنهم محتاجون اليهم بسبب معرفتهم لكل أمور الأدارة - راجع « البيروقراطية القبطية » ... ص ٧ حيث يورد الكاتب اقوال بردى نقلاً عن كتابه النجوم الزاهرة ، كما يستشهد بكتاب السلوك للسخاوى » .

(٢) البيروقراطية القبطية ... ص ١٥ .

(٣) يقول المقريزى عن اسرة بنى مكانس الذين اسلموا سنة ١٢٧٩ فى سياق حديثه ... وبقاء نسائهم على النصرانية واستخفاف رجالهم بكتاب الله ورسوله ... الخطط جـ ٢ ص ٥١١ . كذلك ظلت السجلات الحكومية تضيف كلمة « القبطى » بعد اسم من أسلم حتى بعد الجيل الثالث والرابع من اسلامهم .

٢٦٢ - إلا أن المثل القائل بأن التاريخ يعيد نفسه لا يعبر عن حقيقة واقعية من تسلسل الحوادث فى بلادنا فحسب وإنما هو يؤكد لنا استمرار رعاية الله ومراحمه . وقد بدت هذه الحقيقة فى تلك الحقبة إذ قد تغلبت فى النهاية رغبة السلطان قلاوون فى استقرار الأمن وفى تنصيب العدالة مرة أخرى . فحل الهدوء محل الاستبداد وبدأ القبط يتنفسون فى شيء من الحرية من جديد .

وما أن اطمأن البابا المرقسى على شعبه وأحست نفسه بالسكينة حتى انتقل إلى عالم النور والعدالة المستقرة [١] .

ولقد ساند الأنبا بطرس الخامس فى صلواته سميه أسقف القيس المعروف بأنبا بطرس المسكين . فلقد اشتهر هذا الراعى بكونه رجل صلاة إذ كان مداوماً عليها ضارعاً إلى الآب السماوى أن يترفق بشعبه المعذب . ولقد استجيبت صلواته إذ عاش ليرى السلام والأمن مستقرين [٢] .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) سلسلة تاريخ لكامل صالح نخله .

(٢) عن مجلة « صوت الشهداء » السنة الرابعة العدد الثانى فبراير سنة ١٩٦٢ مقال للقمص ميصائيل بحر عن « اقليم المنيا فى العصر القبطى » ص ٣٨ .

الأنبا بطرس الملقب بالجميل

أسقف مليج

٢٦٣ - و نقف كما سبق أن وقفنا مراراً أمام جندى مجهول ضمن العدد العديد من الجنود المجهولين الذين ذادوا عن كنيستنا المحبوبة ، وهذا الجندى المجهول هو الأنبا بطرس ... ومن العجيب أن الأساقفة يكوّنون جزءاً كبيراً من مئات المجهولين الذين لا نعرف أسمائهم أو غير أعمالهم . وكل ما نعرفه عن الجندى الذى نحن بصدده هو أنه كان أسقفاً على كرسى مليج فى بابوية الأنبا بطرس الخامس إذ كان ضمن الأساقفة الذين اشتركوا معه فى تأدية شعائر الميرون المقدس . وقد كان يلقب بالجميل ، ولا نعرف إن كان هذا اللقب لقب عائلته أو أنه أطلق عليه شخصياً . وسواء أكان جميلاً فى شكله أم لا فإن الذى نعرفه هو أنه كان جميلاً فى عمله . فقد وضع ثلاثة كتب استهدف منها كلها غاية واحدة هى اثبات صحة العقيدة الأرثوذكسية وتوضيح غوامضها وهذه الكتب هى :

١ - كتاب البيان : وضعه فى خمسة فصول رداً منه على جمال الدين بن محمد المصرى ليثبت له حقيقة الدين المسيحى .

٢ - كتاب فى بدع الطوائف : قدم فيه الأدلة على العقيدة الأرثوذكسية مقابل التعاليم المغايرة لها .

٣ - كتاب الاشراق الذى رد به على الأرمن .

ومما يؤسف له أن هذه الكتب لم تطبع على الرغم من أن الحاجة إلى استيعاب حقائق العقيدة الأرثوذكسية حاجة ماســة للغاية فى عصرنا الحالى .

ومن المتواتر أيضاً أنه تمم سير الشهداء والقديسين الواجب اضافتها إلى السنكسار (١) .



(١) سلسلة تاريخ الحلقة الثانية ص ٦٧ نقلاً عن المخطوطات العربية ص ٦٢ .

الظلم يرفع رأسه من جديد

أ - الأنبا مرقس الرابع

٢٦٤ - انقضى شهر وسبعة وعشرون يوماً على انتقال الأنبا بطرس الخامس إلى دار الخلد . ثم رأى الأساقفة والأراخنة وجوب البدء فى التشاور لانتخاب راعيهم الأول وبخاصة لأن فترة الهدوء . كانت لا تزال سائدة . وحينما اجتمعوا تذكروا انهم التقوا براهب من دير شهران يوم أن اجتمعوا لعمل الميرون فى دير الأنبا مكارى الكبير تلبية لدعوة البابا المتنيح . وهذا الراهب كان ابن كاهن كنيسة السيدة العذراء المعروفة بالمعلقة واسمه الأسعد فرج الله ابن القس الأكرم . وحين تذكروه تذكروا أيضاً أنه حين ترهب اتخذ اسم الملاك المبشر اسماً له فأصبح الراهب غبريال . وحين استثارت الذكرى هذه الصورة التى للراهب غبريال لما كان بينهم رأوه الشخص الذى ينشدونه فأجمعوا على انتخابه . وبذلك أصبح الأنبا مرقس الرابع البابا الاسكندرى الرابع والثمانين سنة ١٣٤٢ م ش [١] . وقد تمت رسامته فى أواخر أيام الناصر محمد بن قلاوون - وهى الأيام التى استقر فيها السلام .

٢٦٥ - ومن الطريف أنه جاء إلى مصر فى تلك الفترة سائح انجليزى أسعده الحظ بمقابلة السلطان وفيما الاثنان يتسامران قال السلطان لضيفه بأن هناك اعتقاداً سائداً بين المسلمين بأن النصارى قد خسروا مصر وسوريا بسبب معاصيهم وابتعادهم عن الله، وأنه سيأتى وقت يتوبون فيه ويعودون

---

(١) أو سنة ١٣٥. ميلادية غربية

بنية خالصة إلى طاعة الله والعمل بوصاياه . وعند ذلك سيسودون على أرض مصر كلها [1] .

٢٦٦ - وفى تلك الحقبة عاش فى أثيوبيا رجل اسمه يارد حباه الله مواهب عظيمة ويصفه السنكسار الأثيوبى بأنه شاعر وكاتب مزامير ومرتل شبيه بالسيرافيم وكان يارد هذا من عائلة كاهن معروف اسمه جدعون - كاهن كنيسة السيدة العذراء والدة الإله فى أكسوم التى كانت أول كنيسة شيدت فى البلاد الحبشية . وقد تولى الكاهن جدعون أمر تعليم يارد دينياً . ولكن التلميذ كان كسولاً فضربه معلمه . وعند ذاك هرب خارج المدينة وأقام تحت شجرة باسقة . وذات يوم رأى دودة تحاول أن تتسلق الشجرة فتسقط وتعاود التسلق . فلما تكرر سقوطها ومعاودتها السعى اتخذ منها يارد عبرة فعاد إلى معلمه وقال له : « اغفر لى يا أبى وافعل بى ما يحلو لك » ولما كان معلمه رجلاً روحانياً فقد قبله فرحاً وصلى بحرارة الى الآب السماوى ليفتح بصيرته . فاستجاب الله ضراعته إذ قد استطاع يارد أن يتعلم ما لقنه إياه معلمه فى فترة قصيرة . ولم يكن الأثيوبيون حتى ذلك الوقت يصلون شعائرهم بألحان مسموعة محددة موزونة بل كانوا يرددونها بأصوات هامسة . لكن الله هيأ ليارد سبيل المعرفة بأن اختطفه الى أورشليم السمائية كما فعل ببولس قديماً ، وهناك تعلم ألحان الأربعة والعشرين قسيساً المحيطين بالعرش . فلما عاد الى نفسه تذكر تلك الرؤيا الخلابة فذهب الى كنيسة السيدة العذراء بأكسوم وبدأ يرتل بصوت عال قائلاً : « هللويا للآب . هللويا للأبن . هللويا للروح القدس » وقد جعل من هللويا الأولى الأساس الذى رتبت عليه ألحان الصلوات اليومية ودعاها « ألحان صهيون » وجعل من هللويا الثانية الوسيلة للتعبير عن بناء هيكل الرب ودعاها « لحن العلياء » ومنها نظم الألحان التى تقال فى الأصوام وفى الأحزان ، أما هللويا الثالثة فاستخدمها لوضع ألحان الأعياد العظمى . وحين كان يارد يرتل هذه الألحان كان الناس يتزاحمون عليه لأن صوته كان ملائكياً فى عذوبته . وحدث ذات يوم أن جلس الملك

---

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٩٧ - ٥٩٨ .

جبرامسكال يصغى إليه فاهتز نشوه لانغامه وفى نشوته وشروده النفسى غرس سيفه فى قدم يارد دون أن يدرى . وكان يارد بدوره مأخوذاً بالألحان التى ينشدها إلى حد أنه لم يحس بالسيف المغروس فى قدمه . فلما انتهى من ترنمه التفت إليه الملك مذعوراً مما فعله به وقال له : « اطلب منى ما شئت تعويضاً عن هذا الدم الذى سال منك بسببى وأنا غير واع » . قال له يارد : «عدنى أنك تقضى لى طلبى مهما يكن » فوعده . وعندها طلب إليه أن يسمح له بالترهبن فحزن الملك ولكنه لم يستطع أن يتراجع عن وعده . وقد تأسف الجميع لمغادرته مدينتهم ولكنهم تعزوا بالألحان التى علمهم إياها . من ثم ذهب يارد أولاً إلى كنيسة العذراء والدة الإلة بأكسوم حيث صلى بحرارة متزايدة . وبعد أن أنتهى من الصلاة ذهب جنوبياً إلى الصحراء وهناك قضى بقية عمره فى الزهد والتعبد [١] .

٢٦٧ - وحدث حادث لم يكن فى الحسبان أدى بدوره الى معاودة اضطهاد القبط ، وهذا الحادث يتلخص فى أن حكومة أراجوان (بأسبانيا) أرسلت وفداً إلى السلطان ترجو منه أن يصدر الأمر بفتح بعض الكنائس الخاصة بالملكيين ويفك أسر أسبانى محتجز فى بلادنا . وقد وافق السلطان على الطلبين . إلا أنه حينما كان وفد الوساطة عائداً إلى الاسكندرية ليبحر منها إلى بلاده رأى السلطان أن يجعله يدفع فدية عن الأسير الذى أطلقه والا أعاده إلى الأمير . فلم يكتف الوفد الأسبانى برفض طلب السلطان بل حملوا رسله قسراً إلى أسبانيا . فأوغر هذا العمل صدور المسئولين فى مصر ضد القبط وعاودوا البطش بهم مع أنه لا ذنب لهم اطلاقاً . وهذا الغضب كان بالطبع نتيجة لكون الأسبان مسيحيين فهم في نظر المسلمين مشاركين للقبط فى إيمانهم . لهذا السبب وحده حرض الأمراء المماليك الشعب على مضاعفة بطشهم بالقبط كما حملوا السلطان على اخراجهم من الوظائف الحكومية [٢]. فأثبت هذا الحادث صدق المثل الشائع : « كل هم فى البلد بيجى على قلبى ويسند » .

---

(١) السنكسار الاثيوبى ... ترجمة واليس بودج ج ٣ ص ٨٧٥ - ٨٧٧ .

(٢) تاريخ دولة المماليك .. ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ص ٧٤ ، المماليك فى مصر لأنور زقلمة ص ٧ .

٢٦٨ - ثم مات الناصر محمد بن قلاوون فخلفه على عرش السلطنة ابنه الملك الصالح الثانى الذى كانت أفعاله أبعد ما تكون عن اسمه وفى بداية حكمه انتشر الطاعون بشكل مزعج فأهلك الآلاف من الناس . وبينما هذا الوباء يحصد المئات يومياً جاء إلى القاهرة رجل قبطى من الريف وأخذ يتنقل فى الشوارع منذراً الناس بالويل إن لم يتوبوا عن شرورهم . وعندها قبض عليه وسيق إلى قاضى الأسلام . فوقف أمام القاضى وأعلن فى شجاعة تامة بأنه إنما جاء ليوبخ القبط الجاحدين ويهيب بهم أن يعودوا إلى دين آبائهم . فهدده القاضى بالتعذيب فلم يرهب التهديد وأعلن أنه ليس مستعداً لأن يتحمل صنوف العذاب التى يمكن أن تكال له فقط بل أنه على أتم استعداد لأن يلقى الموت أيضاً . فاستثارت شجاعته غضب القاضى والمحيطين به ومن ثم صـــدر الأمر بتعذيبه . واستمر التعذيب أسبوعاً كاملاً . فتحمله الرجل الباسل بصبر وهدوء . إلا أن بسالته وصبره لم يشفعا فيه أمام جلاديه إذ قد صدر الأمر بقتله . فقطعوا رأسه ثم أحرقوا جثته . وهكذا نال إكليل الشهادة على أننا لا نعرف اسم هذا الشهيد الصبور ولا البلد الذى كان يعيش فيه قبل مجيئه إلى القاهرة . فهو بدوره جندى مجهول .

وكأنما كانت هذه الحادثة الشرارة التى أوقدت نار الاضطهاد من جديد وأول شرارة التهمت كنيسة بناحية شبرا إذ قد خرج والى القاهرة إلى هناك وأمر بهدم الكنيسة أمام عينيه .

٢٦٩ - ولم ينصب تعسف الملك الصالح على القبط الأوفياء لمسيحيتهم فقط بل شمل المارقين منهم أيضاً . ذلك أنه كان قد استوزر الصاحب علاء الدين ابن زنبور من عائلة زنبور التى أسلم جميع أفرادها . على أن أحد رجال البلاط تقدم إلى الملك يتهم وزيره بأن اسلامه فى المظهر فقط أما فى الواقع فهو ما زال على دينه ، فاشتد غضب الملك على ابن زنبور إلى حد أنه لم يكتف بتعذيبه وحده بل أنزل العذاب بكل أفراد عائلته وبجميع خدمه إلى أن أرشدوه إلى مكان مال وزيره فاستولى عليه وبعد أن أذيق ابن زنبور مختلف العذابات صدر الأمر بنفيه إلى قوص .

ثم أمتد التعسف إلى الأموال فصودرت أوقاف القبط وهدم عدد كبير من كنائسهم وبعض من أديرتهم . وكانت إحدى هذه الكنائس تلك التى هدمها والى القاهرة بشبرا الخيمة . وكانت تضم أنبوبة بداخلها أصبع لشهيد . وكان يحتفل فيها سنوياً بصلوات تسبق الفيضان استعطافاً لله لأن يجعل الفيضان وافياً . وبعد الصلوات يحملون الأنبوبة الحاوية لأصبع الشهيد إلى ضفاف النهر الخالد حيث يترنمون بصلوات أخرى . فلما أصبحت الكنيسة أنقاضاً حمل الوالى أصبع الشهيد بأنبوبته إلى الملك الذى أمر بحرقها فى الميدان الرئيسى وذر رمادها فى النيل . ومذاك أبطلت الصلوات الاحتفالية التى كانت تقام سنوياً بتلك الضاحية .

ولقد اتفق ذات يوم أن مر قبطى على الطريق الممتد أمام الجامعة الأزهرية وهو لابس الحرير المزركش وراكب حصاناً وحوله عبيده وخدامه فاستثارت وجاهته غضب بعض الغوغاء وهجموا عليه وأنزلوه من على حصانه ومزقوا ثيابه وكادوا يقتلونه لولا تدخل بعض من عقلاء المسلمين فى أمره [1] .

ولكن هذا الحادث لم يمر بهدوء لأن الثائرين تقدموا إلى الأمير طاز يشتكون إليه وجاهة القبط . فأمر باستدعاء البابا المرقسى وقرأ له العهدة المكتوبة بين المسلمين وبين أهل الذمة الخاصة بالملابس . ومع أن الأنبا مرقس أعلن استعداده لأن يلتزم هو وشعبه بما جاء فى العهدة إلا أنه أذيق صنوف العذاب وألقى فى السجن فترة من الزمن دون مراعاة لكرامته [2] .

٢٧٠ - كذلك بعث السلطان برسالة إلى جميع ولاته يفرض عليهم فيها أن لا يستخدموا قبطياً فى دواوين الحكومة . فلو أن أحد القبط أعلن اسلامه يمنعونه من العودة إلى منزله ومن مقابلة أهله إلا أن أسلموا هم بدورهم . وعلى كل من يشهر اسلامه أن يلازم المساجد والزوايا ،وأن يجلس عند أقدام الفقهاء ويستمع إلى ما يقوله شيوخ الاسلام . أما متى

---

(١) الخطط للمقريزى جـ ٤ ص ٤٠٥ .

(٢)سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة ص ٦٠ ، تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٨٠ .

مات أحد القبط فيتولى المسلمون تقسيم تركته . فإن لم يكن له وارث دخلت التركة بيت المال[1] .

٢٧١ - ثم حدث أن تنازع وزيران مرتدان وانضم إلى كل منهما فريق يسانده فأدى هذا النزاع إلى خلع الملك الصالح واحلال أخيه الناصر حسن محله .

٢٧٢ - وبعد هذا كله وصل إلى مسامع ملك النوبة خبر تعذيب البابا المرقسى والقائه فى السجن كما وصلته أخبار البطش بالقبط والتشكك فيمن يسلم منهم فأصدر أمره بالقبض على التجار المسلمين من رعاياه وسجنهم ليكونوا رهائن لديه إلى أن يصدر الأمر بالأفراج عن الأنبا مرقس الرابع . وبهذه الوسيلة نجح ملك النوبة فى بلوغ هدفه إذ قد خرج البابا الاسكندرى من السجن .

٢٧٣ - وقد جاز الأنبا مرقس الرابع كل هذه الشدائد بصبر واتزان ملقياً همـــه على الرب الذى ائتمنه على رياسة الكهنوت وعاملاً على مواساة شعبه . ثم رأى الآب السماوى أن يريحه من كل هذا الظلم والبطش فنقله إلى دار النعيم بعد أن قاد دفة الكنيسة أربع عشرة سنة وأربعة شهور وستة وعشرين يوماً[2] .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) الخطط جـ ٤ ص ٤٠٦ .

(٢) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة ص ٥٧ - ٦٣ .

ب - الأنبا يؤنس العاشر

٢٧٤ - المؤتمن الشامى .
٢٧٥ - حصاد شحيح .
٢٧٦ - معاودة البطش .
٢٧٧ - المحن تزيد القوة على الاحتمال .

٢٧٤ - وخلال الظلم السائد ظل الكرسى المرقسى شاغراً ثلاثة شهور وستة أيام . ثم انجلى الظلام قليلاً فتوافد الأساقفة من الأقاليم على القاهرة وأرسلوا يدعون الأراخنة ليجتمعوا معهم . ومن مراحم الله أن الأمير يلبغا سهل لهم أمر التلاقى معاً للتداول فى موضوع انتخاب البابا . ويبدو أن البطش الخارجى جعلهم أكثر ألفة وأقوى تماسكاً فتفاهموا فى هدوء وانسجام وانتهوا إلى الاجماع على راهب عالم قديس أصله من دمشق الشام ثم جاء إلى بلادنا وعاش فيها متبعاً نظام نساكها المتبتلين . ونتيجة لهذا الاجماع الرائع تمت شعائر الرسامة المقدسة التى ارتفع بها الراهب يؤنس الملقب بالمؤتمن الشامى إلى كرامة رياسة الكهنوت العليا فأصبح البابا المرقسى الخامس والثمانين فى أيام السلطان شعبان بن حسن الأشرف سنة ١٣٥٦ م ش (أو سنة ١٣٦٤ م غ).

٢٧٥ - ومن المؤلم أن الطبيعة هى التى قست فى بداية بابوية الأنبا يؤنس العاشر إذ قد شح الحصاد فانتشرت المجاعة وأدت إلى موت الآلاف من الناس لأنها استمرت ثلاث سنوات متتالية .

٢٧٦ - وتلين قسوة الطبيعة ولم تلين قلب الانسان الذى عاد إلى بطشه بأخيه الانسان كأنه فى مأمن من غدر الأيام . ذلك أن السلطان « عزم على قطع دابر الأقباط ...فولى عدة وظائف كانت بيد الأقباط إلى جماعة من الفقهاء » [1] .

٢٧٧ - على أنه رغم كل قسوة وكل بطش ورغم العدد الكبير الذى ارتد عن دينه فى تلك الفترة المدلهمة فإن البابا المرقسى وجد الحاجة ملحة

(١) التبر المسبوك فى ذيل السلوك للسخاوى - مخطوط محفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس سنة ١٧٢٧ ورقة ٣٥ ب ، تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٨١ .

إلى تقديس الميرون . وهذا هو العجب فى الكنيسة القبطية : فلقد زادتها المحن قوة على الاحتمال إذ قد منحها الله تعالى حيوية كفلت لها البقاء فى وجه كل ضيق وكل اضطهاد . وحينما لمس الأنبا يؤنس هذا الاحتياج بعث بدعوة إلى الأساقفة ليوافوه إلى دير الأنبا مكارى الكبير . فلبى دعوته عشرون أسقفاً . ولما اكتمل عددهم اشتركوا جميعاً فى الشعائر التى بها يتقدس الميرون .

ولكن رياسة الأنبا يؤنس الشهير بالمؤتمن لم تدم غير ست سنوات وشهرين وثمانية أيام كانت عصيبة من بدايتها حتى النهاية [1] .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة .

جـ - الأنبا غبريال الرابع

٢٧٨ - استقرار الرأى على انتخاب رئيس الدير المحرق .

٢٧٩ - حرب أهلية مملوكية .

٢٨٠ - الحاجة الى مزيد من الميرون .

٢٨١ - سفينة مغيرة .

٢٨٢ - شئ من الاستقرار .

٢٧٨ - ومرت ستة شهور والكرسى المرقسى مازال شاغراً إذ كانت الضيقات الجاثمة على الصدور تقوم حائلاً دون الاجتماع للتشاور . إلا أن خالق الكون فى شامل رحمته قد جعل للأنسان المقدرة على الاحتمال وعلى السير فى الحياة رغم ما يعتريها من محن وآلام . ولولا هذه المنحة الإلهية ما استمر الكون عامراً يتوارثه الناس جيلاً بعد جيل . لأن بطش القوى بالضعيف لم يفتر منذ بداية الخليقة . وخلال السحب القاتمة الحاجبة لضوء الشمس رأى الأساقفة أن واجبهم الراعوى يحتم عليهم دعوة الأراخنة للتداول معهم فى أمر الخليفة المرقسى . وفعلاً اتخذوا الخطوات العملية بأن اجتمعوا هم والأراخنة . وبعد البحث وموازنة الأمور استقر الرأى على رئيس الدير المحرق واسـمه غبريال لأنه كان فاضلاً جليلاً عالماً عابداً ناسكاً مهيب الجانب [١] . فأخذوه وساروا به إلى الاسكندرية إلى كنيسة باسم القديسين سرجيوس وواخس [٢] حيث تمت رسامته يوم عيد الظهور الالهى [٣] . وقد ظل محتفظاً باسمه الرهبانى فأصبح الأنبا غبريال الرابع البابا الاسكندرى السادس والثمانين سنة ١٣٦٢ م ش (سنة ١٣٧٠ م غ) .

٢٧٩ - وما أن بدأ مباشرة رياسة كهنوته حتى قامت حرب أهلية بين المماليك الموالـين للسلطان والمماليك المشايعـين ليلبغا . وانتصـر السلطان

---

(١) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين . المجلد الثالث - الجزء الثالث - قام على نشره أنطون خاطر وأزولد بورمستر ص ١٣٦ .

(٢) كنيسة لم يعد لها أثر ولا نعرف لها مكان .

(٣) أو عيد الغطاس ويعرف بهذا الأسم لأن الثالوث الأقدس ظهر فى لحظة واحدة فالله الآب ظهر بصوته القائل هذا هو ابنى الحبيب الذى به سرورت (متى ٣ : ١٧) والله الروح القدس ظهر فى شكل حمامة ، والله الابن كان صاعداً من نهر الأردن .

وأعوانه وطاردوا خصومهم إلى أن أغرقوهم فى النيل . الا أن الدائرة لم تلبث أن دارت على السلطان فلقى حتفه . وكأن هذا التطاحن فى شوارع القاهرة لم يكن كافياً إذ قد شب فيها حريق مزعج التهم خمسمائة دار . ولولا أن سور القاهرة كان حاجزاً منيعاً لأتت النار على نصفها . وكانت هذه الكوارث سبباً فى هدوء التضييق على القبط إذ شغلت المماليك عنهم .

٢٨٠ - ومرة أخرى وجد البابا المرقسى أن الحاجة ماسة لمزيد من الميرون فأرسل يدعو الأساقفة للاجتماع به فى دير الأنبا مكارى الكبير ليشاركوه اقامة شعائر الميرون المقدسة . وقد لبى دعوته عشرة من الأساقفة فقط للصعوبات التى كانت قائمة وقتذاك . وكان سبعة من الأساقفة من الصعيد وثلاثة من الدلتا . ولقد تمت هذه الشعائر المقدسة فى ذلك الدير العريق الذى يلقب صاحبه بأبى البطاركة للمرة الأخيرة يومئذاك . لأن الباباوات الاسكندريين أصبحوا يؤدونها بعد ذلك فى الكنيسة التى تكون المقر البابوى ساعة اقامة هذه الشعائر .

٢٨١ - ثم حدث أن رست سفينة بالاسكندرية حاملة جنوداً صليبيين - نزلوا بالمدينة وعاثوا بها فساداً ونهبوا كل ما وصلت إليه أياديهم . ثم استطاعوا بعد ذلك أن يأخذوا خمسمائة أسير ويقلعوا بهم إلى بلادهم . فثارت ثائرة المماليك المسئولين فى القاهرة والاسكندرية ولم يجدوا من يصبون عليهم جام هذه الغضبة إلا القبط ففرضوا عليهم ضرائب فادحة [١] . وهكذا نجد أنه كلما هبط الصليبيون بلادنا وأوقعوا الأذى بأهلها استفزوا بعملهم النفوس ضد القبط ، فكان الضيق الذى يصيبهم ضيق مزدوج : ما يقع عليهم من بطش الصليبيين ومن كون هؤلاء الباطشين يحملون شارة المحبة والرحمة فى عمليات القتل والغدر ، ثم ما يصيبهم من جهال مواطنيهم الذين كان يختلط عليهم الأمر حين يرون الصليب على صدور المغيرين على بلادهم .

٢٨٢ - على أن مضاعفة الضرائب (أو بالحرى الجزية) كانت النوع الوحيد من الاضطهاد الذى انصب علــى القبط فى تلك الفترة فذاقــوا طعم

---

(١) تاريخ دولة المماليك .... ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ص ١٠٧ .

السلام والاستقرار ولكن هذا السلام الذى سعد به الأنبا غبريال الرابع وشعبه آنذاك لم يكن السبب الكافى لاطالة مدة رياسة كهنوته إذ قد انتقل إلى عالم الروح بعد توليه الكرسى المرقسى بثمانى سنوات وثلاثة شهور واثنين وعشرون يوماً [1] .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة الحلقة الثانية ص ٦٤ - ٦٦ .

كنيستى أم ولود [1]

الأنبا متاوس الأول الملقب بالمسكين

٢٨٣ - نقف الآن أمام عملاق من عمالقة الكنيسة القبطية : رجل بلغ ذروة القداسة بل بلغ ذروة الكمال فى كافة الفضائل المسيحية . فهو جدير بأن يقف جنباً إلى جنب مع أثناسيوس الرسولى وكيرلس عامود الدين

---

(١) مع تقديم وافر الشكر للدكتور راغب عبد النور لاصداره كتاباً بهذا العنوان المناسب للغاية .

وديسقورس الشهيد بغير سفك دم ، وأن ينتظم ضمن السلسلة المجيدة التى كان مارمرقس ناظر الإلهيات أول حلقة فيها وما زالت ممتدة الى الآن بقوة النعمة الإلهية . والقديس العملاق الذى نقف أمامه الآن هو الأنبا متاوس الأول الملقب بالمسكين . وقد شابه أثناسيوس الرسولى فى أنه كان ولوعاً بأن يلعب الشعائر الدينية فيتخذ دور الأسقف ويجعل من التلاميذ زملائه كهنة وشمامسة وشعباً ، كما شابه شنودة رئيس المتوحدين فى أنه اشتغل برعى الأغنام وفى توزيع طعامه على الرعاة وانصرافه إلى الصلاة . وقضى فى رعاية الغنم أربع سنوات من سن العاشرة إلى الرابع عشرة . ومع صغر سنه كان ذا شجاعة نادرة يحمى قطعانه من الذئاب والضبعان فكانت هذه الوحوش تهرب حالما تراه أو تسمع صوته .

٢٨٤ - ولما بلغ الرابع عشرة قصد إلى دير بالصعيد (١) حيث ترهب ولو أنه ظل يشتغل راعياً للغنم . وبدأ يدرب نفسه على الصوم حتى أنه كان فى الصيف يأكل مرة كل يومين وفى الشتاء مرة كل ثلاثة أيام .وكان أسقف المنطقة يرقبه باهتمام بالغ فأمسك به وهو لايزال فى الثامنة عشرة من عمره وكرسه قساً . ودهش الأب الروحانى القمص ابراهيم

---

(١) جاء فى السنكسار (٧ كيهك) ما نصه : « وأيضاً فى هذا اليوم تنيح القديس التقى الروحانى أنبا متى . كان من مدينة بشناى . وقد ترهب فى كنيسة السيدة العذراء المعروفة باسم مجبابات . وذهب إلى اسنا وأصفون . وكان يتعبد بنسك جميل ... وكانت الوحوش الضارية تأتى عنده فى الصحراء الداخلية حيث كانت قلايته فتخر أمامه وتظهر لطفها فكان يخرج لها خبزاً ويطعمها ... » أما المقريزى فقد قال « كان بأصفون دير كبير . وكانت أصفون من أحسن بلاد مصر ، وأكثر نواحى الصعيد فواكه .وكان رهبان ديرها معروفين بالعلم والمهارة . فخربت أصفون وخرب ديرها . وهذا آخر أديرة الصعيد غرب النيل شمال اسنا » راجع كتاب « القديس متى المسكين » للميكة حبيب يوسف ويوسف حبيب ص ٤ .

ملحوظة : بعد كتابة ما تقدم قرأت فى مجلة « صوت الشهداء» السنة الرابعة العدد الخامس (مايو ١٩٦٢) ص٤١ ما يلى : « ... فلقد حث الرب قلوب الغيورين من أبناء هذا الشعب العظيم . تبرع أحدهم بباب الهيكل وتبرع آخر بعمل منجلية جديدة . وتبرع غيره بكسوة المذبح وأقيمت بوابة كبرى للدير . وباب كبير لكنيسة الدير . وفرش الدير بالحصر . ويد التعمير تعمل على قدم وساق . ولقد أصبح الأمن متوفراً فى الدير والراحة مكفولة . صلى فيه شعب المسيح فى أسبوع الآلام والأحدين اللذين سبقاه . ويزورالدير الآن عدد كبير ممن يتوقون إلى التمتع بجلسات هادئة مع الرب .

(الذى كان ملازماً للأسقف) لهذا التكريس وعبر عن دهشته للأسقف الذى وصف له مزايا متاوس وانتهى إلى القول بأنه مستحق لأن يكون بطريركاً . فمجد الأب الروحانى الله العجيب فى قديسيه [1] .

٢٨٥- وحالما سمع متاوس بهذا الحديث بين رجلى الله ترك المكان الذى هـو فيه فى خفية وذهب إلى دير الأنبا أنطونى أبى الرهبان . ولم يصرح لأحد هناك برتبته الكهنوتية مكتفياً بالخدمة كشماس . إلا أن الله الذى يتمجد فى قديسيه شاء أن يبين حقيقة ما سيكون إذ بينما هذا الشماس يقرأ انجيل القداس خرجت يد إلهية من الهيكل وقدمت له البخور ثلاث دفعات ثم اختفت . فلما رأى شيوخ النساك هذه الظاهرة الروحانية تيقنوا من أن هذا الخادم لابد أن يجلس على الكرسى المرقسى . وحين علم ما يتهامس به هؤلاء النساك تألم لأن اتضاعه كان عظيماً فترك الدير خلسة وقصد إلى بيت المقدس حيث اشتغل بناء يقضى نهاره فى تشييد المبانى وليله فى تشييد نفسه . إلا أنه لم يلبث أن اضطر للمرة الثالثة أن يترك المكان المقيم فيه لأن فضائله ذاعت فعاد إلى دير كوكب البرية ثانية .

٢٨٦ - وحدث أن قام الفرنجة بحملة على مدينة الاسكندرية فنهبوا وسلبوا ثم سبوا عدداً من النسوة وهربوا . ولما كان هؤلاء الفرنجة يحملون شارة الصليب على صدورهم فقد أوغروا صدور الأمير يلبغا ورجاله ضد القبط كالمعتاد . وكان هذا الأمير متولياً أمر مصر من قبل السلطان وقتذاك فأمر بالتضييق على القبط إلى حد أنه لم يكتف بالتنكيل بساكنى المدن والقرى بل تعداهم إلى ساكنى الصحراء أيضاً . وصب جام غضبه بصفة خاصة على رهبان الدير الأنطونى إذ قد بلغه أن به ذخائـر ذات قيمة عظمى . فألقى القبض على متاوس الذى كان رئيساً وقتذاك وعلى عدد من الآباء منهم شيخ اشتهر بقداسته اسمه مرقس الأنطونى وساقهم أمامه ليذهب بهم إلـى القاهرة . وكان يوسـعهم ضـرباً ورمياً على الأرض أثناء

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين طبع باشراف أنطون خاطر وأزولد بورمستر ... ص ١٣٦- ١٣٧ ،وتجدر الاشارة هنا إلى روح الألفة بين الأسقف والقمص مما جعل الثانى يعترض فى ثقة على الأول الذى تقبل منه اعتراضه وفسر له السبب فى تصرفه ، كذلك تجدر الاشارة إلى تقدير الآباء للأبناء رغم حداثة سنهم .

السفر . ومنع عنهم الطعام والشراب . وقد استعطفوه ليسمح لهم بقليل من الماء راضين بالجوع ولكنه رفض طلبهم في قسوة وتشامخ .

وبينما هم يستعطفون وهو يزداد صلفاً هطل المطر بغزارة إلى حد أنه اضطر المسافرين إلى البقاء مكانهم تجنباً للسيل الجارف الذى فاجأهم فى الصيف فشرب الجميع وارتووا من يد الله تعالى . ثم كمل الله مراحمه لأنهم حين وصلوا إلى اطفيح صدر الأمر من السلطان بالسماح لهم بالعودة إلى ديرهم فى هدوء واطمئنان . فعادوا وهم يسبحون الآب السماوى على عظيم عنايته بهم .

٢٨٧ - ثم أستأذن متاوس فى مغادرة دير كوكب البرية وذهب إلى الدير المحرق . وهناك كان ينقل الرماد علي رأسه ويغسل قدور الطعام وأوانى الطبخ ، ويخدم الشيوخ والمرضى ويقوم بواجب الضيافة نحو زوار الدير وضيوفه . ولشدة تقشفه لم تكن له قلاية خاصة . ولم يكن له غير الثوب الذى على جسمه . وكان يقضى معظم لياليه فى مغارة خارج الدير وفى تلك الفترة شابه الأنبا أنطونى فيما أصابه من التجارب الشيطانية إذ كان يأتيه عدو الخير فى زمرة من أعوانه فى أشكال وحوش كاسرة [١] . ولكن هذه الكواسر الخيالية كانت تهرب منه كما سبق أن هربت منه الكواسر الواقعية وهو يرعى الأغنام . بل أن بعضاً من الأمهات الضارية الواقعية حين كانت لا تجد قوتاً لصغارها تأتى بها إليه فيعطيها خبزه . كذلك كانت هذه الوحوش حين تراه سائراً وحده فى الجبل تسير إلى جنبه للائتناس به .

ومن أرق ما حدث بينه وبين هذه الوحوش الكاسرة التى لاصلة بينها وبين الناس غير الفتك بهم أن ضبعة وجدته متوغلاً فى الصحراء فحملت ملابسه فى فمها وسارت أمامه . فتبعها ليعرف ما حاجتها ، ومشت الضبعة إلى أن وصلت إلى صخرة تضم مغارة فى داخلها . ودخلت الضبعة إلى المغارة فدخل معها . ووجد أن بالمغارة فجوة عميقة قد سقط فى أسفلها جرو الضبعة وعجز عن الصعود منها . فنزل بنفسه وحمل الجرو على كتفه وأصعده إلى أمه التى أخذت تلعق قدميه فى شكر وخشوع [٢] .

(١) قصة الكنيسة القبطية جـ ١ - الفصل المعنون « كوكب البرية » .

(٢) « التدبيس متى المسكين » للميكة حبيب يوسف ويوسف حبيب ص١٩ .

٢٨٨ - ثم خلت السدة المرقسية . وبعد مرور ثلاثة شهور على خلوها قام الأراخنة بالتشاور مع الأساقفة بحثاً عمن يرغبون فى اختياره لرعايتهم . واستقر قرارهم على متاوس . وحين سمع بذلك هرب من الدير وركب مركباً اختفى فى أسفله. إلا أن الآب السماوى الساهر على كنيسته أنطق ولداً صغيراً ضمن راكبى المركب فأرشدهم إلى مكانه . فلما وجد أنهم أمسكوا به حاول أن يهرب من رغبتهم فى رسامته بأن أخذ مقصاً وقطع به طرف لسانه نفسه . ولكن الله فاحص القلوب والكلى أبرأه فى الحال . فوجد نفسه للمرة الثانية عاجزاً عن الافلات . وعندها رجا ممن جاءوه أن يسمحوا له بالذهاب إلى دير الأنبا أنطونى لاستشارة الشيوخ المقيمين به فقبلوا طلبه ولكنهم صحبوه إلى هناك خشية أن يهرب منهم للمرة الثالثة . فلما وصل إلى الدير أشار عليه الآباء الروحانيون بأن يقبل هذه الكرامة العظمى خضوعاً لإرادة الله . فأطاعهم وعاد مع صحبه إلى الشعب . فساروا به لساعتهم إلى الكتدرائية المرقسية بالاسكندرية . وحين بدأت صلوات الرسامة كان حاضراً أحد عشر أسقفاً فاشتهى من أعماق قلبه أن يكونوا اثنى عشر . ولم تمض غير دقائق معدودة حتى دخل الأسقف الثانى عشر . وهكذا استجاب الرب الإله لرغبة عبده الذى رفعته الشعائر المقدسة إلى كرامة الخلافة المرقسية فأصبح الأنبا متاوس الأول الملقب بالمسكين : البابا الاسكندرى السابع و الثمانين . وكان ذلك فى السادس عشر من شهر مسرى المبارك الذى هو عيد تذكار سيدتنا كلية الطهر والدة الإله . وهى كانت شفيعته وحارسته من بدء حياته وظل محتمياً فى حصن صلواتها طيلة حياته .

٢٨٩ - وحين استقر بالدار البابوية لم يغير من تواضعه ونسكه وسهره وصلواته . ووضع فى منارة القلاية البطريركية بكنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة جرساً من النحاس لينبه به المؤمنين إلى مواعيد الصلاة . فكان كل من يسمع رنين هذا الجرس ينهض مسرعاً إلى الكنيسة .

٢٩٠ - كذلك كان عطوفاً رحيماً يحمل الطعام والشراب بنفسه إلى المنقطعين والمستورين . ويتفقد الرهبان ويولى الراهبات عناية خاصة . وكان حنانه قوياً إلى حد أنه كان يوزع ملابسه الخاصة وحتى الملابس الكهنوتية فيكتفى ببدلة واحدة منها ليلبسها ساعة تأدية الشعائر المقدسة .

بل لقد حدث مرة أن رسم أسقفاً فقير الحال ، وأراد أن يعطيه برنسه لأنه لم يكن لديه ما يشترى به البرنس . فعارضه تلاميذه بحجة أنه لاستعماله الخاص . وبينما هو يلح عليهم فى اعطاء البرنس للأسقف إذ بسيدة تحضر وتقدم له برنساً حريرياً ثميناً . فأخذه منها شاكراً وأعطاه لفوره إلى الأسقف ، فندم التلاميذ على معارضتهم إياه .

٢٩١- ولما رأى تلاميذه أنه يوزع كل ما عنده غير مستبق شيئاً لنفسه أخذوا يلحون عليه فى أن يحتفظ بستمائة دينار كانت عنده . وتحت الحاحهم حبس هذه الدنانير . ولكنه أخذ يلوم نفسه فى الليل على حبسها قائلاً « كيف خالفت وصية السيد ؟ ألا تؤمن بصدق مواعيده ؟» ، وبدافع ضميره قام فى اليوم التالى ليخرج المال المخزون فإذا به قد تضاعف لأنه وجد ألفاً ومئتين من الدنانير بدلاً من الستمائة التى كان قد حبسها . فأخرجها ونادى على تلاميذه وقال لهم : « تأملوا ياأولادى تحنن الله علينا ! » وأمرهم بأن يشتروا غلالاً بالمبلغ لأنه علم بالروح بحدوث مجاعة فاشتروا الغلال واختزنوها ، فلما حلت المجاعة أمر بتوزيع ما فى المخزن بغير تفرقة بين مسلم أو يهودى أومسيحى . وإذا عبر تلاميذه عن خشيتهم من أن تفرغ الغلال قال لهم : « فرقوا يا أولادى ولا تخافوا لأن عندى مخازن أخرى فايضة ملآنة » . وكان يشير بكلماته هذه إلى الفيض السماوى لأنه كان معتاداً أن يعيّد عيدى السيدة العذراء ورئيس الملائكة ميخائيل شهرياً : الأول فى الحادى والعشرين من كل شهر قبطى والثانى فى الثانى عشر منه . وكان بعد الصلاة فى هذين العيدين يدخل المخازن ويباركها واثقاً من أن بركة الرب تغنى ولا يزيد معها تعب .

٢٩٢ - وحياة متاوس المسكين صورة مثلى للفضائل المسيحية فلم يكن عطفه على شعبه قاصراً على توزيعه المال والملابس والطعام بل امتد إلى معاونتهم فى أعمالهم . فكان يعجن مع العجانين ويحمل أدوات البناء مع البنائين ، بل إنه كان ينزح المراحيض مع العمال .ومع ذلك فقد كان ذا هيبه ووقار حتى أنه حين كان يقف أمام المذبح ليؤدى الشعائر المقدسة يسطع وجهه بنور سماوى وتلمع عيناه ببريق روحانى ، وكان يقف طوال فترة القداس لأنه كان يرى ابن الله قائماً عن يمين المذبح .

٢٩٣ - وحدث أن جاءه يوماً أرخن غنى اسمه السعيد بركة بن وجه

المهر وجلس يتأمل محبته وحنانه ثم قال له : « أرجوك يا أبى أن تصلى من أجلى لكى يحنن المسيح قلبى فأوزع أموالى على المحتاجين كما أرجو أن تطلب لكى تكون ساعة انتقالى فى حضرتك » قال له الأنبا متاوس « بحسب ايمانك ليكن لك » . وفى تلك اللحظة فاض الحنان على قلب السعيد بركة فصار يوزع ويعطى كل سائل . وحدث بعد ذلك بفترة أن ذهب هذا المؤمن لزيارة البابا وفيما هو جالس فى حضرته فاضت روحه إلى خالقها . فقام البابا الحنون وكفنه بيده وهو يقول : « سألت فأعطيت . طلبت فوجدت . قرعت ففتح لك » .

٢٩٤ - وكما أن الأب السماوى كان يستمع لصلوات هذا القديس فيما يتعلق بأنقياء القلب كذلك كان يصغى إليه حين يغضب على المرائين . فقد حدث أن شماساً سرق حجة بستان خاص بأطفال يتامى وأخفاها . فسأله عنها فأنكر أنه أخذها وأضاف : « كلمتك تقطعنى يا أبى » فغضب البابا البار وقال له : « من فمك يكون لك » وانصرف الشماس إلى بيته وما أن دخل الباب حتى سقط ميتاً . وعندها أعيدت الحجة التى كان قد سرقها إلى أصحابها .

٢٩٥ - ولفاعلية الروح القدس الحال فيه كان الناس يأتون إليه بقضاياهم وشكاواهم العديدة . فكان يطلب إلى الجميع أن يصلوا الصلاة الربانية . وبعد أن يدعو باسم الآب والابن والروح القدس يقول : « الخلاص للرب » معلناً بذلك اتكاله التام على ارشاد الروح القدس وتوجيهاته فى كل ما يصدر من أحكام فذاع صيته حتى أن الملوك والولاة إذا ما واجهتهم مشكلة عسرة الحل أو قضية شائكة أرسلوا يطلبون إليه الفصل فيها . وكانوا يقبلون ما يحكم به لساعتهم .

٢٩٦ - ولقد بلغت ثقة برقوق فى قداسة هذا البابا فى أنه لم يقبل السلطنة إلا بعد استشارته . فقرر الأنبا متاوس أن يذهب إلى دير الأنبا أنطونى ليستشير شيوخه فى هذا الموضوع . وحين علم الآباء الرهبان باقترابه خرجوا للقائه حاملين الصلبان والأناجيل والشموع والمجامر الممتلئة بخوراً متصاعداً نحو السماء . وقد صحب البابا من القاهرة ثمانون شخصاً - انتظموا ضمن موكب الرهبان فألفوا مركباً رائعاً لأبيهم الروحى . وامتلأ الجميع فرحاً وتهليلاً وبخاصة لأن الزيارة كانت قبيل أسبوع الآلام المحيية

التى لمخلصنا الصالح . وأول ما قام به البابا فى الدير كان تكريس الكنيسة التى كان الآباء قد اكملوا بناءها باسم الفتية الثلاثة الذين أنقذهم الرب من أتون النار [1] . ثم احتفل الجميع بأسبوع البسخة الكريمة وانتهوا إلى ذروة القيامة المجيدة فامتلأت القلوب نعمة وسلاماً .

وقبل أن يغادر الدير رجا من القمص مرقس الأب الروحانى للدير أن يذكره فى صلواته وعرض عليه موضوع برقوق . قال له رجل الله : « اذهب بسلام يا أبانا ولا تخف لأن الرب فى رحمته بك قد جعل أمامك السماء أرضاً والأرض سماء . وانصح برقوق بقبول السلطنة » . فعاد الأنبا متاوس إلى القاهرة وذاق هو وشعبه أياماً من الرخاء . ولقد حفظ السلطان برقوق له الود وأكرمه ورفض أن يقبل أية سعاية أو وشاية فيه .

٢٩٧ - وقد رغب السلطان برقوق فى المحافظة على صلات الصداقة بين مصر والحبشة فرجا من البابا أن يكتب خطاباً إلى ملكها « ويدم أصغر » الذى كان عاتياً شريراً . فلما جلس البابا ليكتب الرسالة الى هذا الملك الظالم نطق الروح القدس على لسانه فوجهها إلى أخيه داود . وعارضه الرسل الذين كانوا سيحملون رسالته خوفاً من بطش ويدم أصغر ولكنه أصر على أن تظل الرسالة باسم أخيه داود . فخضعوا لاصراره وحملوها قاصدين إلى الحبشة . ولما قربوا من حدود تلك البلاد حدث أن قام بعض المسئولين على ويدم أصغر وعزلوه وأجلسوا أخاه داود على كرسى المملكة عوضاً عنه . فلما وصل رسل البابا كان الملك قد آل إلى الشخص الذى وجه إليه البابا رسالته . فلما فك الملك داود ختم الرسالة ووجدها باسمه فرح فرحاً عظيماً وطلب إلى الرسل أن يعطوه الصليب والمنديل المرسلين هدية من البابا إليه . ودهش حاملوا الرسالة وسألوا الملك من أين علم بالهدايا وهم لم يخبروه بها . فأخبرهم بأن البابا نفسه هو الذى أعلمه بأمرها . ثم دعا وزراءه وجنوده وأخته المباركة وقال أمام الجميع : « من قبل أن تجلسونى ملكاً أبصرت هذا الأب البطريرك فى رؤيا وقد أقام أخى من على الكرسى وأجلسنى عوضاً عنه وقال « هكذا ينزع الله الملك ممن لا يسير بالاستقامة ...» وبعد ذلك أعطانى هذا الصليب بيدى ودعا لى لكى يثبت الله كرسى مثل داود أبينا لأقضى بين الشعوب بالعدل . ثم باركنى وانصرف . وكنت أود أن أعلن هذه

(١) دانيال ٣ .

الرؤيا منذ أن شاهدتها ولكن أختى المباركة خافت علىّ من بطش أخى ويدم أصغر . وحين سمع الجميع هذه الكلمات مجدوا اللّه الذى يظهر عجائبه فى قديسيه وقد اعلم الخليفة المرقسى وهو فى مصر بما سيحدث فى الحبشة قبل أن يكون .

وبعد أن قضى رسل البابا بضعة أيام فى ضيافة الملك داود عادوا إلى مصر وذهبوا لساعتهم فأخبروا السلطان برقوق بكل ما رأوا وما سمعوا فازداد اكراماً له ومحبة فيه .

٢٩٨ - وكان فى أيامه راهب أسمه ابراهيم عائش فى دير السريان أغواه الشيطان فترك الدير وتنكر للمسيحية وانضم الى الجيش إذ أصبح جندياً فيه . ثم أمعن فى زيغه وأخذ يعاند البابا . وكان يعلم أن بعض الرهبان كانوا قد حادوا عن الإيمان ثم ندموا وتابوا إلا أنهم مع توبتهم صاروا يوصفون بالمجروحين . وإمعاناً فى النكاية بالبابا عاد هذا الجاحد إلى البرية مستهدفاً أن يجر هؤلاء الرهبان المجروحين إلى الولاة لكى يقتلوهم . ولكنه لم يجد غير اثنين فقط فجرهما على الرغم منهما وأتى بهما إلى القاهرة . وبالفعل نال هذان الرهبان إكليل الشهادة فضج الشعب من معاندة هذا الجاحد وطلب إلى البابا أن يدعو عليه ليخلصوا منه أجاب : « لايا أولادى، أنا لا أدعو عليه بل أدعو له لكى يرده اللّه إلى الإيمان ويمنحه أن ينال إكليل الشهادة » . ولم تنقض بضعة أسابيع على هذا الحديث إلا وامتلأ قلب ذلك الرجل ندماً وحسرة . وطغى عليه ندمه إلى حد جعله يذهب إلى الوالى لساعته ويعلن توبته وعودته إلى السيد المسيح . فما كان من الوالى إلا أن أمر بقتله وهكذا نال إكليل الشهادة بصلاة البابا البار .

٢٩٩ - وبما أن الأنبا متاوس المسكين كان شديد الشغف بتفقد الرهبان فقد كان يزورهم كثيراً . وقصد ذات مرة إلى برية شيهيت للسؤال عن نساكها وللاستجمام الروحى أيضاً . وانتهز بعض الاشرار فرصة غيابه عن القاهرة لأنهم كانوا يخافونه فقصدوا إلى كنيسة السيدة العذراء (الشهيرة بالمعلقة) مستهدفين احراقها . وسمع السلطان برقوق بالأمر فأرسل لهم قضاة الاسلام الاربعة ليحققوا فى دعوتهم بأن هناك تجديداً فى تلك البيعة . وقد أثبت القضاة الأربعة بهتان هذه الدعوى وحكموا على الأشرار بالانصراف . ولحدة غيظهم من هذا الحكم رموا بجمرة متقدة على أساس

الكنيسة قبل أنصرافهم . إلا أن تلاميذ البابا الذين كانوا قد سارعوا إلى المكان عملوا على اطفائها . وبينما هم منشغلون باطفائها من أسفل أنزل رب الكنيسة المطر عليها فأطفأها من فوق فى الحال . فامتلأ الجميع فرحاً وسبحوا الله على عنايته الأبوية .

٣٠٠ - فلما فشل المعاندون فى احراق كنيسة السيدة العذراء وجهوا سمومهم إلى دير شهران . وكان البابا قد وصل إلى القاهرة فسارع إلى الدير ووقف بمفرده فى مواجهة جمهرة الأشرار وقال لهم : « من منكم له سلطان فليجرد سيفه ويقتلنى أولاً لأنى لن أسمح لأحد أن يمس الدير وأنا حى » . وتراجع الكل أمام هذه الشجاعة . وخلال هذا التراجع ذهب البابا الباسل إلى السلطان وأطلعه على حقيقة الموقف . فما كان منه إلا أن أرسل قضاة الاسلام الأربعة إلى دير شهران كما كان قد أرسلهم الى الكنيسة المعلقة . فحكموا بوجوب ترك الدير ورهبانه فى أمان . وهكذا فشلت المحاولة الآثمة الثانية كما فشلت الأولى .

٣٠١ - ولكن حدث أن قام مملوكان هما الأمير منطاش والأمير يلبغا السالمى على السلطان برقوق وقاوماه وخلعاه ونفياه إلى قلعة الكرك بسوريا . ولما أصبح زمام الأمور فى أيديهما بدآ سلسلة من الاضطهادات . وبالطبع كان البابا الشخص الأول الذى صبّا عليه جام شرهما . فلقد سمع منطاش بأن لدى رجل الله ذخائر وأموالاً طائلة فأرسل إليه وعذبه ولكنه لم يجد لديه شيئاً بالمرة كما أنه واجه شجاعة نادرة فى شخصه فأحس بالخجل وأطلقه . أما يلبغا فقد وجد من البابا مقاومة عنيفة حين كان يحاول اضطهاد الشعب فاحتدم غيظاً عليه وسجنه ثم جرد عليه سيفه يريد قتله فمد له رجل الله عنقه فى هدوء وثبات وقال له : « أضرب سريعاً » فذهل يلبغا إلى حد أنه أطلقه أيضاً . إلا أن هذا التهجم على الأنبا متاوس كان له ثمرته : فإن المملوك الذى نصب يلبغا أميراً غضب عليه وسجنه فى أحد سجون الاسكندرية وأوقع به آلاماً مبرحة . وكان بعض من القبط يبدون مخاوفهم أحياناً لئلا يتمكن يلبغا من الأفلات من سجنه واستعادة سطوته والبطش بهم من جديد فكان رجل الله يطمئنهم قائلاً : « لا تخافوا البته يا أولادى فلن يخرج من السجن ولن يمس شعرة من رؤوسكم لأنى وكلت بسجنه الأربعة حيوانات غير المتجسدين حاملى العرش الإلهى » . وقد تحققت كلماته بالفعل إذ ظل يلبغا مسجوناً إلى أن مات .

٣.٢ - ثم شاء الله فى شامل رحمته أن يرسخ السلام مرة أخرى فى بلادنا فتهيأت الفرصة أمام السلطان برقوق لأن يعود إلى الحكم إذ قد عاد إلى مصر ظافراً وابتهج الشعب كله بعودته فخرج القبط بأناجيلهم واليهود بتوراتهم وحمل الجميع الشموع وساروا فى الموكب الذى ألفه المسلمون لاستقبال السلطان .

ولقد أثبت السلطان برقوق جدارته بهذا التقدير الشعبى الشامل لأنه لم يحرص فقط على معاملة الجميع بالانصاف بل عمل على حفظ صلات المودة بينه وبين جيرانه من الدول : فكانت صلاته مع اليمن والحبشة صلات من يستهدف تثبيت السلام . بل أنه حين أنتهز داود بن أرعد ملك الحبشة الفرصة من تطاحن بعض الأمراء وأغار على أسوان لم يجبه برقوق بحد السيف بل رجا من الأنبا متاوس أن يرسل له خطاباً مع رسول خاص يطالبه فيه بالعودة إلى بلاده . وقد أستجاب البابا الاسكندرى هذا الرجاء على الفور وبعث برسالته مع أسقف صحبه رسول السلطان وقد استجاب ملك الحبشة على هذه الرسالة بخطاب بعث به إلى السلطان وهدية حملها واحد وعشرون جملاً [١] .

وحدث فى تلك الفترة عينها أن قصد إلى الحبشة أحد الأراخنة القبط اسمه فخر الدولة فعهد إليه الملك اسحق بن داود بن سيف أرعد بترتيب أمور الدولة فنظم له طريقة تحصيل الضرائب وأنشأ له ديواناً ووضع مختلف القوانين المنظمة لأنشطة الحكومة .كذلك وضع فخر الدولة هذا تصميماً لملابس الملك الرسمية التى يتميز بها عن سائر أمرائه ورجاله . وكان ملوك الحبشة يخرجون عرايا قبل ذلك [٢] .

٣.٣ - ولما كانت مواعيد الله ثابتة من جيل إلى جيل ، ولما كان قد أعلن أنه يتمجد فى قديسيه ويكرم الذين يكرمونه فقد بدا مجده وتكريمه بصورة باهرة فى شخص البابا الكبير رغم لقبه بالمسكين . فمنحه مواهب عديدة من مواهب الروح القدس . فقد رأينا كيف أنه عرف بالروح عن خلع

---

(١) نوابغ الأقباط لتوفيق اسكاروس ص ٤٨ - ٥٨

(٢) قيام دولة المماليك الثانية لحكيم أمين عبد السيد (دار الكتب - القاهرة سنة ١٩٦٧) - ص ١٦٠.

ويدم أصغر وقيام أخيه داود بدلاً عنه ملكاً على الحبشة . لكنه كان ذا مواهب متنوعة الى جانب موهبة التنبؤ هذه . فلقد أجرى الله بصلاته الآيات العديدة من اخراج الأرواح الشريرة وشفاء المرضى واقامة الموتى ولو أن المجال هنا سيقتصر على أمثلة قليلة للدلالة على مدى ما اختصه الله من مواهب .

٣.٤ - فقد حدث أن صبية اعتراها روح نجس . فحملها أبواها وأتيا بها إلى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة حيث يقيم البابا. وحين دخلا بها تركها الروح النجس ووقف خارج الباب . وبدأ البابا يصلى من أجلها . وفى أثناء الصلاة حضر كاهن من الصعيد رغبة منه فى نوال البركة الرسولية فقصد إلى الكنيسة و كان ممن منحهم الله رؤية الأرواح ، فلما وصل إلى باب الكنيسة رأى الروح النجس واقفاً عنده سأله عن سبب وقوفه وعلم منه أنه خاف يدخل إلى الداخل ولكنه منتظر الصبية ليعاود مضايقتها حالما تخرج . فأسرع الكاهن إلى الداخل وأسر فى أذن البابا بما رأى وما سمع . ثم استكمل حديثه بقوله : « ولكنه حينما رآنى داخلاً وعلم أنى سأبلغك أمره انصرف لساعته خشية أن تحرقه صلاتكم القوية من على الأرض » فتعجب الجميع ومجدوا الله لعظم الآيات التى كانت تحققها السيدة العذراء بصلاة الأنبا متاوس .

٣.٥ - وكان هذا البابا الساهر يتفقد شعبه بلا هوادة . فحدث أن عبر ذات يوم على منزل أحد الأغنياء فوجد البواب مريضاً ملقى على الأرض ضاعفت الأوساخ من وجعه وملأته برائحة كريهة دون أن يجد من يهتم به . فأسرع البابا الرحيم واتزر بمنديله وجلس إلى جانبه يغسل جسمه وثيابه وفراشه . ولما أحس هذا البواب المسكين بالراحة وباستجمام جسمه الذى أضناه المرض والجوع طلب إلى الله أن يتعطف عليه وينقله فى الحال من عالم الجفاء والاهمال إلى عالم العناية والرعاية . فاستكمل الأنبا متاوس خدمته لهذا الفقير بأن كفنه بيديه الطاهرتين .

٣.٦ - ولما كانت كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة المقر البابوى آنذاك فقد شاء البابا أن يجدد بعض المبانى المحيطة بها . وبينما الفعلة يعملون سقط واحد منهم وهو حامل حجراً ثقيلاً وسقط الحجر عليه فانكسرت

أضلاعه ومات لساعته وامتلأ رفقاؤه خوفاً وأرادوا الهرب . ولكن البابا الساهر علم بالأمر فهدأ من ذعرهم وقال لهم : « اسكتوا ولا تقولوا إن الفاعل مات فهو لم يمت وأنا أضمن لكم بمراحم سيدى ومخلصى أنه حى وعند ذاك حمله أربعة منهم إلى الكنيسة ووضعوه أمام حجاب الهيكل تحت أيقونة السيدة العذراء حسب أمر الأنبا متاوس فغطاه بأزاره من الساعة السادسة حتى الساعة التاسعة من النهار المبارك . ثم طلب قليلاً من الماء الساخن ، ووقف يصلى ، وكلما صلى على عضو ومسحه بالماء الساخن تحرك هذا العضو . ولم يلبث أن قام الرجل معافى بشفاعة صاحبة الشفاعات والدة الإله وبصلوات خادمها الأمين البابا متاوس .

٣.٧ - كذلك حدث أن أرخناً كبيراً اسمه فخر الدولة وصل إلى الموت ووجد نفسه محاطاً بالملائكة يحاسبونه ويبكتونه فامتلأت نفسه ذعراً وتلفت يمنة ويسرة أملاً فى أن يرى الأنبا متاوس علي مقربة منه . ولما لم يجده ازداد رعباً . وإذا به يراه فجأة واقفاً إلى جانبه يصلى من أجله ويستعطف السيد المسيح فى أن يعيده إلى الحياة مرة أخرى لكى يتوب . وسمع فخر الدولة صوت المخلص يقول لصفيــه : « قد سمعت لك فى هذا الانسان ووهبته لك . فعرفه أن يرجع عن خطاياه ويتبــع طريق الله » . وما أن انتهى المخلص من كلماته هذه حتى انتبه الرجل المائت وأفاق من غيبوبته ، وحالما أفاق تماماً قصد إلى الدار البابوية وروى للأنبا متاوس كل مــا جرى له . وبكى البابا الحنون فرحاً واشفاقاً على أولاده ووالى هذا الأرخن برعايته حتى استقام تماماً .

٣.٨ - بل أن صلواته كانت حصناً حتى لمن لا يستطيعون الوصول إليه بالفعل وكانت رغبتهم فى الاستشفاع به تكفى لأن تحصل لهم هــذه الشفاعة . فقد حدث لبعض الأراخنة أن وقعوا فى شدة مع الأمراء واضطربوا وأرادوا أن يلتجئوا إلى صلوات البابا . وفيما هم ذاهبون إليه أدركهم الليل فاضطروا إلى المبيت حيث هم وفى تلك الليلة رأى أحدهم فى حلم الأنبا متاوس قائماً أمام أيقونة مارجرجس يستشفع به فى أمرهم قائلاً بصوت مسموع : « يا شهيد الله يا مارجرجس أنا لا أعرف لهم خلاصاً إلا بك » . وفى تلك اللحظة أمال الشهيد العظيم رأسه من الأيقونة ثلاث مرات كمن يقول نعم . ولما رأى البابا تواضع البطل انطرح على الأرض

أمامه . فعظم على الشهيد هذا الانطراح وخرج من الإيقونة على هيئة فارس وأقامه ثم تبارك كل منهما من الآخر .

وفى الصباح قص هذا الأرخن حلمه على زملائه فخامرهم الشك . ولكن لم تمض برهة وجيزة حتى جاءهم الأمر بالعفو عنهم من غير سعى ولا وساطة . فقاموا فى الحال وذهبوا إلى البابا وقدموا له الشكر الوفير لأنه شفع فيهم من غير أن يطلبوا إليه بشفاههم ولمجرد استشفافه لحاجتهم .

٣.٩ - على أن الناس فى كل مكان وكل جيل كثيراً ما ينسون القوى الروحية الخفية لكونها غير مرئية ويميلون إلى الأرتكان على المال زعماً منهم أنه أقوى فعلاً فى النفوس . ومع أن الشعب رأى فى باباه النموذج الامثل للروحانية وللتسامى على الماديات إلا أنه حدث على الرغم من هذا أن جاءه أحد كتبة ديوان السلطان وهو قلق مضطرب وقدم له خمسمائة دينار قائلاً له : « يا رجل الله تقبل منى هذا المال وصلى من أجلى ، لأن السلطان برقوق يريد قتلى اليوم ولا أجد مخرجاً أمامى من هذه الورطة » أجابه البابا العفيف : « احتفظ بذهبك لنفسك لأن الصلاة التى بالذهب لا قيمة لها . وإن أردت أن تخلص أعد الذهب إلى مكانه وخذ صليبى ومنديلى معك . وأدخل بهما إلى حضرة السلطان » . ثم قام وصلى على رأس الرجل وأعطاه الصليب والمنديل وأطاع الكاتب أمر باباه وذهب إلى السلطان الذى كان فى حدة الغضب ولكن ما أن وقعت عيناه على كاتبه حتى هدأت نفسه وأصغى إليه وكأن كلمات الكاتب كانت كالندى على أذنيه وفرح الكاتب بهذا التحول العجيب، وخرج بعد ذلك وأذاع ما حدث بين جميع عارفيه . فمجدوا الله على رحمته وعلى تقبله صلوات قديسه الأنبا متاوس .

ثم حدث أن وقع أحد أولاد الوزراء القبط تحت غضب السلطان وخاف عليه البابا فذهب لفوره يستغيث بالشهيد العظيم الأمير ثيئودورس (تادرس) قائلاً له : « أنا أعرف يا شهيد المسيح أنك خلصت أولاد الأرملة من فم التنين القاتل بجرأة عظيمة وأنا أربطك بالسلطان الذى منحه لى ربى ومخلصى يسوع المسيح ولن أحلك من هذا الرباط قبل أن تنقذ هذا الشاب مما هو فيه من ضيق » . وكان الأنبا متاوس وقتذاك فى الكنيسة يخاطب الشهيد عن طريق أيقونته بهذه الدالة وهذا النفوذ بينما كان ابن

الوزير فى القصر يواجه السلطان الغاضب عليه . وفجأة وجد الشاب أن غضب برقوق قد هدأ إلى حد أنه أعلن له العفو ، وحالما خرج من القصر السلطانى ذهب ليشكر البابا لأنه أدرك بالروح أن مثل هذا التحول الفجائى ما كان ليحدث لولا صلوات الأنبا متاوس من أجله . وقد فرح الشاب وأهله بهذه النجاة غير المنتظرة ومجدوا الآب السماوى الذى يهب قديسيه هذه الدالة وهذه الكرامة فى قلوب السلاطين [1] .

٣١٠ - إلا أن دوام الحال من المحال فانقضت فترة السلام التى رسخها السلطان برقوق بموته وتولى ابنه الناصر فرج السلطنة من بعده واتبع خطة أبيه فى انصاف الرعية . إلا أن الأمير سودون ما لبث أن تغلب عليه وأستأثر بالحكم . وكان عاتياً فأخذ يبطش بالرعية . وتآمر ذات يوم مع بعض أعوانه على الفتك بالقبط مستهدفاً القضاء عليهم جميعاً . وعرف الأنبا متاوس بالروح عن هذه المؤامرة فقام لساعته وذهب الى كنيسة القديس مرقوريوس (أبى السيفين) بمصر القديمة حيث حبس نفسه سبعة أيام متوالية وهو يصلى ناسياً الأكل والشرب والنوم وكل مطالب الجسد فى سبيل الذود عن شعبه . وبعد هذا الصراع الروحى المتواصل ظهرت له السيدة العذراء وسط نور ساطع وقالت له : « لقد قبل الله طلبتك وأبطل مؤامرة المعاندين مخلصاً شعبه من أيديهم » . حينئذ ابتهج قلبه وخرج من البيعة ووجهه يسطع كوجه ملاك . وبتدبير من الله أرسل الأمير سودون إلى البابا يدعوه للحضور عنده . فلما ذهب إليه اعترف له بما كان ينويه ضد الشعب القبطى فوبخه البابا الباسل توبيخاً قارصاً وأعلن له أن الله هو الحصن الحصين لشعبه وأن السلطان الأرضى مهما علا نفوذه لن ينال منهم الا بالقدر الذى يسمح به الله . وقد امتلأ قلب الأمير سودون خوفاً من هذه الكلمات كما امتلأ دهشة من شجاعة رجل الله فأطلقه فى سلام . وذهب هو وشعبه إلى كنيسة السيدة العذراء حيث قدموا الشكر للآب السماوى وعملوا تمجيداً للسيدة والدة الإله معينة الملتجئين إليها .

٣١١ - ولقد اشتد الضغط على القبط من أعوان سودون أيضاً فقام أحدهم واسمه أوزبك وبطش بهم فسجن مـن سجن وقتل من قتل . واحتد

(١) تاريخ البطاركة - مخطوط - المرجع السابق ص ٤٨٧ - ٤٨٨ ، وتجدر الاشارة هنا إلى جرأة الأنبا متاوس ودالته أمام القديسين وإلى اعتزازه بالسلطان الكهنوتى الممنوح له من رب المجد .

غضب البابا على هذا الأمير الذى لم يلن قلبه لأية ضراعة . فقصد إلى كنيسة الملاك ميخائيل وحبس نفسه فيها ستة أيام بلياليها وهو يصلى ويتوسل إلى الملاك لكى يسارع إلى نجدة الشعب المعذب ، وبعد الأيام الستة أرسل أحد تلاميذه ليستطلع الأمور . ولما وصل التلميذ إلى باب قصر ذلك الأمير وجده محمولاً على نعشه وقيل له بأن فارساً طعنه بحربة منذ ستة أيام ظل خلالها معذباً إلى أن مات متأثراً بجرحه . فعاد التلميذ مسرعاً وأخبر باباه بما سمع . فقام لساعته وعمل تمجيداً لرئيس الملائكة ميخائيل الذى أعانه من غير امهال وأراحه هو وشعبه من فاعل الظلم .

٣١٢ - وفى ذات يوم أتى شاب شماس إلى البابا يستنجد به ويقول : « أدركنى يا أبى لأن فارساً على حصان أبيض قد مر علىّ وضربنى اليوم ضرباً موجعاً لأنى رغم كونى شماساً قد خالفت القوانين خلسة ولم أصم يوم الأربعاء والجمعة مع أنى لم أطلع أحداً على مخالفتى » . أجابه البابا : « لا تخف فأنا أعرف الفارس الذى ضربك وأنا سآخذك إليه لتتوب أمامه ولا تعود إلى مخالفتك موقناً بأنه لا خفى إلا ويظهر كما قال لنا سيدنا » . قال الشماس : « أنى طوع أمرك يا أبى » . فأخذه البابا إلى كنيسة الملاك ميخائيل وكانت بها أيقونة لشفيعها وهو ممتط ظهر جواد أبيض ، وحالما وقعت عينا الشماس عليها قال :« بالحقيقة ياأبى هذا هو الفارس الذى ضربنى والحق أنى استحق الضرب الذى أوقعه بى لأنى شماس فى كنيسته . وأنى من اليوم نادم وتائب أمامه وبين يديك » . واستقام الشماس فعلاً منذ تلك اللحظة وأعطى المجد لله الذى منح البابا متاوس شفافية روحية وعطفاً أبوياً حتى لقد كان شعبه يقول عنه بأنه يشترى نفوس أولاده الآتين إليه وينجدهم بحرارة صلواته .

٣١٣ - وضاق عدو الخير ذرعاً بهذا القديس الذى استضاءت روحه بالأنوار السمائية وانعكس وهجها على الشعب كله ، فاستثار عليه أولاً بعضاً من أولاده الذين ساروا فى طريق اللهو والعبث ورفضوا أن يصغوا لتعاليمه وتوجيهاته . وكان هو يبكى على غلاظة قلوبهم ويداوم على الصلاة من أجلهم . ولكنهم تمادوا فى غيهم وغرورهم ولم يزدادوا إلا تشامخاً .

٣١٤ - وفى وسط هذه الضيقة التى أقلقت نفس البابا على المعاندين له

من شعبه استشار الشيطان أميراً من المماليك اسمه جمال الدين ، فأخذ هذا الأمير يعذب ويسجن ويقتل كل من استطاع القبض عليه من القبط . وزاد على ذلك بأن أرسل رسلاً إلى الحجاز واليمن خلسة يشيرون على حكامها بأن يكتبوا إلى السلطان خطابات يوجهون فيها إلى الأنبا متاوس تهمة زور مؤداها أنه يحرض ملك الحبشة على تخريب مكة . ولقد كشف الله هذه السعاية للبابا إذ أعلمه مقدماً بها قبل أن تصل الرسائل المملوءة بالشكوى ضدة إلى مصر . فقام لفوره يستنجد بأم النور حسب عادته . ورجا منها أن ترحم شعبه حتى لا تتضاعف عليه الشدائد . فاستجابت ذات الشفاعات صلواته بأن أصيب بحمى شديدة اضطرته إلى ملازمة الفراش . وحين سمع الأمير جمال الدين بمرضه هدأت حدته قليلاً . فسكت عنه بعض السكوت ولكنه استمر يعذب الشعب ثم أرسل يطالب البابا بخمسمائة ألف درهم ويتوعده بالتعذيب رغم مرضه إن لم يرسلها له . وقد جمع الشعب هذا المبلغ حباً فى باباه ورغبة منه فى حمايته من ذلك الأمير العاتى . إلا أن الأمير ازداد صلفاً بعد أن قبض المال الذى أراده . وأرسل رسله يشدد على البابا بالحضور إليه . فطيب البابا خاطر الرسل ورجا منهم أن يمهلوه إلى اليوم التالى فقط - الذى كان يوم الأحد . أما هو فكان قد علم بالروح أن ساعته قد حانت وأن الآب السماوى سينقله إلى فردوسه قبل أن يتمكن الأمير الظالم من أذيته . وفعلاً حين وصل الرسل فى اليوم التالى وجدوا أنه قد أصبح فى مأمن من غدر أميرهم إذ قد فاضت روحه إلى خالقها فى الهجعة الأولى من ليلة الاثنين وذهل الأمير وأعوانه مما حدث .

على أن الله تعالى الذى قال « لى النقمة أنا أجازى » لم يدع هذا الطاغية فى أمان بعد استبداده بصفيه . لأنه لم يلبث أن غضب عليه السلطان عبد العزيز ابن برقوق لوشاية وصلت عنه . فأمر بالقبض عليه وعصره ، وأخذ منه أضعاف المال الذى أخذه عنوة من البابا وشعبه . وبعد ذلك أمر الجنود بضربه إلى أن مات .

٣١٥ - وكان الأنبا متاوس قد أرسل إلى تلاميذه ليحضروا اليه فأعلمهم بقرب انتقاله إلى الفردوس وأعطاهم وصيته فيما يتعلق بتكفينه . وطلب إليهم أن يدفنوه بدير الخندق ليكون بين أولاده حتى بعد انتقاله وبعد أن أنتهى من وصيته التف بأزاره واستودع روحه بين يدى الآب السماوى .

وقد بلغ من العمر اثنين وسبعين سنة : أربعين منها قبل الرسامة واثنين وثلاثين سنة راعياً لشعب المسيح . وقد اجتمع للصلاة عليه فى جنازته عدد عديد من الأساقفة والكهنة والشمامسة وجماهير الشعب . واجتمع معهم رؤساء الطوائف المسيحية غير القبطية (الروم والأرمن) إلــى جانب طائفة اليهود . وشمل الحزن كل القلوب حتى « كادت عمد البيعة أن تبكيه وهو راقد وصليبه فى يده . وكانوا ينتحبون لأجل حسن مظهره وهيبته وصدقته وافتقاده المساكين وعلى احتماله وصبره ... ثم حملوه بالاكرام والتبجيل والوقار حتى كان حمله فى تابوته كمثل حمل تابوت العهد . أين ذلك الرجل القوى الذى يستطيع أن يحمل ذلك التابوت من كثرة الخليقة المحيطة به المزدحمة عليه . وكانت الأجناد والعساكر أمام ذلك التابوت تحجبه الى أن مضوا به إلى دير الخندق »[(١)] .

وقد حدث ليلة انتقاله أن أضطربت عظام القديسين المدفونين بدير الأنبا مكارى الكبير ببرية شيهيت . وسمع صــوت مــع اضطراب العظام يقــول « قوموا افتحوا الباب لأن متاوس قد حضر » . ولما فتح الرهبان الباب ولم يجدوا أحداً أندهشوا ولكنهــم لم يعرفوا الحقيقة إلا بعد بضعة أيام حــين وافاهم الخبر . فأدركوا أن أرواح القديسين شاءت أن تتبارك مع بعضها البعض فعبرت روحه على موضعهم ، وأن الأجساد اضطربت حزناً على الشعب الذى فقد معلماً وأباً وراعياً ساهراً.

وبعد نياحته بأربعين يوماً حدث أن ثلاثة من العربان المجروحين كانوا مارين على دير الخندق وأمسى عليهم الليل فباتوا فيه . وقبيل الفجر قاموا من النوم استعداداً لصلاة باكر فرأوا الأنبا متاوس مرتدياً برنسه وهو سائر يبخر بين الموتى متفقداً اياهم كما كان يفعل وهو ما زال على الأرض حين كان يطوف بالليل ليتفقد أولاده . ولم يعرف هؤلاء الثلاثة من هو هذا الكاهن اليقظ وخافوا من رهبة منظره ومن النور المشع من وجهه فسقطوا على وجوههم ووجدهم بعض الشمامسة فأقاموهم واستفهموا عن سبب وقوعهم وحين سمعوا وصفهم لذاك الذى كان يبخر قالوا : « إنه الأنبا متاوس الذى مازال يحنو على شعبه » . وأخذوهم إلى المكان المدفون فيه هذا القديس تحت مذبح الكنيسة فتباركوا منه

---

(١) تاريخ بطاركة .... للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين .... أشرف على طبعه أنطون خاطر وأزولد بورمستر ص ٥٨

٣١٦ - وكان الأنبا متاوس قد تنبأ لتلاميذه قبيل انتقاله بأن الذى سيخلفه على الكرسى المرقسى هو غبريال المترهب بدير الأنبا صموئيل القلمونى . على أن الناس كانوا قد سهوا عن هذه النبوة . ولكنهم فى بحثهم عمن يخلفه استحضروا هذا الراهب الى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) ليرسموه قمصاً . وبينما هم يصلون رأى أحد الشيوخ القديسين البابا متاوس واقفاً عند جناح المذبح وهو يضع يده على رأس غبريال مع الآباء الخديمين . ولما رآه هذا الشيخ تقدم اليه طالباً إليه البركة . فباركه ثم قال له : اذكرنى يا أخى لأنى ماض إلى الاسكندرية مع الآباء لأشترك واياهم فى رسامة البابا غبريال » فتذكر الجميع نبوته وقتذاك .

وحدث أنهم حين كانوا فى الكتدرائية المرقسية بالاسكندرية لتأدية الشعائر المقدسة لم ير البابا متاوس غير كاهن اسمه يوحنا كان قد أصيب بالخرس . ولما التقى به البابا قال له : « يا يوحنا - من الآن لن تكون أخرساً . فقم وتحدث واخبر المجتمعين أننى حضرت مع جماعة القديسين لأشترك فى تكريس غبريال بابا الاسكندرية » . ورجع القمص يوحنا الى نفسه فإذا بلسانه قد أنطلق . فأخذ يتحدث بعظائم الله وروى لجميع الحاضرين ما حدث له . وجميع الذين سمعوا مجدوا الله على المواهب العليا التى أغدقها الله على الأنبا متاوس فى حياته وبعد نياحته [1] .

❖ ❖ ❖

(١) تاريخ البطاركة ...للأنبا ساويرس طبع باشراف أنطون خاطر وأزولد بورمستر ص ١٣٦ - ١٥٨ ، سلسلة تاريخ ...لكامل صالح نخلة . الطبعة الأولى ص ٧ -٦١ .

ب - الشيخ الروحانى مرقس الأنطونى

٣١٧ - لقد قيل عن الأنبا أثناسيوس الرسولى حامى الإيمان القويم بأنه « جمع بين العزة المتشامخة وبين القداسة . وجاز الأهوال وظل مثمراً ، وعرف معنى البؤس وظل مجيداً » [١] . وهذه الكلمات تنطبق على الكنيسة التى ذاد عنها أثناسيوس بكل مواهبه النادرة وبخاصة فى هذه الحقبة المدلهمة من التاريخ . ذلك لأن الكنيسة كانت تجوز الاضطهاد ثم تذوق طعم الراحة على مدى تاريخها الطويل . أما فى هذه الفترة فلم تخرج من ضيقة إلا لتجوز أخرى ، ولم تنج من اضطهاد إلا لتقع فى ثان . ورغم هذه الأهوال المتلاحقة فقد بدت نعمة الله ورحمته فيمن عاش من القديسين ومن نال إكليل الشهادة . ويجب أن نتمعن فى هذه الظاهرة الروحية العجيبة التى يعلنها لنا الله خلال الحجب والظلمات . لأن هناك من لا يتجهون بأبصارهم إلا إلى نواحى الضعف والنقص والجحود . ولكن - ألم يسر الجحود جنباً إلى جنب مع الاخلاص المتفانى منذ أن عاش مخلصنا الصالح على الأرض ؟ ألم يكن يهوذا الخائن زميلاً ليوحنا الحبيب الذى لازم فاديه إلى الصليب ونال ثوابه بأن ائتمنه رب المجد على أمه؟ لذلك حينما يحاول المتشائمون ارهابنا بالاتجاه ناحية الارتداد علينا أن نقدم لهم هذه الأدلة الرائعة التى تبرز لنا خلف السحب القاتمة كالخيط الذهبى الساطع المعلن بهاء الشمس من وراء تلك السحب . فكنيستنا القبطية المجيدة جسد حى

---

(١) قصة الكنيسة القبطية جـ ١ الفصل الخاص بحامى الإيمان القويم .

ناطق يؤكد كلمات الفادى القائل: «فى العالم سيكون لكم ضيق ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم»

ولئن كان الباباوات أشبه بقمة الهرم فليس من شك فى أن هذه القمة ما كانت لتعلو نحو السماء فى ثبات لو لم يكن البنيان تحتها متراصاً ، هكذا كان الشعب بأراخنته وكهنته وأساقفته هرماً متماسكاً ترتفع فوقه قمته وحتى إن تدحرج حجر منها ظل البنيان قائماً . وهذه هى حقيقة الواقع للعصر الذى توج قمته الأنبا متاوس الملقب بالمسكين : كان فيه الجاحدون المرتدون جنباً إلى جنب مع الشهداء البواسل ، وكان فيه قديسون بلغوا ذروة سامية تضارع ضروات القداسة فى مختلف العصور كما كان فيه جبناء رعديدون. وقد تبدت مراحم الله فى أن القديسين هم الذين أحرزوا النصر ونجحوا فـى شحذ الهمم وتقوية العزائم والإبقاء على الإيمان فـى بهائه وسطوعه .

ومما لا شك فيه أن الغالبية العظمى ممن عاشوا بإيمانهم وثبتوا فيه هم الآلاف المغمورون الذين لايذكرهم التاريخ اطلاقاً رغم أنهم صانعو التاريخ . ومما لا شك فيه أيضاً أن هناك أبطالاً عديدين أدوا الأمانة فى حرص واخلاص ولكنهم مجهولون للآن وقد يظلون مجهولين إلى اليوم الأخير . وسواء أكان البطل معروفاً أم مغموراً مجهولاً فإن الجميع معروفون لدى عارف الخفايا الذى لا ينسى كأس ماء بارد . فمثلاً نقرأ فى مخطوطات هذا العصر اسم الأب القمص الورع أنبا روفائيل النعناعى ولكننا لا نعرف عنه إلا أنه كان الأب الروحى والمرشد الأمين لقديس برز إذ ذاك هو الشيخ المتشح بالروحيات مرقس الأنطونى . كما نقرأ اسم الراهب يعقوب القليوبى الذى من دير شهران والذى ذهب إلى دير الأنبا أنطونى طلباً لبركة البابا متاوس ولانعرف عنه إلا أنه كان رئيساً للدير الذى رفع اسمه الأنبا برسوم العريان . فما أعجب كنيسة الشهداء ! إنها كنيسة الكتائب العديدة من الجنود المجهولين الذين تعففوا عن مجد هذا العالم سعياً وراء الأمجاد غير المرئية .

٣١٨ - ولقد نشأ مرقس فى بلدة منشأة النصارى بالصعيد . ولما بلغ الخامسة من عمره كان سائراً ذات يوم مع أمه فقابلهما الأنبا ساويرس أسقف أسيوط . فحمله على ذراعه وسأله عن اسمه . وأجابه الولد « مرقس »

فتهلل وجه الأسقف وقال له : « حقاً يا ولدى أنك ستشابه مرقس صاحب كورة مصر » ثم باركه وأرجعه إلى أمه موصياً إياها برعايته . ولقد فرح قلب أمه فرحاً عظيماً ونفذت وصية الأسقف بهمة بالغة وبخاصة لأنها ترملت بعد فترة وجيزة فوجدت نفسها الحارس الوحيد لهذا الولد الذى امتلأت نفسها يقيناً بأنه سيكون من المباركين.

٣١٩ - ولقد اعتاد أبوامرقس أن يطويا اليوم حتى الساعة التاسعة [١] باستمرار سواء فى أيام الصوم المقررة من الكنيسة أو فى أيام الأفطار . فشب مرقس على عادة الصوم الانقطاعى يومياً منذ الخامسة من عمره . وكان يرقب والدته باهتمام بالغ بعد أن تيتم من أبيه وبخاصة لأنه كان وحيدها . فكان متى رآها واقفة تصلى يشد وسطه بزنار ويقف إلى جانبها يرفع ضراعته مع ضراعتها ، ويظل واقفاً إلى أن تنتهى هى من صلواتها .

٣٢٠ - وبما أنه كان من أبوين فقيرين ... فقد اضطر إلى العمل منذ طفولتـــه . فكان يخرج مع الفلاحـــين يزرع وقت الزرع ويحصد وقت الحصاد ... وكان بالطبع يخرج مع الصبح ولا يعود إلا عند الغروب . فكانت أمه تعطيه غذاءه . ولكنه كان يوزعه على من يجده أكثر احتياجاً منه ويظل طاوياً إلى أن يعود مساء لأمه .

٣٢١ - ورغم صغر سنه فقد ملأ الحنان قلبه فلم يدفعه إلى توزيع طعامه أو التصدق بشئ من أجره الذى يكسبه بعرق جبينه فقط بل امتد إلى أبعد من ذلك . فقد لاحظ أن امرأة فقيرة تأتى وتسرق نصيبه مما يلتقطه . فصار يجمع لها كل ما يجده ملقى فى الغيط ويكومه على ما التقطه بدلاً من توبيخها . وحينما رأت عطفه عليها بالعطاء وباخفاء تعديها تيقظ ضميرها وتابت عن شرها .

٣٢٢ -وحدث أن كان عليه توصيل بعض الحنطة من جهة إلى أخرى على ظهر حماره . وبينما هو متجه بالحنطة مر على كنيسة وسمع منها ألحان الصلوات . فعز عليه أن يسير فى طريقه من غير أن يحضر الصلاة وينال بركتها الروحية. ولصدق إيمانه رسم علامة الصليب على الحمارة وربطها خارج الكنيسة ثم دخل وحضر القداس وتناول من الأسرار الإلهية وخرج فوجد الحمارة مكانها والحنطة على ظهرها دون أن يمسها أحد .

---

(١) هذه الساعة تبعاً للتوقيت الكنسى الخاص بالصلوات - وهى تقع فى حوالى الثالثة بعد الظهر .

ولأن وعيه الروحى كان مرهفاً فإنه كان يقضى ليالى الأعياد طاوياً مصلياً استعداداً لصلوات العيد فى اليوم التالى . وحدث فى ليلة من ليالى عيد الأنبا شنودة رئيس المتوحدين أن صارعه عدو الخير بحلم مخيف . فقام لساعته وضرب ثلاثمائة مطانوه [1] وبذلك انتصر فى صراعه وظفر ببركة الأسرار الإلهية .

٣٢٣ - ولا عجب فى أن يكون مرقس على هذه الدرجة من الحساسية الروحية لأن أمه كانت نموذجاً مثالياً له . فهى كانت دائمة المواظبة على حضور الصلوات الكنسية وعلى الصوم الانقطاعى يومياً حتى التاسعة . وبعد هذا الصوم لا تطبخ غير الحبوب أو البقول . فلم تكن خميرة بركة لابنها وحده بل إن جيرانها تعلموا بقدوتها فصاروا هم أيضاً يواظبون على الذهاب للكنيسة وعلى الصوم الانقطاعى إلى التاسعة .

كذلك لاحظ مرقس أن أمـه رغم فقرها لم تكن لترد سائلاً عن بابها . فإن طرق بابها طالب احسان ولم يكن لديها نقود تعطيه ما تجمع لديها من بعض الفراخ أو قليلاً من القمح . لذلك كان منزلها المتواضع مأوى للمساكين والرهبان ومقصداً للمعوزين .

٣٢٤ - ولما بلغ الثالثة والعشرين من عمره اشتاق إلى حياة الرهبنة . فاستأذن من أمه وقصد إلى أحد الأديرة القريبة من منطقته . ولكنه دهش حين رأى الرهبان لا يصومون طياً بل ويتهاونون حتى فى الصلوات . ولما لم يرقه هذا السلوك عاد إلى أمه . وما أن وقعت عيناها عليه حتى قالت له « لقد ظننت أنك مت عن هذا العالم . فما الذى أتى بك ؟ احذر يا بنى لأن الذى يضع يده على المحراث لا ينظر إلى الوراء أبداً لئلا يفشل فى أن يكون صالحاً لملكوت السمـاء » [2] . وحالما سمع كلماتها تركها لساعته وقصد إلى ديـر كوكب البرية الأنبا أنطونـى . وشاءت العناية الإلهية أن

---

(١) مطانوه أو مطانية كلمة يونانية أصبحت قبطية بالاستعمال ومعناها الاستغفار أو الاسترحام ولتأديتها حسب التعليمات الكنسية يقول المصلى « يارب ارحم » ويسجد إلى الأرض ثم يقوم مع كل ترديد لكلمة « يا رب ارحم »

(٢) قارن بين موقف هـذه الأم الأرملة مع وحيدها وبين موقـف بعض الآبـاء والأمهات الذين يعارضون فى رهبنة أبنائهم وبناتهم وأحياناً يعارضون أبنائهم الراغبين فى الكهنوت !

يكون القمص روفائيل النعناعى أبوه الروحى فى الدير ساعة وصوله . ففرح فرحاً عظيماً وتولى رعايته بضعة أيام . ثم أخذه إلى دير الأنبا بولا لقلة عدد رهبان ذلك الدير . لأن هذا الأب الروحى الحريص على نمو ابنه فى النعمة أراد له أن يعيش فى شبه عزلة كى لا تعوقه المخالطة عن جهاده الروحى وهو ما زال فى بدايته .

ولم يكتف مرقس بطاعة أبيه الروحى بالذهاب إلى دير الأنبا بولا فقط بل زاد على ذلك أنه حفر لنفسه قبراً بجانب بستان الدير ودرب نفسه على الاختلاء فيه . وأخذ أيضاً يدرب نفسه على الصوم يومين فثلاثة حتى استطاع أن يقضى أسبوعاً بأكمله طاوياً .

ولم يعقه الصوم عن العمل إذ كان يشتغل حمالاً للحطب فى برية الأنبا بولا . وكان إخوته الرهبان يعطونه الطعام اللازم له خلال ساعات العمل رغبة منهم فى أن يقتات منه كى لا يخور من طول الصوم . ولكنه كان يعطيه لجماله سراً ويستمر طاوياً المدة التى قررها لنفسه .

٣٢٥ - وقدعاش فى دير الأنبا بولا ست سنوات على هذا النحو فأنهك جسمه إلى حد أن الرهبان حملوه ذات يوم وذهبوا به إلى دير الأنبا أنطونى ورجوا من رهبانه أن يعتنوا به ويجعلوه يأكل ما يشدد به جسمه . ولكنه مع ذلك أصر على المداومة على الصوم الانقطاعى . وبعد الصوم الطويل لا يأكل غير نوع واحد من الطعام ولا يشبع تماماً . وحين يجلس إلى مائدة الطعام يضع الكتاب المقدس على حجره بينما الدموع تسيل على خديه فإذا سأله الأخوة عن سبب بكائه أجابهم بأنه يبكى عليهم لأنهم لم يفلحوا بعد فى تلجيم معدتهم . وأن الخير لهم فى أن يعملوا للطعام الباقى بدلاً من اشباع بطونهم بالطعام البائد .

٣٢٦ - كذلك تضاعف حنانه على الجميع سواء من الرهبان أو ممن يقصدون الدير للبركة . فكان يكلمهم بكلام الحياة ويعزى نفوسهم ويجبر بخواطرهم فكان الجميع يجلسون حوله لتسرى إليهم نعمة الله الحالة فيه ولتستنير نفوسهم بالنور الروحى المشع من قلبه .

٣٢٧ - وحينما استبد الأمير يلبغا بالأنبا متاوس واقتحم دير الأنبا أنطونى ساق هذا الشيخ الروحانى ضمن من ساقهم أمامه . ولم يحترم

قداسته ولا شيخوخته بل ضربه ورمى به على الأرض ورفض طلبه حين رجا منه أن يعطيه من الماء . وعند ذاك رفع مرقس عينيه نحـو السماء وقال للأمير فى ثقة تامة : « ما دمت ترفض أن تعطينا ماء فإن الله تعالى سيروينا من يده » وما كاد يتفوه بهذه الكلمات حتى نزل سيل جارف من المطر رغم أن الوقت كان صيفاً . ولكن الحنان الإلهى لم يلين قلب الانسان القاسى إذ أمعن يلبغا فى قسوته ولم يكف عن أذية هؤلاء القديسين إلا حين وصلوا إلى أطفيح واضطر إلى اطلاقهم بناء على أمر من السلطان .

٣٢٨ - ولقد شاء الآب السماوى أن يمد فى أيام هذا القديس فبلغ شيخوخة صالحة . وكان يجمع الرهبان ويوصيهم بالمحبة الأخوية والارشادات المحيية . وذات مرة حين رآهم يبكون لأنه كان يحدثهم عن قرب رحيله قال لهم « لا تبكوا يا أولادى لأننى رأيت الكوكبين الساطعين أنطونى وبولا يسجدان أمام العرش ويطلبان الى السيد المسيح أن يتركنى معكم قليلاً . فاستجاب لهم رب المجد وأعلمهما بأنه سيهبنى سنتين أخريتين» وعاش السنتين اللتين تحدث عنهما ولكنه كان ضعيفاً إلى حد أنه قضاهما ملازماً الفراش . ولكنه ظل صاحى العقل متيقظ القلب مشحوذ الروح .

٣٢٩ - ولقد طارت روحه إلى العالم العلوى فى الساعة السادسة من النهار المبارك على وقع رنين أجراس القداس . وانتقل فى هدوء تام أذ قد أسند رأسه على كتف تلميذ له فى سكينة ودعة .

وحكى أحد نساك الدير بأنه رأى ساعة انتقال القديس جمهوراً من الأجناد السماوية نزلوا إلى الدير وأحاطوا به إلى أن جاءت امرأة حاملة طفلاً يغطى جلالها نور الشمس فجلست إلى جانبه وتقبلت روحه حتى أصعدتها إلى السماء ، بينما الجنود الروحانيون يرنمون ويسبحون .

كذلك عرف الأنبا رويس بالروح ساعة نياحة هذا القديس وخاطبه من مكانه بدير الخندق [١] .

❖ ❖ ❖

(١) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة ... ص ٧٥ - ٨٥ .

جـ - الأنبا رويس

٣٣٠ - قيمة الشخصية فى حد ذاتها
٣٣١ - نشأة فريج
٣٣٢ - تأجج الاضطهاد .
٣٣٣ - ليس له أين يسند رأسه
٣٣٤ - تواضع فريج الجم
٣٣٥ - شفافيته الروحية .
٣٣٦ - تجمع التلاميذ حوله .
٣٣٧ - اطلاق لقب «تيئوفانيوس» عليه
٣٣٨ - مقدرته على الانتقال إلى أماكن بعيدة
٣٣٩ - بطش الأمير سودون به
٣٤٠ - تلقيبه بأيوب الجديد .
٣٤١ - تنبؤه بالافراج عن الأنبا متاوس
٣٤٢ - صنيعه مع جندى عابر
٣٤٣ - حنانه على أحد تلاميذه
٣٤٤ - استرجاعه شاباً جاحداً
٣٤٥ - صلواته خلاص لأبيه
٣٤٦ - تنبؤه بحدوث مجاعة .
٣٤٧ - رفعه الصليب فى جرأة رغم شيخوخته وضعفه .
٣٤٨ - رعايته للناس حتى النهاية .
٣٤٩ - تسليمه الروح فى يد السيدة العذراء .
٣٥٠ - لمحة عن أرض الأنبا رويس وكنيسته .

٣٣٠ - وفى وسط ظلام هذه الحقبة يسطع نور خاطف : نور لا نرى فيه فعل النعمة الإلهية فقط بل نرى أيضاً فاعلية هذه النعمة فى شخص تنطبق عليه الآية القائلة : « كمجهولين ونحن معروفون ... كفقراء ونحن نغنى كثيرين . كأن لا شئ لدينا ونحن نملك كل شئ »[(1)] . كذلك نرى بوضوح تقييم الكنيسة لقديسيها بغير اعتبار لمال أو جاه عالمى . فالأنبا رويس لقبته الكنيسة بكلمة « أنبا » التى لا تطلق إلا على الأساقفة كما نظمته ضمن القديسين الذين تذكر أسماءهم فى المجمع أثناء القداس الإلهى ، ومع ذلك فقد كان رجلاً فقيراً من عامة الشعب : أبوه فلاح أجير . وهو شخصياً اضطر لأن يشتغل حتى فى طفولته ليقوم بأود نفسه . ولم ينعم فى يوم ما برتبة كنسية ولا حتى برتبة قارئ .ولكن الكنيسة وجدت فيه القداسة والسعى المتواصل نحو الكمال المسيحى والشفافية الروحية فوجدت فيه الانسان القدير باحترامها وتقديرها . وذلك درس رائع تقدمه لنا

---

(١) ٢ كو ٦ : ٩ - ١٠

كنيستنا ضمن الدروس العديدة عن قيمة الشخصية فى حد ذاتها - هذه القيمة التى ستكون وحدها سند الانسان حينما يقف أمام عرش الديان .

والأنبا رويس نفسه درس كله روعة : انه نموذج للكفاح الدائم والمحبة المستميتة فى الله والتواضع المتناهى والتفانى فى سبيل الآخرين . لم يزعجه الاضطهاد ولم يخفه الضرب ولم يرعبه بطش العتاة من الحكام . بل وقف صامدا أمام كل شدة ، ثابتاً فى وجه شتى الآلام . إنه نموذج حى للكنيسة التى نشأ فيها : كنيسة الصمود والثبات .

فلنتأمل حياته فى تواضع لتتسرب إلينا قوته . ولنتأمله فى اجلال ليسرى النور الوضاح الذى غمره إلى نفوسنا فتستضئ بدورها وتسير فى طريق الجهاد الموضوع أمامها .

٣٣١ - ولد هذا القديس بقرية منية يمين من قرى العربية . وقد أسماه أبواه فريج . وتربى التربية الخشنة الشظفة التى هى نصيب أولاد الفلاحين فى بلادنا حتى الآن . واضطر فريج إلى الاشتغال منذ نعومة أظافره . فكان أحياناً يعمل مع أبيه فى الغيط وأخرى يبيع الملح على قعود (جمل صغير) يمتلكه . والطريف أن صداقة طبيعية صامتة بين فريج وبين قعوده . لأن هذا الحيوان الأعجم كان يطأطئ رأسه تلبية لنداء صاحبه الذى دعاه رويس لهذا السبب ، كما كان يغطيه إن رآه نائماً مكشوفاً . بل أن القعود كان كثيراً ما يداعب فريج بوضع رأسه بمحاذاة خد صاحبه كمن يقبله . كما أنه ذهب إلى أبعد من هذا لأنه حين كان يجده متأخراً فى النوم يداعب قدميه برأسه إلى أن يوقظه . ولقد أحب فريج قعوده لهذه المداعبات الجذابة وكان يتندر بنوادره ويناديه بقعودى رويس وفى النهاية اتخذ اسمه لنفسه .

٣٣٢ - وفجأة اتقدت نيران الاضطهاد وحمى وطيسها إلى حد أن عدداً من القبط جحدوا الإيمان من بينهم والد فريج .أما فريج الذى كان قد بلغ العشرين من عمره فقد هرب من قريته وسافر إلى مصر . وبالطبع سافر على قدميه . فأنهكه التعب فنام فى الطريق . وفى أثناء نومه رأى رؤيا ساطعة : رأى رجلين يلمعان كالبرق بثياب بيض خاطفة قد حملاه إلى السماء وأدخلاه كنيسة بها جمهور من السماويين . ثم سمع صوتاً يقول له : « أنت جائع فتقدم وكل من خبز الحياة » . وقاده الرجلان المضيئان إلى

الهيكل فتناول من الأسرار المقدسة وانتعشت روحه . ثم عاد به صاحباه إلى الأرض ثانية .

٣٣٣ – وبعدما استيقظ ترك القاهرة واتجه جنوباً . فطاف الصعيد إلى قوص . وظل يتنقل من بلد إلى آخر لأنه أمعن فى انكاره لذاته حتى دعا نفسه باسم قعوده رويس . وكلما ذاعت فضائله فى مكان تركه إلى غيره ، كما أنه لم يشأ أن يجعل روابط الدم والصداقة تعوقه عن التصاقه بالله . ولقد تمثل بسيده فى أنه لم يكن له أين يسند رأسه . ورغم تجوله المستمر فإنه حرص على أن يأكل من عمل يديه . فأحياناً يعمل مدراوى (أى مغربل حنطة) وأخرى حمالاً وغير ذلك ، وكان لا يصرف من أجره على نفسه إلا بقدر ما يسد رمقه ويتصدق بالبعض منه ويرسل الباقى إلى أبيه كذلك كان يكتفى بما يستر عورته من اللباس محتملاً حر الصيف وقر الشتاء متخذاً لنفسه يوحنا المعمدان نموذجاً بل لقد بلغ احتقاره للمال أنه قال ذات يوم لأحد تلاميذه : « إياك أن تطأ برجلك هذا العقرب فيلدغك ويميتك » . والتفت التلميذ إلى الناحية التى يشير إليها القديس فوجد درهماً ذهبياً .

ولشدة تقشفه أخذ يدرب نفسه على الصوم الانقطاعى فكان يصوم يومين ثم ثلاثة إلى أن تمكن من أن يعيش ستة وعشرين يوماً بغير طعام اطلاقاً كما شهد بذلك الأنبا متاؤس .

٣٣٤ – وبينما هو فى الصعيد دخل ذات يوم يفتقد إحدى العائلات ففرحوا به فرحاً عظيماً لسماعهم عنه رغم أنهم لم يكونوا يعرفونه اسمه – ولما سألوه قال لهم اسمى Ⲧⲉϫⲓ ⲉϥⲗⲏⲟⲩ (أوتيجى إفليو – أى تيجى الكاذب) . فتعجب الجميع لمعرفته القبطية رغم أنه لم يتعلم . ولقد ظل اسم تيجى هو الاسم المذكور به فى تسابيح الكنيسة وصلواتها حتى اليوم . وبارك القديس أفراد العائلة واحداً واحداً وأخذ يعلمهم ما هو نافع لبنيانهم . كما أنه أخبر كلا منهم عما فى قلبه فامتلأوا دهشة وقدموا السبح لله الذى اعطى الناس مثل هذه العطايا .

٣٣٥ – كذلك كان يدوام على التناول من الأسرار المقدسة على الرغم من تخشعه منها . فكان يسعى للكمال استعداداً للتناول . ويوبخ من يتجاسر أن يتقدم بغير استعداد . وحين كان يقف أمام الكاهن ليأخذ منه

السر المقدس يتراجع قليلاً إلى الوراء . ولما سئل عن السبب قال بأن ما من أحد يستحق التناول من هذه الأسرار المقدسة إلا من كان جوفه طاهراً نقياً كأحشاء سيدتنا مريم التى استحقت أن تحمل المسيح فى أحشائها .

ولقد كشف اللهً عن بصيرته ومنحه شفافية روحية فكان يرى مجد الله حالاً داخل الهيكل ونوره ساطعاً فوق رؤوس المتناولين بينما يرى الجسد المقدس يقطر دماً . وكان واقفاً ذات يوم بالقرب من الكاهن الخديم أثناء شعائر العماد فلما أخرج أبونا الطفل من جرن المعمودية هتف الأنبا رويس قائلاً « أكسيوس » لأنه رأى الشيروبيم والسيرافيم قياماً فوق المعمودية .

٣٣٦ - وقد اكتسبت قداسته الكثير من الناس فتجمعوا حوله وتتلمذ له البعض منهم . ولكن لما كان متقشفاً عارى الرأس مكشوف الجسد حافى القدمين فإن العامة كثيراً ما تعدت عليه . وحدث أن تهجم عليه بعض الأشرار ورجموه بالحجارة . وكان قد درب نفسه على الصمت التام فلم يلتفظ بكلمة أمامهم رغم الآلام التى عاناها من الرجم . ولما تركه هؤلاء الأشرار ملقى تحت كومة من الحجارة جاء تلاميذه ورفعوه وأدخلوه إلى مخزن قريب ليعتنوا به . وفى داخل المخزن بهت التلاميذ إذ رأوا ناراً تشتعل فى ركن منه فطمأنهم القديس قائلاً : « لا تظنوا أنها نار بل أنه نور سيدنا يسوع المسيح الذى تعطف وظهر لى تحقيقاً لكلمة المزمور القائلة إنه « يعينه على سرير وجعه » .

٣٣٧ - ولم يكن ظهور السيد له المجد هذه المرة بالمرة الوحيدة بل أنه تراءى له فى عزلاته المختلفة خمس مرات بمجد لا ينطق به . كما خاطبه ذات مرة فماً لأذن .

ولأنه نال كرامة هذه الاستعلانات الإلهية فإن الكنيسة منحته لقب « ⲑⲉⲟⲫⲁⲛⲓⲟⲥ » ثيئوفانيوس أى رآئى الاستعلانات الإلهية .

وإلى جانب هذه الكرامة العظمى كرامة رؤية رب المجد وسماع صوته فإنه كان يرى قديسى الرب أيضاً ويتحادث معهم .

٣٣٨ - كذلك منحه الله موهبة روحية عجيبة - هى المقدرة على الانتقال إلى البلاد البعيدة والعودة منها فى مدة وجيزة كما منحه استشفاف الأسرار المكنونة ودخول الأماكن وأبوابها مغلقة . ومن الحوادث التى تبين قدرته على الانتقال أن جاءته ذات يوم امرأة من أغنياء القبط

تستنجد به قائلة : « يا رجل الله ارحمنى . فإن زوجى قد ذهب مع الأمير منطاش إلى الشام وطال غيابه ولاأدرى ما جرى له » . فقال لها بتواضع عظيم : « من أين لى أن أعرف أخباره وهو فى الشام ؟» ولكنه وقف يصلى وسهت روحه ، يقرب من الساعة ثم عاد إلى نفسه وقال لها : « إن زوجك كان فى شدة عظيمة ولكن الرب نجاه » .

ولما رجع زوجها سالماً سألته عما حدث له . فأجابها : « بينما أنا عائد ثار علىّ الجنود المنطاشية فى الصحراء إذ وجدونى وحيداً بينهم وأرادوا الاستيلاء على ما فى عهدتى من مال للأمير . وإذا بشيخ عارى الجسم حافى القدمين مكشوف الرأس ظهر لى على رأس جماعة هجموا على الجند وبددوا شملهم ثم رافقونى إلى حدود الأمان . ودخلت أنا الى السلطان برقوق وسلمته العهدة ورويت له ما حدث . وأراد أن يعرف من هو الشخص الذى أنقذنى ولكنى لم استطع الاجابة لجهلى به إذ قد غادرنى بنفس المباغته التى جاءنى بها فهتفت زوجته بفرح : « إنه القديس الطوباوى رويس الذى شفى عينى من الرمد قبل سفرك إلى الشام » .

وذهب الرجل وزوجته إلى الأنبا رويس يشكرانه ولما قدما له شيئاً من المال قال « لماذا تشكرانى ؟ أنا لم أعمل شيئاً » . ثم وجه الحديث إلى الزوج قائلاً : « أما المال فخذه معك ، وأذهب إلى السلطان برقوق الذى أعطاك هذه النقود من خزانته . وهو سيعينك فى خدمته مدة ست سنوات» وامتلأت نفس الرجل دهشة وذهب إلى السلطان فأبلغه بما جرى . وقد اشتاق السلطان إلى أن يرى رجل الله والتعرف به (١) . وقد خدم هذا الرجل القبطى فى ديوان برقوق ست سنوات كما تنبأ له الأنبا رويس .

كذلك حدث أن ذهب القديس ذات يوم إلى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة فوجد فى ساحتها انساناً غريباً مريضاً طريحاً على الأرض من أهالى نقادة أسمه وهبة . وكان وهبة هذا شديد الايمان بالشهيدين الأنبا بيشاى والأنبا بطرس الراقدين بجبل أسيوط . وفى ضعفه واشتداد وطأة المرض عليه تمنى أن يستطيع الوصول إليهما ويستشفع بهما لينال الشفاء . وبعد قليل رأى وهبة الأنبا رويس يرقد إلى جانبه ويعانقه ويقول له: « قم ياوهبة لأحملك وأوصلك فى أسرع وقت ممكن إلى جبل أسيوط » . ورأى وهبة

(١) لم يخبرنا المخطوط أن كان السلطان قد تمكن من رؤيته أم لا

- كما فى رؤيا - القديس رويس ممسكاً به خارجاً إلى خارج الكنيسة وبغتة وجد نفسه فى جبل أسيوط أمام مثوى الشهيدين داخل الكنيسة التى باسمهما . فتعجب كل العجب ومجد الله القدوس . وكان وصوله مع الأنبا رويس فى أثناء القداس . فتناول الاثنان من الأسرار المقدسة . ثم أعطاهما انسان قربانة وبعد ذلك أحس وهبة بأن الأنبا رويس قد حمله وعاد به إلى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة . وانتبه إلى نفسه فإذا بالقربانة فى يده . وأحس بالصحة والقوة فقام لساعته فرحاً وقص على كل من رآهم ما حدث له .

ولما كانت النفس طامعة فإن وهبة حين أراد أن يرجع إلى بلده ذهب يبحث عن الأنبا رويس لعله يوصله إليه . فلما قابله التفت إليه القديس وقال له : « يا وهبة ألم يكفك أنهم حملوك إلى جبل أسيوط فتأتى اليوم مطالباً بأن يحملوك إلى نقادة أيضاً » ؟ [1] فاكتفى وهبة بتقديم الشكر له وعاد إلى مدينته حيث أذاع ما فعله معه رجل الله .

٣٣٩- وحينما استبد الأمير سودون بالأنبا متاوس وشعبه استحضر الأنبا رويس وبدأ يسأله عن حياته وأعماله فلم يجبه بكلمة .فأمر بضربه أربعمائة عصا . فانهال عليه الجند ضرباً وجرحوه وأسالوا دماءه . ولكنه ظل صامتاً . واحتدم سودون غيظاً وأمر بتشهيره. فألبسوه زياً مسخاً وأخذوا يطوفون به الشوارع وهم يستهزئون به ويضربونه ويبصقون عليه ويركلونه ويشدون شعر رأسه ولحيته ورغم هذا كله بقى على صمته . وكان معه واحد من تلاميذه ناله أيضاً التعذيب والهزء . ولما وجد العتاه أن القديس فى حال الموت رموا به هو وتلميذه فى السجن . ولكن رب المجد ظهر لهما وشفاهما . ومع ذلك فإن التلميذ أخذ يلوم معلمه الذى قال له : « ألم تتأمل المسيح واقفاً أمام بيلاطس فى صمت تام ؟ فكيف تلومنى على سكوتى ؟ » .

وكان فى السجن ثمانون قبطياً انقضت عليهم الشهور العديدة وهم تحت الضيق والعذاب . فلما رأوا القديس طرحوا وجوههم على مواضع جراحاته وطلبوا اليه بدموع أن يصلى من أجل نجاتهم فرفع عينيه نحو السماء وابتهل سراً . ولم ينته اليوم حتى حضر الأنبا متاوس شخصياً ومعه الأمر بالافراج عنهم .

---

(١) لعل القديس يشير هنا إلى أن الملائكة هى التى حملت وهبة امعانا منه فى انكار ذاته .

٣٤٠ - وكما لقبته الكنيسة بكلمة ثيوفانيوس لفرط الرؤى الإلهية التى اختبرها كذلك لقبته بأيوب الجديد لصبره وطول أناته واحتماله .

٣٤١ - أما حين كان الأنبا متاوس نفسه مسجوناً بأمر الأمير يلبغا السالمى ومعه العدد الوفير من أبنائه فإن الأنبا رويس كان حابساً نفسه وقتذاك فـى خلوة روحية . فذهب إليه أحـد تلاميذ البابا يعاتبه قائلاً : « ماذا تفعل يا رجل الله والأب البطريرك مسجون وفى ضيقة ؟ ألا تصلى من أجله ؟ » فلما سمع القديس هذه الكلمات قام لساعته ورفع عينيه نحو السماء ثم قال بصوت غير واضح « ستنا السيدة تخلصه » . ثم وقع على تلميذ البابا سبات فرأى صليباً من نور فى سحاب السماء وقد خرجت منه حمامة بيضاء حسنة بسطت جناحيها فوق رأس الأنبا متاوس . وسمع صوت الأنبا رويس يقول : « يامتى [1] لا يخف قلبك لأن الحمامة الحسنة التى تحبها قد خرجت اليوم لتخلصك » وعند ذاك انتبه التلميذ من سباته وذهب إلى السجن فأخبر البابا بما رأى وما سمع . وبينما هو يقص الخبر إذ بأمير من خصوم يلبغا قد هجم على السجن وكسر أبوابه وأخرج منه الأنبا متاوس وجميع من معه . ففرحوا وتهللوا إذ أدركوا أن الحمامة الحسنة التى حلت الحديد لمتياس قديماً هى التى أرسلت هذا الأمير فكسر أبواب السجن وأفرج عن البابا ومن معه .

٣٤٢ - ومن طريف معاملة هذا القديس لبعض الناس أن جندياً كان قد اعتاد أن يأخذ معه بعض المال أثناء داوريته ليتصدق به على الفقراء . فمر ذات يوم على الأنبا رويس ولم يكن يعرفه . ولكن لأنه رآه عرياناً قدم له صدقه . فقبلها منه وقال : « أنتظر حتى أتصدق عليك نظير ما تصدقت به علىّ بل وأكثر منه لأن المسكنة أيها الجندى التى من أجل الله أغنى من غنى هذا العالم » . ثم أخذ حفنة من التراب الذى تحته ووضعها في منديل الجندى . وأبدى الجندى امتعاضة لهذه العطيـة . ولكـن القديس قال له : « لا تتهاون في هذا المنديل . لأنك بما أنك تصدقت على فهوذا الله يعطيك أضعاف صدقتك لأنك بما أحببت الرحمة بالمساكين » .

(١) هنا أيضاً مثل رائع عن التواضع المسيحى والمحبة الصادقة لأن القديس ينادى البابا باسمه مجرداً من كل لقب . وبالطبع وصل نداؤه إلى أذنى البابا الذى لم يغضب عليه بل حتى لم يشر إلى هذا النداء المجرد باية اشارة .

ولما وصل هذا الجندى إلى بيته وقص على أهله ما حدث فتحوا المنديل ليروا ما فيه فإذا به يحمل عملة فضية جديدة فامتلأوا عجباً . ومذاك قوى إيمان الجندى وازداد رحمة . ثم دفعته رغبته فى المزيد إلى البحث عن أنبا رويس ثانية . وما أن اقترب منه حتى قال له رجل الله : « ما أطمعك ! أتظننى فلاحاً عندك فأتيت لتطلب منى الخراج [1] اذهب أعط فلاحيك المساكين كعادتك ولا تطلب منهم خراجاً كما تطلب منى الآن . لأن من زرع شيئاً حصده . ومن أعطى أعطاه الله أضعافاً » فأطاعه الجندى وداوم على العطاء والتوزيع .

٣٤٣- ولم تكن عنايته بطالبى معونته قاصرة على الشفاء والإغاثة من الضيق فقط بل إنها شملت أيضاً اعانة من نجح الشيطان فى أن يصرعهم ومن أروع الأمثلة على هذا الحنان فى نجدة الساقطين المثالين التاليين .

كان له تلميذ بناحية منية السيرج اسمه ميخائيل انتابه مرض الصرع حتى كاد أن يقضي عليه . وحينما اشتدت عليه وطأته استغاث بالأنبا رويس فعبر عليه تلبية لاستغاثته (التى كانت نفسية فقط) . ولكن ميخائيل لم يتبينه لشدة مرضه ولأنه كان محاطاً بزمرة من الخلائق سود الوجوه معهم كلابات من نار يريدون أخذ روحه بها . وكلما طرحوا الكلابات فى حلقه صرخ مستغيثاً بقديس الله . ثم حانت منه التفاته فرأى معلمه يطرد أولئك السود من أمامه . ففرح قلبه وهتف : « يا رجل الله رد عنى هؤلاء وارحمنى منهم » فسأله القديس : « هل تتوب يا ميخائيل ؟ » ، أجابه : « يا رجل الله إنى أعلن توبتى إلى الله أمامك » فانتهر القديس تلك الخلائق وأبعدها عنه فتراجعت فى الحال ، وعادت روح ميخائيل إليه كما عاد إليه وعيه . وإذ به يرى الأنبا رويس كأنه فى داخل كنيسة فأراد أن ينحنى ويقبل قدميه . ولكن القديس اختفى عنه.وحين رأت أم ميخائيل ابنها ينحنى نحو الأرض وهى لا ترى أحداً غيره استفهمت منه عما يفعل فأخبرها بما حدث فمجدت الله الذى يتعجب فى قديسيه .

٣٤٤ - أما المثل الثانى فيتلخص فى أنه كان هناك شاب قبطى غنى جميل الوجه اسمه فخر الدولة بن المؤتمن . أغواه عدو الخير بالجاه العالمى

(١) أو الضريبة المفروضة على الأرض .

والمناصب العالية إلى أن جعله يجحد إيمانه ويدخل فى خدمة السلطان برقوق وكان يقضى أيامه فى اللهو والملذات . ثم تزوج من أمرأة لعوب . وبعد مدة أحس بأنه مقيد بها ولا يستطيع الأفلات . وفى قلقه واضطرابه ذهب إلى الأنبا رويس واعترف له بكل ما حدث قائلاً : « يارجل الله ارحمنى لأن عدو الخير صرعنى ولم تعد لى القدرة على الفكاك منه » أجابه القديس : « لا تخف فمنذ الآن لن يصرعك لأنى رأيتك تصارعه وتغلبه . لذلك سأعضدك وأصارع معك . ولن أكف عن مصارعتى حتى تهزمه . أما إن طلبك الملك فإنى سأرده عنك » وتقوى قلب الشاب بتلك الكلمات المعزية المعضدة فقرر أن يتوب وأن يترهب أيضاً . فقام لفوره تاركاً كل شئ وراءه وقصد إلى دير الأنبا أنطونى أبى الرهبان حيث أقام مدة طويلة فى جهاد روحى عنيف . وكان كلما سأل عنه السلطان وعرف مكانه جعله الرب يسهو وينسى . وسمع الشاب التائب فازداد جهاداً وامتلأ قلبه ثقة وتعزية . وحينما علم بموت السلطان ذهب إلى القاهرة وقدم الشكر لرجل الله . ثم انتقل إلى العالم الباقى وقد تنقت نفسه من شوائبها وتطهرت روحه .

٣٤٥ - ومما يجب ذكره أن صلوات هذا القديس التى اكتسبت العدد العديد من المؤمنين قد استعادت أباه إلى الإيمان وجعلت منه شهيداً .

٣٤٦ - ومن المواهب الروحية التى خدم بها الأنبا رويس جيله تنبؤه بحدوث مجاعة وغلاء فاحش . فحث الناس على الاستعداد لمقابلة هذه الضائقة قبل حدوثها كما فعل يوسف بن يعقوب مع فرعون [١] . وقد أطاعوه فعلاً واختزنوا ما يستطيعون من القمح والضروريات الحيوية . وكانت هذه خدمة كبيرة وبخاصة للفقراء إذ قد ارتفع ثمن أردب القمح من أربعين درهماً إلى أربعمائه درهماً وحين سأله الناس عن موعد انتهاء هذا الغلاء أجاب : « إنى أطلب من الله أن أموت قبل زواله لأن الشدة التى ستحدث بعده أصعب من شدته » ولقد حقق اللهّ طلبه فنقله إلى فردوسه أثناء الغلاء .

٣٤٧ - ولقد قضى السنين التسع الأخيرة من حياته ملقى على الأرض ، لشدة ضعفه ومرضه . ولكنه عاشها فى رضى وصمت كعادته ،

(١) تك ٤١ : ٣٤ - ٣٦ .

إلا أنه على الرغم من مرضه وشيخوخته أراد بعض القضاه أن يمتحنوه فدخلوا عليه يسألونه عن إيمانه وعندها قام في قوة كأن لا مرض فيه وقال لهم فى توكيد : « ها الصليب مدقوق على رسغى » ثم أخذ يرسم نفسه بعلامة الصليب من قمة رأسه إلى قدميه . فأصيب السائلون بقشعريرة هزتهم هزاً عنيفاً وخرجوا لساعتهم .

٣٤٨ - ومع ضعفه ومرضه فقد استمر الناس يذهبون إليه طالبين شفاعته ونصحه . وكل من جاء وجد عنده الفرح من ضيقته والشفاء من مرضه والعزاء لقلبه . وظل يكلمهم بكلمات النعمة ويوجههم نحو الحياة الروحية والتسامى عن الماديات . فوجد فيه الجميع الطبيب الشافي والأب المواسى .

ولما علم بقرب انتقاله من هذا العالم دعا تلاميذه وأوصاهم بالمحبة وباركهم واحداً واحداً . ثم طلب ماء وغسل جسده جزءاً جزءاً راسماً كل أعضائه بعلامة الصليب . وقال لتلاميذه : « ها أنى قد غسلت جسدى حتى لا يكشفه أحد بعد انتقالى » .

٣٤٩ - وفى يوم الأحد ٢١ بابه سنة ١١٢١ (١٨/١٠/١٤٠٤م) أسلم روحه الطاهرة . ولم يكن أحد إلى جانبه فى تلك اللحظة . ولكن قبطياً مؤمناً كان يقطن على مقربة منه قال : « قد رأيت فى تلك الساعة امرأة منيرة كالشمس جالسة إلى جانب هذا الأب وقد تسلمت روحه المباركة تحقيقاً لأمنيته » (١) .

٣٥٠ - ولقد قضى الأنبا رويس الجزء الأكبر من حياته فى المنطقة التى تعرف بدير الخندق ولكن اسمها تحول إلى اسمه بعد نياحته ودفن فيها فأصبحت معروفة باسم أرض الأنبا رويس .

ويجدر الوقوف قليلاً للتأمل فى تاريخ هذا الدير : فقد كان للقبط أيام أن بنى جوهر الصقلى مدينة القاهرة سنة ٩٦٩ م دير يعرف بدير العظام أو دير العظمة كان يضم أجساد بعض القديسين . وأراد بانى القاهرة أن يدخل

---

(١) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة ص ٨٦ - ١٠١ ، ويقول فى الصفحة الأولى منها إن ناسخ المخطوط المتضمن لسيرة الأنبا رويس وهو مسعود بن حنا ولد ميرهم الخوانكى صراف ناحية كوم اشفين وإن المهتم بها هو القمص برسوم خادم بيعة الشهيد مرقوريوس أبى السيفين بحارة البطرك بمصر القديمة .

هذا الدير ضمن تخطيط المدينة . وأدخله فعلاً وجعل منه المشهد الحسينى . ومقابل هذا أعطى القبط تعويضاً عنه بأن وهبهم الأرض التى صارت تعرف بدير الخندق . وبذلك تكون هذه الأرض ضمن ممتلكات القبط منذ ألف سنة [1] .

وبعد مرور ثلاثة قرون على هذه الهبة كتب أبو المكارم سعد الله بن جرجس مسعود يصف المنطقة فقال بأنها تحتوى على عشرة كنائس أكبرها كنيسة القديس جورجيوس . وظلت هذه الكنائس قرناً أو ما يزيد إلى أن هدمت ضمن ما هدم من الكنائس والأديرة التى تخربت سنة ١٣٤١م. أيام السلطان الناصر قلاوون.

ثم حدث فى أيام المنصور قلاوون أن بنى القبط فى هذا المكان كنيستين : إحداهما باسم الملاك المبشر غبريال وثانيتهما باسم أبى السيفين التى تغير اسمها إلى اسم الأنبا رويس بعد دفنه فيها . وقد جددت بناءها جمعية نهضة الكنائس برياسة الأرشيدياكون أيوب فرج فى عهد الأنبا يوساب الثانى البابا الاسكندرى المئة والخامس عشر سنة ١٩٤٩ . أما كنيسة الملاك فقد تخربت سنة ١٨٨٨ ثم شيدت بدلاً منها كنيسة باسم السيدة العذراء شرقى كنيسة الأنبا رويس تجددت عمارتها عدة مرات آخرها سنة ١٩٢٢ . وبتوالى الأيام أصبحت الأرض المحيطة بالكنيستين جبانة للقبط الذين يحبون دائماً أن يكونوا على مقربة من قديسيهم وشهدائهم فى الحياة وفى الممات . على أنه لما اتسعت القاهرة وأصبحت أرض الأنبا رويس داخلها وضمن حركتها قررت الحكومة المصرية منع الدفن فيها . ثم صدر الأمر برفع الأجساد المدفونة فيها وتحويلها إلى الجبل الأحمر الذى أعطته الحكومة للقبط لهذا الغرض . وعلى أثر ذلك قام نزاع جديد حول هذه الأرض . كانت الظروف قد تبدلت والقرون توالت ولكن النزاع القديم عاود الظهور - وهذا النزاع يدور حول ملكية الأرض : أهى حقاً ملك للقبط أم أنها ملك للحكومة لأنها كانت مرفقاً عاماً هو مرفق الجبانة ؟ وعندها تقدم حبيب حنين المصرى وكيل المجلس الملى العام نيابة عن البطريركية القبطية بمذكرة إلى وزير الصحة فى ١٩٣٧/١٢/١٠ م قال فيها بأنه حدث مائتين وخمسين سنة أن تقدم بعض الناس بالشكوى إلى قاضى القضاة من أن القبط يملكون أرضاً مقدارها فدان به الدير المعروف بدير الخندق إلى

(١) النجوم الزاهرة .... لابن تغرى بردى جـ ٤ ص ٤٣٠ .

جانب مقام الشيخ الدمرداش ، وأنهم تجاوزوا حدود ملكيتهم إلى أن أصبحت عشرة أفدنة . فعين قاضي القضاة لجنة لفحص الشكوى ، وقصد الرجال المسئولون إلى الأرض وعاينوها واستفسروا عن حدودها وملكيتها ثم رفعوا تقريرهم إلى قاضي القضاة أثبتوا فيه أن القبط يملكون تسعة أفدنة وستة عشر قيراطاً وعشرة أسهم ، وأن هذه الأرض كلها مملوكة لهم من أيام جوهر الصقلى ، وقد أقر وزير الصحة هذه الأسانيد المقدمة من حبيب حنين المصرى ولكن الوزارة سقطت قبل البت في الموضوع .

وقد عاود حبيب حنين المصرى سعيه سنة ١٩٤٣ بأن وجه مذكرة إلى رئيس مجلس الوزراء . وفى هذه المرة جاء رد الحكومة بالاعتراف بملكية القبط لنصف الأرض وبتأجير النصف الثانى لهم بايجار اسمى قدره جنيه مصرى في السنة لمدة تسعة وتسعين سنة على أن يبنى القبط عليها مبانيها للخدمة العامة لا للاستثمار - وعند ذاك تتركها لهم نهائياً .

ونتيجة لهذه الموافقة أقيم على هذه الأرض مبنى أصبح منذ فبراير سنة ١٩٥٣ معهداً عالياً للدراسات القبطية يضم قاعة كبرى دعيت أولاً باسم القاعة اليوسابية ثم تغير اسمها إلى القاعة المرقسية . وقد استعمل هذا المعهد فى بادئ الأمر مقراً للكلية الاكليريكية أيضاً . على أن البطريركية شيدت سنة ١٩٦٢ كلية اكليريكية وأقامت إلى جانبها أجنحة للطلبة الداخلية وللمكتبة ولغيرها من ملحقات الإكليريكية .

وفي بدء سنة ١٩٦٨ بدأت الكنيسة القبطية تستعد للاحتفال بمرور تسعة عشر قرناً على استشهاد مارمرقس كاروز ديارنا المصرية الحبيبة . فتقرر اقامة كتدارئية ضخمة على اسم الرسول الشهيد فوق أرض الأنبا رويس تقام تحت مذبحها مقصورة خاصة لوضع رفات مار مرقس الذى قبل بولس السادس بابا رومية بأن يعطيها هدية إلى الأنبا كيرلس السادس الخليفة المرقسى المئة والسادس عشر بعد أن تغربت عن أرض الوطن ما يقرب من ألف سنة إذ كان التجار البندقيون قد سرقوها فى القرن التاسع [1] . وفعلاً علت الكتدرائية متسامية نحو السماء وأقيمت فيها الحفلات التذكارية في ٢٤ يونيو سنة ١٩٦٨ واليومين التاليين . ووضعت الرفات الكريمة فى المقصورة المخصصة لها والتى أصبحت مزاراً مقدساً

(١) قصة الكنيسة القبطية جـ ٢ ص ٤٧٤ .

يحج إليه كل من يرغب في بركة « ناظر الإلهيات » [1].ولضخامة الكتدرائية المرقسية اقتضى الأمر هدم كنيسة السيدة العذراء الملاصقة لكنيسة الأنبا رويس . وعلى ذلك لم يعد على هذه البقعة من الكنائس القديمة غير الكنيسة الصغيرة التى تحمل اسم الرجل الذى عاش فقيراً مدى حياته والذى كثيراً ما ارتضى أن يغمس لقمته فى التراب وهـو الأنبا رويس . وإلى جانب هـذه الكنيسة الضئيلة الحجـم تقـوم الكتدرائية الضخمة ، وإلى شمالها الكلية الاكليريكية بمختلف مبانيها ، وعلى امتداد هذه المبانى يقوم المعهد العالى للدراسات القبطية . وإنما العجب كله فى أن الأرض بأكملها تعرف باسم الأنبا رويس . وهنا موضع للعجب فعلاً إذ هو صورة باهرة لتقدير الله واكرامه . فهذه المباني العظمى لها صيت في أنحاء العالم وبالتالى أصبح اسم الأنبا رويس يرن فى مشارق الأرض ومغاربها . حقاً لقد اختار الله فقراء هذا العالم ليحقر الأغنياء . لقد كان هذا القديس فقيراً أمياً مضطهداً مهاناً مزدرى به وهو على هذه الأرض أخفى اسمه خلف اسم قعوده لتناهي تواضعه . والآن يدوى اسمه فى كل مكان مع أنه ترك هذا العالم منذ أكثر من خمسة قرون ونصف . فما أعجب عمل الله وما أمجده فى قديسيه [2] .

❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) أحد ألقاب مارمرقس الرسول .

(٢) كتاب « القديس فريج الشهير بالأنبا رويس » أصدرته كنيسته .



الأنبا رويس

يفتح باب الكنيسة لتلميذه سليمان الذى كان ملازماً له فى حياته كما لازمه بعد انتقاله - فإن القديس كان يفتح له باب الكنيسة فى الفجر حين يقرع سليمان بابها مع أن الأنبا رويس كان إذ ذاك قد انتقل إلى الفردوس .

د - تتابع الركب

٣٥١ - المعروفون من شهداء هذه الحقبة . ٣٥٢ - ناسخ بارع .

٣٥١ - وبما أن الاضطهادات لم تهدأ قط خلال هذه الحقبة استشهد العدد الوفير من أبناء الكنيسة وبناتها كما فعل من سبقهم وكما سيفعل من يجئ بعدهم . لأن الكنيسة كانت تجيب دوماً على مقاوميها بتقديم الدليل المادى الملموس على قوة إيمانها : وهذا الدليل هو الاستشهاد . وضريبة الدم التى دفعتها كفلت لها الحياة اثباتاً لقول رب المجد بأنه إن لم تمت حبة الحنطة فلن تأتى بثمر [1] . على أن الغالبية العظمى من هؤلاء الشهداء ليسوا معروفين إلا لدى الآب الذى يرى فى الخفاء . ولكن التاريخ احتفظ لنا بأسماء البعض منهم بنياناً لنفوسنا وترسيخاً لعقيدتنا .

أما أسماء الشهداء التى وصلتنا عن هذه الحقبة فهى :

١ - ميخائيل أبو مقيطف باكورة الشهداء إذ كان أول من نال اكليل الشهادة .

٢ - بناته الثلاث اللواتى تقدمن إلى جلاديهن وهن يزغردن فى فرح وتهليل كأنهن ذاهبات إلى عرس .

٣ - رزق الله تلميذ ميخائيل .

٤ - إيليا الذى من دير درنكة .

٥ - القس سدراك وفضل الله ورفيقهما المختار داود البنا وهؤلاء الثلاثة نزلوا من جبل القديس الأنبا أنطونى ليكونوا على استعداد لأن ينالوا اكليل الشهادة اقتداء بأبى الرهبان الذى نزل إلى الاسكندرية فى اضطهاد مكسيميانوس وهو يقول : فلأذهبن إلى حيث نيران العذاب . فإن سمحت النعمة الإلهية باستشهادى تجدنى مستعداً ، وإن لم تسمح بذلك

---

(١) يو ١٢ : ٢٤ .

أكون على أقل تقدير واقفاً إلى جانب المضطهدين من أبناء القديس مرقس الانجيلى الشهيد [1] .

٦ - الرهبان الثلاثة بركة وجرجس وجرجس الذين كانوا مترهبين بدير الأنبا أنطونى أيضاً فنهجوا منهج الثلاثة السابقين وتركوا الدير وذهبوا إلى حيث يمكنهم أن ينالوا الاستشهاد .

٧ - أرسانيوس الحبشى الذى ذكر اسمه فى نسخة أخرى بأنه أرشيليدس الحبشى وكان مترهباً بجبل قسقام .

٨ - القس قزمان الخراز الذى كان من القلندول .

٩ - القس ابو الفرج من غرب قمولة .

١٠ - القس روفائيل من البحيرة .

١١ - القس يوحنا من أهالى طوخ .

١٢ - القس هبة الكاتب الذى سفكوا دمه بالاسكندرية .

١٣ - الراهب موسى الذى من الجيوش ويصحبته ستة جنود - وقد سفكت دماء السبعة فى الطريق النازل من أورشليم إلى غزة .

١٤ - البكر الطاهر جديد من أهالى الجيزة - وقد حكموا عليه أن يتبع جده فأجابهم : « عجلوا بقتلى يا هؤلاء فليس لى أب ولا أم ولا جد سوى المسيح » .

١٥ - الشابان المجاهدان بمصر نصر الله وأبو اسحق .

١٦ - يعقوب ويوحنا من سنباط .

١٧ - بولس من منية بنى خصيب .

١٨ - فريج الطنانى .

١٩ - يعقوب القس الذى اضطره الأمير يلبغا السالمى إلى أنكار

(١) قصة الكنيسة القبطية جـ ١ ص ١٠٠ .

المسيح فهرب عند المساء وذهب ساعة أن بدا الصبح وأعلن اعترافه بالمسيح فنال إكليل الشهادة .

٢٠ – منصور بن بطرس ورفيقه داود الأمنوث اللذين سعى بهما ابراهيم السريانى وجرهما من برية شيهيت إلى مصر رغبة منه فى أن يدفعهما إلى جحد الإيمان . ولكنهما صبرا وجاهدا وصرعا الشيطان بأن نالا إكليل الشهادة . وقد نفذت بسالتهما إلى قلب ابراهيم فدفعته إلى التوبة وإلى أن يسير بدوره فى طريق الاستشهاد فيكفر عن خطيته بدمه .

٢١ – الشاب المجاهد ماماديوس المدعو ميخائيل – ويتضح من اسمه ومن مسلكه أنه كان مسلماً ثم آمن بالمسـيح ونال صبغة المعمودية . وكلما عاقبه الحكام ثم سألوه عن اسمه أجاب : « أما اسمى الأول الذى أطلقه علىّ أبواى فهو ماماديوس وأما اسمى الذى أموت عليه وأحيا به فهو ميخائيل » . وظل ثابتاً لا يعطى غير هذا الجواب إلى أن قطعوا رأسه بحد السيف .

٢٢ – أبو الفرج البنا الذى كان من نواحى المقس .

٢٣ – غبريال من بلدة هو .

٢٤ – ابراهيم من أهالى شبرا .

٢٥ – يعقوب الذى من المناوات .

٢٦ – جرجس الذى اشتهر « بابن الراهبة » والذى اقترف الكثير من الآثام . ولكنه عاد إلى نفسه كالابن الضال وتاب وقدم دمه ثمناً لتوبته فصار خاتمة لشهداء هذه الحقبة .

ولقد سبق أن أشرنا إلى أن صلوات الأنبا رويس تابعت أباه فأعادته إلى الإيمان بعد الجحود وجعلت منه شهيداً [1] .

وإذا ما تأملنا هؤلاء الشهداء عرفنا أن هناك كثيرين غيرهم ممن نالوا نعمة اكليل الشهادة . لأن كلاً منهم من بلد مختلف مما يدل على أن

(١) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة ... ص ٦٢ – ٦٤ .

الاضطهاد عم البلاد كلها من الشمال إلى الجنوب . وبذلك ارتوت أرض النيل من أقصاها إلى أقصاها بهذه الدماء الزكية فازدادت خصباً ورواء .

٣٥٢ - ولقد استلزم تتابع الركب الاستمرار فى شتى الميادين : فكما سار الشهداء فى طريق سلفائهم هكذا سار المجاهدون فى مختلف الأعمال ، ومن أبرز سبل الجهاد فى بلادنا بالذات سبيل الكتابة . ولقد شهد الذين هم من خارج بدقة الكاتب المصرى وجمال خطه ونساخته كما شهدوا بتقدير الكنيسة لهذا العمل الفنى الثقافى [1] . والنساخ أيضاً بينهم الجنود المجهولين إذ لا يمكن أن يخلو ميدان كنسى من جنوده المجهولين ! فنحن نقرأ أنه كان بالجبل الشرقى الذى هو برية الأنبا أنطونى مئة ناسخ قضوا حياتهم داخل الدير فى النساخة وتزيين ما يكتبون . وكان على كل عشرة منهم أن يختصوا بنوع معين من الكتب : فمثلاً على عشرة أن يكتبوا كتب البسخة بينما يكتب عشرة آخرون الأبصلموديات وهكذا . وكانوا جميعاً يجيدون اللغة القبطية كما تدل على ذلك كتابتهم لها لأن ما تبقى منها صحيح واضح متقن : فكل صفحة تحتوى على العدد الواحد من السطور ، والسطور متساوية تماماً ، ويأخذ كل حرف حيزاً محدداً من السطر لا يتعداه طولاً ولا عرضاً . ومع هذه الدقة وهذا الاتقان فنحن لا نعرف غير اسم الرئيس لهؤلاء الكتبة المكافحين . فقد عثر الباحثون على صحائف بسخة قديمة بخط المعلم جرجس الناسخ مؤرخة سنة ١١٠١ ش (١٣٨٥م)جاء بها انها منقولة عن نسخة أقدم منها بكثير كتبها الراهب بطرس الدرنكى الذى نشأ فى درنكة بأسيوط ثم ترهب بدير أبى الرهبان .

ونجد فيما يتبقى من الكتب المخطوطة أن نساخ القبط كانوا يبدأون أول الكتاب (أو أول الفصل) بما يسمونه « الدكة » وهو رسم يتوسطه صليب تحيط به الزخارف النباتية أو الهندسية ، وأحياناً يستبدلون هذه الدكة بصورة لقديس أو شهيد . أما هوامش الصفحات فكانت عريضة لكى يزخرفوها برموز وأشكال مستقاة من الطبيعة النباتية أو الحيوانية بل

(١) قصة الكنيسة القبطية جـ ٢ الفصل بعنوان « كاتب مبدع » .

أن الحروف كانوا يستعملونها أحياناً اطاراً للزخرفة - فمثلاً يرسمون داخل حرف وجه إنسان ويرسمون حرفاً آخر على شكل نسر .

ولقد قيل عن الراهب بطرس الدرنكى بأنه كان يصنع بنفسه الحبر والألوان التى يحتاج إليها فى عمله [1] . فكان ينتج الحبر الأسود والأحمر والأصفر والأزرق والأخضر والفضى والذهبى [2] .

هذه شهادة التاريخ فى لمحة عن جهود القبط خلال هذه الحقبة . ومع كونها مجرد وريقات متناثرة إلا أن فيها الدليل على صدق عزيمتهم وتفانيهم وثباتهم على العقيدة العظمى التى تسلموها جيلاً عن جيل .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) لا يزال النساخون من الرهبان يعملون حبرهم وألوانهم بأنفسهم لتظل ثابتة على مر الأيام .

(٢) مرشد المتحف القبطى وكنائس مصر القديمة والحصن الرومانى لوديع شنودة ص ٦٦ - ٦٧ .

منحنيات الطريق

الأنبا غبريال الخامس

٣٥٣ - انتخاب البابا الاسكندرى . ٣٥٦ - تهديد البابا المرقسى بالقتل .
٣٥٤ - خلو الخزانة البابوية . ٣٥٧ - سهر الانبا غبريال الخامس على شعبه .
٣٥٥ - رسامة بطريرك لانطاكية .

٣٥٣ - طغى الأسى على القلوب عندما أحست بالفراغ الهائل الذى أحدثه انتقال البابا متاوس . إلا أن الاحساس برعايته حتى بعد انتقاله انساب إلى داخل القلوب الحسيرة فملأها عزاء روحياً . وبنعمة هذا العزاء المنبعث من المحبة الدافقة المنسابة من قلب البابا المتنيح اجتمع الأساقفة والأراخنة معاً بعد انقضاء ثلاثة شهور وعشرين يوماً للتشاور معاً فيمن يصلح انتخابه لرعايتهم وفيما هم يتشاورون ذكر بعضهم أن الأنبا متاوس قد تنبأ بأن خليفته سيكون غبريال المترهب بدير الأنبا صموئيل القلمونى (١) . فكان هذا التذكر حافزاً لهم لأن يستقدموا هذا الراهب من ديره ليكون باباهم وتمت المراسيم الدينية المقدسة فى سنة ١١٠٢ م . ش . فى سلطنة فرج بن برقوق وبها أصبح الأنبا غبريال الخامس البابا الاسكندرى الثامن والثمانين .

وقد بدأ هذا الراهب حياته العملية كموظف فى الحكومة (٢) . ثم ترك الوظيفة لأن حياة الرهبنة استهوته ولهذا السبب لقبوه بمستوفى الجيزة نسبة إلى عمله الحكومى وهو جمع الضريبة من أهالى تلك المنطقة . إلا أن حياته الرهبانية جعلت إخوته الرهبان يلقبونه بغبريال الأمجد .

٣٥٤ - وبما أن الأنبا غبريال قد وصل إلى الكرامة البابوية بعد أن كان الأمير جمال الدين قد ابتز أموال الكنيسة فقد وجد الخزانة خاوية خالية . وكأن خلوها لم يكن كافياً إذ قد زاد عليه أن الأحباش قطعوا عادتهم

---

(١) راجع جـ ١ من قصة الكنيسة القبطية الفصل المعنون « معترف جرئ » .

(٢) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسي القمص ص ٦٠٠ .

السنوية فى ارسال المال الذى كانت العادة قد جرت فى ارساله . على أن الأنبا غبريال كان قد عاش أيام رهبنته فى تقشف وزهد تامين وعرف أن يدرب نفسه على القناعة والرضى بما يجده من طعام ومن ملبس فكان هذا التدريب خير سند له أيام بابويته إذ اضطر إلى أن يعيش على عطايا أولاده وتقدماتهم . وحين كان يرغب فى افتقاد شعبه كان ينتقل على قدميه لضيق ذات يده . ومع ذلك لم يمل من افتقاده وصبر على الفقر فى رضى ورصانة .

٣٥٥ - وحدث أن جاء إلى مصر فى أيامه كاهن أنطاكى اسمه باسيليوس بهنام مع عدد من أصدقائه ورجوا من البابا الاسكندرى أن يرسم باسيليوس بطريركاً على المدينة المحبة للمسيح أنطاكية . ورحب الأنبا غبريال الخامس بهم وسارع إلى عقد مجمع من أساقفته وتشاور معهم فى هذا الموضوع الحيوى . وانتهى المجمع إلى تكليف بعض الآباء لتأدية شعائر الرسامة المقدسة وهم : أنبا ميخائيل أسقف سمنود ، أنبا غبريال أسقف أسيوط الشهير بابن كاتب القوصية ، وكان رئيساً لدير الأنبا مكارى الكبير قبل رسـامته أسقفاً ، وأنبا كيرلس الأسقف السريانى للقدس المعروف بابن نيشان ، والقس الأسعد أبو الفرج كاهن كنيسة القديس مرقوريوس (أبى السيفين) بمصر القديمة . وفرح الآباء بهذا التكليف وقاموا بصلوات الشعائر الخاصة برسامة الأساقفة فى كنيسة أبى السيفين وبها أصبح باسيليوس يهنام بطريركاً لأنطاكية باسم أغناطيوس بهنام الأول . وخلال هذه الشعائر قرأ القس أرميا جميع أواشى البطريركية [1] . وبعد هذه الرسامة الكريمة سافر البطريرك الأنطاكى إلى أورشليم ومنها إلى مقر كرسيه . ومن عجب الله فى قديسيه أن البابا الاسكندرى العائش على محبة أولاده قد استطاع أن يزود شريكه فى الخدمة الرسولية بكل ما يحتاج إليه فى السفر حتى الدابة التى كان محتاجاً إلى ركوبها وقد قام بتوديعه وفد من الكهنة والأراخنة فرافقوه حتى المطرية .

٣٥٦ - ثم وصلت الأنباء إلى سـلطان مصر بأن التجار المسلمين يلاقون

(١) لم يذكر لنا كاتب هذه السيرة شيئاً عن القس أرميا غير هذه الجملة .

الشئ الكثير من سوء المعاملة والتضيق فى الحبشة . فلم يحقق فى صحة هذه الأنباء ولم يمحصها بل استدعى لفوره الأنبا غبريال الخامس وهدده بالقتل إن لم يمنع الأحباش من اضطهاد هؤلاء التجار [1] . ولقد وعد البابا الاسكندرى بالكتابة لملك الحبشة وتوصيته بالكف عن أذاهم . ولقد تداركت مراحم الله هذا البابا الصبور إذ قد قبل السلطان كلامه وتركه وشأنه بمجرد أن وعد بالوساطة .

٣٥٧ - وعلى الرغم من الضيق المادى ومن اضطهاد الحكومة له فإن الأنبا غبريال الخامس ظل يتنقل بين شعبه لمواساته ولتثبيته على الإيمان . كذلك وضع كتاباً فى الطقوس الكنسية تذكيراً لأولاده بأهمية هذه الطقوس وبكل ما فيها من روعة . وقد قضى فى رياسة الكهنوت سبع عشرة سنة وثمانية شهور واثنى عشر يوماً تنيح بعدها بسلام ودفن بما يليق به من إكرام فى كنيسة السيدة العذراء ببابلون الدرج (فى آخر مصر القديمة) [2] .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٦٠١ .

(٢) سلسلة تاريخ ... جمعة الشماس كامل صالح نخلة - الحلقة الرابعة ص ٦-٩ .

شهادة الذين هم من خارج

٣٥٨ - من العجيب أن الأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين الذى عاش فى القرن العاشر ينسب له تاريخ البطاركة الذين عاشوا فى القرون المتأخرة بل إن آخر جزء من هذا التاريخ المتضمن سير البطاركة حتى أوائل القرن العشرين منسوب له ! والواقع أن الأسقف الأشمونى لا يختلف عمن جاءوا بعده فى الزمن فقط بل إنه يختلف عنهم بصورة قاطعة فى أسلوبه . فهو لم يكتف بسرد سير البطاركة وإنما تكلم بالتفصيل عن الحوادث الكنسية والقومية أيضاً فأعطانا صورة شاملة للعصور التى أرّخ لها . أما المؤرخون الذين جاءوا بعده فإنهم لم يكتفوا بالافضاء عن ذكر الحوادث القومية فقط بل أن هناك عدداً من الباباوات لا نجد لهم تاريخاً غير سطرين أو ثلاثة إذ يكتفى كاتب السيرة أن يخبرنا بأن هذا البابا أو ذاك قد ترهب فى الدير الفلانى ورسم فى تاريخ كذا وتنيح بعد ذلك بكذا من الزمن . فنجد تاريخهم أشبه بالسجل المجرد الذى لا يشفى غليلاً [١] . على أن الله الذى لا يدع نفسه بلا شاهد قد ألهم بعض المؤرخين المسلمين بالكتابة

(١) من يدرى ؟ ربما كتب هؤلاء المؤرخون بالتفصيل كما فعل الأنبا ساويرس ولكن البطش المتلاحق امتد الى انتاجهم فلاشاه كما حدث حين خرب دير الأنبا أنطونى والأنبا بولا .

عن هؤلاء الآباء وعما جرى فى أيامهم . فنجد أن الشيخ السخاوى قد سجل فى كتابه « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » أخباراً لها أهمية كبرى لحوادث جرت فى بابوية الأنبا يؤنس الحادى عشر . وقد أطلق عليه اسم مؤنس بطريرك اليعاقبة كما أشار إليه في بعض الأحيان باسمه الأول وهو فرج اليعقوبى مضيفاً إليه صفة التمييز الكبرى وهى « النصرانى » .

٣٥٩ - ولقد ظلت السدة البابوية شاغرة مدة أربعة أشهر وثمانية أيام اجتمع بعدها المجمع المقدس ودعا إليه الأراخنة للتداول معاً . ومن نعمة الله أن اتفقت كلمة الجميع فى هدوء وصفاء إذ قد وقع اختيارهم على القس الأسعد أبى الفرج كاهن كنيسة القديس مرقوريوس (أبى السيفين) [١] أحد الذين اشتركوا فى الشعائر المقدسة الخاصة برسامة البطريرك الأنطاكى ، ولقد تمت رسامة هذا الكاهن المكرم فى ١١ مايو سنة ١٤٢٠ م ش باسم يؤنس الحادى عشر أيام أن كانت مقاليد الحكم فى يدى الملك الأشرف برسباى .

٣٦٠- وحينما كان برسباى أميراً كان فى ديوانه كاتب قبطى اسمه تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله توما . فلما تولى السلطنة استمرت ثقته فى كاتبه القبطى فقربه إليه وأخذ يرقيه إلى أن جعله ناظراً للاسطبل السلطانى [٢] .

٣٦١ - إلا أنه من المؤلم - حين كان السلطان مسالماً واثقاً بكاتب قبطى نافذ الكلمة - أن تعصف الطبيعة بالمصريين فى أشكال ثلاثة أصابت بلادنا وقتذاك وهى : زلزال ففيضان ناقص أعقبه هبوط سريع فى مستوى مياه النهر الخالد وغلاء فاحش فى سعر الحاجيات ثم تفشى الوباء الذى كان يحصد المئات من الناس يومياً .وأنه لمن العجب العجاب أن تحدث هذه البلايا الطبيعية فى وقت حقق فيه الملك برسباى الهدوء والعدالة للشعب المصرى

(١) أشتغل هذا الكاهن بالتدريس أولاً فى مدرسة بالمكس - راجع تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٦٠١ .

(٢) البيروقراطية القبطية فى عهد المماليك (بالانجليزية) لريتشاردز ص ٣ نقلاً عن « المنهل » مخطوط ورقة ٣٦٤ ب .

قاطبة . فكأن الضيق من مستلزمات الحياة لهذا الشعب فى تلك الحقبة من تاريخهم . إذ أنه حتى حين حكم ملك عادل قامت الطبيعة بتنغيص الحياة عليهم ! وكأن البلايا الطبيعية لم تكن كافية إذ قد اختل نظام الأمور عند موت برسباى . فتعاقب بعده أربعة من المماليك على الحكم خلال بابوية الأنبا يؤنس الحادى عشر . وفى اثناء حكم جقمق الملقب بالملك الظاهر ثار عدد من أصاغر الأمراء بالجيزة وأقاموا لهم سلطاناً ووزراء . ولكن الملك الظاهر لم يلبث أن قمعهم وباعهم خارج مصر . وفى أعقاب هذه الاضرابات جاء الفيضان ناقصاً مرة أخرى ، فغلت الأسعار غلواً فاحشاً استمر سنتين متتاليتين ذاق فيها الشعب مذله الجوع . وضاعف المذله تفشى الطاعون الذى أدى الى الهبوط بتعداد الشعب هبوطاً عنيفاً . إلا أن المراحم الإلهية بدت واضحة فى أن هـذا الطاعون المزعج أخذ يتلاشى أثناء الخمسين المقدسة . وهى أيام الفرح التالية لعيـد القيامة المجيدة والتى كان القبط إذ ذاك يحيون بعضهـم البعض طوالها بتلك الكلمات المليئة بالبهجـة وهى : « خريستوس آنستى: أليثوس آنستى » أى « المسيح قد قام ... بالحقيقة قد قام » .

٣٦٢ - ولقد رأى البطريرك الأنطاكى مار أغناطيوس التاسع (الذى كانت قد تمت رسامته فى مصر) أن يأتى إلى بلادنا لتهنئة الأنبا يؤنس الحادى عشر بنفسه وبخاصة لأن هذا البابا الاسكندرى كان ضمن الذى قاموا بالشعائر الدينية للرسامة . ولما وصل البطريرك الأنطاكى إلى مصر لاقاه البابا الاسكندرى بالمحبة الأخوية واشترك البطريركان فى صلوات القداس الإلهى التى هى أسمى صورة للأخوة المسيحية والتى يحس بها المؤمنون احساساً فعلياً بأنهم أعضاء فى جسد الرب المرفوع على المذبح . ففرح الشعب كله لهذه المشاركة الروحية العظمى .

٣٦٣ - ثم قال البطريرك الأنطاكى لشريكه فى الخدمة الرسولية بأنه لم يعد لديه ميرون ، بل ولم تعد لديه خميرة للميرون إذ قد نضب ما عندهم من غير أن يفطنوا إلى ذلك . فاتفق معه البابا المرقسى على الاحتفاء باقامة الشعائر المقدسة الخاصة بالميرون لاعطائه قدر ما يحتاج إليه .

وفى أحد الشعانين قصد البطريركان إلى كنيسة السيدة العذراء(المعلقة) حيث صليا معا احتفاء بهذا اليوم المقدس وظـلا فـى هذه الكنيسة العريقة



جـزء من لوحة « موعظة القديس مرقس في الاسكندرية »
من عمل چنتيلى بلينى
وأخيه چيوفانى (سنة ١٥٠٤م)

المليئة بالذكريات الدالة على العناية الإلهية طوال اسبوع الآلام لتأدية صلوات هذا الأسبوع المجيد . وفى باكر خميس العهد الإلهى قاموا بصلوات الميرون ثم بصلوات اللقان فصلوات قداس ذلك اليوم الذى فيه أعطانا رب المجد عهده بتقديمه جسده ودمه الأقدسين طعاماً روحياً لمن يتناول منه وعلامة مرئية على الصلة الخفية التى تربط المؤمنين به وترفعهم إليه . وكان معهم خلال هذا الأسبوع المقدس ماركيرلس مطران أورشليم ، وقد ظل ضيوفنا الكرام فى بلادنا الرحيبة مدة شهور ثم غادروها إلى أرورشليم . وقد صحبهم إلى المطرية عدد من كهنة القبط وأراخنتها بعد أن زود كل من البطريركين أخاه بالبركة الرسولية .

٣٦٤ - وما أن انتهت هـذه الزيارة الأخـوية حتى بدأ شئ من التنغيص . فقد قام الشيخ الأمير الأقصرانى - أحد شيوخ المسلمين - بالكشف على الكنائس لمعرفة ما إذا كان قد حدث فيها أى تغيير أو ترميم أو تجديد ونتيجة لهذا الكشف أمر السيد شهاب الدين أحمد النعمانى المصرى باغلاق عدد منها ريثما يتم التحقيق فى أمرها. ومن نعمة الله أن أعيد فتح هذه الكنائس بعد انتهاء التحقيق .

٣٦٥ - وحدث أن قويت شوكة الترك وانتصروا على امبراطور القسطنطينية الذى اضطر إلى ترك هذه العاصمة القديمة نهائياً . ولما انتهى به الأمر إلى الاستقرار في بلاد اليونان رأى أن يتفاهم مع ملوك الغرب ومع المسئولين عن الكنيسة في البلاد الغربية . ونتيجة لما جرى من مفاوضات وأحاديث انعقد مجمع فى مدينة بال (بسويسرا) ثم انتقل إلى مدينة فيرارا فمدينة فلورنسا (وكلتيهما فى ايطاليا) مستهدفاً إيجاد الوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية . إلا أن الكنيسة الشرقية هنا كانت كنيسة القسطنطينية التى هى الكنيسة الوحيدة الموجودة فى أوربا لأن كل الكنائس الشرقية الأخرى أفريقية آسيوية - وهذه المجموعة من الكنائس لا خلقيدونية [1] خلافاً لكنيسة القسطنطينية ، والذى حدث فى هذا المجمع الذى انعقد فى منتصف القرن الخامس عشر هو أن قام شئ من

(١) راجع الفصل الأول من قصة الكنيسة القبطية جـ ٢

التآلف بين الكنيستين الأوربيتين : القسطنطينية وروميـة . أما الكنائس « الأفرو - آسيوية » فظلت بعيداً كما كان شأنها منذ مجمع خلقيدون المشئوم . لأن الاختلاف في العقيدة الذى هو أساس التباعد من الأول قد أضيفت إليه مطالب البابا الرومـانى فى مغالاة غريبة عن التقاليد الرسولية [1] .

٣٦٦ - ثم رأى السلطان إذ ذاك أن يعقد مجلساً بحضور قضاة المسلمين الأربعة ومعهم الأنبا يؤنس الحادى عشر ورؤساء المذاهب اليهودية . فاجتمعوا كلهم . وبعد التداول قرر القضاة المسلمون أن يجتمع الكل عند شيخ الاسلام الأكبر فذهبوا إلى بيته . وقد قرر على كل منهم أن يلزم نفسه الزاماً شرعياً أنه لا يجدد فى كنيسة ولا فى دير ولا في قلاية ولا فى صومعة ولا فى بيعة مما هو كائن فى مملكة السلطان بنفسه ولا بمن يستعين به بناء ولا غيره ولا يرم ما خرب أو تعيب من جدرانها وأخشابها وغير ذلك بالآلات القديمة ولا غيرها . ولا يدفع لمسلم خمراً ببيع أو بغيره ولا يسقيه له . ومتى خالف ذلك أو شيئاً منه كان جزاؤه أن يخرب السلطان جميع تلك الكنيسة أو الدير أو القلاية أو الصومعة أو البيعة التى يفعل فيها ذلك . وأن يفعل فيه ما يقتضيه رأيه ... » [2] .

٣٦٧ - وحضرت فى تلك الفترة بعثة موفدة من ملك الحبشة درع يعقوب وعلى رأسها شخصية من كبار رجال الملك ومعه عبد الرحمن (وهو تاجر معروف) وأحضروا معهم هدايا مؤلفة من سبعين جارية وطشت وأبريق من ذهب وسيف مذهب ومهماز وعدد من الأوانى الذهبية . كذلك حملوا خطاباً من الملك الحبشى إلى سلطان مصر . وقد استهل خطابه بالتحيات والمبالغة فى عبارات التكريم ثم قال : « ... وقصدنا تجديد ما سبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادكم وبلادنا اتباعاً لآثارهم المشكورة . وقصدنا اعلامكم ذلك بشارة لكم ليكون ذلك العهد مستمراً بلا انحراف

---

(١) راجع الفصل الأول من قصة الكنيسة القبطية جـ ٢ .

(٢) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٦٠٢ ، سلسلة تاريخ جمعه الشماس كامل صالح نخلة ص ١٥ - ١٧ .

والاتفاق بيننا وبينكم بلا خلاف ... وأنهم كانوا قايمين بالعدل خصوصاً بإخوتنا النصارى متوصين ويرجعوا عنهم القوم الرائدين وهن كنائسهم والقتل على من كان فيها من الأقسة والرهابين ... وقد بلغنا الآن أن هذه القواعد تغيرت من قبل قوم كانوا عن طريق العدل حائدين وفى طريق الظلم خائضين . والآن إذا مات أحد من أخوتنا النصارى لا يدفن إلا بعد مشقة كبيرة لأهله وأقاربه . ويؤخذ منهم ما لم تجر به عادة فى أيام الملوك السالفين ... ثم بلغنا أيضاً أن ثم من يتعرض إليهم فى كنائسهم فى أوقات صلاتهم وفى أيام أعيادهم يقطع مصانعاتهم وأخذ ما لا يستحقون أخذه . أنهم فى غاية الضيق من ذلك ... وإخواننا النصارى الذين هم الآن تحت عز سلطانكم ومملكتكم الشريفة نفر قليل لا يمكن أن يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين باقليم واحد من بلادنا ... ولم نزل تحسن إليهم فى كل وقت وحين ... سامعين لأقوالهم رادعين من يتعرض لهم ... فاسألوا التجار المترددين إلى بلادنا يخبرونكم بذلك بالحق والصدق . ومن نقل إليكم غير ذاك فهو من الكاذبين الذين يقصدون رمى الفتن التى هى أشد من القتل عند العارفين ... والقصد من عظمة سلطانكم أن تتوصوا غاية التوصية بإخوتى النصارى لتصير بيننا المودة وتفرح فى أيام سلطنتكم الرعية بعد السلام الوافى التام على المجلس الشريف السلطانى . وعلى محبيه وعلى أمرائه وقضاة الشرع وعلى كل من حوت مملكته العالية [١] .

٣٦٨ – إلا أن السلطان وأمراءه غضبوا غضبة جامحة لما جاء فى هذا الخطاب إذ أحسوا بأن مظالمهم قد شاعت خارج الحدود المصرية . ولكن السلطان رغم غضبه أرسل الهدايا النفيسة إلى الملك درع يعقوب ومعها خطاب يرفض فيه الرجاء بحسن معاملة القبط زعماً منه أنهم هم الذين أذاعوا أخبار ظلمه وأنهم في الوقت عينه يجددون فى أبنية كنائسهم وأديرتهم من غير إذن . فلما وصل رد السلطان استشاط الملك غضباً بدوره واحتجز الرسل السلطانية في بلاده . ثم حارب شهاب الدين بن سعد ملك المسلمين فى الحبشة وقتله وحكم على رئيس وفد السلطان أن يركب معه وأخذه إلى المكان الملقى فيه الرجل المقتول ليرى بعينيه ما حدث .

(١) السخاوى جـ ١ ص ٣٩ – ٤٠ . شرحه جـ ١ ص ٦٧ – ٧١ .

٣٦٩ - ووصلت هذه الأنباء إلى مصر كما وصل خبر احتجاز الوفد السلطانى فثارت ثائرة السلطان ولم يجد من يصب عليه ثورته غير البابا نفسه . فأرسل واستدعاه وأصدر الأمر بضربه فضربوه ضرباً مبرحاً بلا احتشام ، ثم فرض عليه أن يكتب خطاباً إلى الملك الحبشى يعرفه فيه بكل ما أصابه من ضرب واهانة كما يوضح فيه تهديد السلطان بإبادة القبط انتقاماً لكل ما قد يصيبه من تضييق على مسلمى بلاده ، ويطالبه باعادة الوفد السلطانى إلى مصر بغير تعويق . وحين وصل الخطاب البابوى إلى ملك الحبشة استدعى رئيس الوفد وأغدق عليه العطايا ولكنه ماطله فى الاذن بالعودة . ولما طال المطال وامتلأت نفوس مندوبى السلطانى سأماً قال رئيسهم فى صراحة : إن كنت تريد قتلى فأنا على استعداد لذلك . وإلا - فما داعى المماطلة ؟ » وتركه الملك دون جواب ثم أرسل إليه فى اليوم التالى رسولاً يحمل إليه الاذن بالعودة إلى مصر . وقد صحبه فى سفره مندوب من لدن درع يعقوب فوصلوا القاهرة بعد غياب دام أربع سنوات [(١)]

إلا أن عودة رسل السلطان لم تهدأ من غضبه ضد البابا يؤنس الحادى عشر وشعبه . فعقد مجلساً رأسه شخصياً وحضره القضاة المسلمون الأربعة . ثم استحضر البابا المرقسى فحكم السلطان بضربه وحبسه فى المقشرة وأخذ كل ما لديه من مال . وزاد على ذلك بأن فرض عليه أن لا يكاتب ملك الحبشة اطلاقاً ، بل ولا يرسم لهم مطراناً ولا كاهناً إلا بعد استئذانه . فإن خرج على هذا الحكم فى أى يوم تضرب عنقه فوراً . وكتب خمس نسخ بهذه الأحكام احتفظ كل من قضاة الاسلام الأربعة بنسخة والنسخة الخامسة أعطيت للبابا الاسكندرى .

٣٧٠ - وكأن هذه البلايا كلها لم تكن بكافية . فقام عشرون مملوكاً من المفسدين وهاجموا بيوت القبط رغبة منهم فى الاستيلاء على ما لديهم من خمر . ولكن القبط وقفوا فى وجوههم وقاتلوهم وتغلبوا عليهم إذ قد سقط ثلاثة من المماليك صرعى ففر الآخرون [(٢)] .

---

(١) السخاوى جـ ١ ص ٧٢ .

(٢) شرحه جـ ١ ص ١٢٣ - ١٢٤ .

٣٧١ - وبعد ذلك أصدر السلطان بعض مراسيم خاصة بغير المسلمين أهمها أنه لايجوز لطبيب قبطى أو يهودى أن يعالج المسلمين . إلا أن عقلاء المسلمين رفضوا أن يعملوا بهذا المرسوم واستمروا يلجأون للأطباء الذين يثقون فى مهارتهم بغض النظر عن دينهم . كذلك طلب ناظر الجوالى [١] أراخنة القبط وأخذ يدقق فى سؤالهم عما إذا كان فى بيوتهم جاريات مسلمات . وضيق عليهم فى السؤال حتى اضطرهم إلى عرض جواريهم عليه ليتأكد من أنه لا توجد مسلمة بينهن .

٣٧٢ - وعاد شعور القلق يسيطر على المصريين جميعاً ولو أن نصيب القبط منه كان مضاعفاً .. ذلك لأن الأنباء تواترت بأن الأحباش يجهزون جيشهم ومراكبهم لغزو الحجاز وأنهم ينوون بعد ذلك قطع مياه النيل عن مصر . وحدث أن الفيضان جاء ناقصاً للغاية فبدأت القلوب تضطرب . وضاق الرزق . واستمر نقصان المياه فأخذت الأسعار ترتفع وشح الخبز . ثم سرى القلق إلى قلب السلطان فأرسل إلى الخليفة يرجو منه الابتهال إلى الله ليرفع غضبه ويجعل النيل يفيض . كذلك وزع الصدقات والاحسانات الكثيرة . ولكن النيل بدلاً من أن يزيد أخذ يتناقص أكثر فأكثر . وعندها نودى على الشعب بالصلاة فى الصحراء . فخرجت جموعهم تتزاحم : القضاة والعلماء والمشايخ والرجال والنساء والأطفال . وكان الشعور بالضيق شديداً إلى حد أنهم رضوا بخروج القبط معهم للصلاة . واستمر هذا الجمع الحاشد يصلى عدة أيام متتالية إلى أن تعطف الله عليهم واستجاب لدموعهم وابتهالاتهم . والعجيب أن النيل بدأ يتزايد فى شهر توت - وهو الشهر الذى يبلغ فيه الفيضان منتهاه .

٣٧٣ - ومن المؤلم أن عدداً من كبار القبط جحدوا إيمانهم وأعلنوا اسلامهم إذ قد استهوتهم المناصب واستمالهم حب المال لأنهم جميعاً نالوا الرتب العليا ووصلوا إلى مراكز مرموقة من النفوذ . وعلى الرغم من ذلك فإن جحودهم لم يكن واقياً لهم من غضب السلطان إذا ما ثار : فمثلاً كان هناك رجل اسمه ابن كاتب المناخ ولى الوزارة عدة مرات . وذات مرة حمى

---

(١) الجوالى كانت ضريبة مفروضة على القبط بالاضافة إلى الضرائب العامة .

غضب السلطان عليه فأمر بمصادرة أمواله وبضربه بالمقارع ضرباً أفضى إلى موته رغم معرفة السلطان بأن هذا الرجل قد خرج على المسيحية [1] .

٣٧٤ - ومقابل هذا الجحود برز بعض الآباء الساهرين الذين جاهدوا فى سبيل الايمان وتقوية العزائم والصمود فى وجه الضيقات . وأبرز هؤلاء الآباء أنبا قرياقص أسقف البهنسا الذى لم يكتف بافتقاد شعبه ووعظه وتوجيهه بل وضع الميامر العديدة فى مديح السيدة العذراء وفى قيامة رب المجد وفى لجوء العائلة المقدسة إلى مصر وفى مديح الشهيد بقطر .

٣٧٥ - وبعد كل هذه الضيقات والآلام انتقل الأنبا يؤنس الحادى عشر إلى فردوس النعيم بعد أن قضى على الكرسى المرقسى أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة وعشرين يوماً . وكان مقره بكنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة . وقد دفن فى دير الخندق إلى جوار الأنبا متاوس المسكين [2] .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) السخاوى جـ ١ ص ٢٤٤ .

(٢) سلسة تاريخ ... لكامل صالح خلة (الحلقة الرابعة) ص ١٠ - ٤١ .

فترة من الهدوء

أ - الانبا متاوس الصعيدى

٣٧٦ - انتخاب الانبا متاوس الثانى	٣٧٨ - تقديس الميرون .
٣٧٧ - طلب مطران الحبشة .	٣٧٩ - نياحة البابا المرقسى .

٣٧٦ - مرة أخرى شغرت السدة المرقسية . واستمرت شاغرة هذه المرة أربعة شهور . ثم أجمع الاساقفة والأراخنة باتفاق عجيب عى أن الراهب سليمان الصعيدى المتنسك بدير العذراء الشهير بالمحرق هو الرجل الذى يرغبون فى رعايته إياهم . ونتيجة لهذا الاجماع سافر مندوبوهم إلى الدير المحرق واستحضروه إلى مصر حيث تمت الشعائر المقدسة لرسامته فأصبح الأنبا متاوس الثانى البابا الاسكندرى التسعين . وتمييزاً له عن الأنبا متاوس المسكين أطلق عليه اسم متاوس الصعيدى [١] .

٣٧٧ - ثم وصلت إلى مصر بعثة حبشية لكى تطلب إلى البابا المرقسى أن يرسم للحبشة مطراناً عوضاً عن المطران الذى كان قد تنيح . ومن نعمة الله أن السلطان المنصور فخر الدين عثمان قد أحسن استقبال هذه البعثة واستفسر عن الغرض من حضورها . ثم سهل لأعضائها أسباب الوصول إلى الأنبا متاوس الثانى لعرض مطلبهم عليه . وكان ملك الحبشة إذ ذاك مازال درع يعقوب . ولما علم البابا الاسكندرى بما يطلبون سارع إلى اختيار راهب ممتاز ورسمه باسم الأنبا غبريال .

٣٧٨ - ومع أن رياسة كهنوت الأنبا متاوس الصعيدى لم تدم غير ثلاثة عشرة سنة إلا أن أربعة من السلاطين توالوا على الحكم خلال تلك المدة .

ولقد وجد أثناء بابويته أن الكنيسة فى حاجة إلي الميرون لأن ما تبقى منه لم يعد كافياً إلا لأن يكون « خميرة تخمر العجين كله » . فأرسل يدعو الأساقفة ليجتمعوا معه ويؤدوا شعائرها المقدسة . فحضر ستة منهم : خمسة مـن الصعيد وواحد من الدلتا . وقد أقيمت الصلوات فى كنيسة

---

(١) شرحه ص ٤٥ .

السيدة العذراء بحارة زويلة . وكان المهتم بهذا العمل المقدس هو صاحب الذكر الدايم المولى الأجل الأرخن الرئيس المحب للمسيح الأرشيدياكون المكرم الشيخ ولى الدولة ميخائيل المهتم بالبيعة المذكورة والناظر على الشعب الأرثوذكسى والبيع المقدسة بأورشليم . وقد شاركه بركة هذه الخدمة الشماسان المكرمان برسوم بن الأشقر والشمس أبو المنصور .

٣٧٩ - ثم تنيح الأنبا متاوس الصعيدى فى هدوء وسكينة ودفن هو أيضاً بدير الخندق إلى جانب سميه العظيم [١] .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) سلسلة تاريخ ... جمعه كامل صالح نخلة . الحلقة الرابعة ص ٤٣ - ٤٦ .

ب - استمرار الهدوء

٣٨٠ - انتخاب البابا الاسكندرى الحادى والتسعين .
٣٨١ - سحابة عابرة .
٣٨٢ - فترة سبات .

٣٨٠ - وكان فى دير الأنبا أنطونى كوكب البرية راهب اسمه غبريال العرباوى بالنسبة إلى أنه نشأ فى قرية العرابة المدفونة (أو أبيدوس بالقرب من البلينا) فلما انقضت خمسة شهور على نياحة الأنبا متاوس الثانى اجتمع الأساقفة مع الأراخنة للتشاور معاً . وانتهت مشاوراتهم إلى اختيار غبريال العرباوى . وتمت رسامته من غير امهال فأصبح الأنبا غبريال السادس البابا الاسكندرى الحادى والتسعين فى ٩ فبراير سنة ١٤٥٨ م ش . وظلت كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة المقر البابوى حيث أقام طيلة مدة رياسته التى سادها الهدوء ولم يعكر صفوها أية ضيقات والتى لم تدم غير ثمانى سنوات وعشرة شهور وستة أيام فدفن هو أيضاً إلى جانب سلفائه المباشرين بدير الخندق . وقد احتفل بجنازته احتفالاً شعبياً فسارت الجماهير خلفه من كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة إلى مقره الأخير وقد ظلت السدة المرقسية شاغرة مدة سنتين وشهر واحد واثنين وعشرين يوماً .

٣٨١ - ثم اجتمع الأساقفة والأراخنة واستقر رأيهم بعد التداول على الراهب ميخائيل السمالوطى الذى لم يذكر المؤرخون فى أى دير ترهب . فأخذوه إلى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة ورسموه البابا الاسكندرى الثانى والتسعين باسم ميخائيل الرابع . على أن باباويته لم تدم غير سنة واحدة وثلاثة أيام . فمر كما يمر السحاب العابر . وبعد الصلوات الجنائزية ذات الروعة الخاصة دفن ببابلون الدرج .

٣٨٢ - وطالت الفترة التى خلا فيها الكرسى المرقسى حتى بلغت سنتين وشهرين وثمانية أيام . وكأنما صحا الأساقفة من سباتهم فسارعوا إلى الاجماع وأرسلوا يدعون الأراخنة الذين لبوا الدعوة لساعتهم إذ أفاقوا هم أيضاً من السبات الذى حل عليهم . ومع ذلك فقد طال التشاور وطال معه

البحث . أخيراً اهتدى الجميع إلى اختيار الراهب يوحنا المحرقاوى ليجلس على الكرسى الرسولى : كرسى مارمرقس البشير ضياء بلادنا المصرية باسم يؤنس الثانى عشر على أن بابويتــه لم تدم غير ثلاث سنين وأربعة أشهر[1] .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) شرحه ٤٧ - ٤٨ .

صلة قديمة

٣٨٣ - وعاد تتابع الأيام والليالى يحتم اجتماع الاساقفة والأراخنة لكى يتداولوا معاً فى ذلك الموضوع الحيوى الذى يقتضيه النظام الكنسى . وهو موضوع التفكير فيمن يكون الراعى الأول . وكانت قد انقضت خمسة شهور وخمسة أيام على نياحة الأنبا يؤنس الثانى عشر . فاجتمع المسئولون في كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة . وفى ظل والدة الإلة ورحابها أجمعوا على انتخاب الراهب يوحنا ابن المصرى المولود فى مدينة صدفا بمديرية أسيوط . ولم يذكر المؤرخون الدير الذى ترهب فيه . وفقد أقيمت شعائر الرسامة المقدسة فى ١٠ فبراير سنة ١٤٧٥ م ش باسم يؤنس الثالث عشر البابا الرابع والتسعين فى حكم الملك قايتباى [١] .

٣٨٤ - ولقد شابه هذا البابا الأنبا متاوس فى حبه المتناهى لتوزيع ما عنده على كل من يسأله : فكانت حسناته تشمل الجميع حتى اليهود . وكان يضع كل ما يأتيه من مال تحت الفروة التى يجلس عليها ومتى تقدم إليه سائل مد يده وأعطاه ما يدخل فيها من غير أن ينظر إليه فكان بعمله هذا لا يبقى على مال عنده اطلاقاً .

كذلك كان الأنبا يؤنس الثالث عشر عالماً بالعلوم الكنسية متضلعاً فيها حتى أنه كتب الكثير من المؤلفات فى طقوس الكنيسة وفى تعاليمها ولو أن هذه الكتب لم تطبع [٢] .

---

(١) له حصن قائم عند مدخل الميناء الشرقية بالاسكندرية - وكانت هى الميناء الوحيدة لذلك الثغر فى أيامه .

(٢) « التواريخ » لابن الراهب ص ٢٤٣ .

٣٨٥ - وكانت هناك علاقة قديمة بين القبط وبين جزيرة قبرص إذ يجب أن لا يغيب عن بالنا أن القديس مرقس كاروزنا الحبيب كان قد حمل البشارة إلى تلك الجزيرة مع برنابا قبل أن يجئ إلينا . إلا أن المعلومات الخاصة بالقبط فى الكتب القبرصية ضئيلة رغم أنه قلما يخلو كتاب من ذكرهم . وليست لدينا أية تفصيلات عن الجالية القبطية التى ظلت في تلك الجزيرة قروناً طويلة والتى لم يعد لها أثر الآن . ويذكر جاكوبوس دى فيرونا (الايطالى) فيما كتبه عن كنائس فاماجوستا (ميناء قبرص) بأن هناك يعاقبه بينهم . ولما اعتلى الأنبا يؤنس الثالث عشر السدة المرقسية ألقى خطاباً بابوياً ضافياً وجهه إلى أساقفته ومن بينهم « أنبا ميخائيل القبرصى المطران على قبرص ثم على رودس » ، وكان هذا المطران مرسوماً بيد البابا الاسكندرى . ومن مخلفات مكتبة دير أبى يحنس مخطوط مذكور فيه بأن الأنبا يؤنس أهدى إلى الأنبا ابرآم الذى رسمه خلفاً للأنبا ميخائيل كتاب الطب الروحانى .

ثم حدث حين غزا الأتراك جزيرة قبرص بعد ذلك بسنوات أن قتلوا عدداً من الكهنة أحدهم المطران القبطى . ويذكر لنا المؤرخ الايطالى ستيفانودى لوزينيانو بأن نيقوسيا عاصمة قبرص تزينها القصور والكنائس اليونانية ... والقبطية ... ، والقبط يشتركون فى المواكب الكنسية التى كانت تنتظم أيام الأعياد السيدية وعيد مارمرقس ، وكنيسة القبط تحمل اسم القديس أنطونيوس ... والقبط ليسوا فى نيقوسيا فقط بل أنهم فى الجبال الواقعة فى شمال الجزيرة ولهم دير باسم الأنبا مكارى الكبير ، ويقع هذا الدير بالقرب من قرية بلاتان الخاصة بالأرض وأغلب الظن أن هذا الدير أصبح فى حيازة الأرمن القاطنين فى تلك المنطقة إذ لا يزال اسمه « سورب ماجار » (أو دير مكارى) ... وحينما تم للترك الاستيلاء على الجزيرة قاموا باحصاء عام وذكروا ضمنه أن القبط بين المجموعات المفروض عليها ضرائب [١] .

---

(١) راجع مقال لبورمستر عن « القبط فى قبرص » (بالانجليزية) نشره فى مجلة الآثار القبطية المجلد السابع سنة ١٩٤١ ص ٩-١٢ .

٣٨٦ - وكانت العلاقة بين مصر والحبشة قد ساءت نتيجة للخصومات التى قامت بين سلاطين مصر وملوك الحبشة . وقد بلغ توتر العلاقة حداً جعل من المتعذر على البابا الاسكندرى أن يرسم مطراناً لأولاده الأحباش . وحدث أن وجد الملك داود الثاني نفسه محتاجاً إلى مطران كما وجد أن البرتغاليين يمرون على بلاده فى تجارتهم مع الهند . فأشار عليه بعض مستشاريه أن يلجأ إليهم طلباً لمطران يسوس الكنيسة . وعلى الرغم من ادراكه بأن البرتغاليين تابعون للكنيسة الكاثوليكية التى تختلف فى عقيدتها عن الكنيسة القبطية إلا أنه انصاع لمشورة رجاله وأرسل إليهم بطلبه . وبالطبع رحبوا هم بهذا الطلب إذ رأوا فيه فرصة للتدخل فى شئون الحبشة . وسارع الحبر الرومانى إلى رسامة مطران كان طبيباً بالجيش اسمه بواز بارموداز . ولم يكتف بهذه الرسامة بل ضاعف اعتداءه بأن أطلق عليه لقب « بطريرك الاسكندرية » [(١)] ومع أن هذا المسلك كان غير لائق كما أنه مخالف لقوانين مجمع نيقية (المجمع المسكونى الأول) إلا أنه لو كان هذا الخضوع حقيقياً فلماذا أطلق الحبر الرومانى لقب « بطريرك الاسكندرية » على صنيعته فى حين أنه يزعم بأنه متسلط على البطريرك الاسكندرى ؟ فلو أن البابا الاسكندرى كان قد خضع له بالفعل لكان قد اعترف بوجوده وبلقبه ولما أطلق لقبه الشرعى على شخص فرضه هو على الحبشة .

٣٨٧ - وفى عهد هذا البابا ذاق المصريون جميعاً شيئاً من السلام لانشغال المماليك بالحروب الخارجية من جهة وبمنافساتهم فيما بينهم وبين بعضهم . وقد أدت هذه المنافسات فى النهاية إلى تولى قانصوه الغورى سلطنة مصر . وكان - بخلاف أقرانه - متزناً عادلاً أحسن معاملة رعاياه . وفى أيام حكمه وصل إلى مصر أميران حبشيان موفدين من قبل داود الثانى ملك الحبشة ومعهما هدايا ثمينة . فأحسن السلطان استقبالهما وأكرمهما كل الاكرام . ثم أعربا له عن رغبتهما فى زيارة الأراضى المقدسة للتبرك بها فسهل لهما سبيل السفر . كذلك جاء إلى مصر فى تلك الفترة زوار من البندقية لاقوا من السلطان كل اكرام هم ايضاً .

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٦٠٦ - ٦٠٢ ، سلسلة ... تاريخ ... جمعه كامل صالح نخلة الحلقة الرابعة ص ٥٢ .

وفى حكم الغورى عاود المصريون تعييدهم بوفاء النيل تعييداً شعبياً واسعاً فكانوا يخرجون فى السفن والزوارق كما كانوا يفعلون كلما أحسوا بشئ من الحرية . كذلك كانوا يخرجون إلى المتنزهات العامة فى مختلف المناسبات . ومن أهم هذه المنازه جزيرة الروضة - حيث المقياس - التى كانت إذ ذاك مليئة بالأزاهير العطرة والخمائل الظليلة ، وبركة الرطلى التى كانت متصلة بالخليج الكبير والتى أقيمت على جانبيها أماكن المرح والطرب.

ومن وسائل الترفيه فى ذلك العصر « خيال الظل » .

كما أن ما تبقى من المنشآت والمرافق عن عصر الغورى يدلنا على أهمية الفنون والصناعات التى ازدهرت إذ ذاك وهى : هندسة البناء وزخرفة المبانى وصناعة الترخيم والخزف والهندسة الزراعية وصناعة السفن والأسلحة . ولقد نال طب العيون عناية خاصة فى ذلك الوقت [١] .

على أن قانصوه رغم عدالته قد ظل مملوكاً فى تصرفاته - اى أنه اتبع سياسة الغدر بمنافسيه - وبكل من تنسم فيهم الرغبة فى النفوذ ... ومع ذلك فلم يفطن تماماً إلى خطر الزحف التركى حين بدأ على ايران لأنه كان هو نفسه خصماً للشاه . فلو أنه نسى خصومته وتحالف مع ايران ضد الترك لتمكن بهذا التحالف من درء خطر الترك الداهم ولكنه ظل قابعاً فى عاصمته ... فانتصر الترك على ايران ثم تحولوا إليه [٢] .

٣٨٨ - ولقد ذكر بعض المؤرخين أن المسيحية انتهت تماماً فى الخمس مدن الغربية فى بابوية الأنبا يؤنس السادس (فى عهد صلاح الدين [٣]) إلا أن ما تبقى من رسائل الأنبا يؤنس الثالث عشر - وفى طرس بركته بالذات الصادر منه فى سنة ١٢٥٠ م ش يبين أن هذه المدن كان لها أسقف فى عهده ، ولو أن هذا الأسقف اضطر إلى مغادرتها حين دخل العثمانيون شمال أفريقيا بعد احتلالهم مصر . وكان اسمه الأسقفى قرياقص . فلما ترك ايبارشيته ورجع إلى مصر استعاد اسمه الرهبانى وهو ساويرس وذهب

---

(١) الأشرف قانصوه الغورى لمحمود رزق سليم ص ١٢ ، ١٤ ، ٢٢ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بول ص ٥٣ .

(٣) راجع ف ١٧٥ من هذا الجزء .

إلى دير السيدة العذراء الشهير بالسريان حيث قضى بقية حياته . وقد انشغل في هذه الفترة بوضع الكتب الكنسية التى مازالت موجودة في مكتبة ذلك الدير [1] .

ولقد كانت بهذه المدن عدة أيبارشـيات - المعروف منها للآن عشرة هى :

١ - أفريقية ، ٢ - برقـة ، ٣ - برنيقـة ، ٤ - طرابلس الغـرب ،
٥ - تونـس ، ٦ - درنـة ، ٧ - قابـس ، ٨ - قرينى (قيروان؟)
٩ - ليبيا ، ١٠ - مراقبة [2] .

٣٨٩ - حدث أن هاجم الترك المصريين فى مرج دابق فواجههم السلطان قانصوه ولكنه خر صريعاً فى تلك المعركة . ورغم الخطر الداهم من هؤلاء المغيرين فإن المماليك ظلوا على تنابذهم بل لقد قامت بينهم الدسائس ضد طومانباى ابن اخى قانصوه وغدروا به بأن انضموا إلى الأتراك . وحين انتصر السلطان سليم الأول التركى ودخل مصر أمن طومانباى وقربه إليه لشجاعته ولكن دسائس خصومه وحساده من المماليك جعلتهم يوغرون صدر السلطان التركى إلى حد أنه أمر بشنقه . وبنهاية طومانباى انتهت دولة المماليك وحلت محلها الدولة العثمانية ولو أن من بقى من المماليك ظل فترة من الزمن يناوش الحاكم المفروض على مصر من سلطان تركيا . ومع أن المصريين جميعاً عاشوا فى خطر وقلق أثناء تقاتل المماليك والترك إلا أنهم عاشوا فيما بينهم وبين بعضهم فى سلام : المسلمين والقبط معاً .

٣٩٠ - ولقد دامت بابوية الأنبا يونس الثالث عشراً أربعين سنة جاهد خلالها الجهاد الحسن : فجدد عمارة الكثير من الكنائس والأديرة إلى جانب ما وضعه من الكتب الخاصة بتعاليم الكنيسة وطقوسها . ثم تنيح بسلام وأقيمت الصلوات الجنائزية عليه فى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة حيث دفن أيضاً [3] .

---

(١) سلسلة تاريخ ... الحلقة الرابعة لكامل صالح نخلة ص ٥٩ - ٦٠ .
(٢) عن مقال لكامل صالح نخلة خاص بايبارشية المدن الخمس نشره فى مجلة جمعية التوفيق العدد الصادر فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٨ ص ١٠ .
(٣) سلسلة تاريخ ... ص ٥١ - ٥٥ .



صورة تمثل مقابلة السلطان الغوري لسفراء البندقية وعلى رأسهم
دومينيكو تريفيزانو من عمل أحد مصوري البندقية في بداية القرن
السادس عشر (بمتحف اللوفر)

ولقد ساند الأنبا ميخائيل الرابع أسقف القيس باباه فى جهوده البناءة إذ قد سعى جهده لجعل مكانة الكنيسة فى مستوى عال وخدم شعبه بتفان واخلاص [١] .

٣٩١ – وحدث فى تلك الأيام حادث موجع أضاع على الانسانية الشئ الكثير من تراثها الروحى . وهذا الحادث هو أن بعض القبائل العربية المقيمة فى الوجه القبلى قامت بحملة شعواء على ديرى الأنبا أنطونى والأنبا بولا وتمكنوا من اقتحام الديرين فقتلوا كل من فيهما من الرهبان دون توقير لسن ولا لقداسة وقد ظل الديران خربين زهاء ثمانين عاماً . وخلال هذه السنوات عاش المغيرون داخلهما وكانوا إذا ما أرادوا الطهى أو الاستدفاء أوقدوا النار في المخطوطات التى كانت محفوظة بمكتبتى الديرين . وهكذا أضاعوا الشئ الكثير مما كتبه الآباء ولن يمكن تعويضه ، وقد غطى الدخان المتصاعد من هذه النار جدران الكنيسة وغشى الأيقونات المرسومة عليها . إلا أن العلم الحديث جاء فى هذا القرن وأزال الغشاء الذى أحدثه الدخان فأعاد الأيقونات إلى سابق رونقها – بعكس الكتب التى احترقت وضاعت نهائياً [٢] .

٣٩٢ – ولما كان حكم المماليك مليئاً بالضيقات والاضطهاد فقد زخر بفئتين من القبط : فئة المتمسكين بعقيدتهم الراضين بكل ما يترتب عليه هذا التمسك من تعذيب وتنكيل ، وفئة الجاحدين الذين غرهم مجد العالم أو أزعجهم الاضطهاد . ومع أنه ليس من شك فى أن الشهداء كانوا كثيرين إلا أن الأسماء التى وصلتنا من مجموعاتهم قليلة . وفى هذه الفترة لا نجد غير اسم قديس عرف أن يصمد فى وجه الآلام اسمه صليب .

ولد هذا القديس فى بلدة هور (بالقرب من ملوى) وكان أبواه خائفى الله فربياه التربية الروحية الحقة وعرفا كيف يجعلان العقيدة تترسخ فى أعماقه فلا يرضى بها بديلاً . ولما بلغ سن الشباب اختارا له زوجة من

---

(١) عن مقال للقمص ميصائيل خاص باقليم المنيا فى العصر القبطى السنة الرابعة العدد الثاني (فبراير سنة ١٩٦٢) ص ٣٨ .

(٢) سلسلة تاريخ ..... ص ٦٨ .

أقاربهما حسب العادة الشائعة . وبالفعل تمت الشعائر الدينية للاكليل . إلا أن صليبا عاش مع زوجته فى تبتل تام يظللهما ملاك الرب . وبعد فترة ترك بيته وأخذ يتجول فى البرارى والقفار ويتنقل بين الأديرة ويزور الكنائس مستمتعاً بعشرة النساك والقديسين . فذهب أبواه وراءه وقيداه بالحديد ليرجعا به إلى بيته . وكم كانت دهشتهما عظيمة حين رأيا السلاسل تسقط من ذاتها عن يديه ورجليه . فأدركا أن قوة السيد المسيح الحالة فيه هى التى فكت هذه السلاسل وتركاه يحيا الحياة القدسية التى يريدها وهكذا عاش فى أصوام وصلوات مستمرة وفى تقشف وتعبد بلا انقطاع . وكان دائم الاستشفاع بالسيدة والدة الإله . وكان يطلب إليها أن تهئ له سبيل الاستشهاد . فظهرت له فى حلم ذات ليلة وأعلمته بأن رجاءه قد أجيب وأن رئيس الملائكة ميخائيل سيقوم بحراسته إلى أن ينال اكليل الشهادة . وتضاعفت قواه الروحية بهذا الاستعلان السماوى وظل يتنقل من مكان إلى آخر ولم يقصر تجواله على الصحارى بل امتد منها إلى البلاد الآهلة بالسكان . وخلال تجوله بين الناس كان يعلن إيمانه جهاراً . فغضب عليه حاكم الصعيد واستدعاه وأخذ يستجوبه . فجهر بإيمانه أمامه . وعندها أمر الحكام بضربه والهزء به فانهال عليه الجند ضرباً وتعييراً . ولكنه ظل ثابتاً محتملاً كل شئ فى صبر وصمت . وازداد غضب الحاكم بإزاء سكوته فأمر بتقييده بالسلاسل ورجمه ولكن القيود والرجم لم تصبه بأذى لأن رئيس الملائكة كان يحرسه كما قالت له السيدة العذراء . فرموا به فى السجن . وكان يقضى ليله فى الصلاة فيرى أثناء صلواته السيدة والدة الإله تبدو أمامه فى نور يفوق نور الشمس ويسمعها تقول له فى حنان : اصبر يا صليب لأنك ستنال اكليل الشهادة على اسم ابنى الحبيب » . وحين سمع المسجونون من صليب عن هذه الرؤيا استولى عليهم الجزع واقترحوا الهرب ولكنه هدأ من روعهم وأبلغهم بأنه لن يصيبهم أى أذى .

ومرت أيام على هذا النمط والقديس صليب صامد . فحكم القاضى بارساله إلى القاهرة مقيداً بالسلاسل تحت حراسة الشرطة . وسمعت أمه وأخواته فركبن المركب التى أركبوه إياها وأخذن يبكين عند رؤيته . ولكن حين عرفن عزمه وأصراره ودعنه فى هدوء وسكينة وقلن له : « سلام لك .

ونرجو أن تذكرنا عند المسـيح إلهنا . وليكن الرب معك . وليشددك . ولتشملك معونة السـيدة العذراء إلى أن تكمل سعيك » ثم تركته ورجعن إلى البيت .

وأقلعت المركب ، وكانت الرحلة شاقة لأن الجنود المكلفين بحراسته لم يكتفوا بتقييده بل استمروا يوسعونه ضرباً وسخرية . على أن أم الرحمة كانت تشرق عليه كل ليلة وتملأ قلبه عزاء كما كان الملاك ميخائيل ملازماً له . فلما وصلوا إلى القاهرة أخذه الجنود إلى جماعة من القبط وطالبوهم بأن يدفعوا له أجرة سفره لأن القديس لم تكن معه أية نقود . ولما عرف هؤلاء القبط بكل ما جرى له دفعوا الأجرة بسرور ثم قدموا إليه طعاماً ليأكل ووقفوا يخدمونه ويقدمون له كل ما يمكنهم من خدمته . فامتلأت نفسه راحة وقال لهم : « لقد تعبتم معى وأرحتم نفسى فأسأل المسيح ربنا أن يعوض تعبكم فى ملكوته الأبدى كما يقضى لكم حاجاتكم فى هذه الدنيا الفانية » .

وبعد ذلك أخذه قائد حرسه لزيارة شقيقته التى كانت ذات إيمان وطيد ولكن حنانها غلبها فأخذت تبكى . فودعها القديس فى صمت تام دون أن يتفوه بكلمة . ثم سار به القائد إلى حاكم القاهرة الذى أخذ يسأله عن إيمانه وعما قال أمام حاكم الصعيد . فامتلأ القديس نعمة واعترف الاعتراف الحسن معلناً فى جسارة إيمانه بالمسيح الذى تجسد ليخلص الناس . وفى صباح اليوم التالى سار به الحاكم إلى السلطان الذى كان جالساً وسط مجموعة من قواده وجنوده ورجال بلاطه ولكن القديس لم يرهب مجلسهم ولم يتردد فى اعلان إيمانه رغم تهديده بالتعذيب . قال له السلطان : « اصغ إلى نصحى . اترك دين آبائك وأنا أسامحك » فأجابه : « أنى أومن بالمسيح ربى وإلهى وأعلن إيمانى به جهاراً » فأرسله السلطان إلى قضاة المسلمين الأربعة ليروا رأيهم فيه فلما سمعوا اعترافه الذى أصر على اعلانه كما أعلنه أمام الولاة وأمام السلطان نفسه حكموا باعدامه بعد التشهير به ووكلوا أمر تنفيذ الحكم إلى أمير من المماليك . فأمر هذا الأمير باحضار جمل . ثم صلبوا القديس على صليب من خشب وربطوه على ظهر الجمل وأخذوا يطوفون به فى شوارع القاهرة وهم ينادون على المارة بذنبه . وكان

صليب خلال هذا كله متهلل الوجه صامتاً هادئاً . بل أن نعمة الله أضاءت على وجهه فانعكس ضوءها العجيب من وجهه على كل من رآه . وملأه هذا النور سلاماً مما جعل القبط الذين رأوه يمتلئون فرحاً وسلاماً هم أيضاً.

ولما وصلوا إلى ساحة الاعدام كان السياف واقفاً يحمل فى يده سيفاً مسلولاً ولكن شكله ووقفته لم يحركا للقديس ساكناً فظل على هدوئه . وكان هناك قاض واقفاً علـى مقربة من السياف فسأله إن كان مستعداً لأن ينجـو من الموت بأن ينـكر المسيح علانيـة فأجابه فى هدوء على الفور : « لقد عشت نصرانياً وأموت نصرانياً » فأمر القاضى السياف بأن يقتله . فاستل السيف وقطع به رأسه فى الساعة السادسة من يوم الاثنين المبارك الموافـق الثالث من كيهك سنة ١٢٢٩ ش . فنال اكليل الشهادة الذى اشتهاه . وكان يوم استشهاده فى عيد تذكار دخول السيدة العذراء إلى الهيكل بركة صلاته فلتكن معنا . آمين [١] .

٣٩٣ - لمحة عن عصر المماليك : إن عصر المماليك سواء منهم البحرية أو البرجية - هو من أعجب الأحداث فى تاريخ مصر المليء بالعجب . فقد جمع بين المتناقضات جمعاً غاية فى الغرابة . ففيه انهزم الصليبيون إلى غير رجعة . وفيه انهزم المغول تماماً . وامتد سلطان مصر من شمال سوريا إلى جزيرة قبرص إلـى الحجاز . وخطب الملوك - حتى الأوربيون منهم ودها . وفيه أيضاً رصـدت الأوقاف على وجـوه البر والاحسان ونالت العلوم والفنون حظاً وافراً من التشجيع ، وشيدت الجوامع الرائعة التى مازال منها يبهر الناظرين « بل لقد كانت هناك مشاتل تباع فيها الأشجار والزهور والرياحين يشتريها الناس داخل أصص فخارية ويزرعونها فى حدائقهم الخاصة أو على أسطح منازلهم ، أما الطنافس (السجاجيد الفاخرة) فكانت تحفاً فنية رائعة : تسحر رؤيتها العيون ويريح ملمسها النفوس بل يثير الفكر والتأمل . ولا تزال هذه الطنافس واضحة فى صور الفنانين الأوربيين إذ رسموها فوق العروش أو منشورة مـن النوافذ والشرفات أو مبسوطة فوق الموائد والمذابح الكنسية » إلا أنه على الرغم من

---

(١) سلسلة ... ص ٥٥ - ٥٩ .

هذا الملك الممتد وهذا البذخ الواضح فقد عانى المصريون ألواناً من العسف والجور . فقد تعالى عليهم المماليك واحتقروهم وأذلوهم وفرضوا عليهم الضرائب الفادحة وملأوا حياتهم قلقاً واضطراباً لكثرة الفتن الداخلية . أما القبط فبالاضافة إلى ما أصاب إخوتهم المسلمين قد وقع عليهم من العذاب ألوان متباينة فلم يكن لشخص منهم حرمة حتى الباباوات لم يكونوا فى مأمن من أذاهم . فبطشوا بالأشخاص وخربوا كل ما امتدت إليه أياديهم من كنائس وأديرة [1] .

٣٩٤ - ونذكر هنا أهم الأديرة والكنائس التى تهدمت فى هذه الحقبة : **دير القصير** - قال أبو الحسن على بن محمد الشابشتى فى كتاب الديارات « وهذا الدير فى أعلى الجبل على سطح فى قلته وهو دير حسن البناء محكم الصنعة نزه البقعة وفيه رهبان مقيمون به وله بئر منقورة فى الحجر . وفى هيكله صورة مريم عليها السلام فى لوح والناس يقصدون الموضع للنظر إلى هذه الصورة . وفى أعلاه غرفة بناها أبو الجيش خمارويه لها أربع طاقات إلى أربع جهات . وكان كثير الغشيان لهذا الدير معجباً بالصورة التى فيه ... وإلى جانبه صومعة لا تخلو من حبيس يكون فيها ، وهو مطل على الصحراء والبحر ... وهو أحد الديارات المقصودة والمتنزهات المطروقة » ، **دير مارحنا** - قال الشابشتى - هذا الدير على شاطئ بركة الحبش وهو قريب من النيل وإلى جانبه بساتين أنشأ بعضها المعز . ومجلس على عمد حسن البناء مليح الصنعة مسور ... وبقرب الدير بئر تعرف ببئر مماتى عليها جميزة كبيرة ، **دير مغارة شقلقيل** - لطيف معلق على الجبل ونقر فى الحجر ولا يتوصل إليه من أعلاه ولا من أسفله ولا سلم له . وإنما جعلت له نقور فى الجبل فإذا أراد أحد أن يصعد إليه أرخيت له سلبة فأمسكها بيده وجعل رجليه فى تلك النقور وصعد . وبه طاحونة يديرها حمار واحد . ويطل هذا الدير على النيل تجاه منفلوط وتجاه أم القصور . وتجاهه جزيرة يحيط بها الماء وهى التى يقال لها شقلقيل ... ولهذا الدير عيد يجتمع فيه النصارى وهو على اسم بومينا ؛ **دير بقطر** - بحاجر أبنوب من بنى مر تحت الجبل ، وهو دير كبير جداً وله عيد يجتمع فيه النصارى شرقاً وغرباً ويحضره الأسقف ،

---

(١) الخطط للمقريزى ص ٥٠٢ - ٥٠٤ - ٥٠٦ - ٥٠٧ .

دير أبى هرمينة بحر فاو وبحرية برياً فاو وهو مملوء كتباً وحكماً ... وأبو هرمينة هذا من قدماء الرهبان المشهورين ، **دير السبعة جبال بأخميم** - هذا الدير داخل سبعة أودية وهو دير عال بين جبال شامخة لا تشرق عليه الشمس إلا بعد ساعتين من الشروق لعلو الجبل الذى هو فى لحفه ... وعلى هذا الدير من خارجه عين ماء تظللها صفصافة ، **دير أبى بشادة الأسقف** - بالحاجر وتجاهه في الغرب منشاة أخميم . وأبو بشادة من علماء النصارى ، **دير نهيا** - قال الشابشتى : « ونهيا بالجيزة وديرها من أحسن ديارات مصر وأنزهها وأطيبها موضعاً وأجلها موقعاً . عامر برهبانه وسكانه و له فى أيام فيضان النيل منظر عجيب لأن الماء يحيط به من جميع جهاته . فإذا انصرف الماء وزرعت الأرض أظهرت أراضيه غرائب النواوير وله خليـج يجتمـع فيه سـائر الطير فهو أيضاً متصيد ممتع ... وقد خرب هذا الدير ؛ **دير ايسوس** - وله فى خامس عشرى بشنس عيد فإذا كانت ليلة هذا العيد سرت فيه بئر تعرف ببئر ايسوس . وقد اجتمع الناس إلى الساعة السادسة من النهار ثم كشفوا عن البئر فإذا بها قد فاض ماؤها ثم ينزل فحيث وصل الماء قاسوا منه إلى موضع استقر فيه الماء فما بلغ كانت زيادة النيل فى تلك السنة من الأذرع ؛ **دير يحنس القصير** - على رأس الجبل الذى غربى أسيوط على شاطئ النيل وله عدة أعياد ؛ **أديـرة ادرنكه** - اعلم ان ناحية ادرنكه هـى من قـرى النصارى الصعايدة . ونصاراها أهل علم فى دينهم وتفاسيرهم فى اللسان القبطى . ولهم أديـرة كثيرة فـى خارج البلد مـن قبليها مع الجبل وقد خـرب أكثرها .... وأديرة ادرنكه المذكورة قريب بعضها من بعض وبينها مغاير عديدة منقوش على ألواح فيها نقوشات مـن كتابة القدماء كما على البرابى وهى مزخرفة بعدة أصباغ ملونة تشتمل على علوم شتى ... ويقال إنه كان فى الحاجر ثلثمائة وستون ديراً وأن المسافر كان لا يزال من البدرشين إلى أصفون فى ظل البساتين وقد خرب ذلك وباد أهله ؛ دير موشة - خارج أسيوط من قبليها بنى على اسم توما الرسول الهندى . وهو بين الغيطان وفى أيام النيل لا يوصل إليه إلا بالمركب . والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطى الصعيدى . ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية ولهم أيضاً معرفة تامة باللغة

الرومية [1] .

كنيسة بومينا بالحمراء . ولم تزل هذه الكنيسة إلى أن كانت واقعة هدم الكنائس ، **كنيسة الالزهرى** - كان بها كثير من النصارى لا يزالون فيها وبجانبها عدة كنائيس ... أخذ الفعلة فى الحفر حول الكنيسة حتى بقيت قائمة فى وسط الموضع الذى عينه السلطان ليحفر وزاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة وكان القصد من ذلك أن تسقط الكنيسة من غير قصد لخرابها . وصارت العامة من غلمان الأمراء العاملين في الحفر وغيرهم فى كل وقت يصرخون على الأمراء فى طلب هدمها وهم يتغافلون عنهم إلى أن كان يوم الجمعة (٩ ربيع الآخر سنة ٧٢١ هـ) وقت الصلاة والعمل من الحفر بطال فتجمع عدة من غوغاء العامة بغير مرسوم السلطان وقالوا بصوت عال الله أكبر ... وهدموها حتى بقيت كوماً وقتلوا من كان فيها من النصارى وأخذوا جميع ما كان فيها ... وتسلق العامة إلى أعلاها وفتحوا أبوابها وأخذوا منها مالاً وقماشاً وجرار خمر . فكان أمراً مهولاً ثم مضوا إلى كنيستين بجوار السبع سقايات تعرف إحداهما بكنيسة البنات كان يسكنها بنات النصارى ... فكسروا أبواب الكنيستين وسبوا البنات ... وحرقوا وهدموا تلك الكنائس كلها ، **كنيسة بدير الخندق** ... وكانت هذه الخطوب الجليلة فى مدة يسيرة قلما يقع مثلها فى الأزمان المتطاولة .

كنيسة أبسوطير - ومعناها المخلص - بمدينة أخميم وهى كنيسة معظمة عندهم وهى على اسم الشهداء . وفيها بئر إذا جعل ماؤه فى القنديل صار أحمر قانياً كأنه الدم ؛ **كنيسة بناحية أشنين** - وكان بهذه الناحية مئة وستون كنيسة خربت كلها إلا أربع كنائس . وأكثر أهل اشنين نصارى وعليهم الدرك فى الحقارة ، وبناحية ريفة **كنيسة بوقلته** الطبيب الراهب صاحب الأحوال العجيبة فى مداواة الرمدى من الناس وله عيد يعمل بهذه الكنيسة ، وبناحية بوتيج كنائس كثيرة قد خربت وصار النصارى يصلون فى بيت لهم سراً ... [2] .

---

(١) الخطط للمقريزى ص ٥٠٢ - ٥٠٤ - ٥٠٦ - ٥٠٧ .

(٢) الخطط للمقريزى ص ٥١٢ ، ٥١٧ - ٥١٨ .

أسبوع البسخة [1]

إن هذا الأسبوع يوصف بكلمة « أسبوع الآلام » ويبدأ بأحد الشعانين وينتهى بعيد القيامة المجيدة . وهو أقدس أسبوع فى السنة اطلاقاً فى نظر آباء الكنيسة القبطية . وأول يوم منه هو أحد الشعانين أو أحد السعف ، فيه تذكر الكنيسة دخول السيد المسيح له المجد إلى أورشليم وخروج الجماهير لاستقباله بأغصان الزيتون وسعف النخل وهم يهتفون : « أوصنا لابن داود ... مبارك الآتى باسم الرب » [2] وبما أن هذه الذكرى - رغم ما فيها من فرح وبهجة - هى المدخل إلى أسبوع البسخة أو أسبوع الآلام فإن التقليد الكنسى الذي تسلمه الآباء جيلاً بعد جيل يقضى بأن تتركز كل صلوات هذا الأسبوع الممتلىء رهبة على آلام الفادي وحده . ولما كان لابد أن ينتقل بعض الناس خلاله من هذا العالم إلى الدار الباقية رسم الآباء اقامة تجنيز عام عقب الانتهاء من صلوات أحد الشعانين. هذا التجنيز العام يتضمن الصلوات التى تقال على الموتى قبيل دفنهم فيقال وقتذاك استرحاماً على جميع من قد تنتهى أيامهم على هذه الأرض قبل عيد القيامة المجيدة . وتختم هذه الصلوات بلحن « يا ملك السلام » يقال بالنغمة الحزينة .ثم يعطى الكاهن البركة ويصرف الشعب بسلام .

وتبدأ صلوات البسخة مساء الأحد - أى فى ليلة الاثنين ، وتتضمن « خمس ساعات » هى صلوات الساعات الأولى والثالثة والسادسة والتاسعة والحادية عشر . وتتضمن كل ساعة قراءة من النبوات الخاصة بآلام رب المجد عليها تسبحة الأربعة والعشرين قسيساً المحيطين بعرش الحمل فأجزاء مختارة من المزامير فالانجيل الخاص بالساعة . أما التسبحة فهى مأخوذة من سفر الرؤيا وكلماتها هى « لك القوة والمجد والعزة والبركة الى

---

(١) كلمة يونانية معناها الفصح لأن المسيح له المجد هو حمل الله الذى يحمل خطايا العالم . وخروف الفصح أو خروف الفدية لدى اليهود كان رمزاً للفداء العجيب الذى حققه المسيح له المجد لجميع الناس على مدى الأجيال بآلامه وصلبه .

(٢) يو ١٢ : ١٢ - ١٩ .

الأبد آمين ياعمانوئيل إلهنا وملكنا ، لك القوة والمجد والعزة والبركة الى الأبد آمين ياربنا يسوع المسيح (تضاف إليها كلمة « مخلصنا الصالح » من ليلة الأربعاء)،لك القوة والمجد والعزة والبركة الى الأبد آمين »[1]. ولكل ساعة طرح هو عبارة عن تعليقات الآباء على انجيل الساعة[2] وبعد الانتهاء من الطروحات يتلو الكاهن الطلبة[3] . وتنتهى كل فقرة منها بكلمة « نسألك يارب اسمعنا وارحمنا » فيجيب الشعب « يارب ارحم » والتسبحة والمزمور والانجيل القبطى ومرد الطرح والطلبة - جميعها- تقال بألحان خاصة بهذا الاسبوع المقدس الذى يفيض بذكريات محبة الله وحنانه وعطفه على الانسان الذى خلقه .

وصلوات البصخة تقال خارج الهيكل[4] أيام الاثنين والثلاثاء

(١) تقال هذه التسبحة قبطياً وعربياً وينشدها نصف الشمامسة أولا ثم النصف الثانى وتقولها كل مجموعة ست مرات بالتناوب مرة بعد مرة . والمرات العشرة الأولى (خمس ثم خمس) تقال بالقبطى والمرة الحادية عشرة تقال بالقبطى ولكن أكثر مد فى المقاطع بينما تقال المرة الثانية عشرة بالعربى .

(٢) كتاب طروحات البسخة المقدسة للقمص فيلوثاوس المقارى والمعلم ميخائيل جرجس (القاهرة سنة ١٩١٤) فمثلا فى طرح عشيةأحد الشعانبين يقرأ الجزء الخاص بدخول السيد المسيح له المجد إلى أورشليم الذى ينتهى بكلمات « قولوا لابنة صهيون هوذا ملكك يأتيك راكباً على أتان وجحش ابن أتان » ويلى هذه الآيات التعليق التالى : « فيا لعظم هذه الأعجوبة الجالس على الشاروبيم ركب على جحش ابن اتان ؟ التدبير . هو جالس على الأرض لم يترك عنه السماوات جالس فى حضن ابيه حاضر فى أورشليم ...» .

(٣) هناك طلبتان : احداهما للصباح وأخرى للمساء . وكلتاهما صورة رائعة لعمق المحبة التى ملأت قلوب الآباء الذين كتبوها - لأن كلا منهما تشمل صلوات من أجل المخلوقات المختلفة مع الضراعة إلى الله بأن يتراءف عليها ويعينها ويسد احتياجاتها .

(٤) وذلك لأن ذبيحة الخطية كانت تذبح خارج المحلة (أو خارج الهيكل) أنظر عدد ١٩ : ١ - ٥ وقارنه بما قاله بولس فى عبرانيين ١٣ : ١٠ - ١٣ .

والأربعـاء صباحاً ومساء والصباح خمس ساعات[1] ومثلها للمساء . أما الخميس فاسمه خميس العهد لأن فيـه شاء المسيح له المجد أن يعطى تلاميذه ومنهم إلي جميع المؤمنين باسمه عهده الجديد وهو منحه جسده المقدس ودمه الكريم لهم ليأكلوه ويشربوه ويعيشوا به فيرتبطوا بفاديهم ارتباط الأغصان بالكرمة أو ارتباط الأعضاء بالجسد فتسرى حياته فيهم . وبما أنه له المجد قد غسل أرجل تلاميذه فـى ذلك اليوم الحاسم فإن هناك صلوات خاصـة بتقديس المـاء تقال بعد الصلوات الصباحية الخمسـة وتعرف « بطقس اللقان » ، وعند الانتهاء من شعائر اللقان يغسل الكاهن أرجل الكهنة فالشمامسة فالشعب على مثال ما صنعه الرب مع تلاميذه . وبعد الانتهاء من غسل الأرجل يزاح ستار الهيكل لتأدية شعائر قداس خميس العهد [2] . وفى هذا القداس لا تقال صلاة الصلح التى هى بداية طقس القداس عادة علامة على أن الصلح الحقيقي لم يتم إلا بصليب المسيح فى يوم الجمعه العظيمة . كما أن القبلة التى تختم بها صلاة الصلح ممنوعة بسبب القبلة الغاشة التى باع بها يهوذا سيده . كذلك لا يقال المجمع ولا الترحيم لأن الكنيسة وهى منشغلة بالتأمل فى موت الرب لا مجال أمامها لتذكار أحد من الراقدين – وقد سبق لها ان صلت عليهم بعد قداس أحد الشعانين . أما فى أثناء التناول فلا يقال المزمور المئة والخمسون « سبحوا الرب » كما هى العادة بل تقال صلاة الساعة الحادية عشرة . فيسدل ستار الهيكل من جديد ويركز المتناولون انتباههم على السر العجيب المزمعون أن يتناولوه بينما تقال الصلاة للمؤمنين الذين لن يتناولوا من الأسرار المقدسة يومذاك . وتختتم هذه الشعائر العظمى بالطرح ولحن ملك السلام فالبركة .

---

(١) هذه ساعات الصلوات اليومية وهى تختلف عن الساعات الزمنية فى أن الفجر يبدأ فى الساعة الأولى فتكون الساعة السادسة هى منتصف النهار (أو الثانية عشر ظهراً تبعاً للتوقيت الزمنى) .

(٢) هذا القداس هو الشعائر الوحيدة التى تقام داخل الهيكل خلال هذا الاسبوع المقدس لأن صـلواته خاصة بالذبيحـة اللادمـوية التى تعيـد إلى قلوبنـا وأرواحنـا ذبيحـة رب المجـد على الصليب حين قدم ذاته طوعاً وبارادته ليفتدينا من عبودية الموت .

وفى المساء - أى فى ليلة الجمعة العظيمة - تقرأ الساعات الخمس كالمعتاد وبعدها يسمع الشعب وصية فاديه كما سجلها له يوحنا الحبيب فى الأصحاحات الرابع عشر إلى آخر السابع عشر وفيها يهب الرب سلامه لتلاميذه ولكل المؤمنين باسمه من بعدهم ، ويصلى من أجل الذين سيؤمنون باسمه على مدى الأجيال : إنها كلمات العزاء والنعمة الروحية التى يستهدف منها رب المجد فيض السكينة على قلوبهم وبعد أن يصغى المؤمنون لهذه الكلمات المعزية تقال الطلبة المسائية يتبعها لحن ملك السلام فالبركة .

ثم يأتى يوم الجمعة ذروة ذلك الاسبوع الرائع - ولذلك تسمى بمختلف الأسماء : فهو يوم الجمعة العظيمة أو الجمعة الكبيرة أو الجمعة الحزينة . ولقدسية هذا اليوم تستمر فيه الصلوات من الصباح الباكر إلى السادسة مساء أو ما إلى بعدها . وفى هذا اليوم استهدف الآباء تصوير آلام السيد المسيح تصويراً حقيقياً واقعياً . فكل ساعة من ساعات الصلوات تتضمن ما جاء فى أسفار العهد القديم من رموز ونبؤات خاصة بالفداء ثم تحقيق هذه الرموز وهذه النبوءات فيما حدث للمخلص من تشاور عليه فالقبض عليه غدراً فسوقه من محكمة الى محكمة فوقوفه تارة أمام رؤساء الكهنة وطوراً أمام الوالي الرومانى ثم امام الملك اليهودى ، وما ناله من ضرب واهانة وتعذيب إلى ان علقوه على الصليب . وحين سمروه على خشبة اللعنة ورفعوها فوق الجلجثة لم يكن هناك جزء من جسمه من غير جرح يقطر دماء : من رأسه القدسى المكلل بالشوك إلى قدميه الكريمتين المثقوبتين بالمسامير . هذه الآلام المريرة تصورها الصلوات الكنسية ساعة بساعة . وتختتم كل ساعة بالطلبة (الصباحية والمسائية) التى يردد خلالها الشعب « يارب ارحم » ، يتبعها لحن ملك السلام فالبركة .

ويدخل ضمن ذكريات هذا اليوم المقدس اعتراف اللص المصلوب عن يمين الفادى الحبيب ولهذا يقال هذا الاعتراف بعد[1] ميمر الساعة السادسة فيتلو الكاهن (أو رئيس الشمامسة) الفقرة يردد الشعب كله بعدها «أمانة اللص»

---

(١) ميمر كلمة سريانية معناها تذكار .

بقوله : « اذكرنى يارب إذا جئت فى ملكوتك . اذكرنى يا قدوس إذا جئت فى ملكوتك . اذكرنى يا سيد إذا جئت فى ملكوتك » .

وصلوات يوم الجمعة العظيمة تتضمن أيضاً الساعة الثانية عشر . وفى ختام هذه الساعة تقال « يا رب أرحم » أربعمائة مرة . وتنبيهاً للشعب الى أهمية هذا الاستغفار يهيب الشمامسة بالشعب قائلين : « أيها الأخوة : لقد رسم الآباء البررة للكنيسة المصرية المقدسة أن تقيم نفسها يوم جمعة الصلبوت الكريم مقام العالم بأسره وتمثل المسكونة وهى تصرخ من أقطارها الأربعة مستمطرة رحمات مخلصها الصالح وخلاقها العظيم الذى فى مثل هذا اليوم الرهيب سحق بقدرة صليبه أبواب الجحيم ووطئ بسلطان موته شوكة الموت . واذ لم تكن هذه الكنيسة شيئاً آخر سواكم أنتم معاشر المصريين المؤمنين بالرب يسوع كان حقاً عليكم تقديس ذلك المرسوم الأبوى الكريم . فترسموا ما رسم لكم الآباء الأطهار واسترحموا الرب متجهين نحو الشرق « كيرياليسون » (مئة مرة) ونحو الغرب (مئة مرة) ونحو الشمال (مئة مرة)ونحو الجنوب (مئة مرة) [1] . وبعد هذا الاسترحام يدور الشمامسة حول المذبح - داخل الهيكل - وهم ينشدون « كيرياليسون » ثم لحن الدفن . والشمامسة فى دورتهم يتقدمون الكاهن الممسك بالمبخرة وهو يبخر أمام الصليب وأيقونة المسيح الراقد فى القبر [2] ويحمل كل منها شماس متجهاً بوجهه نحو الأب الكاهن ومواليا ظهره لاخوته السائرين فى موكب الدفن وهكذا تنتهى صلوات الجمعة العظيمة بايداع جسد رب المجد فى القبر (ممثل فى أيقونته التى يلفها الكاهن بقطعة من الكتان الأبيض واضعاً الصليب فوقها وحوله الورود والعطور) .

على أن آباء الكنيسة القبطية رأوا بارشاد الروح القدس أن يسهروا إلى جانب مخلصهم المدفون فرتبوا صلوات أطلقوا عليها اسم « ليلة

---

(١) عن كتاب « مختارات من أحد الشعانين للقيامة » لشمامسة كنيسة الرسولين بطرس وبولس (البطرسية) صدر فى أبريل سنة ١٩٧١ ص ١٨ .

(٢) الكنيسة المصرية أو القبطية (بالانجليزية) لبورمستر ص ٢٨٦ - ٢٨٧ . راجع أيضاً الفصل الخاص بأسبوع الآلام من الكتاب عينه ص ٢٧٤ - ٣٠٢ .

أبو غالمسيس [(١)] » تقال أبتداء من حوالى منتصف ليلة سبت النور وتنتهى حوالى السابعة والنصف من صباح ذلك اليوم الذى وصفوه بالنور [(٢)] . وهذه التسمية مع الصلوات المرتبة توضح لنا مدى تفهم الآباء لملكوت المسيح . فهو - له المجد - قد جاز الآلام والاهانات التى لا يمكن أن يصفها لسان . والآباء أوضحوا لنا عجز الانسان عن التعبير بقولهم إن الشمس حين أخفت نورها فى منتصف النهار إنما اختفت خجلاً إذ لم تستطع أن ترى خالقها فى العار الذى يجوزه . وبعد كل ما ذاق من اهانات وتنكيل استودع روحه يدى أبيه . فمات وحمل جسده المجرح النفر القليل من الاحياء الذين وقفوا إلى جانبه حتى النهاية إلى القبر . وخلال الساعات التالية لدفنه حتى مطلع شمس صباح السبت وضع الآباء صلوات يترنمون بها أثناء سهرهم بجوار فاديهم الحبيب الراقد داخل القبر . وتتضمن هذه الصلوات أربع عشرة تسبحة وردت فى العهدين القديم والجديد [(٣)] تليها تمجيد

(١) هذه الكلمة تحريف لكلمة أبو كاليسيس اليونانية ومعناها الرؤية أو الاستعلان وذلك لأن سفر الرؤيا يقرأ كله فى تلك الليلة وفى أثناءها يقدس زيت المسحة وهو لذلك يوصف « بزيت أبو غالمسيس »

(٢) تقام صلوات فى كنيسة القيامة بالقدس صباح السبت من العاشرة إلى ما يقرب من منتصف النهار يبرق من بعدها نور ينبعث من القبر المقدس الذى رقد فيه فادينا الحبيب . ولهذا النور خاصية عجيبة هى أنه لا يحرق أى شئ خلال النصف ساعة الأولى من ظهوره .

(٣) هذه التسابيح هى: تسبحتان لموسى النبى الأولى من خروج ١٥ : ١ - ٢١ والثانية تثنية ٣٢ : ١ - ٤٤ ، ٣- لحنة أم صموئيل : ١ صموئيل ٢ : ١ - ١٠، ٤ - لحزقيا الملك : أشعياء ٣٨ : ١٠ - ٢٠ ، ٥ - لمنسى بن الملك حزقيا : وهذه وردت فى الكتب الكنسية وهى مأخوذة من المزامير ولكن ليس لها نص حرفى فى الكتاب المقدس كباقى التسبحات ، ٦ - ليونان النبى : الاصحاح الثانى ، ٧ - لحبقوق النبى : الاصحاح الثالث ، ثلاث تسبحات لأشعياء النبى الأولى فى أصحاح ٢٥ والثانية ٢٦ : ١ - ٩ والثالثة ٢٦ : ١٠ - ٢٠ ، ١١ - لدانيال النبى الأصحاح الثالث تتبعها تسبحة عزريا وهو فى أتون النار ، ١٢ - تسبحة السيدة العذراء لوقا ١ : ٤٦ - ٥٥ ، ١٣ - لزكريا والد يوحنا المعمدان - لوقا ١ : ٦٨ - ٨٠ ، ١٤ - لسمعان الشيخ : لوقا ٢ : ٢٩ - ٣٣ .

الملائكة [١] والصلاة الربية وقانون الايمان . وكذلك تقرأ قصة سوسنة العفيفة وسفر المزامير والرؤيا [٢] بأكملها . وهذه الصلوات كلها تتحدث بمجد المسيح وملكوته العجيب وبقوته على الاستماع إلى من يستنجدون به . فمثلاً فى تسبحة الثلاثة فتية الذين ألقاهم نبوخذ نصر فى الأتون الملتهب نسمعهم يهتفون : « مبارك أنت يا رب إله أبائنا وفوق المسبح وفوق المتعال إلى الأبد » وهذه الكلمات هى المرد الذى يردده الشعب كله بعد كل فقرة من فقرات هذه التسبحة . وثمة مرد آخر لهذه الليلة العجيبة هو : « ليس عبد بلا خطية ولا سيد بلا مغفرة » . فالصلوات فى مجموعها إنما تمجد المسيح، ومعنى هذا أن الآباء سبروا عمق الفداء الذى أكمله رب المجد فقدموا له التسبيح والتمجيد حتى وهو راقد فى القبر .

وتنتهى صلوات « أبو غالمسيس » بالقداس الإلهى فى الصباح الباكر من يوم السبت . ثم تبدأ صلوات عيد القيامة فى السابعة مساء من ذلك اليوم وتستمر إلى حوالى الواحدة بعد منتصف الليل [٣] . فبعد قراءة ١ كو ١٥:٢٢ - ٥٠ ، ١ بط ٣:١٥ - ٤:٣ ، أع ٢:٢٢ - ٣٣ ، ينشد الشمامسة لحن القيامة فتطفأ على أثره جميع أنوار الكنيسة ويسدل ستار الهيكل ويدور الحوار التالى - باللحن - بين شماس واقف خارج الهيكل وآخر داخله :

---

(١) وردت بأكملها فى آخر الفصل .

(٢) توقد سبع شموع أو سبعة قناديل على هيئة صليب وإلى جانبها يقف صليب ثم يقرأ الحاضرون سفر الرؤيا حول اناء مملوء من زيت الزيتون ، فيبدأ الكاهن القراءة ثم يتناوب الحاضـرون - كل بدوره - قراءة فصل من هذا السفر العجيب إلى أن ينتهوا منه . وتتخلل القراءة مردات مختلفة - راجع كتاب بورمستر (المذكور أعلاه) . ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٣) بعد الانتهاء من هذه الصلوات فى كنيسة القيامة بالقدس يستريح المؤمنون ما يقرب من الساعة يعودون بعدها إلى الكنيسة لينتظموا فى مواكب تدور دورات الانتصار حول القبر المقدس وهم ينشدون ألحان القيامة المجيدة ويستمرون فى تراتيمهم وتسابيحهم حتى يسطع أول شعاع للفجر على قبة الكنيسة .

– ارفعوا أيها الرؤساء أبوابكم وارتفعى أيتها الأبواب الدهرية ليدخل ملك المجد .

– من هو ملك المجد ؟

– الرب العزيز الجبار . الرب القوى فى القتال .

ارفعوا أيها الرؤساء أبوابكم وارتفعى أيتها الأبواب الدهرية ليدخل ملك المجد .

– من هو ملك المجد ؟

– رب القوات هذا هو ملك المجد .

وحالما ينتهى الشماس من هذه الكلمات تضاء الأنوار وتحدث ضجة ويهتف الكل : « خريستوس آنستى » ... « المسيح قد قام » ويتجمع الشمامسة فى موكب ويدورون حول الكنيسة ثلاث مرات وهم ينشدون لحن القيامة . وينتهى الموكب بالدورة داخل الهيكل حول المذبح ثلاث مرات أيضاً . وبعد هذا الموكب الرائع وترنم الشمامسة بلحن الانتصار تقال خطبة عيد القيامة [١] يليها انجيل القداس مباشرة ، وبعده الرسالة البابوية فالعظة فالقداس الإلهى .

والربط بين الحياة والموت وبين المخلص المدفون والمخلص المنتصر على الموت جعل آباء الكنيسة القبطية يترنمون بصلوات التهليل والتسبيح وسط حلكة القبر . ففى وسط نغمة الحزن ترن نغمة الانتصار ، وخلال ومضة الفرح والتهليل تبدو نغمة الحزن . فالكنيسة القبطية فيما وضعته من الصلوات والألحان الخاصة بأسبوع الآلام قد أوضحت خلالها أنها تتبعت فاديها فى كل خطوة من خطواته نحو تحقيق الفداء : « فهللت قائلة أوصانا يا ابن داود » يوم أحد الشعانين ، واتشحت بالسواد فى أسبوع الآلام ، ولكنها رغم الحزن الذى غمرها قد عبرت عن رجائها الثابت اللامتزعزع فى ذلك الذى قال : « فى العالم سيكون لكم ضيق ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم » .

(١) هذه الخطبة مما كتبه أولاد العسال .

ولا يفوتنا أن نذكر بأن الأحد السابق لأحد الشعانين هو أحد التناصير ، والسبب فى تحديد يوم معين للمعمودية الجماعية هو أن الآباء كانوا يركزون جهودهم على تعليم الموعوظين [1] أثناء الصوم الأربعينى المقدس . ولما كان محظوراً على الموعوظين أن يحضروا صلوات القداس الإلهى ، ولما كان المسئولون فى الكنيسة يريدون أن يهيئوا لهؤلاء الموعوظين فرصة الاستمتاع بقداسات ختام الصوم وسبت لعازر وأحد الشعانين وما يليها من الصلوات المقدسة ، فقد كانوا يمتحنونهم قبل أحد التناصير ومن ينجح منهم ينل صبغة المعمودية فى ذلك الأحد لينضم إلى جماعة المؤمنين وتنتعش روحه بالصلوات التى وصفناها .

وما دمنا فى صدد الحديث عن الفداء العجيب الذى أكمله رب المجد نعود إلى الاشارة بأن الكنيسة القبطية تؤمن إيماناً وطيداً بأن الخبز والخمر يتحولان بالفعل والواقعية إلى جسد الرب ودمه نتيجة لصلوات القداس الإلهى [2] . وهى - إلى جانب هذا - تؤمن إيماناً نابعاً عن هذه العقيدة بالتحول ، وهذا الايمان هو أن كل مؤمن حينما يتناول يأخذ المسيح بأكمله . ولكى يوضح لنا ذهبى الفم هذه الحقيقة « لو أننا وضعنا أى عدد من الأوعية المملوءة ماء فى الهواء الطلق لانعكست الشمس بأكملها داخل كل وعاء . فإن كانت الشمس - وهى إحدى المخلوقات - تنعكس كاملة فى كل وعاء مهما بلغ عدد الأوعية أفلا يستقر خالق الشمس داخل كل نفس تتناول السر المقدس مهما بلغ عدد المتناولين ؟ [3] ولهذا السبب علمنا الآباء أن لا نسجد بعد التناول لأن الشخص الذى يحمل المسيح فى داخله لا يستطيع السجود من جهة ولا يجوز له السجود من الجهة الأخرى .

❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) هم الذين يتلقنون التعاليم المسيحية تمهيداً لتغطيسهم فى المعمودية .

(٢) قصة الكنيسة القبطية جـ ١ الفصل الأخير منه .

(٣) الأسرار السبعة لحبيب جرجس .

تسبحة الملائكة التى تقال ليلة

« ابو غالمسيس »

المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وفى الناس المسرة .

نسبحك . نباركك . نخدمك . نسجد لك . نعترف لك . ننطق بمجدك . نشكرك لأجل مجدك العظيم .

يارب . يا ملك . يا سماوى . يا لله - يا آب . ضابط الكل - يارب . يا ابن . يا وحيد الجنس . يا يسوع المسيح والروح القدس .

يا رب . يا الله . يا حمل الله . يا ابن الآب . يا رافع خطايا العالم . ارحمنا يا حامل خطايا العالم . اقبل تضرعنا . أيها الجالس عن يمين الآب ارحمنا .

أنت وحدك القدوس . أنت وحدك المتعالى .

الرب يسوع المسيح . والروح القدس فى مجد الله الآب . آمين .

فى كل يوم أباركك . وأسبح اسمك القدوس إلى الأبد وإلى أبد الآبدين.

من الليل تدلج روحى إليك يا الله لأن أوامرك هى نور على الأرض . تلوت فى طرقك لأنك صرت لى معيناً .

فبالغدوات استمع صوتى يا رب . بالغداة أقف أمامك وترانى .

أهلنا يا رب لهذا اليوم وبغير خطية احفظنا .

تباركت أيها الرب إله آبائنا وتزايدت بركة . واسمك القدوس مملوء مجداً إلى الأبد آمين .

فلتكن يا رب رحمتك علينا كمثل اتكالنا عليك ، لأن أعين الكل تترجاك .

لأنك أنت تعطيهم طعامهم فى حينه .

استمعنا يا الله مخلصنا يا رجاء أقطار الأرض كلها .

وأنت يا رب تحفظنا وتنجينا وتنقذنا من هذا الجيل وإلى الدهر آمين .

مبارك أنت يا رب علمنى عدلك . مبارك أنت يا سيد فهمنى حقوقك . مبارك أنت يا رب أنر لى برك . يا رب رحمتك كائنة إلى الأبد . وعن أعمال يديك لا تغفل يا رب .

يا رب ملجأ كنت لى من جيل إلى جيل .

أنا قلت يا رب ارحمنى وأشف نفسى لأنى قد أخطأت إليك . يا رب قد لجأت إليك فنجنى وعلمنى أن أعمل رضاك . لأنك أنت هو إلهى وينبوع الحياة عندك . وبنورك يا رب نعاين النور . فلتأت رحمتك على الذين يعرفونك وعدلك على المستقيمين بقلبهم .

لك تجب البركة . لك يجب التسبيح . لك يليق المجد . أيها الآب والابن والروح القدس الكائن من البدء والآن وإلى الدهر الداهرين آمين .

حسن هو الاعتراف بالرب والترتيل لاسمه العالى . لكى أخبر برحمته فى الصباح وحقه فى كل ليلة .

قدوس الله . قدوس القوى . قدوس الذى لا يموت (ثلاث مرات) .

المجد للآب والابن والروح القدس الآن ودائماً وإلى دهر الداهرين آمين .

أيها الثالوث المقدس ارحمنا . أيها الثالوث كلى القداسة ارحمنا . أيها الثالوث القدوس ارحمنا .

يا رب ارحمنـــا [1]

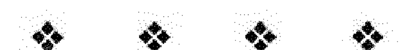
---

(١) وردت هذه التسبحة مع بقية التسبيحات فى كتاب يتضمن المزامير جاء فى آخره ما يلى : « نجز طبع هذا الكتاب المقدس فى اليوم السابع عشر من شهر تموز الذى هو أبيب سنة ألف وسبعمائة أربعة وأربعين للتجسد الإلهى .

وبعد أن استمتعت أرواحنا بالصعود مع الرب على جبل التجلى فرأينا مجده حتى خلال آلامه واهاناته تنزل عن هذا العلو الشاهق لتواجه مختلف الأمور . ومن بينها ملحوظة هامة هى :

يتساءل الكثيرون عن السبب في وجود أماكن عليا فى الكنائس (وخاصة القديمة منها) مخصصة للسيدات وعما إذا كان يرجع إلى أن المسيحية فرقت بين الرجال والنساء . واجابة على هذا السؤال نقول بأن السبب ليس فى كون المسيحية قد فرقت بين الجنسين ولكنه يرجع إلى أنه فى العصور الوسطى كان يحدث أحياناً أن يقتحم جنود الوالى الكنيسة فيقتلون من يقتلون ويأسرون من يأسرون . لذلك رأى الآباء حرصاً على السيدات والأطفال أن يخصصوا لهم أماكن عليا متصلة بمنازلهم بممرات داخلية فلا يحتاجون إلى المشى فى الشوارع للوصول إلى الكنيسة أو للعودة منها . وكان هناك ديدبان عند باب الكنيسة لمراقبة الآتين من بعد . فإذا ما رأى الجنود مقبلين أعطى اشارة بذلك فتختفى السيدات والأولاد لساعتهم . وحين يصل الجنود فعلاً لا يجدون أمامهم غير الرجال .

وثمة تقليد ضاعت معالمه الآن هو التناهى فى التواضع ففنانو العصور الماضية وناقلوا الكتب وواضعوها وبناة الكنائس والنساجون - هؤلاء جميعاً وغيرهم كانوا لا يوقعون على منتجاتهم بل يكتفون بجملة جميلة قصيرة هى : « عوض يا رب من له تعب فى ملكوت السماوات » مبرهنين بذلك على اكتفائهم بالتقدير الإلهى .



جدول باباوات الاسكندرية المذكورين فى هذا الكتاب

رقم	البطـــريرك	تاريخ التقدمة	مدة الاقامة على الكرسى		الملـــوك المعاصـــرون
			شهر	سنة	
٦١	مينا الثانى	٩٤٨	١١	١٧	أبو القاسم الاخشيدى وأبو الحسن على الاخشيدى وكافور أبو المسك وأبو الفوارس والمعز .
٦٢	أبرآم الأول	٩٦٨	٦	٣	المعز والعزيز .
٦٣	فيلوثيئوس الأول	٩٧١	٧	٢٤	العزيز والحاكم بأمر اللهّ .
٦٤	زخارياس الأول	٩٩٦	١١	٢٧	الحاكم بأمر الله والظاهر .
٦٥	شنودة الثانى	١٠٢٤	٧	١٤	الظاهر والمستنصر .
٦٦	خريستودولس	١٠٣٩	٨	٢٩	المستنصر – فى هذا العصر أصبحت القاهرة مقراً للبابا الاسكندرى
٦٧	كيرلس الثانى	١٠٧٠	٦	١٤	المستنصر .
٦٨	ميخائيل الرابع	١٠٨٤	٧	٩	المستنصر والمستعلى .
٦٩	مكارى الثانى	١٠٩٤	١	٢٧	الآمـــر .
٧٠	غبريال الثانى	١١٢٢	٣	١٤	الحـــافظ .
٧١	ميخائيل الخامس	١١٣٦	٩	–	الحافظ والظافر .

ملحوظة : التقويم المتبع فى هذا السجل هو التقويم الشرقى القبطى وينقص ثمانى سنوات عن التقويم الميلادى الغربى

تابع أسماء باباوات الاسكندرية

رقم	البطريرك	تاريخ التالدمة	مدة الاقامة على الكرسى شهر	مدة الاقامة على الكرسى سنة	الملوك المعاصرون
٧٢	يؤنس الخامس	١١٣٨	١٠	١٨	الظافر والفائز .
٧٣	مرقس الثالث	١١٥٧	٦	٢٢	العادل والعاضد وصلاح الدين .
٧٤	يؤنس السادس	١١٨٠	١١	٢٦	صلاح الدين والعزيز والمنصور والعادل .
٧٥	كيرلس الثالث	١٢٢٦	٩	٧	الكامل والعادل والصالح والمعظم .
٧٦	أثناسيوس الثالث	١٢٤٢	١	١١	شجرة الدر وموسى والأشرف والمعتز والمظفر ركن الدين بيبرس .
٧٧	غبريال الثالث	١٢٦١	٢	٢	ركن الدين الظاهر بيبرس .
٧٨	يؤنس السابع	١٢٦٣	—	٢٩	السعيد ناصر الدين والعادل وقلاوون والأشرف ومحمد بن قلاوون
٧٩	ثيئودوسيوس الثانى	١٢٨٦	٧	٦	العادل والمنصور ومحمد بن قلاوون .
٨٠	يؤنس الثامن	١٢٩٢	٣	٢٠	محمد بن قلاوون والمظفر (الجاشنكير بيبرس) ومحمد بن قلاوون
٨١	يؤنس التاسع	١٣١٢	٥	٦	محمد بن قلاوون .
٨٢	بنيامين الثانى	١٣١٩	٨	١١	محمد بن قلاوون .
٨٣	بطرس الخامس	١٣٣٢	٦	٨	أبو بكر المنصور وعلاء الدين الأشرف وأحمد الناصر واسماعيل الصالح وشعبان الكامل وابن ناصر المظفر وحسن بن ناصر الناصر .

			شهر	سنة	
٨٤	مرقس الرابع	١٣٤٢	٥	١٤	صالح بن ناصر الصالح وحسن بن ناصر الناصر ومحمد بن المنصور
٨٥	يؤنس العاشر	١٣٥٦	٢	٦	شعبان بن حسن الأشرف .
٨٦	غبريال الرابع	١٣٦٢	٣	٨	شعبان بن حسن الأشرف وعلى بن شعبان المنصور .
٨٧	متاوس الأول الملقب بالمسكين	١٣٧٠	٥	٣٠	على بن شعبان المنصور وابن شعبان الصالح وبرقوق وفرج ابن برقوق الناصر وعبد العزيز بن برقوق .
٨٨	غبريال الخامس	١٤٠١	٨	١٩	فرج بن برقوق الناصر والمستعين والمؤيد والمظفر وتترسيف الدين الظاهر ونصر الدين الصالح وأبو النصر الأشرف .
٨٩	يؤنس الحادى عشر	١٤٢٠	١١	٢٤	أبو النصر الأشرف ويوسف جمال الدين العزيز وأبو سعيد الظاهر وعثمان فخر الدين المنصور .
٩٠	متاوس الثانى	١٤٤٥	–	١٣	اينال أبو النصر الأشرف وأحمد بن اينال المؤيد وخشقدم سيف الدين الظاهر .
٩١	غبريال السادس	١٤٥٨	١٠	٨	ابن سعيد الظاهر وأبو سعيد الظاهر وقايتباى أبو النصر الأشرف
٩٢	ميخائيل السادس	١٤٦٩	–	١	قايتباى .
٩٣	يؤنس الثانى عشر	١٤٧٢	٤	٣	قايتباى .
٩٤	يؤنس الثالث عشر	١٤٧٥	١٠	٤٠	قايتباى ومحمد الناصر وقانصوه الأشرف وقانصوه الظاهر وطومانباى العادل وقانصوه الغورى وطومان الأشرف .

مراجع الكتاب

ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين :

١ - تاريخ بطاركة الاسكندرية نشره مع ترجمته بالانجليزية يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأوسولد بورمستر - المجلد الثانى جـ ٢ .

٢ - تاريخ بطاركة الاسكندرية نشره مع ترجمته إلى الانجليزية أنطون خاطر وأوسولد بورمستر المجلد الثالث جـ ٢ .

٣ - تاريخ البطاركة للأنبا يوساب أسقف فوة .

٤ - تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة .

٥ - تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص .

٦ - تاريخ الأمــة القبطية (الحلقة الثانية) لكامل صالح نخلة وفريد كامل .

كامل صالح نخلة :

٧ - سلسلة تاريخ بطاركة الكرسى الاسكندرى - الحلقة الثانية .

٨ - سلسلة تاريخ بطاركة الكرسى الاسكندرى - الحلقة الثالثة مطبوعات دير السيدة العذراء (السريان) .

٩ - سلسلة تاريخ بطاركة الكرسى الاسكندرى - الحلقة الرابعة .

١٠ - تاريخ القدس لعارف باشا العارف .

١١ - قصة الأقباط فى الأراضى المقدسة لديمترى رزق .

١٢ - تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية لخليل ابراهيم قراقيا .

١٣ - كنيسة مصر فى أفريقيا لزاهر رياض .

عبد الرحمن زكى :

١٤ - القاهرة : تاريخها وآثارها .

١٥ - تراث القاهرة العلمى والفنى فى العصر الاسلامى .

١٦ - القلعة .

١٧ - مصر ورسالتها لحسين مؤنس .

المقـــريزى :

١٨ - الخطط - كان طبع هذا الكتاب بدار الطباعة المصرية المنشأة ببولاق القاهرة المعزية على ذمة ... روفائيل عبيد . (سنة ١٨٧٠م) .
١٩ - القول الابريزى (طبع فى القاهرة سنة ١٨٩٠ على نفقة مرقس جرجس) ..
٢٠- مصر فى عصر الدولة الفاطمية لمحمد جمال سرور .
٢١ - نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين لعطية مصطفى مشرفة .
٢٢ - « سفر تامة » لناصر الخوسرور نقله إلى العربية عن الترجمة الفرنسية يحيى الخشاب (القاهرة سنة ١٩٤٥) .
٢٣ - أهل الذمة فى الاسلام لحسن حبشى .
٢٤ - تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ترجمه عن الانجليزية مصطفى زيادة والباز العرينى .
٢٥ - مصر فى عصر الأيوبيين للباز العرينى .
٢٦ - الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث لميخائيل شاروبيم جـ ٢ .

عبد العزيز مرزوق :

٢٧ - الناصر محمد بن قلاوون .
٢٨ - الفن الاسلامى فى العصر الأيوبى .

محمد زكى حسن :

٢٩ - الفن الأسلامى فى مصر .
٣٠- كنوز الفاطميين .
٣١ - تاريخ مصر الحديث لزيدان .
٣٢ - تاريخ مصر الأسلامية : العصران الأيوبى والمملوكى لجمال الدين الشيال .
٣٣ - قيام دولة المماليك الثانية لحكيم أمين .
٣٤ - تاريخ دولة المماليك فى مصر للسير وليم موير ترجمة محمود عابدين وسليم حسن .

محمود رزق سليم :

٣٥ - عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى .
٣٦ - الأشرف قانصوه الغورى .
٣٧ - موجز تاريخ بطاركة الاسكندرية جمعه يعقوب جرجس وأشرف عليه زاهر رياض .
٣٨ - لويس التاسع فى الشرق الأوسط لجوزيف نسيم يوسف .
٣٩ - نوابغ الأقباط لتوفيق اسكاروس .
٤٠ - المخطوطات العربية لكتبة النصرانية للأب لويس شيخو .
٤١ - الدير المحرق للأنبا غريغوريوس .
٤٢ - خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية لشحادة حورى ونقولا حورى .
٤٣ - ميامر أنبا بولس البوشى عن الأعياد السيدية نشرها دير السيدة العذراء بالسريان .
٤٤ - القس بطرس السندمنتى : التصحيح فى آلام المسيح (القاهرة سنة ١٨٧٢) .
٤٥ - كتاب تفسير رؤيا يوحنا اللاهوتى لابن كاتب قيصر - عنى بمراجعته ووضع حواشيه القمص أرمانيوس حبشى شتا البرماوى البرموسى نشرته جمعية المحبة سنة ١٩٣٩ .
٤٦ - كتاب الشفا فى كشف ما استتر من لاهوت سيدنا المسيح وما اختفى لأبى شاكر بن الراهب أبى الكرم بطرس بن المهذب طبعه القمص جرجس بمطرانية بنى سويف والراهب بدير أبى يحنس كاما فى باباوية الأنبا كيرلس الخامس .
٤٧ - مختصر البيان فى تحقيق الايمان المرسوم بالحاوى لابن المكين طبعه القمص بطرس عبد الملك - القاهرة سنة ١٩٠٦ .
٤٨ - ابن كبر لجرجس فيلوثاوس عوض - القاهرة سنة ١٩٣٠ .
٤٩ - روضة الفريد وسلوة الوحيد لسمعان بن كليل أبى الفرج - طبع فى القاهرة سنة ١٦٠٢ ش .

٥٠ ـ أثر الفنون التشكيلية الوطنية القديمة على فن القاهرة فى العصر الفاطمى لسعاد ماهر .

٥١ - تراث الاسلام تعريب لجنة الجامعيين لنشر العلم جـ ٢ .

٥٢ - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لتغرى بردى .

٥٣ - كنيستى أم ولود لراغب عبد النور .

أيريس حبيب المصرى :

٥٤ - قصة الكنيسة القبطية (جـ ١) من تأسيسها إلى سنة ٤٣٥ م .

٥٥ - قصة الكنيسة القبطية (جـ ٢) من سنة ٤٣٥ - ٩٤٨ م .

٥٦ - أديرة وادى النطرون (رسالة مارمينا العدد السادس) لمنير شكرى .

٥٧ - صور من تاريخ القبط - مطبوعات جمعية مارمينا العجايبى - الاسكندرية سنة ١٩٥٠ .

٥٨ - القديس متى المسكين لمليكة حبيب يوسف ويوسف حبيب .

٥٩ - القديس فريج الشهير بالأنبا رويس - أصدرته الكنيسة التى تحمل اسمه الملاصقة للكتدرائية المرقسية العظمى التى بدئ بانشائها سنة ١٩٦٨ .

٦٠ ـ الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية (مطبوعات وزارة الثقافة) لوليم سليمان .

٦١ - تاريخ التربية القبطية لسليمان نسيم .

٦٢ - نشرة عن كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة لمترى خريستو .

٦٣ - الكرسى الأورشليمى لكامل صالح نخلة .

٦٣ - مجلة صهيون عدد ٦ (يونيو سنة ١٩٤٩) .

٦٥- مجلة جمعية التوفيق سنة ١٩٣٨ .

٦٦ - « الشماس ميخائيل بن بدير الدمنورى » مقال لكامل صالح نخلة نشره فى مجلة نهضة الكنائس السنة الثالثة عدد ٤ (أبريل سنة ١٩٤٢) .

٦٧ - البابا كيرلس الثالث (مطبوعات دير السيدة العذراء الشهير بالسريان) لكامل صالح نخلة .
٦٨ - مرشد المتحف القبطي لوديع شنودة .
٦٩ - دليل المتحف القبطي لمرقس سميكة (جـ ١ ، ٢) .
٧٠ - سجل مكتبة البطريركية القبطية بمصر لمرقس سميكة ويسى عبد المسيح .

القمص ميصائيل بحر :

٧١ - تاريخ القديس الأنبا يحنس القصير .
٧٢ - اقليم المنيا فى العصر القبطى مقال نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة عدد ٣ (مارس سنة ١٩٦٢) .
٧٣ - اقليم المنيا فى العصر القبطى مقال نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة عدد ٤ (أبريل سنة ١٩٦٢) .
٧٤ - اقليم المنيا فى العصر القبطى مقال نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة عدد ٥ (مايو سنة ١٩٦٢) .
٧٥ - اقليم المنيا فى العصر القبطى مقال نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة عدد ٦ ، ٧ (يونيو ويوليو سنة ١٩٦٢) .
٧٦ - اقليم المنيا فى العصر القبطى مقال نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة السادسة عدد ١ (يناير سنة ١٩٦٣) .
٧٧ - دار المعارف القبطية لرمزى تادرس (جـ ١) .
٧٨ - دائرة المعارف العمومية للبستانى - المجلد العاشر .
٧٩ - مذكرة بملكية دير السلطان بالقدس للأقباط الأرثوذكس أصدرها الأنبا ياكوبوس مطران الكرسى الأورشليمى فى أغسطس ١٩٥٣ وأيدها الأنبا باسيليوس خليفته بمذكرة أصدرها فى مارس سنة ١٩٦١ .
٨٠ - كتاب طروحات البسخة المقدسة للقمص فيلوثاوس المقارى والمعلم ميخائيل جرجس - القاهرة سنة ١٩١٤ .
٨١ - مختارات من الشعانين إلى القيامة لهيئة شمامسة كنيسة القديسين بطرس وبولس (البطرسية) - أبريل سنة ١٩٧١ .

٨٢ - « عصر الخفاء فى مصر الاسلامية » مقال لمحمد عبد الله عنان نشره فى مجلة الهلال ديسمبر سنة ١٩٣٦ .

٨٣ - « المصريون أول من ابتدع المكتبات ومثلها الأعلى مكتبة الاسكندرية » مقال لرؤوف حبيب نشره فى جريدة وطنى٢٦/١٠/١٩٦٩ .

٨٤ - « عجائب الأنبا برسوم العريان » مقال لمرتا منصور نشرته فى جريدة وطنى ٢٧/٩/١٩٧٠.

٨٥ - « الأيقونة فن أهدته مصر إلى العالم » مقال لايزاك فانوس نشرته فى جريدة وطنى٦/١٢/١٩٧٠ .

٨٦ - « دور القاهرة الحضارى » مقال لعبد الرؤوف يوسف نشره فى جريدة الأهرام ١٩/١/١٩٦٩ .

٨٧ - عن كتاب سفر نامة لناصر الخوسرور مقال لحسن الباشا نشره فى جريدة الأهرام ٢٤/١/١٩٦٩ .

٨٨ - « فن صناعة الخزف » مقال لعبد الرؤوف يوسف نشره فى جريدة الأهرام ١/٢/١٩٦٩ .

٨٩ - الكشف عن قصر أخت الحاكم بأمر الله مقال لآمال بكير نشرته فى جريدة الأهرام١٨/١/١٩٧٠ .

٩٠ - القاهرة فى العصر المملوكى مقال لوليم سليمان نشره فى مجلة الطليعة عدد ٢ من السنة الخامسة (فبراير سنة ١٩٦٩) .

٩١ - التوقيعات الإلهامية لمحمد مختار باشا .

المخطوطـات :

٩٢ - تاريخ البطاركة للقمص شنودة الصوامعى البرموسى نقلاً عن النسخة المخطوطة بدير البرموس .

٩٣ - مخطوطة محفوظة بكنيسة القديس جرجس المزاحم بسباط النصارى للراهب مينا معاصر هذا القديس (وقد نشرت مكتبة كنيسة مارجرجس باسبورتنج موجزاً عنه مأخوذاً عن هذه المخطوطة) .

بولس بن الرجاء :

٩٤ - الواضح .

٩٥ - نوادر المفسرين .

٩٦ - هتك المحجوب .

٩٧ - سيرته الخاصة .

٩٨ - لباب الآداب لأسامة منقذ الكنانى .

٩٩ - مخطوطة رقم ١٠٦ طقس بالمكتبة البابوية القبطية الأرثوذكسية بالقاهرة .

١٠٠ - ترياق العقول لعلم الأصول .

١٠١ - التواريخ لابن الراهب .

١٠٢ - مخطوطة رقم ٥١ تاريخ بالمكتبة البابوية القبطية الأرثوذكسية بالقاهرة .

١٠٣ - مكاتبات كيرلس بن لقلق مخطوط رقم ٢٩١ لاهوت بالمكتبة البابوية القبطية الأرثوذكسية بالقاهرة .

١٠٤ - الكلمات المهمة في مباشرات أهل الذمة للاسناوى .

١٠٥ - المذمة فى استعمال أهل الذمة : مخطوطة محفوظة بدار الكتب رقم ١٦٩٣ .

١٠٦ - التبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوى : مخطوطة محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٧٢٧ .

- السنكسار - الكتاب المقدس (بعهديه القديم والحديث) - ميامر الأنبا بولس البوشى .

- مزامير داود النبى وفى آخره تسبحات سبت النور (أو سبت الفرح) سنة ١٧٤٤ م .

- السيرة العطرة للشهيدة بربارا وكنيستها الأثرية بمصر القديمة المسماة باسمها (القاهرة سنة ١٩٧١) .

- القصائد : العلم والتعليم
الأندلس الجديدة لأحمد شوقى أمير الشعراء
توت عنخ آمون
« ليالى الصيف فى مصر » لالياس فياض (عن كتاب مختارات الزهور - القاهرة سنة ١٩١٤) .

107 - A.S. Atteya : History of Eastern Christianity .

O. Burmester :

108 - Canons of Christodolus , 66th Patriarch of Alexandria Muséon T 45.

109 - Canons of Kyrillos II 67 th Patriarch of Alexandria Muséon T 46.

110- Canons of Gabriel ibn Tureik 70 th Patriarch of Alexandria , Pub. in Orientalia Christana Periodica , Roma . 1935.

111- The Sayings of Abba Mikhail Bishop of Damietta Pub. in Orientalia Christiana Periodica Roma 1936.

112- The Egyptian or Coptic Church-Pub. by Société d'Archeologie Copte , le Cairo 1967.

113- A.J. Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt - Vol. I and II .

114- Archimandrite V. Guettée : Histoire de l'Eglise - Paris et Bruxelles 1866

115- G. Hanotaux : Histoire de la Nation Egyptienne - TIV Dela Conquêle Arabe à la Conquête Ottomane , par G. Wiet .

116- S. Lane - Poole : History of Egypt During the Middle Ages , Vth . ed . (London 1936)

117- Lossky : The Mystical Theology of the Eastern Church.

118- A. Mallon : Une Ecole des Savants Coptes (Beirout 1907).

119- Richards : The Coptic Bureaucracy in the Mamluke period .

120- Ph. Sherard : The Art of the Icon , Pub. in "Sacrament and Image " pub by the Fellowship of St. Alban and St. Sergius (London 1967).

121- Wallis-Budge ;The Ethiopic Synsxarium (translation) Cambridge 1928 .

122 - E. White : The Monasteries of Wadi - Natrun - Vol . II.

123- G. Weit : Précis de l'Histoire d'Egypte .

124- Père de Hénaut : L'Egypte de Menès à Fouad I (Le Caire 1935) .

- Encyclopaedia Britannica .
- Encyclopédie des Sciences Réligieuses.
- Le Bulletin de la Société d'Archéologie Copte , Vol. III , IV,V,VII,IX,XIV.
- The Sunday times, 14/7/63 .

❖ ❖ ❖ ❖

قصة الكنيسة القبطية (٣)

يطلب من مكتبة كنيسة مارجرجس بإسبورتنج - الإسكندرية
ت: ٠٣/٥٩١٩٨٨٨ فاكس: ٠٣/٥٩٠٢٨٨٨
E-mail: stgeorge@dataxprs.com.eg

الثمن ٩ جنيهات